دراسات في تاريخ العراق وحضارته

المدينة والحياة المدنية

الجزء الأول

نخبة من أساتذة التاريخ

بغـــداد ١٩٨٨

المدينة والحياة المدنية

تقديـــم

أهمية المـدن :

للمدن مكانه متميزة في تاريخ الحضارة الانســانية إذ أن كلا منهـا يضم عددا كبيرا من السكان الذين يعيشون متقاربين ويكونون بعضهم مـع بعض علاقــات اجتماعيــة متعددة ، ويتطلب تجمعهــم نظما اداريــة تؤمن النظام والاســتقرار والامــن وتيسر التقدم والازدهار . وتجمع العــدد الكبير من الناس للعيش الدائم معا في مكان واحد يبرز بشــكل اوضــح حاجاتهم المادية ويتطلب تخصصا في العمل لتيسير توفير الحاجات الواســعة التي تؤمن مسكنهم ومأكلهم وملبسهم والمتطلبات الحياتية الاخــرى التي تزداد او تنقص تبعا لطموحــات الســكان واهوائهم واذواقهم ومدى توافر الامكانيات المادية لتحقيقها .

واجتماع العدد الكبير من الناس فى المكان الواحد ييسر اثارة التفكير وتعدد الآراء وتبادلها ومن ثم تنميه الفكر بمعناه الاشمل ، فاذا رافق ذلك نمو الكتابة فان هذه الافكار تسجل وتحفظ لنشرها على مديات مختلفة من

السعة بين المواطنين او للأجيال التالية ، ومن هنا كانت للمدن مكانة خاصة في نمو الحركة الفكرية وتوسع آفاقها وطغيانها على اهل الريف والبدو الذين تتسم حياتهم بالتفرق والعزلة .

ان المدن بحياتها المزدهرة اكثر ملاءمة في ان تكون مراكز ادارة البلاد التي تقع فيها ، وسواء اقامت الدول مراكزها في مكان قائم ام اوجدته ، فان المركز يصبح اكثر هيمنة على الريف والمناطق القديمة بصرف النظر عن مدى اعتماد هذا المركز على التوابع في حياته المادية وخاصة من حيث توفير الغذاء والمقاتلة ، والصلة الوثيقة بين المدينة وريفها او المناطق التابعة لها يرافقه عادة تبادل حضاري وفكري ، فتأخذ المدينة بعض ما في الريف ولكنها تقدم اكثر وخاصة للقادمين اليها مما يجعلهم في مدة يختلف مداها وبمقدار متباين ، متأثرين بالمدينة آخذين بحياتها .

تنوع المدن في خصائصها :

ومع أن اية مدينة تتأثر بالاحوال الجغرافية للبقعة التي تظهر فيها الا ان العامل الاكبر في تطور اية مدينة هو تصرفات اهلها ، فالسكان هم العنصر الاساس في كل مدينة ، وعلى تصرفاتهم يتوقف ازدهار او تدهور المدن ، وعلى مثلهم السلوكية والذوقية والفكرية يتوقف شكل المدينة وسماتها المميزة ومن حيث العمول فان التبدلات تحدث ببطء .

وحجم المدن يتوقف على عدد السكان وعلى الرقعة التي تشغلها مساكنهم ولا يوجد معيار متفق عليه لتقرير هذا الحجم الذي يتوقف عند حده الادنى التمييز بينها وبين المراكز التي هي أصغر منها والتي يطلق عليها في أية لغة عدة اسماء منها البلدة والقرية والحاضرة .

ومما يقرر مكانة المدينة الوظائف التي يقوم بها أهلها او غالبيتهم او ما يختصون بها ، ودور ذلك في صرف نشاط السكان وعملهم او دورهم في

المنطقة التي توجد فيها المدينة . والواقع ان هذه الاعمال تكون مصدر صفة مميزة لها فيقال عنها انها مدينة صناعية او تجارية او ادارية . والمقصود ان عدداً كبيرا من اهلها يعملون في هذا الجانب فيظهرون ميزاتها ولكن ذلك لا يعني ان السكان كافة يعملون في ما تميزت به المدينة اذ لابد ان كثيرا منهم يعملون فيخدمات اخرى قد لا تكون لها علاقة مباشرة بما تميزت به المدينة ، ولا يمكن وضع مقياس لتحديد عدد من يعمل بما تميزت به ، وتختلف اسس تقرير هوية « المدينة » وتمييزها عن التجمعات البشرية الاخرى ، فقد يكون هذا التقرير بتشريع خاص يحدد مكان المدينة من التنظيم ويرافقه عادة بعض المتطلبات التي ينبغي ان تتوافر في المدينة او الاعمال التي تختص بها ، واشهر مثل في ذلك هو ما كانت تسير عليه الدولة الرومانية في هذه الامور حيث تقرر بالتشريعات المراكز الرئيسة والمدن واصنافها وبعض امتيازاتها .

وقد تتقرر هوية المدينة بالعمل الذي يحصر بها كأن تكون مركز اصحاب السلطة السياسية او الادارية .

العرب والمدن : الدلائل القرآنية :

لقد عرف العرب في جزيرتهم قبل الاسلام المراكز الحضرية والمدن ، وفي القرآن الكريم تعابير لانواع متعددة من التجمعات البشرية الكبيرة ومنها « المدينة » « والبلد » « والقرية » « والحاضرة » « وحاضرة البحر » بالاضافة الى اسماء عدد من الاماكن مثل مصر ، وبابل ، وأرم .

وذكر القرآن الكريم تعابير عربية عن نظم سياسية واحوال حضارية لا تقوم الا في مجتمعات مركبة ، فقد ذكر البدو والبادية في آيات قليلة ، وأفاض في ذكر انظمة سياسية وحضارية لا يمكن ان تزدهر إلا في ظل مدن

متقدمة النمو ، وقد وردت هذه التعابير ضمن سياق يظهر انها كانت مألوفة عند العرب او معروفة فيهم ، اضافة الى ما هم مطلعون عليه من نظم الامم الاخرى بالسماع أو عن طريق المعلومات المستمدة من التجار .

نشأة المدن في العراق : ـ

اشتهر اهل العراق منذ اقدم الازمنة باهتمامهم بالزراعة والعمل فيها ، وساعدهم على ذلك توفر مياه نهري دجلة والفرات ، واستواء الارض ونعومة التربة ، مما يسر لهم تنظيم الافادة من هذه المياه بفتحهم الترع ، وانشائهم السدود لضبط الفيضانات ، والخزانات لحفظ المياه ، والمنشآت لتنظيم توزيعها ، وقد عرف العراق بوفرة ما ينتجه من المزروعات وخاصة الحنطة والشعير والرز والنخيل ، اضافة الى عدد كبير اخر من انواع المحاصيل كالماش والدخن والذرة والبقول والخضر والكروم والزيتون وانواع اخرى غير قليلة من اشجار الفاكهة . وادت هذه الاحوال الملائمة الى اشتغال كثير من اهل العراق بالزراعة التي كانت تؤمن لهم قوتهم ومواد معيشتهم فضلا عن الارباح التي تدرها عليهم .

وتتطلب الزراعة من العاملين فيها ان يتوزعوا على الاراضي . وينتشروا فيها ، غير ان ضرورات التعاون للعمل او للدفاع كانت تقضي باحداث تجمعات يقيم فيها الفلاحون ، وبهذا رافقت الزراعة ظهور القرى التي فيها يقيم عدد من الفلاحين الذين يزرعون الاراضي التي حول مكان اقامتهم ، وقد يتعاونون في زراعتها ، فتكون ملكية هذه الاراضي عامة بينهم ، أو على الاقل ملكية

بعض مرافقها كالمراعي والمحتطب . وقد وردت اشارات الى حجم بعض القرى الصغيرة التي لا يتجاوز سكان الواحدة منها عن ستين نفسا.ويتبين من وصف الارض التي شيدت عليها بغداد ان كثيرا من هذه القرى كانت متقاربة لا يفصلها عن بعضها الا مسافات قصيرة .

غير ان الزراعة كانت تتطلب وجود مراكز يتيسر الحصول منها على كثير من مستلزمات الزراعة كأدوات الحراثة والبذور والحصاد ، وكذلك بعض الحاجات التي لا يوفرها العمل البيتي من ألبسة وحيوانات ، بالاضافة الى بيع الفائض من المنتوج الزراعي . لذلك رافق نمو الزراعة ظهور مراكز فيها اسواق وقتية او دائمية تختلف سعتها والنشاط فيها ، يعتمد اهلها على معاملات البيع وليس على الزراعة ، وقد يتبع ذلك ان تكون في هذه المراكز صناعات مما يحتاج اليه المزارعون.والغالب ان هذه المراكز السوقية تكون في الاماكن التي تتوافر فيها المياه ، أي قرب مجاري الانهار التي توفر المياه للشرب والاستعمالات الاخرى وتيسر نقل المنتوجات الزراعية وغيرها ، والغالب ايضا ان تقام هذه الاسواق في اماكن متوسطة لعدة قرى ، وكلما ازدادت القرى حولها وكثرت غلتها اتسع السوق وتحول الى مركز اقامة دائمي وصار المقيمون عنده يعملون في الصناعة والبيع والشراء مما يدر ارباحا تزيد من اهميته ، وقد يتخذ مقاما للاغنياء من الفلاحين ، وللمسؤولين عن الادارة . فالسوق في اصله قرية نمت فيها حياة اقتصادية وادارية ، وازداد المقيمون عنده ، وانشأوا بينهم علاقات جديدة تميزهم على الايام عن القرى الزراعية الصرف ، وان كانت تبقى صلتها وثيقة بها .

وباستقرار مراكز الاسواق نمت صناعات تتجاوز حاجات الفلاحين والمزارعين ، وتؤدي الى تزويد السكان بحاجاتهم التي تتزايد بتقدم الحضارة

والازدهار الاقتصادي ، وقد تفيض المنتوجات الصناعية عن هذه الحاجات المحلية فتصدر الى الاماكن البعيدة .

كما ان عددا من مراكز الاسواق ، وخاصة التي تقع على المسالك العامة، تفيد من التجارات التي تمر بها ، فتسهم في نقلها او اعمالها وبذلك تكون مراكز تجارية ايضا .

غير ان هذه المراكز لا تبقى احوالها ثابتة او مطردة ، وانما تتعرض لتطورات وتبدلات تبعا للاحوال العامة في البلاد ، فقد تتابع النمو والازدهار فتصبح مركزا حضريا كبيرا ، او قد يصيبها الجمود والانحطاط والتدهور فتضمر وتتحول الى ما يشبه القرية، او ربما تزول من الوجود ، غير انه في كل الاحوال تبقى المدن اهم مراكز الحضارة والفكر .

وتتأثر المدن بالاحوال الجغرافية للرقعة التي تقوم فيها الا ان العامل الاكبر في تطور اية مدينة هو احوال اهلها ، فالسكان هم العنصر الاساسي في كل مدينة ، وعلى نشاطهم يتوقف ازدهار المدينة او انحطاطها ، كما ان شكلها وسماتها المميزة تقرره الى حد كبير مثلهم السلوكية والذوقية والفكرية .

ويتوقف حجم المدينة على عدد سكانها وعلى الرقعة التي تشغلها مساكنهم ، اما مكانتها فتقرره الوظائف والاعمال التي يقوم بها اهلها او غالبيتهم او ما يختصون به فتكون صفة مميزة لها ، فيقال انها مدينة صناعية او تجارية او ادارية ، ويقصد بذلك ان عددا كبيرا من اهلها يعملون في ذلك الميدان ولا يمكن وضع مقياس لتحديد عدد من يعمل بما تميزت به المدينة .

وتختلف اسس تقرير هوية المدنية وتمييزها عن التجمعات البشرية الاخرى ، كالبلدة والقرية والحاضرة ، فقد يكون هذا التقرير بتشريع خاص يحدد مكان المدينة من التنظيم ويرافقه عادة بعض المتطلبات الواجب توافرها في المدينة او الاعمال التي تختص بها ، واشهر مثل على ذلك ما كانت تسير عليه الدولة الرومانية في هذا المضمار حيث تقرر بالتشريعات المدن واصنافها وامتيازاتها •

وقد ظهرت المدن في العراق منذ ازمنة قديمة ، وانتشرت في ارجائه ، وبقي بعضها قائما امادا طويلة ، غير أن أوج ازدهارها كان في العهود الاسلامية التي بدأت عندما ضم العرب العراق الى دولتهم الواسعة ، وبلغت اوج عزها بعد ان اتخذ العباسيون مقر الخلافة في العراق ، ودام هذا الازدهار بضعة قرون ختمت باستيلاء المغول على العراق وقضائه على الخلافة العباسية • ثم عاد العراق يشهد نموا واسعا في الحياة والحضارة ، يرافقه نمو في المدن ، وازدهار في الحياة الحضرية ، وتقدم في مختلف جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والادارية والفكرية •

يصف هذا الكتاب الذي نضعه بين أيدي القراء نشوء المدن ونموها في العراق منذ اقدم الازمنة ،ويتابع تطور احوالها عبر مدة تتجاوز خمسة الاف سنة جرت خلالها احداث اثرت في المدن واحوالها ، فمرت بعهود من النمو والازدهار ، وفترات من الضمور والانكماش ، ولكنها ظلت قائمة حية ، وهي تشهد انفجارا هائلا في النمو والازدهار ، وتقدم اساسا لمستقبل مفعم بالخير والامل •

تم اعداد هذا الكتاب باشراف هيئة كتابة التاريخ ، وكتب فصوله باحثون عراقيون عرف كل منهم باهتمامه في موضوع الفصل الذي كتبه ،

واجريت تعديلات في الفصول لتؤمن التناسق بينها وتنسيق علاقات الفصول بعضها ببعض ، غير ان نميز كل كاتب بأسلوبه الخاص جعل فصول الكتاب قد تبدو غير موحدة وفيها بعض التداخل الـذي بذلنـا جهدنا لتقليصـه الى الحـد الادنى .

والكتاب باجزائه الثلاثة يبحث عن المدينة وتطور نظمها في العراق عبر العصور ، وتجمع مادته معلومات متفرقة وتضعها ضمن وحدة عامة رابطـة وهو يعبر عن اهتمام الباحثين العراقيين بالمدن وحياتها ، وهي ابرز مظـاهر الحضـارة الانسـانية .

ونرجو ان يسد الكتاب فراغا في المكتبة العـربية ، ويكون مرجعـا للمستزيدين من الباحثين وللمثقفين المتطلعين الى دراسة الحضـارة والحياة المدنيـة .

والله مـن وراء القصـد ..

الدكتور صالح احمد العلي

رئيس المجمع العلمي العراقي

الفصل الاول

من القرية الى المدينة الاولى

الدكتور تقي الدباغ

استاذ الآثار القديمة بكلية الاداب ـ جامعة بغداد

مقــدمة :ــ

توجد فروق كثيرة بين حضارة القرية وحضارة المدينة ومع ذلك فليس هناك إلا اتفاق ضئيل على تحديد الخط الفاصل بين الاثنين ولهذا زاد ادراك اهمية دراسة تطور هــذا النوع من المجتمعات البشرية في هــذه الايام بين اوساط الباحثين والمتتبعين لجذور المدينة . ان نشوء المدينة تطور اجتماعي واقتصادي له من الاهمية في موضوع النمو الحضاري ما لاي موضوع آخر ويعتبر مساوياً في أهميته للثورة الزراعية التي حصلت قبله والثورة الصناعية التي حدثت بعده ، ولعله من الافضل ونحن نشير الى هذه الاهمية ان نحدد ماذا تعني كلمة مدينة . انها رقعة واسعة من الارض تأوي عــدداً كبيراً من السكان غير المزارعين الذين يعيشون على مبادلة المنتوجات المصنعة والخدمات

الضرورية بمواد الطعام والمواد الخام ، ويعتمد وجودها على هـــذه المبادلة • ولذلك تختلف القرية عن المدينة فسكان القرية يحصلون على طعامهم والمواد الضرورية لهم من المناطق القريبة جدا منهم ، ومنطقـة استـغلالهم للارض تحددها المسافة التي يستطيع ان يمشيها المرء ليعمل في الحقول ثم يعود الى منزله في اليوم نفسه • وعدد السكان الذين يمكن ان يعيشوا في مسـتوى الحياة القروية يختلف بطبيعة الحال باختلاف البيئة ولكن من النادر ان يزيد على بضع مئات من الانفس (٢٠٠ ــ ٥٠٠) في القرى المبكرة • اما المدينة فليس لها حد اعلى معروف لعدد سكانها ومساحتها •

ان هذا التعريف مثل جميع التعريفات ينطوي على كثير من الصعوبات وقد يصادف المرء بعض الحالات التي لا ينطبق عليها • وكثيراً ما تتطور القرية الى مدينة في خطوات لا يكاد يشعر بها أحد • وفي نواحٍ كثيرة من العالـم توجد قرى تقوم بزراعة كل ما يلزمها من طعام ولكنها في الوقت نفسه تقوم بصناعة واحدة تتخصص بها معتمدة على مواد محلية متوافرة ثم تبادل غيرها من القرى فتصدر لها ما صنعت وتستورد بدلا من ذلك ما تخصصت به القرى الاخرى • وقد تقوم قرى صغيرة باستغلال مورد طبيعي معين مثل المعادن في ظروف يضطر فيها اهلها جلب معظم طعامهم عن طريق التجارة ومع ذلك فأن تعريف المدينة بانها رقعة واسعة من الارض تأوي عدداً كبيراً من السكان غير المزارعين الذين يعتمدون في حياتهم قبل اي شيء آخر على التجارة والخدمات للحصول على مواد الطعام والمواد الخام لا يزال صحيحاً على وجه العموم •

يعتبر ظهور المدينة خاتمة عصر القرى ويصعب علينا احياناً ان نعـين النقطة التي تركزت عندها الحضارة في المدينـة بحيث اتضحت لها مميزات خاصة تفردها عن القرية ولكننا لا نخطىء القول اذا نظرنا الى المدينة على انها مؤسسة جديدة ظهرت اولا في منطقة جنوب غـرب اسـيا وبخاصة في العراق في منتصف الالف الرابع (٣٥٠٠) قبل الميلاد وظهرت ايضاً في مصر

في اواخر الالف الرابع (٣١٠٠) قبل الميلاد • اما مدن وادي السند فقد ظهرت في منتصف الالف الثالث (٢٥٠٠) قبل الميلاد بينما لم تظهر مدن الصين إلا في منتصف الالف الثاني (١٥٠٠) قبل الميلاد • واذا رجعنا الى اوربا فلا نجد فيها إلا عددا قليلا مما يمكن ان نطلق عليه بحق اسم المدن حتى في اليونان نفسها قبل عام ٨٠٠ قبل الميلاد بينما لم تتأسس المدن في شبه جزيرة اسكندناوه إلا في عام ١٠٠٠ ميلادية ومثل ذلك يمكن ان يقال بخصوص مدن العالم الجديد •

وبما ان موضوع هذا الفصل هو « من القرية الى المدينة الاولى » فمن الضروري والمعقول ان نتابع نشوء القرية وتطورها الى مدينة لاول مرة ونستعرض التغييرات التي طرأت على الحياة القروية في جميع المجالات اعتبارا من مرحلة التأسيس البدائية الى مرحلة الانقلاب الحضري والتمدن ، ومن هذه المتابعة والعرض نستطيع ان نفهم جذور التطور والخطوات التدريجية التي مهدت السبيل الى ظهور المدن في عصر فجر التاريخ قبيل قيام دول المدن في عصر فجر السلالات التاريخية •

لقد سادت عملية نشوء القرية وتطورها ببطء وبخطوات تدريجية استغرقت زمنا طويلا واذا تذكرنا ان بداية الحياة القروية قد ظهرت في جرمو بشمال العراق في نهاية الالف الثامن قبل الميلاد او في حوالي سنة ٧٠٤٠ قبل الميلاد حسب اختبار كربون ١٤ الاشعاعي وان اولى المدن ظهرت في السهل الرسوبي بجنوب العراق في عصر فجر التاريخ بمنتصف الالف الرابع قبل الميلاد اي حوالي سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد تكون المدة التي استغرقها هذا التطور قد جاوزت الثلاثة الاف سنة وقد غطت بعرف علماء الاثار العصر الحجري الحديث والعصر الحجري المعدني وبعضا من عصر البرونز • وبوسعنا ان نحدد مسيرة هذا التطور في العراق على النحو التالي :

١ ـ تاسيس القرى في العصر الحجري الحديث من سنة ٧٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ قبل الميلاد .

٢ ـ تطور القرى في العصر الحجري المعدني من سنة ٥٠٠٠ ـ ٣٥٠٠ قبل الميلاد. ويمكن تمييز ثلاث مراحل في هذه الفترة تمثل الاولى منها قرى عصر حلف ما بين سنة ٥٠٠٠ ـ ٤٢٠٠ قبل الميلاد وتمثل الثانية قرى عصر العبيد ما بين سنة ٤٢٠٠ ـ ٣٨٠٠ قبل الميلاد وتمثل الثالثة قرى عصر الوركاء ما بين سنة ٣٨٠٠ ـ ٣٥٠٠ قبل الميلاد .

٣ ـ نشوء المدن في عصر فجر التاريخ ما بين سنة ٣٥٠٠ ـ ٢٨٠٠ قبل الميلاد وازدهارها في عصر فجر السلالات ما بين سنة ٢٨٠٠ ـ ٢٣٧٠ قبل الميلاد .

١ ـ قرى العصر الحجري الحديث :

كانت الثورة الزراعية وليدة ازمة المناخ التي أنهت عصر الجليد ومهدت الطريق للاستزراع وتدجين الحيوان والخطوتان لهما علاقة ببعضهما ولكن بعضهم يرى ان الزراعة في كل مكان اقدم من تربية الحيوان ويرى اخرون ان مرحلة الرعي في العالم سبقت الزراعة ويعتقد فريق ثالث بان بعض الجماعات كانت بادئة في زراعة النباتات بينما كانت جماعات اخرى تدجن الحيوانات ، ويعتقد فريق رابع بأن الزراعة والرعي كانتا متلازمتين ومتزامنتين ، وهذا النمط الاقتصادي يسمى بالزراعة المختلطة وهو ما نرجحه ونتبناه . ومن المحتمل ان جماعي الطعام حصدوا الحبوب الغذائية الصالحة للاكل قبل ان يبدأوا بزراعتها بزمن طويل . وتؤيد ذلك موجودات العصر الحجري المتوسط التي اكتشفت في مواقع الاثار . ومن المحتمل ان اقدم نوع من الزراعة بدأ بنشر البذور على ارض رطبة ترويها مياه الامطار او مياه الفيضانات فتنمو بالري الطبيعي دون حرث ، ثم استخدمت العصا الحافرة .

وهناك مجموعة كبيرة من النباتات لها قدرة على انتاج غذاء جيد بالزراعة مثل القمح والشعير والرز والذرة والدخن والشوفان والشيلم والعدس واليام والبطاطا الحلوة • ولكن القمح والشعير يكونان اساس اقدم الحضارات في الشرق الادنى والهند ولذلك سوف نركز اهتمامنا عليهما • وكلاهما زرعا من نباتات برية بالاختيار المقصود لافضل البذور من احسن النباتات وبالتهجين العرضي غير المقصود لعدة انواع برية وكانت النتيجة الحصول على حبوب اكبر حجماً واوفر غذاء • اما الحيوانات التي دجنها الانسان لغرض الطعام فكانت الاغنام والماعز والمواشي والخنازير • ويلاحظ ان اسلاف حيوانات الحقول كانت تعيش متوحشة في معظم انحاء المنطقة التي تؤلف مهد زراعة الحبوب • وكان التدجين في البداية من اجل اللحم • اما الفوائد الاخرى فقد اكتشفت فيما بعد • فاكتشف الحلب في مرحلة لاحقة واستفيد من شعر الماعز وصوف الغنم لنسج الملابس والبسط • اما استخدام الحيوان لحمل الاثقال وجر المحراث والعربات فكان ممارسة متاخرة يمكن اعتبارها من الخطوات التي أدت الى الانقلاب الحضري •

لقد ارتبط تاسيس القرى منذ البداية ارتباطا تاماً بالنمط الاقتصادي الجديد الذي احدثه الانقلاب الزراعي ، والمنطقة التي شهدت نشوء اقدم القرى هي تلك التي تقع في جنوب غرب اسيا بين البحر المتوسط في الغرب وهضاب وسط آسيا في الشرق والبحر الاسود وبحر قزوين وسهوب اوراسيا في الشمال والحزام الصحراوي الممتد من سيناء وحتى الهند في الجنوب • وبالرغم من ان المخلفات الاثرية تدل على ان زراعة القمح والشعير وتربية الحيوانات قد نمت في فلسطين وجنوب الاناضول وغرب ايران وتركستان السوفيتية إلا ان تلك المخلفات تشير الى ان العراق من المناطق الاولى التي جرت فيها المحاولات المبكرة للزراعة والرعي وان المنطقة الشمالية الشرقية منه هو الموطن الاول لزراعة القمح والشعير وتربية الحيوان في الالف الثامن

قبل الميلاد • ان سفوح جبال العراق الغربية توافرت فيها الاصول البريـة للحيوانات والنباتات التي دجنها الانسان • وقد تم العثور في هذه المنطقـة على مستوطنات قديمة ظهـرت فيها البوادر الاولى للزراعة من قبل جماعي الطعام في العصر الحجري المتوسط في بالي كورا وزاوي جمي وكريم شهر وملفعات وتدل الاثار المكتشفة في هذه المواقع على مرحلة انتقالية تدريجية الى ممارسة الزراعة الحقيقية في القرى • وفي هذه المنطقة توافرت الاحوال الطبيعية المناسبة من مناخ ملائم ومطر موسمي وحيوانات غير اليفة وانسان نشيط استغل ما يحيط به •

ان اهم القرى العراقية الاولى التي كشفت فيها معاول المنقبين عن اثار مزارعين مستقرين هي قرية جرمو وحسونة ونينوى ويارم تبه وام الدباغية والصوان ومطارة وشمشارة[1] • في هذه القرى المبكرة ظلت حياة الانسان بسيطة تقل فيها الالات والادوات اللازمة للتعامل مع الحياة الماديـة • ان موجودات تلك القرى تعكس طبيعة معيشة بدائية تمثل المرحلة الاولى من الاستقرار فقد وجد المنقبون بين القليل من المخلفات المطاحن المؤلفـة من حجرين توضع الحبوب بينهما ويدار احدهما فوق الاخر او يضرب احدهما بالاخر ، ووجدوا الاطباق الفخارية ذات النتوءات البارزة لفصل الحبوب عن قشورها ووجدوا المعازق البدائية واقراص المغازل لغزل خيوط الصوف والكتان ووجدوا ثقالات أنواع النسيج التي استعملت لحياكـة الملابس والبسط ، وفي هذا الوقت تعلم نساء المزارعين صنع الفخار بايديهن • وكانت الاواني المصنوعة من النوع البدائي الخالي من الزخرفة والالوان او ملون بلون واحد•وكانت الزراعة انذاك زراعة محدودة بمساحة صغيرة من الارض تكفي لاعالة اسرة واحدة كما كانت حقلية وخالية من البستنة وغرس الاشجار المثمرة التي لم تعرف الا في العصور التالية • وكانت الزراعة متنقلة ايضا لان الارض بعد ان تضعف خصوبتها يتركها الفلاح ويبحث عن ارض خصـبة

جديدة • وهذه الزراعة كانت ديمية ترويها مياه الامطار في الاقسام الشمالية من العراق وهي كافية في العادة للانبات • وكان انتاج القوت يعتمد بالدرجة الاولى على الزراعة وتربية الحيوان • ونجم عن هذا الانقلاب الزراعي نشوء الملكية الفردية اي ملكية المزرعة وادوات الانتاج والحيوانات الداجنة في المرعى •

وكرس المزارعون بعض الوقت لاكتشاف نباتات مناسبة واساليب مناسبة لزراعتها ولصنع الات خاصة بحرث الارض وحصد المحصول وتحويله الى طعام • ولاجل نبش الارض استعملوا العصا الحافرة ثم اخترعوا المحراث في العصور التالية ، وحصدوا الحبوب في البداية بمناجل من الصوان او الزجاج البركاني المسنن المركب في قطعة خشبية مستقيمة او مقوسة بمساعدة القير • ومن عناصر الاقتصاد الزراعي المبكر الاساسية جمع حبوب غذائية كافية في كل موسم وخزنها حتى نضوج محصول السنة التالية ولذلك كانت عنابر الحبوب او المخازن من المظاهر البارزة في كل قرية وقد تبين وجودها في كثير من انحاء الشرق الادنى القديم وفي اقطار العالم القديم الاخرى • وتحتاج بذور القمح والشعير الى عملية فصلها عن السنبلة وعن قشورها بالدرس والتذرية ثم الى عملية الطحن للحصول على الدقيق ، وكان الدرس يتم بتسيير الحيوانات عليها في حركة دائرية ، اما التذرية فتكون بنشرها في الهواء في يوم يكون فيه هبوب الرياح شديداً نسبياً فيتطاير القش وتسقط الحبوب عند قدمي من يقوم بهذه العملية • ويمكن اجراء الطحن بالدق في هاون غير ان الطريقة التي يسرت انتاجاً اكثر واتبعت عموماً كانت تتمثل في وضع الحبوب على حجر مستدير لطحنها بحجر آخر يدور عليها او يحتك او يضرب بها • ومثل هذه المطاحن كانت في العادة من حجر صلب وإلا فان الطعام قد يختلط فيه الحجر والطحين وكان الطحين يتحول الى خبز باستعمال الخميرة والتنور •

وكان سكان هذا العصر يعيشون في جماعات صغيرة في قرى او دساكر وتبين عند اكتشاف هذه القرى اكتشافاً تاماً انها كانت تغطي مساحة تتراوح بين فدان ونصف وحوالي سبعة افدنة وفيها منازل يتراوح عددها بين خمسة وعشرين وثلاثين منزلا • ان مثل هــذه القــرى كانت في الواقع وحــدات اجتماعية يتعاون جميع افرادها في المشروعات المشتركة • وكانت المنازل تتصل ببعضها بشوارع متوازية ضيقة • وقليل من القرى كانت محاطة بسياجات او اسوار وخنادق(٢) لتحميها من الاعتداءات البشرية والحيوانات الضارية• ولابد ان هذه الاحتياطات قد شيدت بمجهود مشترك •

ويفترض علماء الانسان (الانثروبولوجيون) وجــود تخصص ضيق ومحدود جداً في القرية • وبالقياس مع الجماعات التي كانت الى وقت قريب تعيش في مستوى بدائي فان كل عائلة في العصر الحجري الحديث كان من شأنها ان تزرع وتعد طعامها وتصنع آنيتهـا الفخارية وملابسها وسائر ما يلزمها • ومن شــأن النساء طحن الحبوب وتحضـير الخبز وغزل الخيوط وحياكة الملابس وصنع الاواني الفخارية • ومن المحتمل جداً من جهة اخرى ان الرجال كانوا ينظفون الحقول ويعدونها للزراعة ويبنون الاكواخ ويهتمون بالحيوانات في المراعي ويصطادون ويصنعون الالات والاسلحــة اللازمة • وكان بامكان كل قرية ان تكفي نفسها اذا زرعت مواردها الغذائية وصنعت جميع الالات والادوات الاساسية من المواد المتوافرة في القرية كالحجر والعظم والخشب والطين وغيرها • وهذه الكفاية الكامنة في الجماعة المحلية يمكن ان تتخذ علامة فارقة تميز العصــر الحجري الحديث عن المدنيــة في عصور المعدن • ومن نتائج ذلك ان اقتصاد العصر الحجري الحديث لم يكن فيــه حافز مادي للفلاح كي ينتج اكثر مما يحتاج اليه لاعاشة نفسه وايجاد المواد الضرورية للموسم القادم • واذا سارت كل عائلة على هذا النظام فان المجتمع يمكنه ان يعيش مــن غير فائض ، ولكــن لم تكــن ايــة جماعــة مــن

جماعات العصر الحجري الحديث في الغالب تتبع هذه الاصول اتباعاً تاماً .
وحتى في أقدم قبور هذا العصر وجد علماء الآثار مواد استوردت من مسافات بعيدة . فاصداف البحر المتوسط والخليج العربي صنعت منها العقود والاساور . والمواد المستوردة لم تقتصر على مثل ادوات الترف هذه فالاحجار البركانية الصلبة والزجاج البركاني وانواع الصوان والحجارة الخضراء كانت تنقل الى مسافات بعيدة جداً . وحتى الاواني الفخارية نفسها التي يظن انها كانت تحتوي اشياء في داخلها كانت تحمل الى مسافات بعيدة لاغراض التجارة .

وكان هناك تنوع في حضارة العصر الحجري الحديث فالقرى تختلف في التوازن بين الزراعة وتربية الحيوانات وفي تخطيط البيوت وبنائها ثم في شكل سائر الالات والمادة التي تصنع منها وفي شكل الاواني الفخارية وزخارفها ، وهناك اختلافات اشد في اشكال التمائم وفي طقوس الدفن واساليبها . وهكذا فان كل قرية تمثل تكيفاً تقريبياً لبيئة معينة مع مجموعة افكار تتناسب معها كثيراً او قليلا . والتنوع ينتج عن تعدد الاكتشافات او الاختراعات البسيطة التي تكون في اول الامر محلية بحتة قوامها بعض الخصائص الاقليمية . فلم يكن هناك مثلا اسلوب عام للخزافين بل كانت توجد طرق لصنع الفخار . وحتى لو ظهرت هذه التقاليد على هيئة تنوعات لاسلوب اساسي واحد فان النساء اللواتي قمن بنقلها لم يميزن في الغالب بين الاسلوب الاساسي وبين التحسينات الطارئة عليه .

ولابد ان السحر كان يمارس في قرى هذه المرحلة بالرغم من السيطرة المحدودة التي كانت للجماعات على الطبيعة ولدينا برهان مباشر على ذلك في التمائم التي اكتشفت في المواقع الاثرية . ويمكن الافتراض بان النظام القبلي والمجتمع المبني على القرابة قد دام الى ما بعد الانقلاب الزراعي في العصر الحجري الحديث دون تغيير جوهري . وربما كانت القبيلة تشترك بصورة

طبيعية بملكية الارض واذا لم تفلح بصورة مشتركة فان بعض الحقول تخصص لعائلات بمفردها • اما المراعي فكانت بطبيعة الحال ملكاً مشتركاً •

ومما لاشك فيه ان سكان هذا العصر كانت عندهم عقيدة دينية • ولعل اول معبود تصوره وعبدوه كان ذا صلة بقوى الارض المنتجة وخصبها وهذه الالهة هي التي أطلق عليها اسم الالهة الأم التي صيغت بدمى من طين مصنوعة بهيئة نسوة بدينات • ولقد وجد الكثير من نماذجها بين انقاض القرى • وقد دفنت معظم جماعات العصر الحجري الحديث موتاها تحت المنازل او في جانبها باحتفالات تفوق احتفالات صيادي العصر الحجري القديم •

٢ ـ قرى العصر الحجري المعدني :

تمثل قرى العصر الحجري المعدني انتقالا تدريجيا بطيئاً الى مدن عصر فجر التاريخ وعصر فجر السلالات • ففي هذه المرحلة الانتقالية اتسعت القرى في المساحة وزاد عدد سكانها وازدهرت العمارة والفنون والصناعة والتجارة والنقل وحدث تقدم ملموس في التقنية • والمنطقة التي حدث فيها هذا التطور هي المنطقة نفسها التي حدثت فيها الثورة الزراعية • وقد اتضح ان الاحوال الطبيعية والاقليمية كانت مناسبة لحدوث هذا التطور في هذه المنطقة • فقد وجدت فيها المواد الاولية اللازمة للاكتشافات والاختراعات كما انها احتوت عوامل مشجعة للتنظيم الاجتماعي وللتعاون على مقياس واسع بالاضافة الى تسهيلات المواصلات التي يمكن بواسطتها جمع المواد الاولية وتركيزها وتوزيعها • والى جانب ذلك فان المنطقة التي ذكرناها رغم جفافها النسبي فان الاقامة الدائمة ممكنة فيها بجانب احد الانهار او الينابيع ، والزراعة تعتمد على الامطار ولكن في السهول الفيضية على الري • وكانت تنمو في هذه

المنطقة انواع مختلفة من الاشجار المثمرة بصورة طبيعية وامل الحصول على محصول جيد ومنتظم من التمر والزيتون والتين والعنب في كل سنة مشجع قوي للسكن في الاماكن التي تنمو فيها هذه النباتات • وتعترض هذه المنطقة جبال وصحارى لا تصلح للسكن ، ولكن هناك سهولا قابلة للاستيطان حول هذه الجبال والصحارى وفيما بينها • ويمكن ان تقام فيها قرى غير متباعدة كثيراً • ويمكن لاصحاب المواشي ان يتجولوا بقطعانهم في ارجائها • وفي بلاد اشور تكفي امطار الشتاء لتزويد الاغنام بالمراعي ولارواء محاصيل الحبوب • غير ان السكنى الدائمة اقتصرت في الواقع على الينابيع وضفاف الانهار المنحدرة من جبال أرمينية كالفرات والبالخ والخابور ودجلة • وبالرغم من خطر الجفاف فان صعوبات اعداد التربة هنا كانت اقل خطورة مما في سهول الانهار الكبرى التي تحصل الفيضانات فيها •

في هذه المنطقة تتابعت الاختراعات بسرعة بالمقارنة مع التقدم البطيء في العصر السابق ففيما بين سنة ٧٠٠٠ ــ ٣٥٠٠ قبل الميلاد تعلم الانسان تسخير قوة الحيوانات والرياح في النقل • واخترع المحراث وعجلة العربات والخزف والزوارق الشراعية واكتشفت العملية الكيمياوية لاذابة خامات النحاس والمحتويات الطبيعية للمعادن ، ووجد تقويم فلكي ، فتمهد بذلك الطريق لحضارة تحتاج الى كتابة • وقد ركز علماء الاثار انتباههم على التجمعات السكانية المستقرة في مواقع القرى التي غالباً ما تكون قد نمت وتطورت الى مدن • وحتى هذه القرى تستعرض موجوداتها تنوعات في الحرف والفنون والاقتصاد ضمن المزايا العامة التي تشملها جميعاً • وكان سكان تلك القرى مقيمين غ يرمترحلين • وفضلوا مواقع بقيت مستمرة ومأهولة بالسكان الى العصور التاريخبة • لقد كثرت القرى الصغيرة ، اما القرى الرئيسة فسمت حتى اصبحت مدناً • ولقد كان تحضير الارض عملا ثقيلا وشاقاً ويحتاج الى جهود مشتركة من قبل المزارعين وخصوصاً اذا كان

الهدف زيادة انتاج الطعام ففي جنوب العراق كانت بين نهري دجلة والفرات رقعة واسعة من الاهوار تنتشر فيها الادغال وتكثر الطيور والاسماك • وقد دفعت هذه المسطحات المائية المستوطنين الاوائل الى ترويض دلتا النهرين وجعلها قابلة للاستيطان • فحفروا الترع والقنوات لسقي الحقول وجففوا المستنقعات وبنوا السدود ورفعوا الارصفة لحماية السكان والقطعان من خطر الفيضانات وقطعوا القصب والبردي وزرعوا الارض المستخرجة من الهور وكانت المكافأة محصولاً جيداً من الحبوب والتمور والمراعي • وكان طلائع المستوطنين يلتصقون بالارض ولا يهجرونها بحثاً عن مساكن جديدة اذ يسهل عليهم تنظيف ما يحيط بالارض لتوسيع رقعة الاستيطان والحقول الزراعية بدلا من البحث عن اماكن اخرى في وسط الاهوار التي تحتاج هي الاخرى عملا شاقاً لتجفيفها تمهيداً لاستثمارها • واية زيادة في السكان كانت ذات فائدة ايجابية للقرية فبجهودهم يمكن صرف مياه الاهوار لتطهير مساحات واسعة من اجل المساكن والمزارع وبجهودهم ايضاً تفتح الجداول والترع لري الحقول • وفي السهول الرسوبية بجنوب العراق كانت الظروف الطبيعية تشجع على وجود تجمعات سكانية مزدحمة وتعاون اجتماعي واسع النطاق • ولذلك فان افضل المواقع كانت تستصلح بالجهد والكدح • وكان العمل جماعيا وفائدته تهم الجميع ولم يستطع شخص واحد بمفرده القيام به • وحصلت زيادة في قائمة مواد الطعام فالتمور والتين والزيتون والفواكه الاخرى اضيفت الى طحين القمح والشعير وهذه الفواكه كانت سهلة الخزن والنقل وكانت في البداية تجمع من الاشجار البرية ثم اصبحت هي والاعناب تزرع وبذلك بدأت البستنة •

اعدت الاكواخ في البداية من البردي او الحصر ثم بنيت من الطوف ثم اللبن او الاجر واصبح الانسان قادراً على التعامل مع اللبن كيفما شاء وبيسر لاتخاذ الشكل والحجم الذي يريده لمبانيه • وفي العصور التاريخية

استبدل بسقف الكوخ الذي كان بشكل سقف كوخ البردي سقفا معقودا •
والى جانب المزارعين الذين كانوا منهمكين بالعمل الزراعي لانتاج فائض من المحصول يزيد عن حاجتهم للاستهلاك كان هناك الصيادون وانصاف البدو من الرعاة الذين يتجولون بين الاحراش والمراعي • وكان هذا الفائض من الغلة يستبدل بحيوانات الصيد ومنتوجات الرعاة • وتشير الدلائل الاثرية على خروج القرى من العزلة التي كانت فيها في ظل نظام الاكتفاء الذاتي الذي مارسه اهل العصر السابق فقد استوردت الاحجار الكريمة كالعقيق والفيروز والياقوت واللازورد من اماكن بعيدة مما يشير الى بداية قيام التجارة • ومن المحتمل ان البدو المجاورين للمزارعين هم الذين كانوا يستوردونها • وهذه الاحجار لم تكن تثمن لجمال منظرها بل لانها ذات اهمية سحرية ايضا ، وفوائدها السحرية يشار اليها كثيرا في الاداب القديمة • وكان الطلب عليها شديداً لاحراز النجاح وكسب الثروة والتمتع بالحياة الطويلة وللحصول على الابناء • واوحت هذه المجوهرات بتطور حرفة جديدة وهي قطع الاختام وتثقيب الاحجار الصلبة لصنع الخرز والتمائم • وكانت التمائم تحور بشكل حيوان او طير او يحفر عليها رسم شيء او رمز معين واذا طبعت على طين طري يطبع عليه الشكل المرسوم وهكذا ظهر الختم على فم الجرار واصبح وسيلة لسلامة وحماية الملكية • وفي عقيدة صاحبه يكون الختم هو الحارس السحري لمحتويات الجرة ولا يجوز كسرها •

وقد ادى الاهتمام بالاحجار الكريمة الى نوع من البحث عن الصخور والى التعرف على خامات النحاس فالملاكايت هي كربونات النحاس والفيروز هو فوسفات الالمنيوم المشوبة بالنحاس وكلاهما يوجد فيما له علاقة بخامات النحاس • وعديد من هذه الخامات لها لون براق يجتذب الانسان ولهذا شجعت احجار الملاكايت والفيروز والاحجار الملونة الاخرى الانسان على البحث عن خامات النحاس والمعادن الاخرى في المناطق التي تتوفر فيها

مما ادى الى ظهور التعدين الذي يعتبر عاملا مهماً في الانقلاب الحضري • لقد بدأ استعمال معدن النحاس للتو ولكنه لم يحل محل الحجر كمادة اساسية لصناعة الالات • ولذلك كانت حضارات العصر الحجري المعدني حضارات انتقالية من العصر الحجري الى العصر البرونزي ثم الى عصر الحديد • ولم يمر الناس في كثير من جهات العالم بهذه المرحلة الوسطى بل حصلوا على معلوماتهم الاولى عن النحاس مباشرة من اولئك الذين كانوا قد طوروا فعلا فن صناعة النحاس تطويرا كاملا • ويختلف زمن حضارات العصري الحجري النحاسي في كل مكان باختلاف الوقت الذي مضى حتى انتشر العلم بصناعة المعدن • وكان الانتقال من عصر الى عصر يحدث في ازمان مختلفة وتصحبه هجرات هامة للشعوب • ووجدت اقدم الحضارات التي عثر فيها على النحاس في الشرق الادنى وبدأ استخدام النحاس في العراق في مطلع الالف الخامس قبل الميلاد واصبح استخدام المعدن امراً شائعاً في بلاد الشرق الادنى في الالف الرابع قبل الميلاد بينما بدأ هذا العصر في جزيرة كريت وشبه جزيرة اليونان في اوائل الالف الثالث قبل الميلاد[٣] •

عرف سكان الشرق الادنى ما لديهم من معادن منذ زمن مبكر ويرجح ان الناس عرفوا بعض المعادن في العصر الحجري الحديث • وكانت كميات تلك المعادن المحلية قليلة كما ان اكتشاف هذه المواد الجديدة لم يكن ذا اثر ملحوظ على الحضارة في البداية • ومن المحتمل ان احد القدماء قد اسقط بعض الملاكايت على نار مشتعلة في موقد ورأى كريات النحاس • وقد عولجت المعادن في اول الامر باعتبارها مواد صلبة غير عادية وانها حجر قابل للطرق • وكانوا يزاولون العمل فيها وهي باردة بالطرق والحك • اما صناعة التعدين الحقيقية فلم تبدأ إلا بعد ان اصبح في الامكان استخراج المعادن من خاماتها وحتى في ذلك الحين ظلت كل انواع المعادن مدة طويلة تزيد على الالفي عام

نادرة ونفيســة لدرجة ان استخدامها اقتصــر على بعض الاسلحة وادوات الزينــة .

بدأ استخراج المعــادن من خاماتها في الشرق الادنى بين سنة ٥٠٠٠ ــ ٤٠٠٠ قبل الميلاد ويظهر ان النحاس كان اول المعادن التي تمكن الناس من صهره ذلك لان اوكسيد النحاس وكربونات النحاس وكبريتات النحــاس وسليكات النحاس استخرجت وسحقت لعمل الالوان وهي تتحول الى مادة النحاس في درجة حرارة منخفضة نسبياً .

وكان الصناع يعالجون معــدن النحاس الذي يحصلون عليه محليــاً بالطرق الذي يكسب المعدن صلابة ملحوظة فطرق سكينة نحاسية طرقاً شديداً يجعله حاداً ولكن بنفس الوقت فان الطرق الشديد يجعل النحاس سهل الكسر . وبالطرق يمكن الحصول على قضبان وصفائح وقطع صغيرة منه . وفي وقت مبكر نسبياً تعلم عمال المعادن الاستعاضة عن هذه الطريقة بطريقة الاحماء اي بوضع المعدن على نار شديدة حتى يصبح لونه ابيضاً ثم يغمس في الماء بعد ذلك . وبهذه الطريقة يلين النحاس والمعادن الاخرى الممتزجة به ويسهل استمرار الطرق .

ان استخدام النحاس في الصناعة مهم من عدة نواحي فهو قابل للطرق وللصهر ويمكن استخلاصه من المعدن الخام ويمكن مزجه ببعض المعــادن الاخرى ، وفي الامكان شحذه كي يقطع مثلما يقطع حجر الصوان او الزجاج البركاني ، وفي الامكان حنيه وتغيير شكله بالطرق واذا تعرض للحرارة يلين ويصبح سائلا ويتخذ شكل اي اناء او قالب يصب فيه . وعندما يبرد يصبح قوياً كالحجر . والآلة النحاسية تدوم اكثر من الالة المصنوعة من الحجر او العظم ويمكن جعلها قاطعة من جديد بالشحذ او بالطرق ويمكن صبهــا من جديد اذا الكسرت . وكثير من هذه الصفات لا تتوفر في الحجارة والعظام والخشب .

ويبدو ان اقدم عملية سبك كانت عبارة عن صب المعدن المنصهر بعد خروجه من كورة الصهر مباشرة في قوالب قليلة الغور مفتوحة ولها الشكل العام للادوات التي يراد صنعها وكانوا يكملون صنع السبائك المصنوعة بهذه الطريقة بواسطة الطرق والحك • ومن المحتمل ان عمال التعدين القدامى قد تأثروا بالتغييرات الفجائية في درجة حرارة الصهر والانسياب والتماسك والصلابة التي كان في امكانهم الحصول عليها حتى باضافة كمية قليلة جداً من معدن آخر الى معدن النحاس مثل الزرنيخ او الرصاص • ومن الواضح انهم قاموا بتجاربهم الى ان اهتدوا في النهاية الى اتحاد معدني النحاس والقصدير الذي اصبح يسمى البرونز والذي سمي عصر البرونز به •

واحسن انواع البرونز الذي يؤدي جميع الاغراض هو مزيج من النحاس والقصدير وكلما زادت نسبة القصدير زاد المعدن تماسكاً وان كانت قابليته للكسر تزداد ايضاً • وفي عصر البرونز والقصدير او حتى قبل ذلك بوقت قصير اخترعت في العراق طريقة فنية خاصة لعمل السبائك وهي طريقة الشمع المفقود • وحدث هذا في حدود عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد • وتنطوي هذه الطريقة على صنع قالب داخلي من الطين له الشكل العام للشيء الذي يراد صبه وعند جفاف ذلك القالب يغطى بطبقة من الشمع تشكل عليها التفاصيل التي يراد وجودها في السبيكة ثم يغلف القالب المشمع بغلاف من الطين ويوضع على النار فينصهر الشمع ويتبدد تاركاً تجويفاً يمكن ان يتدفق فيه المعدن المنصهر ثم يكسر الغلاف الخارجي ويستخلص القالب الداخلي الذي يخلف سبيكة معدنية •

وبالرغم من ان هناك بعض الادوات من العصر البرونزي المبكر تظهر فيها كل انواع السبائك الا ان البرونز القصديري كان دائماً افضل تلك المواد فحل محل جميع المواد الاخرى بالتدريج ، ويدل استخدام البرونز القصديري على تحول من الحجر الى المعدن ، واصبح امتلاك المعدن

لاستخدامه في صنع الاسلحة امراً بالغ الاهمية • ولهذا لم تستخدم السبائك النحاسية إلا في الاغراض الحربية او اغراض الزينة في اول الامر • ولم تصبح الالات والادوات البرونزية عامة الاستعمال إلا في الحقب الاخيرة من عصر البرونز عندما تراكمت كميات معدن البرونز على مدى الاجيال • وحتى في ذلك الوقت ظل استخدام الحجر شائعاً بين القرويين في بلاد الحضارات الكبرى بين الشعوب البعيدة عن مواطن المدنية • ان تحول المعادن الخام المتبلورة الزرق منها او الخضر التي هي بشكل مسحوق الى نحاس احمر صلب هي عملية معقدة ولذلك لا عجب ان يكون المشتغلون في المعادن في اقدم المجتمعات التاريخية اخصائيين وان يكون صنع المعادن منذ البدء حرفة وفناً •

استخدم العراقيون النحاس في البداية في صنع الاسلحة ومواد الزينة بواسطة الطرق والحك • ولم يعرفوا صهر هذا المعدن إلا في عصر جمدة نصر في حدود نهايات الالف الرابع قبل الميلاد[٤] ، وتوصل العراقيون إلى اذابة النحاس وجعله باشكال وحجوم مختلفة بواسطة القوالب المفتوحة اولا ثم بواسطة القوالب المغلقة التي تصنع من عدة قطع ، واستخدمت الطريقة الاخيرة في عمليات صب التماثيل في عصر فجر السلالات[٥] • وتشرح الوثائق السومرية عمليات السباكة بالشمع المذاب[٦] •

وكانت هذه العملية مألوفة في العصور التاريخية القديمة • وحصل صناع المعادن على النحاس من منطقة كيماش في جنوب كركوك واستوردوه من دلمون (البحرين) ومكان (عمان) وقبرص والاقسام الشمالية الشرقية من شبه جزيرة العرب ومن جبال طوروس وبوغاز كوي وكول تبه في تركية • ولصنع البرونز استوردوا القصدير من عربستان وعيلام وتركية وارمينية بالاضافة الى القصدير المحلي من مرتفعات القنديل[٧] •

وبما ان الاحجار الاعتيادية والاحجار الكريمة وخامات النحاس لم تكن موجودة في المناطق السهلية في جنوب العراق فقد اقتضت الضرورة استيرادها

واستعين بالحيوانات لاغراض النقل والزراعة • فبعد ان تم تدجين المواشي للاستفادة من لحمها ولبنها وجلدها استخدمت الثيران في حمل قسم من عبء الحراثة•وربما كانت الخطوة الاولى فيهذا المجال هو جعل زوجين من الثيران يجران في الحقل نوعا مختلفا من آلة الحرث ، وهذا النوع الجديد هو المحرات بدل العصا الحادة الطويلة الحافرة والمعول • وقد أوجد المحراث ثورة في عالم الزراعة وبواسطته استطاع الانسان ان يحرث حقلا واسعاً وترتب على استخدام المحراث محصول اكثر وطعام اوفر بل وفائض في الانتاج استخدم في المقايضة • وباستخدام المحراث ايضاً حل الرجل محل المرأة والعصا الحافرة في فلاحة الارض • وكان على الانسان ان يخترع النير والعدة اللازمة له ليكون هناك اتصال بين المحراث وقدرة الثور على الجر • وبما ان المحاريث الاولى صنعت من الخشب فليس لدينا برهان مباشر على تاريخ اختراعها ولكن الوثائق المكتوبة تشير الى انها استعملت في العراق ومصر حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد(٨) • وقد حوّل المحراث عمل المزارعين من تعهد حقل صغير الى زراعة الحقول الواسعة ، واحتاجت الثيران التي استخدمت في الحراثة الى علف انسب لتحمل جهد الحراثة المرهق ولذلك بنيت لها اصطبلات واصبح روث الاصطبلات سماداً للحقول •

ومن المحتمل ان الزحافة قد عرفت في هذا الوقت ومن المؤكد ان بامكان زوج من الثيران جر زحافة بنفس السهولة التي يجران بها محراثاً • وكانت الزحافات التي تجرها الثيران تستخدم في اور لنقل الاموات الى المقبرة ولكن قبل هذا بكثير حصل انقلاب في اعمال النقل عند اختراع الدولاب فتحولت الزحّافة الى عربة ذات عجلتين وذات اربع عجلات • وكانت العربات تصنع من الخشب ولذلك لم يبق منها شيء في مواطن الاثار ولكن يمكن معرفة ذلك من نقوشها على الاواني الفخارية ومن منحوتات الاحجار ، وهناك اشارات الى استعمالها منذ عصر حلف • وعلى كل حال فأن النماذج من تبه كورا ،

تريبا عربات ذات عجلتين وذات أربع عجلات كانت مستعملة في الألف الثالث قبل الميلاد وهناك نقوش للعربات في الفنون السومرية • وكانت العجلة مؤلفة من ثلاث أو خمس قطع متداخلة من الخشب المتين تربطها مسامير نحاسية • وتدور العربة قطعة واحدة مع المحور الذي يتصل بباقي العربة باحزمة من الجلد • لقد اصبح استخدام العربات شائعاً في العراق وسورية في سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد وانتقل استخدامها الى الهند في هذا التاريخ • وبعد خمسمائة سنة استخدمت في كريت واسيا الصغرى • اما مصر فلم تعرف العربات إلا عندما ادخلها الهكسوس في سنة ١٦٥٠ قبل الميلاد •

واقدم صورة للنقل هو الحمال البشري رجلا كان او امرأة ولكن عندما بدأ استخدام قوة الحيوان انتقلت الاحمال اليه • والثور لا يصلح كثيراً لهذا الغرض وربما كان الحمار اقدم الحيوانات الحاملة للاثقال • وعرف الحمار المدجن قبل عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد في مصر واستخدم للنقل هناك كما استخدم في العراق لجر المحراث وللنقل في اوائل الالف الثالث قبل الميلاد • واصبح السفر والنقل في البر اكثر سرعة باستخدام الحمير ثم الخيول بعد ذلك لجر العربات ذات العجلات • والسرج الذي استعمل للخيول هو نفس السرج الذي اخترع لقيادة الثيران بعد ادخال التعديلات عليه • واللجام الذي كان يستخدم في سحب العربات السومرية صنع وفق النموذج الذي صنع للثور الذي يجر العربة • ان استخدام الحيوانات لجر العربات ولحمل الاثقال على ظهورها سهل المواصلات ونقل البضائع • والتجارة بين بابل واسيا الصغرى في اواخر الالف الثالث قبل الميلاد كانت تنقل على ظهور الحمير •

والى جانب التحسينات في النقل البري سارت التحسينات في الملاحة • ففي العصر الحجري الحديث صنع صيادو السمك زوارق من قطع الاشجار بعد ان جوفوها ، وصنعوها ايضا من الجلود • وفي الرسوم المصرية التي تعود لعصور قبل التاريخ نشاهد زوارق من البردي المضفور تستوعب اربعين

جذافاً • وفي عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد اخترعت الزوارق الخشبية واقدم نموذج لها في العراق وجد في اريدو[١٠] • والظاهر ان الزوارق الخشبية التي تشاهد في الفنون المصرية بعد هذا التاريخ هي زوارق غير مصرية بل عراقية او صنعت وفق النموذج العراقي • وفي حدود سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد وجدت زوارق تبحر في شرق البحر المتوسط • ويبدو ان الشراع استخدم في الالف الرابع قبل الميلاد • وكانت زوارق هذا الوقت سواء تستعمل الشراع او المجذاف او تجر على ضفاف الانهار والترع تنقل احمالا ثقلة بنفقة اقل من نفقات النقل البري •

وفي هذا العصر غزا الدولاب صناعة الفخار • وكان هذا الدولاب يدور بسرعة حول محور عمودي • والانية التي تصنع بواسطتها تكون فى غاية التناسق ويتطلب صنعها مهارة فائقة لا يمكن الحصول عليها إلا بعد مران طويل وجهد كبير • ويستغرق صنع الانية بالدولاب بضعة دقائق بينما يستغرق صنعها باليد عدة ايام •

ان استخدام الدولاب في صنع الاواني الفخارية وصنع العربات يوضح خطوة في تقسيم العمل وظهور المتخصصين • ومن ناحية اخرى نلاحظ ان هذا الاستخدام لم يكن متوافقاً في الزمن في بعض الاقطار ففي مصر استعمل دولاب الخزف قبل العربة ذات العجلات بينما في جزيرة كريت كانت العربات اقدم من الاواني الفخارية المصنوعة على الدولاب • وفي اوربا لم يستخدم دولاب الخزف في الاقطار الواقعة الى الشمال من جبال الالب حتى بعد عام ٥٠٠ قبل الميلاد بينما كانت العربات ذات العجلات تستعمل قبل ذلك بالف سنة •

وأهم قرى هذا العصر المتطورة التي تمثل انتقالا تدريجياً الى المدينة هي الاربجية و نينوى وتبه كورا والطواجنة وابراهيم عزو وبانا هلك وبكم وجوخه مامي واريدو واور وحاج محمد والوركاء والعقير ولكش وبسمي

واشنونا وتوتب ونوزي وكري رش وقره‌تبه وقرية سفرة٠ان المجموعة الاولى من اماكن السكن التي تمثل المرحلة الاولى لهذا الانتقال التدريجي بناها سكان قرى عصر حلف (نسبة الى تل حلف على الخابور) ٠ انها اكثر تطوراً من سابقاتها وشهدت تقدماً حضارياً مهماً ٠ ففي هذه المرحلة ازدادت القرى واتسعت مساحتها وتطور بعضها في النهاية الى مدن ٠ واتسعت الزراعة التي كانت توصف فيما مضى بالاكتفاء الذاتي من ناحية الانتاج الزراعي ٠ وصار الفلاحون يبادلون فائض الانتاج بالمواد التي لا توجد محلياً فاستوردوا الاصداف من مناطق الخليج العربي والزجاج البركاني من ارمينية والاحجار الكريمة من افغانستان وزيادة على ذلك فان اهل قرية حلف كانوا يعرفون المعدن بالتاكيد ٠ هذا ان لم يكونوا قد عرفوا صناعة المعادن ايضاً ٠ وهناك آنية من تل حلف يبدو عليها اقدم رسم لعربة ذات عجلات ومع ذلك فقد كانت الاواني الفخارية لا تزال تصنع باليد غير انها كانت مزخرفة بشكل جميل يدعو الى الاعجاب ومعدة في كورة خاصة كما لو ان صانعيها كانوا من المحترفين ٠ وكانت نقوشها هندسية ونباتية وحيوانية مثل الازهار واوراق النباتات والشجيرات والطيور والافاعي والغزلان ورؤوس الثيران الطبيعية او المرسومة بهيئة رمزية ٠ وشاع تلوين الاواني في الدور الاول باللون الاسود وفي الدور الثاني بلونين او بعدة الوان كالاحمر والبرتقالي والاصفر والبني والاسود ٠ وانتشرت هذه الاواني الفخارية في الجهات الغربية عبر الجزيرة والفرات الى سورية واسيا الصغرى ٠

وتدل البقايا العمارية على التقدم في التنظيم واساليب البناء فقد توزعت البيوت على جانبي شوارع مبلطة بالاحجار الطبيعية ٠ ومع ان الطين بقي المادة الشائعة في البناء إلا ان الآجر المجفف بالشمس ظهر في هذه المرحلة واستخدم في بناء الدور والمعابد ٠ وفي اواخر هذه المرحلة ظهرت مباني مدورة لبعضها مدخل بشكل حجرة مستطيلة

اكتشف مثلها في جزيرة قبرص وجزيرة كريت وفي ما يسيناي في شبه جزيرة اليونان ولعلها تكون نوعاً من المعابد او المزارات الدينية او مضيفاً للمجتمع القروي او طرازاً خاصاً من دور السكن • ووجدت بين انقاض قرى هـذه المرحله انواع جيدة من القلائد والاقراص الحجرية الصغيرة المزخرفة بخطوط مستقيمة او متقاطعة ربما كانت تستعمل لختم السدادات الطينية على الجرار • انها كانت اختاماً منبسطة تطورت في العصور اللاحقة الى اختام اسطوانية • كما وجدت رؤوس العصي الحجرية والتمائم الحجرية والدمى الحيوانيـة والتماثيل البشرية للالهة الام •

وفي المرحلة الثانية اي مرحله حضارة العبيد (نسبة الى تل العبيد قرب اور) انتشرت القرى في جميع انحاء العراق بينما كانت قرى المرحلة السابقة منتشرة في المنطقة الشمالية بالدرجه الاولى ووجد قليل منها في وسط العراق ولم يعثر لها على أثر في الجنوب • فقبل نهاية عصر حلف بدأت في تبه كورا بمحافظه نينوى عناصر قوية من حضارة العبيد بالظهور • ويمكن القول انه في المناطق الوسطى والجنوبية قامت المدن التاريخية فوق انقاض عصر العبيد والوركاء كما تشير الى ذلك التحريات التي تمت في مدن كثـيرة مثل اور واريدو ولكش ونفر والوركاء وتوتب (خفاجي) وغيرها • ويمكن القـول ايضاً انه في نهاية الالف الخامس قبل الميلاد كانت عدة قرى من عصر العبيد منتشرة على النهيرات المتفرعة مـن الانهار الرئيسة وتتميز هـذه القـرى المتطورة بالاسوار التي تدور حولها وبازدياد عدد سكانها بدليل ازدياد عدد دور السكن وكثرة القبور التي تجمعت بهيئة مقابر عامة خارج المستوطنات • فقد وجد مالا يقل عن الف قبر في اريدو • وكانت هذه القبور منتظمة ومبنية باللبن • وتطورت المعابد من حيث ازدياد مساحتها وتعدد مرافقهـا ومتانة بنائها وتطور طرزها العمارية • وحصل بعض التقدم في التعدين اذ وجدت فؤوس نحاسية في قرية تبه كورا مـع الالات التي صنعت من الحجارة او

الفخار مثل رؤوس المحاريث التي كانت تجرها الثيران والحمير ومثل المناجل الفخارية واقراص المغازل والمسامير والاوتاد • اما صناعة الاواني الفخارية فتدل على ضعف في المستوى الفني اذا قورنت بالاواني الفخاريه من القرى السابقة من حيث تقنية الصناعة والزخرفة والتلوين اذ لونت بلون واحد فقط هو اللون الاسود وقد اضيف هذا اللون الى سطح خال من الطـلاء • اما النقوش الزخرفية فقد اصبحت اقل روعة وجمالا • واتسعت الزراعة واصبحت بالضرورة زراعة ري في السهول الرسوبية الوسطى والجنوبيـة • وكانت زراعة الري في اولى مراحلها تمثل اقدم تجارب ومحاولات مشاريع الري التي كانت في مقدمة العوامل التي حفزت الانسان على تنظيم المجتمع • ومع ان الحبوب الغذائية استمرت طعاماً رئيساً في الجنوب مثلما كانت في الشـمال فان التمر في الجنوب دخل في قائمة مواد الطعام • وكان لظهور المعبد اثر مهم في التنظيمات الادارية والاقتصادية والاجتماعية •

وكانت لسكان هذه القرى اتصالات تجارية مع الاقطار المجاورة لتوريد وتصدير المواد الضرورية • وكانت تلك الاتصالات تستخدم في الغالب الطرق البرية مع سورية وتركية وايران • ووجدت دلائل تشير الى ان بعض تلك الاتصالات كانت بطريق البحر • ونذكر بهذه المناسبة نموذج القارب المصنوع من الفخار الذي وجد في قرية اريدو • ان قرية اريدو وقرية اور القريبة منها كانتا على بعد قليل من ساحل الخليج العربي وربما كانتا تتصلان بالخليـج بواسطة منخفض مائي كبير • وفي السنوات الاخـيرة تم مسح اثري في بعض جهات المملكة العربية السعودية ولاسيما في المناطق الساحلية من الخليج ورصـد اكثر من سبعة عشر موقعاً اثرياً وجدت في بعضها اثار من عصر العبيد كمـا وجدت اثار قروية من عصر العبيد ومن عصور لاحقة في واحـة البريمي في الامارات العربية المتحدة وفي البحرين وقطر •

وفي قرى المرحلة الثالثة اي قرى عصر الوركاء تطورت بعض القرى مثل العبيد واريدو والوركاء ونينوى وتبه كورا واور ولكش ونيبور • فالمزارات الصغيرة التي تتابع بناؤها في نفس المكان اصبحت معابد واسعة شيدت بالطابوق وتقسمت الى غرف عديدة • وصنعت الاواني الفخارية على الدولاب ووجدت العربات الخشبية مما يدل على ان وسائل النقل ذات العجلات اصبحت مألوفة والاشياء المصنوعة من النحاس او حتى البرونز لم تكن نادرة • وصنعت لاول مرة الاختام الاسطوانية •

٣ – نشوء المدن في عصر فجر التاريخ :

استعرضنا فيما سبق نشأة القرى الزراعية ومقومات الحياة القروية في العصر الحجري الحديث من حيث تدجين النبات والحيوان وبناء البيوت واختراع الالات والادوات الخاصة بحرث الارض وحصاد الغلة وخزنها وطحنها ومن حيث صناعة الفخّار • واستعرضنا التطورات التي حصلت في قرى العصر الحجري المعدني من حيث ازدياد عدد القرى واتساع مساحتها وتكاثر سكانها واستيطان السهل الرسوبي وقيام زراعة الري وتشييد المباني العامة وصنع المعادن وخصوصا النحاس واختراع الدولاب والعربة ذات العجلات واستخدام الحيوان في النقل البري والزوارق الشراعية في النقل النهري وابتكار المحراث والسرج ونعل الحصان وظهور الصناع المتخصصين والمتاجرة بفائض الانتاج الزراعي • كل هذه التطورات مهدت الطريق لقلب قرى عصر النحاس الى مدن عصر البرونز •

ولاسباب غير معروفة بشكل واضح يتبين ان التمدن حصل في جنوب العراق لا في شماله • وهذه الظاهرة تثير الدهشة والاستغراب فالمتتبع للتطورات الحضارية في هذا القطر يلاحظ ان اقدم استيطان بشري في العراق حصل في المنطقة الشمالية • وفي هذه المنطقة صنعت اقدم آلة وبدأت اولى عمليات الاستزراع وتم اول تدجين للحيوانات وتأسست اولى القرى ويتوقع

الباحث ان يلاحظ الانقلاب الثاني في تاريخ البشرية وهو الانقلاب الحضري قد حدث في شمال العراق ايضاً ولكن هــذا لم يحصل ولا تعــرف اسبابه الحقيقية لغاية الوقت الحاضر •

ان الصورة التي يستطيع رسمها عالم الاثار عن المستوطنات العراقية بعد التطورات السريعة التي حصلت في قرى العصر الحجري المعدني ليست صورة عن مجتمعات زراعية بسيطة بل عن مجتمعات مدن تحتضن عدة طبقات اجتماعية ووظائف واختصاصات مثل الكهنة والحكام والامــراء والكتاب والحرفيين المتخصصين والتجار وعمال النقل والجنود وغيرهــم • وهؤلاء جميعــا لــم ينتجــوا الطعــام بل استهلكوه وعرضوا بضاعتهم وصناعتهم وخدماتهم على القرويين المجاورين لهم لمبادلتهــا بفائض الانتاج الزراعي • والاثار التي تعود لهذا العصر ليست الات صيد وزراعة وصناعات محلية بل اثاث معبد والات وادوات منزلية واسلحة برونزية واواني فخارية صنعت على الدولاب او اواني معدنية ومجوهرات ذهبية وفضية واحجار كريمة وعربات ذات عجلات ومحاريث ومعاول وفؤوس وسكاكين وسيوف وخناجر معدنية صنعت من قبل فنانين محترفــين واكتشفت على نطاق واســع • وبدلا من الاكواخ والمنازل البسيطة يجد علماء الاثار مخلفات بيوت جيدة وواسعــة وقصور ومعابد وحوانيت عمل ومقابر مشيدة واسوار وخنادق • المدينــة الجديدة كانت اوسع مساحة واكثر سكاناً من القرية الزراعية التي امتصتها المدينة او بقيت بالقرب منها • ومقابر المدن تشهد على زيادة الثروة والسكان• ان التحول الذي حصل في اقتصاد يقوم علــى الاكتفاء الذاتي الى اقتصاد يفيض انتاجه كان متماثلا في جميع المدن واساسه لغة مشتركة ودين مشترك ونظام اجتماعي مشترك •

في العراق استطاع علماء الاثار متابعــة عدة مراحل لهذا الانقــلاب الحضري في عدد من المواقع المختلفة في السهول الجنوبية مثل الوركاء واريدو

واور ونفر ولكش ولارسا وشروباك • وفي بلاد اكد في كيش وجمدة نصر واشنونا ونوتب وسبار وماري • وفي بلاد اشور في نينوى واشور • ونتائج التنقيبات في الوركاء يمكن ان توضح تطوراً مماثلا في المواقع الاخرى • وهذه النتائج بين ان الوركاء في عصر فجر التاريخ اي بحدود سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد كانت مدينة •

ونمشياً مع موضوع بحثنا فنحن نعتبر الوركاء والمدن المعاصرة لها في الجنوب اولى المدن في العالم •

في الوركاء فتح الالمان حفرة عميقة في وسط التل في ارضية معبد تبين فيما بعد ان تاريخه يعود الى سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد • ومن هذه الارضية بدأ النزول بين جدران الحفرة المتعرجة الى اكثر من عشرين متراً واثناء النزول كان باستطاعة المنقب التقاط قطع الفخار والاجر والالات الحجرية من جوانب الحفرة • ان هذه الانقاض كانت بقايا مستوطنات متتابعة • وفي القعر ظهرت التربة البكر وهي تربة الاهوار •

لقد بدأت الوركاء قرية في العصر الحجري الحديث واوجد انهدامها واعادة بنائها بنفس المكان عبر تتابع العصور تلا ارتفع ببطء فوق مستوى الهور • والامتار العشرون الاولى (العد من الاسفل) من هذا التل الاصطناعي كانت تتالف كلياً من خرائب اكواخ البردي واطلال بيوت الطين • والاثار التي استخرجت منها توضح التقدم والتطور الذي شرحناه آنفاً • ان هذه الاثار تشير الى زيادة في استخدام المعدن ودولاب الخزف والعجلة والعربة والالات المنزلية • والقرية توسعت في المساحة ولكنها مع ذلك كانت لا تزال قرية • ثم ظهرت فوق هذه الانقاض في الطبقة الرابعة بدلا من جدران ومواقد الاكواخ البسيطة اسس المباني الضخمة لمجموعة من المعابد وبالقرب منها زقورة • وفي قمة هذا التل لم يعد المشهد مشهد قرية بسيطة بل مشهد

مدينه[11] . ففي القسم الامامي من المدينة كتشف المنقبون عن عدد من المعابد المقامة على مصاطب اصطناعية في منطقة معبد عرف في عصر فجر السلالات باسم معبد اينانا، وكشفوا عن معابد اخرى لاله عرف فيما بعد عند السومريين بالاله آنو في المكان الذي شيدت فيه زقورته . ففي المنطقة الاولى وجد مالا يقل عن ستة معابد موزعة بين الطبقتين الخامسة والرابعه وقد شيدت على هيئة ازواج يتجاور كل معبدين لعبادة إله وقرينته . وقد سمي احد المعابد من الطبقة الخامسة بالمعبد الكلسي لانه اقيم على مصطبه من حجر الكلس وكانت سعته ٧٥ × ٢٩ متراً . ويمتاز هذا المعبد والمعابد التاليه له بان جدرانه زينت بمخاريط فخارية لونت رؤوسها باللون الاسود او الاحمر او الابيض وادخلت بملاط الجدران عندما كان رطباً مكونة زخارف هندسية جميلة . وكشف المنقبون في الطبقة الرابعة / ب ما لا يقل عن ثلاثة معابد وعن معبدين في الطبقة الرابعة/أ . ابعاد احدهما ٨٣ × ٥٣ متراً وابعاد الاخر ٥٤٫٢٠ × ٢٢٫٢٠ متراً . وبرزت خلف معبد اينانا زقورة متصلة بمعبد عرف في العصور التاريخية بمعبد الاله آنو بلغ ارتفاعها نحو سبعة عشر متراً وشيد فوقها معبد صغير فيه غرفة للعبادة بنهايتها مذبح للنذور والقرابين وعلى كل جانب منها غرفة صغيرة . وقد اطلق على هذا المعبد اسم المعبد الابيض[12] . ويقال ان اسوار الوركاء كانت تحيط بمساحة قدرها خمسة كيلومترات مربعة[13] ثم زادت في عصر فجر السلالات فبلغت ستة كيلومترات مربعة وكان محيطها في هذا العصر تسعة كيلومترات[14] وكان سكانها قد قاربوا الخمسين الفاً[15] .

ان بناء الزقورة والمعابد وجمع مواد البناء ونقلها وصنع الاف المخاريط والاجر كان يستدعي بالضرورة استخدام أيدي عاملة كثيرة ومجموعة كبيرة من الحرفيين المتخصصين اي وجود عدد كبير من السكان . ومما لاشك فيه ان هذا المستوطن اصبح في هذا الوقت مدينة توافرت فيه مواصفات المدن كما انه اصبح غنياً .

ومن معابد عصر فجر التاريخ المهمة التي كشفت عنها معاول المنقبين معبد العقير[١٦] ويعد هذا من المعابد العالية او الزقورات وهو مقام على مصطبة ترتفع زهاء اربعة امتار . وزينت جدران المعبد العالي المشيد فوقها بصورة جدارية ملونة جميلة قوامها اشكال ادمية رسمت على هيئة موكب واشكال لبعض الحيوانات .

وتتميز معابد هذا العصر باستعمال نوع من اللبن مربع المقطع في البناء يرجح ان اول استعمال له ظهر في الطبقة السادسة في الوركاء واستمر في الاستعمال في ادوار الوركاء التالية وفي دور جمدة نصر .

لقد وجد الاله مستقراً له على الارض وكان لهذا المستقر رجال يرعون مصالحه ويديرون وارداته واملاكه المنقولة وغير المنقولة وهؤلاء الرجال هم الكهنة الذين استأثروا بتفسير الارادة الالهية واقامة الطقوس وطلب القرابين والنذور فصارت لهم سلطة مقدسة . واغلب الظن ان رجال الدين الكهنة وجدوا في اول معبد . وتذكر النصوص التاريخية فيما بعد انهم كانوا يديرون خزانة الاله ويفرضون على الناس واجبات جديدة كالنذور والقرابين واقامة الصلوات . وفي معبد الزقورة وجد المنقبون رقيماً طينياً يحمل طبع ختم فيه ارقام ، ويظهر ان هذا هو اقدم رقيم حساب ، وقد سبق رقم المعابد السومرية التاريخية . وهكذا نجد ان معبد الطبقة الرابعة في الوركاء يكشف عن جماعة ارتفعت الى مستوى مدينة تتصرف بفائض ثروة حقيقية تجمعت في يد إله المدينة ويديرها رجال الدين الكهان وتشرف على تنظيم القوى العاملة وتتوافر في المدينة صناعات متخصصة وتجارة بدائية ونقل بطيء وبدايات للمحاسبة بل وللكتابة ايضاً . وبالطبع لم تكن الوركاء وحدها بمثل هذه الحالة فمواقع المدن السومرية الكبيرة خلفت بقايا لنفس المرحلة الحضارية . ومن هنا يمكن تتبع الانقلاب الحضري في عملية تطورية مستمرة حتى ظهور نور التاريخ . وباختصار فان التطور الذي حصل في فجر عصر

التاريخ شمل تجمع الثروة وتحسين المهارة التقنيه وزيادة تخصص العمل وتوسع التجارة وتفاوت الطبقات وسيادة المعبد الذي اصبح مركز حياة المدينة في الاهمية ويزاحمه في النفوذ والسلطة في عصر فجر السلالات قصر الحاكم الذي اتسع في المساحة مثل قصر كيش واريدو وماري • ان كفة القصر اي السلطة الزمنية اصبحت ترجح على المعبد والسلطه الدينية منذ ان تولى الاكديون زمام الحكم •

والمرحلة التي تمثلها اعادة البناء الرئيسة الرابعة (الطبقه الرابعة) في الوركاء وجد ما يماثلها في جمدة نصر • وفي هذا الوقت حصلت زيادة في الثروة والاستيراد وتقدم في المهارة التكنولوجية اذ اخترع البرونز بعد اضافة القصدير الى النحاس واستخدم الرصاص والفضة وصنعت عربات الحرب الحقيقية وتعددت رقم المحاسبة الطينية واصبحت تكتب عليها الرموز والارقام • وفي المواقع الاخرى يمثل هذا العصر المعبد الاول في اريدو والطبقات ١٦ ــ ١٢ في معبد اينانا في نيبور والمعبد في العقير ومعابد سن الخسة في توتب (خفاجي) والطبقة الرابعة في نينوى والطبقة السابعة في نوزي ومعبد العين في براك على الخابور والطبقة السادسة في تل بلا بمحافظة نينوى والمعبدان العاشر ،والتاسع في تبه‌كورا بمحافظة نينوى ايضا ومعبد قالينبج آغا في محافظة اربيل •

وبعد عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد توضح المقبرة الملكية من عصر فجر السلالات في اور الازدهار الحضري فالصاغة كانوا يصوغون الاسلاك والسلاسل الدقيقة والحلي الجميلة المحببة والمخرمة من المعادن الثمينة ويثقبون اقوى الصخور وينحتونها لعمل الاختام • وعمال التعدين كانوا مهرة في الطرق والصب وصنع التماثيل والفؤوس والسواطير والازاميل والمثاقب والسكاكين والمناشير والمسامير والابر والاقداح والنحاتون بدأوا

ينحتون الاواني والنماثيل من احجار الكلس والرخام ومن الاحجار البركانية . والنجارون اجادوا صنع العربات والزوارق والقيثارات .

ان استعمال المواد الأجنبية المستوردة كالذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص واللازورد والفيروز والعقيق والياقوت والاصداف والاخشاب والزجاج البركاني الى السهل الرسوبي يعني ان العلاقات التجارية التي لاحظناها في العصور السابقة قد توسعت الان . وكانت مدن سومر لها علاقات تجارية مع مدن النيل والسند التي شهدت هي ايضاً فيما بعد مثل هذا الانقلاب الحضري . ففي عدة مدن عراقية وجدت اختام وخرز واواني لم تكن سومرية الاصل بل مستوردة من السند . وعند توحيد مصر وجدت مواد ذات اصول عراقية مثل الاختام الاسطوانية ومثل نوع جديد من الزوارق . ان العراق ومصر والهند لم تكن منعزلة عن بعضها قبل الانقلاب الحضري بل كان بينها تبادل للبضائع والافكار . وهذه العلاقات ازدادت عند حدوث الانقلاب الحضري او بعده مباشرة . ولم تكن هذه التجارة مجرد تجارة نقل من مكان الى مكان بل رافقتها اقامة المحطات على الطرق وفي الاقطار التي تصل اليها البضائع حيث كان تجار القوافل والمسافرون في الزوارق الشراعية يطيلون التوقف . وكان هناك ممثلون في الاقطار المصدرة لتسلم البضائع وارسال بضائع بديلة عنها اضافة الى الاهتمام براحة المسافرين . ومثل هذه الوكالات يحتمل وجودها في أور وكيش وكانت موجودة في كبدوكيا باسيا الصغرى .

ان التغييرات الجديدة التي يلاحظها المنقبون في الفخاريات ومواد البناء وطرز العمارة والفنون وطقوس الدفن والاثاث والالات وغيرها في مواطن الاثار تدل على تغييرات في التقاليد والتقنية والى تبدل السكان وتسرب اناس جدد الى المستوطن بالغزو او بالهجرة . والاقطار التي تتعرض الى الجفاف والفيضان تكون الهجرة منها متوقعة الحدوث عند حلول الكارثة . ان

المجاعة تدعو المزارعين والرعاة الى الهجرة الى مناطق اخرى يقيمون مع اهلها في تعايش سلمي ويعملون فيها مقابل الحصول على الطعام او يلجأون الى غزو جيرانهم • وفي كلتا الحالتين يحدث الاختلاط بين الوافدين الجدد والسكان الاصليين ويترتب على ذلك ظهور حاجات واراء وطقوس جديدة في المجتمع الذي يحلون فيه •

ان هذا الغزو كان يمارس قبل الانقلاب الحضري ولكن اشتد امره بين المدن بعد الانقلاب الحضري بسبب حقوق الارض والماء والمنافسة التجارية ، ان الحروب هي التي جعلت المدن محصنة باستحكامات واسوار وخنادق • ووسائل الدفاع هذه كانت ضرورية لرد الغزاة وصد الحيوانات الضارية ولحماية الحقول والمراعي • ان الحروب حفزت على انتاج المعدن لصنع الاسلحة لاغراض الدفاع او الهجوم • وساعدت الحروب على ظهور افراد شجعان اصبحوا قادة وزعماء وملوكاً • ان الحروب كانت ايضاً عاملا من عوامل ظهور العبودية ، التي ساعدت على تجمع الثروة وفائض الانتاج • ولم تكن الحروب وحدها هي التي توفر العبيد بل ان الناس الضعفاء والفقراء كانوا يعرضون خدماتهم على الموسرين مقابل الطعام والسكن • والمنفيون من المدن الاخرى كانوا يجدون ملجأ لهم على وفق الشروط نفسها ، واللاجئون من القحط والجفاف كان يسمح لهم بالعيش في المدن والضواحي لقاء واجبات وخدمات •

ان هذا الوضع الاجتماعي الجديد وما فيه من طبقات تضاربت مصالحها اوجبت وضع القوانين لتنظيم السلوك الاجتماعي ومنع الجريمة • وكانت مجتمعات عصر فجر التاريخ والعصور السابقة له تخلو من القوانين • وكل فرد كان يعرف حقوقه وواجباته وفقا للعادات والتقاليد • فاذا اضيف اليها تأمين سماوي عن طريق الدين تصبح العادات والتقاليد قوية التأثير في السلوك الاجتماعي • والعرف والتقاليد هي انتخاب طبيعي لانواع السلوك

التي ثبتت صلاحيتها في خبرة المجتمع • وعلى العموم تكون حقوق الفرد في المجتمع البدائي اقل منها في مجتمع المدينة • ومن المحتمل ان تكون التقاليد والاعراف في الاصل قد فرضها اقوى عضو في المجتمع مثل شيخ القبيلة فاصبحت بعد نجاح تطبيقها مقبولة ومرغوباً فيها • ومن المحتمل ان يكون اصلها قرارات صدرت باتفاق مشترك بين اعضاء القرية وخضع لها افرادها لانها استهدفت النفع العام ، ومهما يكن مصدرها او اصلها فأن تطبيقها قد عاد بالفائدة على الجميع فقبلها الافراد ونظموا سلوكهم بموجبها •

وحينما حلت دولة المدينة في عصر فجر السلالات محل القرية ومشيختها حل القانون محل التقاليد والعرف فدونت الشرائع من قبل الحكام ورؤساء الدول ليخضع الجميع الى قواعد مشتركة واحدة في تنظيم الحقوق والواجبات والمعاملات والعقوبات • وهكذا تدرجت القوانين من عادات وتقاليد تمتد جذورها في ذاكرة الشيوخ والكهنة الى تشريع مكتوب على الواح الطين او اوراق البردي ونشر للناس للعمل بموجبه كما فعل اوركاجينا ولبت عشتار وارنمو وحمورابي في العراق هانزسيلس وشوبلليوما في اسيا الصغرى وليكرغوس وصولون في بلاد اليونان •

فيمصر العليا والسفلى توفرت السلطة الحاكمة قبل توحيدها وكان الفرعون الاول من مصر العليا ولكن توحيد القطر حدث في عصر الانقلاب الحضري • اي ان الملوك كانوا موجودين قبل ظهور المدن • ونفس الشيء يقال عن العراق فالملوك وجدوا فيه قبل الطوفان وبعده • وفي جميع الحالات كان الطريق مفتوحاً الى السلطة الملكية قبل بدء الحياة في المدن ولم تكن الحرب الطريق الوحيد الى العرش فالنجاح في مجال الاقتصاد والسحر والدين كان يقدم الانسان الى المجد •

هكذا كانت مراحل الانقلاب الحضري في وادي الرافدين وهكذا كانت نتائجه الدينية والصناعية والتجارية والفنية والاجتماعية والعلمية •

وهذه الخطوات نمت وتطورت بقدوم اقوام جديدة عبر العصور الماضية فطقوس الدفن في العصر الحجري الحديث تختلف عما كان شائعاً في عصر فجر التاريخ بجمدة نصر وهذه كانت تختلف عما عرف من المقبره الملكية في اور • وحصل تغيير في العمارة يدل على شيء آخر غير التقنية فالمعبد الرابع (الطبقة الرابعة) في الوركاء بني على اسس من حجر الكلس لا يتوفر في السهل الرسوبي ومن لبن مربع المقطع وفي المرحلة التالية استبدل بهذا الحجر طابوق اعد في كورة وكان من النوع المستوي ولكن اكثر المعابد والمباني الكبيرة الاخرى بنيت بطابوق مستوٍ محدب • ويبدو ان هذا التغيير العماري يمثل طرازاً جديداً استخدمته جماعة جديدة• والاختام تترك اشارات الى الحروب وعندما شاعت الكتابة نجد ان وادي الرافدين كانت تسكنه مجموعتان لغويتان بعض سكانه يتكلمون باللغة السومرية وبعضهم باللغة الاكدية • ان هذا الاستيطان المزدوج لم يؤثر على مسيرة الحضارة كثيراً فالالهة ومعابدها بقيت ورجال الدين احتفظوا بسلطانهم وامتيازاتهم • والوثائق المدونة تصف تغييرات متكررة لسلالات حاكمة وغزوات متعددة • وفي اثناء ذلك كانت المعابد تنهب او تهدم ولكن الملك الجديد يعيد بناءها حتى ان الاسكندر المكدوني اختتم فتوحاته في الشرق في عام ٣٢٣ قبل الميلاد باعادة بناء الايساكيلا المعبد الكبير في بابل • ان اعادة البناء المتكرر لمعابد عصور قبل التاريخ في الوركاء والمدن الاخرى في نفس مكانها القديم خير شاهد على استمرار تقاليدهم في العصور التاريخية • وباستمرار طبقة رجال الدين وازدياد ثروتها فان مهمة ادارة الواردات المتزايدة اصبحت اثقل وأعقد فكان على الاداريين ابتكار طريقة جديدة لتسجيل حساباتهم فابتكروا الكتابة التي قرأها اهل زمانهم والعلماء المحدثون • وفي زمن المعبد الرابع في الوركاء ظهرت وثائق مدونة على الطين قابلة للقراءة وحلت محل اثار عصور قبل التاريخ • وتصف النصوص المدونة بعد هذا التاريخ صورة عن النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفكري لمدن العراق القديم •

ويفهم من تلك النصوص ان الارض كانت مقسمة الى خمس عشره او عشرين مدينة او دولة مدينة يتكلم اهلها بلغة واحدة • ومركز المدينة هو المرتفع الذي تقوم عليه معابد إله المدينة ومعابد الالهة الاخرى • والالهة هي تجسيد للقوى السحرية وتمثيل لموت النباتات واعادة نموهـا • وتقام له الطقوس السحرية للانبات وزيادة الغلة • وبمرور الزمن اخذ الممثلون الذين يرمزون الى الحبوب وسحر الانبات دور الالهة التي تمتلك القوى السحرية • وقبل بداية التاريخ وضع المجتمع آماله ومخاوفه في هذا الشخص فاحترمه باعتباره سيد الدولة المقدس • وكان لكل اله مدينة مستقر على الارض وهو معبد المدينة الذي يتالف من مكان للعبادة ومن كهنة ومن حقول زراعيـة وحيوانات داجنة ووسائل للانتاج • وتشمل الوثائق المبكرة للمعابد قروضاً من البذور والحيوانات الى المزارعين والصناع • وكان المقترض لا يسـدد الدين فقط بل يضيف اليه قليلا من النذور تعبيراً عن الشكـر الذي يسمى بالفائدة في وقتنا الحاضر • هذا النظام الاقتصادي الذي جعل من اله المدينة اعظم الرأسماليين ومن معبده اضخم مصرف يعود الى عصور قبل التاريـخ فالرقيم الطيني ذو النقوش مـن اقدم معبد في اريدو ، والرقم الطينية ذات الكتابة الصورية من جمدة نصر تعتبر سلفاً لرقم حسابات المعبد في العصور اللاحقة •

ومنذ سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد ظهر الى جانب الاله في كل مدينـة حاكم زمني سمى نفسه بتواضع ممثل الاله او نائبه وسمى نفسه ملكاً ايضاً • وربما كان هذا الشخص مجسداً الاله في الطقوس الدينية التي تخيلها اهل عصور قبل التاريخ • وفي الواقع اخذ هذا الكاهن او الحاكم او الملك دور الاله في بعض الطقوس واغتصب الحصة الاساسية لقوة الاله في سيادته على الناس وفي حكمهم حكماً مطلقاً بموجب الحق الالهي المقدس • ومع ذلك فقد انجز الملك اموراً مهمة كان لها تأثير حسن في تطور مجتمع المدينة لانه امتلك قوة

الزعيم المدني والقائد العسكري فسعى للتوازن بين المصالح المتضاربه للطبقات ودافع عن استقلال المدينة وفتح قنوات الري وبنى المعابد واستورد المعادن والاخشاب والاحجار الكريمة وكان جيشه يحرس المدينه والحقول والمراعي ضد الغزاة من السهوب المجاورة او القبائل من الجبال •

وفي بعض الاحيان كان الغزو الحربي يغرس حضارة المدن بعد تحول قرى كبيرة او مدن صغيرة الى مدن صناعية وتجارية ففي عهد الاكديين وربما في عهد السومريين قبلهم تحولت نينوى الى مركز حضري ثانوي للتوزيع • ان اهل نينوى لم يأتوا من بلاد سومر او بلاد اكد ولكن اقدم المعابد في المدن الاشورية بناها السومريون والاكديون • كانت اشور مأهولة بالسكان قبل عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد ومن المحتمل انها كانت كذلك قبل الاستيطان في سومر ولكن في الاقطار السهوبية مثل اشور يتوافر المطر للزراعة الديمية فانتشر السكان في العديد من القرى الدائمة فافتقرت الى الحافز الذي يدعو الى رصّ التنظيم الاجتماعي لبناء مشاريع الري وفتح الجداول والترع واقامة السدود والارصفة • هذا الحافز الذي اثّر بشكل فعّال لاحداث الانقلاب الحضري في جنوب العراق • ان سكان قرى اشور حافظوا على نسطهم الاقتصادي القديم ، ولكن بعد عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد وربما في ايام سرجون الاكدي بدأوا يستخدمون الالات والاسلحة المعدنية ويقايضون فائض انتاجهم الزراعي بالمواد والسلع التي لا تتوافر في منطقتهم ، ولا ريب في ان السومريين هم الذين علموهم فنون التعدين •

وفي بعض الاحيان كانت مقاومة الغزو او مقاومة التهديد به يدفع اهل القرى الى اقتباس مقومات التمدن للدفاع عن الاستقلال بامتلاك الاسلحة المعدنية • وهذا لا يكون إلا بعد تعلم التعدين وانتاج فائض من المحصول لاعالة الحرفيين اي الاخذ بثورة التمدن وتبني الاقتصاد الحضري • ان بدايات حياة المدن الابتدائية في بلاد اشور يمكن ان تفسر بهذه الطريقة •

ليس هذا فقط في بلاد اشور بل في كل المناطق التي خضعت للنفوذ السومري والاكدي كما في لورستان وعيلام وسورية حيث ظهرت مراكز التعدين بعد سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد ووجدت فيها نمادج من الصناعات العرافية او نماذج مقلدة لها • وبين سنة ٢٨٠٠ ــ ٢٠٠٠ قبل الميلاد تاسست حضارات البرونز في الهند وجزيرة كريت وشبه جزيرة اليونان وهضاب اسيا الصغرى وايران وبلوجستان وشمال القفقاس • ان هذه المراكز الثانوية ليست مراكز اصلية بل ظهرت نتيجة تبني تقاليد وافكار وعمليات اقتبست بالانتشار من المراكز الاصيلة القديمة التي كانت مدن العراق اقدمها •

ويظهر ان عوامل نشوء المدن كثيرة وانه ليس هناك سبب واحد لنشأتها ولكن توجد عدة مظاهر حضارية تضافرت على تكوين المدن يأتي في مقدمتها فائض الانتاج الذي كان قليلا ان لم يكن معدوماً في المجتمعات القروية دات الاكتفاء الذاتي ولهذا لم يظهر تخصص واضح ولا طبقات اجتماعية متميزة فيها • هذا النوع من المجتمعات موجود اليوم إلا ان مجتمعات مماثلة تطورت الى مجتمعات اكثر تعقيداً وسارت علـى درب التمدن قبل الاف السنوات بفضل فائض الانتاج الذي يقوم على اختيار الحبوب ذات الانتاج الغـزير والقوة الغذائية العالية والتي تتحمل الخزن لمدة طويلة • وبفضل التقـدم التكنولوجي وفائض الانتاج ظهر تقسـيم العمل والتخصص فيه ونشـوء الطبقات الاجتماعية وظهور الزعامة السياسية التي سعت لتأسيس وتطويـر وادامة نظم الري التي زادت بدورها من فائض الانتاج • ومن عوامل نشوء المدن التقدم التكنولوجي الذي حفز على التعدين وصناعة المعادن واختراع المحراث والعجلة والعربة وصناعة الالات التي ضاعفت الانتاج والتوزيـع كما حفز على تسخير الرياح للنقل التجاري وطحن الحبوب ، وبالتقدم التقني يمكن جمع الفائض وخزنه وتوزيعه • والعامل الاخر الذي عجّل في الوصول الى مرحلة الانقلاب الحضري هو الكتابة ، والمقصود بها ليس فقط الحساب

البسيط بل تدوين الحوادث التاريخية والمعتقدات الدينية والاداب والقوانين التي توارثتها الاجيال • وفي ظل الكتابة وجدت نخبة متعلمة كان لها الدور الرائد في مجتمع المدينة • وهذه النخبة رغم قلة عدد افرادها كانت تقود هيئة سياسية تدعمها عقيدة دينية في طبيعتها عادة تستطيع ان تنظم القوة العاملة لبناء المباني العامة والاسوار والخنادق ومشاريع الري • والعامل الاخر الذي يسر نشوء المدن هو البيئة الطبيعية التي لا تتوافر فيها التربة الخصبة لنمو النباتات فحسب بل الماء الكافي للحقول والبساتين وللاستهلاك الحضري•هذه الظروف توافرت في وديان الانهار ، وفي سهولها الفيضية ظهرت اولى مدن العالم من تجمعات سكانية كثيرة العدد من غير المزارعين الذين يقيمون في مساحة مناسبة لمبادلة بضائعهم ومصنوعاتهم وخدماتهم مقابل فائض الانتاج الزراعي الذي ينقله اليهم المزارعون من القرى او الضواحي المجاورة •

في جنوب العراق لم تكن الارض خصبة والمياه متوافرة فحسب بل لأن المنطقة تقع على شبكة من الطرق سهلت الاتصال المستمر باقوام متباعدين لالاف السنين • والاختلاط الذي حدث بين الحرف والمهارات الغريبة والاصلية اضافة الى العوامل التي شرحناها سابقاً كان لها تأثير قوي على ظهور اولى المدن الحقيقية التي اخذت شكلها حوالي سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد في هذه المنطقة • وتأتي مدينة الوركاء في مقدمة تلك المدن وتزامنها جمدة نصر واريدو ونيبور والعقير وتوتب ونوزي وكورا وبلا ونينوى وبراك • وتأتي بعدها مدن عصر فجر السلالات السومرية والمدن الاكدية مثل الوركاء وجمدة نصر واريدو واور ولارسه ولكش وكرسو وسرغل واوما وشروباك وبسمي ونيبور وكيش وايسن وسبار وكوثي وبابل وبورسيبا واشنونا وتوتب ونينوى ولراك واوبي واكد(١٧) •

وعلى قدر ما يتوفر لدينا من احصائيات بشأن مساحة وسكان بعض هذه المدن نذكر ان مدينة اور وعديد من مدن جنوب العراق بلغت مساحتها

في عصر فجر السلالات حوالي كيلومتر مربع واحد[١٨] . وكانت مساحة مدينة توتب (خفاجي) ٤٠٠٠٠٠ متر مربعاً[١٩] ومساحة مدينة الوركاء ستة كيلومترات مربعة[٢٠] . اما من حيث النفوس فقد بلغ عدد سكان مدينة لكش ١٩٠٠٠ نسمة واوما ١٦٠٠٠ نسمة وتوتب ١٢٠٠٠ نسمة واشنونا (تل اسمر) ٩٠٠٠ نسمة[٢١] والوركاء ٥٠٠٠٠ نسمة[٢٢] .

وبالرغم من التنوع الحضاري الكبير بين سكان الشرق القديم فان المدن المبكرة في هذه المناطق كان فيها عدد من الصيغ المنظمة المشتركة كالثيوقراطية لان الملك والكاهن الاعلى شخص واحد . والنخبة المتعلمة او الكهنة كان مستقرها الرئيس في وسط المدينة وان خدمهم وتابعيهم كانوا يقيمون حولهم في هذا المركز الذي يحظى باحترام الجميع . وفي وقت لاحق نسبيا اقيم الى جوار هذا المركز الديني قصر الحاكم او الامير او الملك ، وبنيت بالقرب منه المباني الحكومية ودور الموظفين . وعلى بعد قليل من هذه النواة كانت مساكن وحوانيت الفنانين والحرفيين . وفي هذا المركز تاسست السوق لتبادل السلع والبضائع بمواد الطعام والمواد الخام . ومن هذا المركز العام كانت الشوارع تتجه نحو الابواب الخارجية في الاسوار . وكانت الشوارع مبلطة وغير مبلطة وكثيرة التراب ولكنها كانت مستقيمة وعريضة بحيث تكفي لمرور العربات ذات العجلات . وعلى طول الطريق تقع منازل الاغنياء المجهزة في بعض الاحيان بنظام لصرف المياه الوسخة . اما بيوت الفقراء فكانت تقع في الخلف والدخول اليها من ازقة ضيقة او تقع في الضواحي والاعمال التجارية كانت تصرف على ارصفة الموانىء المجاورة للانهر او في السوق او عند بوابات المدن . ويحيط بالمدينة سور واحد او اكثر من سور حوله خندق احياناً لاغراض الدفاع ضد الغزاة . وخارج جدران السور كانت زرائب الحيوانات والحقول . وخلف الحقول تمتد الصحراء وفي الصحراء يسكن البدو .

ان جنوب العراق وحدة جغرافية اعتمد سكان مدنه في معيشتهم على خصوبة التربة وماء الرافدين واعتمد في حضارته على استيراد المواد الغريبة من مصادر مشتركة ، ونظرا لاعتماد المدن على الماء من نفس الانهار فان النزاعات بشأن الارض وحقوق الماء كانت متوقعة بين عديد من المدن المستقلة . ونظراً لان جميعها اعتمدت على التجارة الخارجية لاستيراد نفس الاحتياجات الصناعية فقد ظهرت المنافسة بين دويلات المدن . ان التناقض بين النظام الاقتصادي القائم على استقلال المدن وبين الانفصال السياسي كان واضحاً في حروب السلالات . والمدن المبكرة تسجل بعد حسابات المعابد الحروب بين المدن المتجاورة التي كانت تنتهي بمعاهدات ولكن لفترات مؤقتة ، اذ لم يوضع حد لهذه الحروب الاهلية إلا حينما وحد سرجون الاكدي دول المدن المستقلة . ولم يتوقف تاسيس المدن بل استمر في ظل الدولة القومية وتوسع نفوذها .

الهوامش

١ ـ تقي الدباغ . حضارة العراق ج/١ ص ١٢١ ـ ١٤٥ . بغداد ١٩٨٥ .

٢ ـ Wailly, F. and Abu Al - Soof, B. The Excavations at Tell Es - Sawwan, First. Preliminary Report, 1964, Sumer, Vol. 21, 1965, P. 18.

٣ ـ تقي الدباغ ووليد الجادر . عصور قبل التاريخ ص ٢٢٨ ، ٢٤٨ بغداد ١٩٨٣ .

٤ ـ Tobler, A. Excavations at Tepe Gawra Vol. 11, Philadelphia, 1950, P. 211, pl. XCVIII, Nos. 5 and 6.

٥ ـ وليد الجادر . حضارة العراق . ج/٢ ص ٢٤١ بغداد ١٩٨٥ .

٦ ـ وليد الجادر . نفس المصدر ص ٢٤١ .

٧ ـ وليد الجادر . نفس المصدر ص ٢٤٣ ـ ٢٤٦ .

٨ ـ كوردن جايلد . ماذا حدث في التاريخ . ترجمة جورج حداد ص ٧٩ .

٩ ـ Speiser, E., Excavations at Tepe Gawra, Vol. I. 1935, pl. XXXV, a.

١٠ ـ Safar, F., Mustafa, M., and Lloyd, S. Eridu, Baghdad, 1982, P. 231, Fig. 111.

١١ ـ كوردن جايلد . ماذا حدث في التاريخ . ترجمة جورج حداد ص ٩٠ .

١٢ ـ طه باقر . مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج/ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ . بغداد ١٩٧٣ .

١٣ ـ كوردن جايلد . ماذا حدث في التاريخ . ترجمة جورج حداد ص ٩٣ .

١٤- طه باقر . مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج/١ ص ٣٢٥ بغداد ١٩٧٣

١٥- Adams, R., in Avenues to Antiquity, Readings in Scientific American. ed. Fagan, B., 1975, p. 191.

١٦- Lloyd, S. and Safar, F., in JNES, 1943.

١٧- طه باقر . نفس المصدر . ص ٧٥ - ٧٦ .

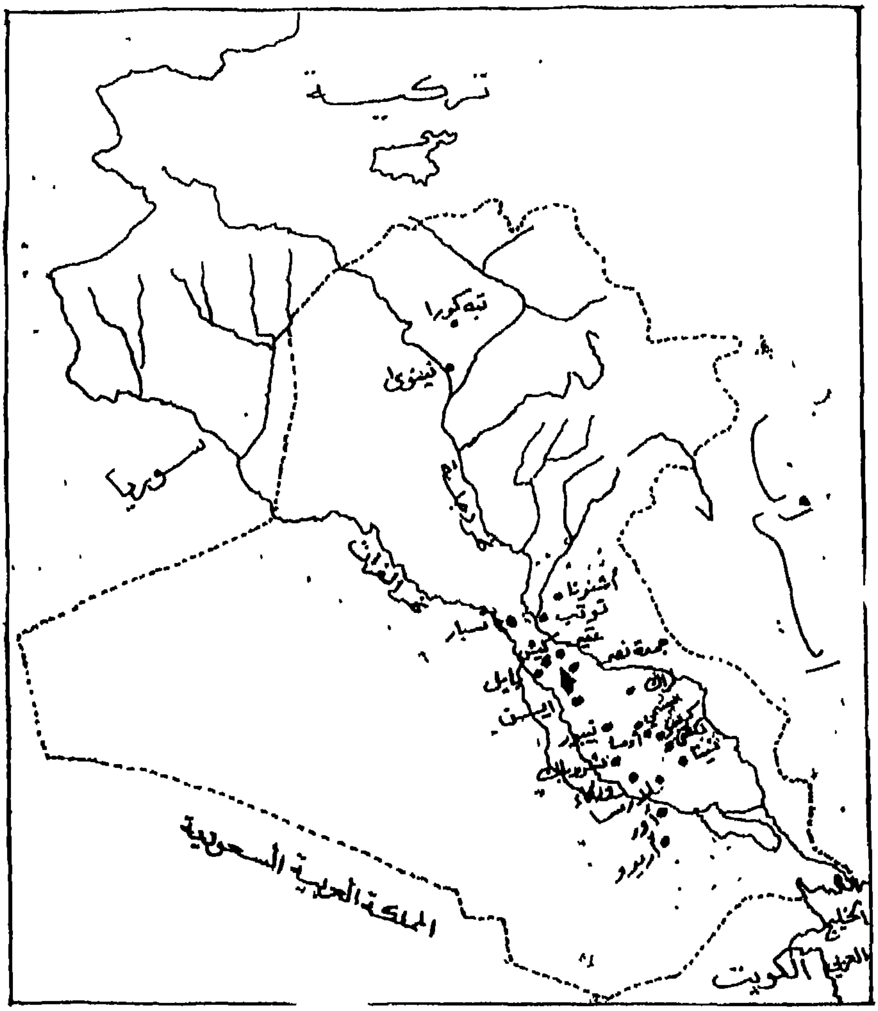
١٨- Adams, R., Ibid, P. 191.

١٩- Delougaz. P., The Oval Temple at Khafajah, 1940.

٢٠- طه باقر . نفس المصدر . ص ٣٢٥ .

٢١- Frankfort, H. Town Planing in Acient Mesopotamia, 1950, P. 104.

٢٢- Adams, R. Ibid, P. 191.



مدن عصر فجر التاريخ والعصور التاريخية المبكرة
في العراق

الفصل الثاني

التجمعات الزراعية الأولى

الدكتور وليـد الجـادر
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

يعتبر بعض المتخصصين ان فترة موضوعنا المباشر الخاص بالمستوطنات أو التجمعات الزراعية ما هي الا مرحلة أولى لانتاج القوت او بالاحرى بدايات العصر الحجري الحديث الذي يتحدد ببداية الالف الثامن قبل الميلاد.

والمعروف ان الظروف البيئية والمناخية كانت ملائمة ويضاف الى هذه المناطق منطقة الجزيرة التي تحدد جغرافيا بالمنطقة الكائنة تقريبا بين دجلة والفرات ابتداء من شمال وسط العراق جنوبا الى سلسلة جبال جنوبي اسيا الصغرى شمالا وتتميز هذه المنطقة بكونها عبارة عن منطقة سهوب او هضبات تقع على ارتفاع (٥٠٠ ــ ١٠٠٠ قدم)[1] .

وتعتبر هذه جزءا من هضبة جزيرة العرب وهذه الظروف كانت متكاملة لتوفر غابات لاشجار متنوعة اضافة الى نمو نباتات واعشاب برية وخاصة على منحدرات الجبال وجوارها وعلى ضفاف مسارات المياه المتوافرة بشكل

خاص[٢] وكان للمتغيرات المناخية دورها في التوصل الى مرحلة انتاج القوت مع العوامل الاخرى ، ومنها تراكم المعارف والتجارب أي بفعل التقدم الثقافي والتقني الذي بلغه الانسان . وفي الحقيقة فقد حدثت التغييرات في تجارب البشر ونوع النباتات والحيوانات ، وكان تدجين الحبوب عن طريق الانتقال العرضي لجامعي القوت او الحيوانات القابلة للتدجين في المناطق المرتفعة الى مناطق السهوب والوديان ، وكان انتقال الجميع موسميا وظلت جماعات اخرى تمارس تخصصاتها المقاربة وهو رعي الحيونات[٣] ، اضافة الى التخصصات المكملة واهميتها في بدايات الاستقرار الموسمي . من قرية جرمو تعرف حتى الان اقدم الدلائل التي تشير الى بدايات الاستقرار في اولى القرى الزراعية وزراعة اولى الانواع المهمة من الحنطة والشعير وهي نماذج لازالت تعتبر من اقدم ما توصل اليه الانسان في الزراعة. تقع قرية جرمو على بعد حوالي احد عشر كيلومترا شرق جمجمال التي تقع بدورها في منتصف الطريق بين كركوك والسليمانية وتقع على ارتفاع حوالي ٧٥٠ مترا فوق مستوى سطح البحر[٤] . وبناء على مجموعة اختبارات كاربون ١٤ الاشعاعي فان منقب القرية بريد وود ، يرجح ان تاريخ القرية وبداية انتاجها للقوت يعود الى حدود ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد[٥] . انتشر التجمع السكاني في جرمو على مسافة تزيد بطبيعة الحال على المكتشف منها حتى الان وهو حوالي ١٥٠٠ م^{٢} من اصل يقرب من حوالي ثلاثة عشر الف مترا مربعا . ولاهمية اختيار الموقع الذاك من قبل سكانه فان صلاحيته للمعيشة كانت متوافرة بشكل متسلسل وعلى مدى ست عشرة طبقة او مرحلة معيشة وبلغ عمق هذه الطبقات عموديا حوالي سبعة امتار وكانت الحنطة البرية من النوع المعروف بـ (Emmer, Einkorn) من اولى النباتات المهمة التي توصل الانسان الى

تدجينها وتتميز هذه النوعية من الحنطة بان صنوف السنابل كانت ثنائيـة ورباعية واصبحت بعد تدجينها سداسية بالطفرة(٦) ٠

وهناك نوعية اخرى من الحنطة المعروفة بـ (einkorn) والبري منها ثنائي صفوف السنابل والمهجن سداسي صفوف السنابل ٠ ومع الحنطة كان الشعير الذي يميز البري منه بكونه ثنائي الصفوف أي أنه يتألف من صفين من الحبوب بينما اصبح المهجن محتويا على ستة صفوف ، وتعرف مجموعتان من الشـعير : الشـعير الذي تحمل سنبلته صفين من الحبوب والشـعير الذي تحمل سنبلته ستة صفوف من الشعير والاولى كانت تنمو في البراري واقدم شعير مدجن عرف من جرمو ٠ وبالاضافة الى هذين النوعين الرئيسين كانت هنالك مجموعات اخرى وتشمل قمح الخبز الذي تنمو في سنابله ستة صفوف من الحبوب وانواع اخرى دجنت في مراحل لاحقة ٠ وكان تحسين انتاج البذور يتم باختيار افضل الحبوب للبذار وبالاختيار غيرالمقصود للانواع وبهذه الطريقة نتجت حبوب اكبر حجما مما كانت تنتجه النباتات البرية ٠ وفي مستوطن جرمو كانت زراعـة الحنطـة من النوع الاول (emmer) معروفة وتعتبر من اولى الاصناف المزروعة في هـذا المستوطن(٧) ٠ وفـي مستوطنات اخرى لاحقة مثل مستوطنة حسونة وام الدباغية كانت زراعـة الحنطة والشعير مألوفة وكانت العناصر الرئيسـة المهمة للاستقرار في قرى او مستوطنات زراعية وكانت الحنطة والشعير تنموان سوية في جميع مواقع العصر الحجري الحديث المبكرة ، وكان كلاهما ضروريا للاقتصاد الزراعي الجديد وتعتبران مادة غذائية مهمة ويمكن خزنهـا بسـهولة(٨) ، وهـي غنيـة بالكاربوهيدرات المولدة للطاقة ، ومثل هذه الحبوب تعتبر غلات اصلية في

المناطق التي تنمو فيها النباتات القرنية والبقولية نموا طبيعيا والنباتات التي تنتج فيها الزيوت مثل الكتان كانت مهمة كذلك كما ان انواعا عديدة من الجذور والفواكه كانت تزرع في العصر الحجري الحديث • ومن النباتات المنتجة للزيوت الزيتون والسمسم والخروع •

ومن المستوطنات المعاصرة الاخرى لاولى المقرات الزراعية موقع تمرخان الواقع في منطقة مندلي والقريب من مستوى الانتاج الحضاري • وكذلك الحال بالنسبة لموقع كاني سور الواقع جنوب مستوطن جرمو وخورا نامق الذي يقع على بعد حوالي سبعة كيلومترات شمال شرق جمجمال وقرة جيور وخرابه القريبتان من المستوطن جرمو[٩] • وفي سهل رانية الواقع شمالي غربي اربيل عثر على مستوطن زراعي معاصر لجرمو وحسونة ويعرف هذا المستوطن بمستوطن شمشارة : يبلغ ارتفاع المستوطن ١٩ مترا ويقع على الضفة اليمنى للزاب الصغير ويقرب طوله اكثر من ٣٣ مترا ويحتوي على ست عشرة طبقة سكنية[١٠] وتمتد مستوطنات اخرى معاصرة ولاحقة لمستوطنة جرمو في تركيا ومناطق اخرى الى الشرق والغرب والجنوب الغربي وصولا الى مناطق تقع اليوم في سوريا وفلسطين والاردن ومنها تل الرماد الذي يقع جنوب غربي دمشق وبقراس الذي يقع على الضفة الغربية لنهر الفرات جنوب دير الزور بحوالي ٤٠ كم ومريبط ورأس شمرا وفي الاردن مستوطن البيضا القريب من البتراء واريحا ••• الخ •

وخلال فترة الالف السادس قبل الميلاد انتشرت تجمعات سكنية زراعية في شمال وادي الرافدين ومناطق عديدة مجاورة وتمثل قرية حسونة الزراعية نموذجا متكاملا والمعروف ان هذه التسمية منسوبة الى قرية معاصرة تحمل نفس الاسم وتقع على بعد حوالي ثلاثين كيلومترا جنوب الموصل والى الجنوب الغربي من مركز حمام العليل والى الغرب من الطريق القديم الذي يوصل بغداد بالموصل ، وتبين من خلال التنقيبات التي اجريت فيها[١١]

استمرارية السكن لحوالي اكثر من عشرة اجيال ، والمعروف ان من مميزات هذه الفترة ، من خلال موجودات هذا المستوطن الرئيسة وما يتميزه المستوطن ان السكان فيه ، كانوا يعيشون في اول الامر في مستوطن بسيط يمكن تسميته بسكن الاكواخ والخيام ، وفيما بعد وفي الطبقات الاحداث رقيا في نفس المنطقة شيدت البيوت من الطين (الطوف) وفق تخطيط مستطيل ايضا . ويتراوح ثخن الجدران بين ٢٠ — ٤٥ سم والبيت يتألف من عدة غرف صغيرة ذات وظائف متعددة قسم منها مخصص للنوم والاخر للخزن والطبخ .. اما ارضيات البيوت فانها من الطين المرصوص الذي ملط بطبقة خفيفة من الطين كذلك زودت الغرف بمداخل . اما اسلوب التسقيف فيبدو ايضا انه مائل وباسلوب الجملون ومصنوع من الاشجار او القصب المكسو بطبقة سميكة من الطين ، كذلك شيد سكان القرية مخازن للحبوب وجعلوها في ارضيات المباني وهي من الطين المطلي بالجص من الداخل والقار من الخارج .

من نفس مستوى المرحلة المعروفة بثقافة او حضارة حسونة تنتشر مستوطنات عديدة يقرب المكتشف منها لحد الان حوالي الستين موضعا ، وتنتشر هذه الى الغرب والشمال الغربي من مستوطنة حسونة الزراعية النموذجية ومن هذه المستوطنات قرية ام الدباغية . تقع هذه القرية على مسافة حوالي الخمسة عشر كيلومترا الى الغرب من مدينة الحضر وتشمل مساحة مشغولة ابعادها المكتشفة حوالى ١٠٠ × ٨٥ مترا(١٢) . والملاحظ ان بيوتها مشيدة بالطوف وفق تخطيط مستطيل في شكلها العام ثخن الجدران حوالي نصف متر ، توجد تخصصات مميزة لبعض الوحدات البنائية في هذه القرية ، ومن ذلك غرف صغيرة بدون مداخل مشيدة في صفين متقابلين لربما تكون مستخدمة كمخازن تتوسط هذه قاعة او فناء داخلي اقترح استخدامها ورشة لصناعة الفخار والملاحظ في هذا المستوطن استخدام اللبن أول مرة ، ووجدت بقاياه مبلطة لارضية،وفيها ساحة تتوسط مجموعة من البيوت.كانت

اهم المحاصيل الزراعية هي : الحنطة والشعير المألوفين في حسونة مع الاعتماد على الزراعــة الديميــة ٠

اعتمد سكان المستوطنة أيضا على الحيوانات البرية والحيوانات المدجنة الى جانب الحاصلات الزراعية الانفة الذكر ومن الحيونات البرية اعتمدوا بشكل خاص على الحمــار الوحشــي والغزال والخنزير البري والطيــور والحيوانات المدجنة كالاغنام والماعز والخنازير والماشية ٠ ويتمثل في مستوطنة ام الدباغية الموقع الذي يربط تحركات الجماعات البشرية من الشمال باتجاه الشرق والجنوب الشرقي،وللسكان علاقة واضحة مع مستوطنات مهمة وواسعة تقع باتجاه الشمال مباشرة تلك هي مجموعة تلول يارم تبه (بالتركية يعني نصف تل) الواقعة على مسافة حوالي ستة كيلومترات جنوب غرب تلعفر وتمتد هذه البقايا على شكل ست مستوطنات تمتد لمسافة حوالي كيلومتر وعلى جانبي نهر ، ولقد استــمر الاسيطان في هذه المواقع لفترة تزيد على الالف عــام حيث احتوت ثلاثة من هذه التلول على مخلفات ثقافات حسونة وحلف والعبيد وتم العثور على ١٣ طبقة بسمك حوالي ستة امتار ٠ كان الاستيطان في بيوت من الطين على وفق التخطيط المستطيل ايضا،والملاحظ ان الجدران ملونة باللون الاحمر وتحتوي البيوت على ساحات وممرات تفصل بين الغرف،ووجد بناء مميز يتكون من ١٤ غرفة شيدت بصفين وربما كانت هذه عبارة عن مخازن لاهل القرية(١٣) ٠ والملاحظ وجود تقارب وتشابه في استخدام المواد الاولية المتطورة مع مستوطنة تل الصوان ومن ذلك شيوع استخدام مادة الجص وتشابه في بعض الوحدات البنائية التي يتوضح انها كانت تستخدم من قبل سكان المستوطنة عموما أي انها كانت ذات نفع عام ٠

وتعاصر هذه المستوطنات في يارم تبة مستوطنات اخرى قريبة فوق تلول الثلاثات : وهي عبارة عن اربع مستوطنات متجاورة تقع بالقرب من مدينــة

تلعفر[١٤] • ولقد تم العثور على ست عشرة طبقة سكنية تضم ايضا المدة المحصورة بين حضارة حسونة وحضارة العبيد •

من المستوطنات التي تعود الى عصر حسونة والتي تقع قريبة من مدينة كركوك قرية مطارة وفيها المواصفات الثقافية والانتاج الذي يشابه عصر حسونة وفيما بعد سامراء • وفيها ايضا الانتاج الذي يميز ثقافة المنطقة التي تقع شمال وسط الطرق وضمن الخط الذي يفترض ان يكون من المواضع التي حطت فيها جماعات سكانية خلال فترة منتصف الالف السادس قبل الميلاد وهي الفترة التي تميزت باتجاه المناخ نحو الجفاف النسبي الثاني بعد فترة الجفاف الاول في نهايات عصر البلايستوسين قبل حوالي الاثني عشر الف عام •

احتوى المستوطن المهم هذا على ست طبقات اثرية بسمك حوالي ٧ امتار، الجدران مشيدة بالطوف وفق التخطيط المستطيل[١٥] • والمهم في بقايا المستوطن وموقعه الجغرافي في جنوب كركوك انه يوضح انتشار وتحرك المزارعين من شمال العراق باتجاه الشرق والجنوب الشرقي ليكونوا بعد ذلك طلائع السومريين الذين كونوا القرى الزراعية اللاحقة في وسط وجنوب العراق • باتجاه الشمال الشرقي وعلى الضفة اليمنى لنهر الزاب الصغير والى الجنوب من قضاء رانية كانت هناك مستوطنة زراعية لفترة ست عشرة طبقة تلك هي المستوطنة المعروفة محليا شمشارة[١٦] وتبلغ تسعة عشر مترا وطولها حوالي ٣٣٠ مترا • استمر الاستيطان في المنطقة هذه خلال عصور ماقبل التاريخ وحتى العصور الاسلامية، ويوضح الاختيار الذكي للمستوطن في البداية استمرارية تواصل التجمع السكاني فيه • وهو يقع على منحدر واسع على نهر الزاب الصغير من جهة ومحميا بمرتفعات جبلية من الجهة الاخرى ويرتفع حوالي ٥٢٠ مترا فوق مستوى سطح البحر وطبقات عصر حسونة الزراعية من فترة الالف السادس قبل الميلاد وجدت في ثنايا

الطبقات المحصورة بين الطبقة التاسعة والسادسة عشرة في هذا المستوطن وربما تكون هناك طبقات اخرى ترجع الى فترة اقدم من عصر حسونه وذلك لان البعثة التنقيبية الدنماركية التي عملت في المستوطن منذ عام ١٩٥٧ لم تصل في حفرياتها الى الارض البكر ، واستأنفت المؤسسة العامة للاثار والتراث الاعمال التنقيبية الضرورية اللاحقة والتي توضحت من خلالها تفاصيل مهمة جدا ومنها اعتماد سكان المستوطن على الفائض من انتاجهم الزراعي في سبيل مبادلته باحتياجاتهم لمنتوجات اخرى عن طريق التجارة ، والملاحظ استخدام المستوطنين هنا لقطع من الصخر كأسس لجدران مشيدة من الطوف في الطبقة الرابعة عشرة[١٧] .

والملاحظ ايضا استخدام اواني من المرمر بعضها مزود بثقوب وتشير صناعتها على تطور تقني واضح واحتمال سبق هذه الصناعة لمرحلة صناعة الفخار كما هو الحال في مستوطنة جرمو ، ومن المرمر ايضا صنعت في هذا المستوطن اساور وادوات كانت تستخدم في تصنيع ادوات اخرى[١٨] . اما مستوطنة سامراء وتل الصوان فهما من المستوطنات الزراعية النموذجية اللتين تقعان على الضفة الشرقية لنهر دجلة وضمن الحد الاسفل لمنطقة شمال وسط العراق . ويقع المستوطن الاول أسفل المقبرة الاسلامية مباشرة[١٩] . وعلى نهر دجلة وبين مقصر الخليفة وسامراء الحديثة ، وتم العثور على بقايا تميز الفترة والموقع .

اما المستوطن او التجمع الزراعي المعروف بتل الصوان[٢٠] ، الذي هو عبارة عن مجمع واسع يحتوي على ثلاثة مستوطنات متجاورة امكن تمييزها حتى الان . وتتميز ايضا برقي في اساليب البناء حيث استخدام اللبن في تشييد الجدران لاول مرة كذلك استخدام السور المحيط بالمستوطن الرئيس وتزويده بمداخل ودعامات او ابراج . كذلك جرى اسلوب تخطيط البيوت بالتخطيط المستطيل ، وتميزت مجموعات من الوحدات البنائية

بكونها ذات وظائف واستخدامات عامة بفعل مساحاتها التي تصل الى : ١٤ × ٩ ، ٥ر٧ مترا وتحتوي على خمس عشرة غرفة منيدة بلبن كبير الحجم وايضا باستخدام السلالم المشيدة من الجص والتي وجد انها تؤدي الى سطوح البيوت .

واستخدمت منحوتات من الحجر (المرمر) وبمستويات تقنية متميزة خلال هذه المرحلة التي تحدد ايضا بمنتصف ونهايات الالف السادس قبل الميلاد . ان قبور الدفن تميزت ايضا باحتوائها على موجودات ثمينة ذات صناعة دقيقة .

واعتمد السكان في هذا المستوطن على السقي في زراعتهم ووجدت بقايا متفحمة تدل على ممارسة زراعة نبات الكتان والقنب .

والمهم ذكره هنا ان الاقتصاديات الرئيسة المعتمدة على الزراعة قد تطورت باعتماد التجمع الزراعي هنا على انواع متعددة من الحنطة والشعير وانواع اخرى جديدة من المزروعات ، يضاف الى كل ذلك اكتشاف تصنيع لاولى الادوات من النحاس حتى الان ، هذا علما ان تاريخ فترة المستوطن تعود بسوجب اختيار بواسطة الكربون ١٤ الاشعاعي الى النصف الثاني من الالف السادس قبل الميلاد(٢١). لقد اعتمد السكان في تل الصوان على المزروعات الرئيسة من الحنطة والشعير والكتان وعلى تربية الماعز والخراف والبقر والخيول والحمير والغزلان والحمر الوحشية والخنازير البرية اضافة الى انواع من الاسماك النهرية(٢٢) .

ولقد استخدم سكان مستوطنة تل الصوان مخازن للغلال مغطاة من الداخل بسلاط من الجص وذلك لمنع تسرب الرطوبة ولحفظها من القوارض . والملاحظ بموقع تل الصوان استخدام القار في البناء . ثم ان اسلوب التسقيف

كان يقوم على اساس وضع قطع من الخشب ثم قطع من الحصير فوقها طبقات من القير ومثل هذا الاسلوب تم اكتشافه عمليا اضافة الى اكتشاف استخدام بقايا الخشب ايضا[٢٣] .

ووجد في نهايات الالف السادس قبل الميلاد ما يقرب من مائتي مستوطنة زراعية في شمال العراق والنموذجية منها المكتشفة حتى الان مستوطنة الاربجية الكائنة في الموصل في الجانب الشرقي من نهر دجلة وقرب حي الزهور والتي تعرف اليوم بتبة رشوة[٢٤] . الجديد في هذه المرحلة ان بيوتها مشيدة وفق تخطيط دائري اضافة الى التخطيط المستطيل المعروف سابقا كذلك البناء المزدوج من الشكل المستدير والمستطيل معا (ينظر في ذلك الفصل الخاص بالعمارة والبناء)[٢٥] ، وتشير مساحة القرية ومستوى الانتاج الزراعي والصناعي فيها الى تطور كبير في تطوير بناء البيوت واستخدام اللبن في تشييدها والشوارع المبلطة بالاحجار الطبيعية . وتوجد دلائل على استخدام الري الصناعي في هذه القرية والتي تمثلت باستخدام الابار[٢٦] على الرغم من وفرة امطارها التي تساعد على نمو مختلف انواع المحاصيل الزراعية دون الحاجة للري الاصطناعي ولقد نمت زراعة الحبوب التقليدية والضرورية خلال هذه الحقبة وهي الحنطة والشعير مع وجود حبوب برية ايضا كما وجدت بذور الكتان .

وفي هذه المرحلة الحضارية ومن بين المواقع النموذجية الاخرى هذه نعرف قرية ابراهيم عزو التي تقع الى الشمال الغربي من موقع الاربجية وعلى بعد حوالي خمسة عشر كيلومترا شمال غرب مدينة الموصل ، وسبق لدائرة الاثار والتراث التنقيب في هذه المستوطنة عام ١٩٨٢ ووجدت ما يشير الى استخدام السكنى فيه الى ما يقارب من الك عام[٢٧] ومن المهم ملاحظته هنا ان دور السكن في المستوطنة على شكل دائري بقطر يصل الى ٣ر٥ م وسمك الجدران تصل الى اكثر من ٣٠ سم .

وفي المستوطن الثاني او التل الثاني من مواقع يارم تبة تتمثل ثقافة مرحلة الاربجية وحلف النافذة الى ثقافات مستوطنات لاحقة ، حيث الشكل العام للمباني يشمل التخطيط الدائري والمستطيل والمربع ٠

وهناك قرى اخرى تعود للمرحلة نفسها وتقع باتجاه الشرق والشمال الشرقي ومنها قرية بانه هلك (تقع قرب ناحية ديانة في سهل راوندوز) وقرية بكم الواقعة في سهل شهرزور[٢٨] ٠

وخلال نهايات الالف السادس وبدايات الالف الخامس قبل الميلاد ترصد في معظم مناطق جنوب غرب اسيا وحتى شمال افريقيا تحركات للجماعات السكانية في هاتين المنطقتين وذلك لحدوث تبدلات في المناخ بصورة تتوضح فيها معالم جفاف محلية وعامة واحيانا تجبر العديد من الافراد والجماعات على الهجرة ٠

في مستوطنة تعرف بقرية جوخة حامي وهي قرية تقع الى الشمال من مركز قضاء مندلي ما يشير الى علاقات سكانية وثقافية واضحة مع جماعات الشمال من المواقع الزراعية من فترة الاربجية وحلف،وفي الوقت نفسه فانهذه القرية النموذجية تشير الى ارتباط التجمعات السكانية الشمالية بالوسطى والجنوبية،ووجدت في المستوطنة بقايا انواععديدة من الشعيروالعدسوبذور العدس الكبيرة الحجم تشير بوضوح الى استخدام الري او السقي اضافة الى العثور على بقايا من قنوات يمكن تمييزها بوضوح على انها خنادق ري اصطناعية[٢٩] وبقايا سواقي محفورة حول القرية القديمة ٠

ولقد عثر في جوخة مامي على بقايا لدور سكن مماثلة لما عثر عليه في تل الصوان وايضا شبيهة لما عثر عليه مؤخرا في مستوطنة صنكر (التل أ) في حوض سد حمرين ٠

مستوطنة اريدو :

كانت اريدو من المدن الرئيسة المهمة التي كانت قائمة قبل الطوفان او الفيضانات الكبيرة وذكر السومريون انها خلقت من قبل الالهة ، وكانت اول مدينة مقدسة وذكروا انها كانت تقع على البحر وانها كانت مركزا لعبادة الاله انكي اله المياه وانها اضافة الى ذلك كانت مركزا لسكنى الكهنة وطلاب الدين.وورد اسم اريدو في جداول اثبات الملوك ، وهكذا تبدو اهمية هذه المدينة ليس فقط في القسم الجنوبي من وادي الرافدين ولكن في منطقة الخليج العربي ايضا لان اثارها الفكرية وصلت الى سكان تلك المنطقة ويذكر ان الملك اتمينا انشأ في هذه المدينة حوضا كبيرا تيمنا باله المياه انكي ويبدو ان هذا الحدث كان بعد تغير مجرى النهر عن المدينة وذكر الملك شولكي انه اعتنى بمدينة اريدو التي تقع على النهر. ويذكر ان الملك بورسن شيد زقورة للاله انكي في مدينة اريدو وتعود مباني اخرى في المدينة الى عهد بورسن وورد ذكر هذه المدينة في بداية شريعة حمورابي وظلت قدسية واهمية اريدو مستمرة بدليل ذكرها في كتابات وحوليات الملوك . وذكرها الاشوريون من ضمن المدن التي احتلوها في جنوب العراق وذكر الملك البابلي نبوخذ نصر انه قام بصيانة زقورة المدينة وعثر على بقايا اجر مختوم كتب عليه نبوخذنصر ملك بابل باني الايزاكيلا والازيدا الابن البكر لنبوخذ نصر ملك بابل .

تقع اريدو الى الجنوب من مدينة أور وتعرف اطلالها باسم تل ابو شهرين وهناك رأي يرجح هذه التسمية على اساس ان هذا المستوطن القديم كانت القبائل العربية تسكنه لمدة شهرين حددت مابين منتصف شهر كانون الاول ومنتصف شهر شباط وخلال هذه الفترة تبدو فعلا امكانية اتخاذ مثل

هذه المواضع في مناطق جنوب وادي الرافدين مستوطنات سكن مؤقتة والمعروف ان منطقة ابو شهرين هذه ظلت مألوفة السكنى وبتشكل مستمر حتى نهاية القرن الخامس ق • م • ويبدو انها كانت معروفة بما تبقى من ابنيتها بالنسبة للعرب الرحل •

وكان تايلر اول من اكتشف اطلال هذه المدينة ووجد مايميز حضارة جديدة وساعده رولنسون الانكليزي الذي ذكر انها نفس المدينة المذكورة في العهد القديم اريدو • وكانت البقايا الاثرية لمستوطن اور المقير وابو شهرين قد نبشت بعد ذلك من قبل المنقب الفرنسي لوفتس بدون ان يشخص ماهية الموقعين• ثم عمل في اريدو وأور المنقب البريطاني كامبل تومبسون ولحساب المتحف البريطاني بعد نهاية الحرب العالمية الاولى • هذا اضافة الى بعثة المنقب البريطاني الاخر هال • وفي الحقيقة تبدو منطقة اريدو صعبة لشدة الاعاصير الترابية وندرة المياه وقلة القرى القريبة منها • لقد كانت بدايات العمل في مدينة اريدو شاقة وشائكة وكانت طبقات الاتربة والرمال عائقا دون تحديد معالم المدينة في عصورها التاريخية ولهذا فقد التجأ المنقبون الى المنطقة الدينية وما يجاور الزقورة من مباني واعتمدت البعثة من اجل ذلك على خندق بدأ من الزاوية الشرقية للزقورة حتى جدار المدينة باستقامة الجانب الجنوبي الشرقي للزقورة، كذلك اعتما ن طريقة البحث على شكل نقاط غير بعيده عن موقع الزقورة • وكانت فترة الموسم الاول قد استغرقت حوالي العشرة اسابيع تم الكشف خلالها عن المعبدين السادس والسابع • والمعروف ان مجموعة المعابد في اريدو تعتبر اهم المكتشفات التي حققتها بعثة مؤسسة الاثار وذلك لانها كشفت عن الاساليب المعمارية الاولى في القسم الجنوبي من وادي الرافدين • وكانت فاتحة التنقيب العلمي المنظم في المدينة عام ١٩٤٦ــ ١٩٤٨ على يد المرحوم فؤاد سفر ومفتش الاثار العراقية انذاك الباحث سيتون لويد• وتحددت نتائج التنقيبات التالية من قبل المتخصصين في مديرية

الآثار والتراث العامة خلال اعمالها مابين ١٩٤٨–١٩٤٩ ٠ وقد سبق ذلك اكتشاف مجموعة من الجماجم البشرية في مقبرة اريدو التي احتوت الف قبر ولكن المكتشف منها بلغ المائتي قبر وثبت ان نوعية الجماجم فيها ترجع الى سلالة البحر المتوسط ٠ وفي الموسم الثالث من الحفريات في تل ابو شهرين جرى البحث والتنقيب في الاقسام المجاورة للزقورة ايضا حيث تم الكشف عن بقايا سكن بيوت هي في واقع حالها عبارة عن اكواخ مبنية من الطين ٠ وتركزت الحفريات في المرتفع الشمالي الذي يزيد ارتفاعه على الاربعة امتار والذي يغطي مساحة حوالي كيلومتر مربع واحد ٠ ولقـد تميزت جدران بنايتين متناظرتين بتأثير المطر حيث ظهرت حدود الجدران واضحة بحيث سـهلت متابعتها ٠ وفي خندق اختباري بلغت مساحته ٧ × ٧ مترا تم النزول الى مسافة تزيد على الاثني عشر مترا بهدف الوصول الى الارض البكر ،ولقد امكن تحديد اربع عشرة طبقة سكنية خلال هذا العمق ووجد ان اسفل الطبقات كانت قد شيدت على طبقة من الرمل ووجد ان ارضيته تميل من الغرب الى الشرق ويتراوح سمكها ليصل الى حوالي اقل من ستة سنتمترات ٠

ووجد ان بقايا ستة بيوت احتوتها الطبقات من الاولى وحتى السادسة ،وقد استخدم في بنائها او بناء اجزاء منها اللبن بمقاسات بلغت ٤٤×٢٢×٨سم و ٤٩×٢٦×٨سم ووجد ان ثخن الجدران بقدر طول اللبنة الواحـدة أي انه لا يزيد عن نصف المتر ٠

ووجد المعبد النموذجي الاول في اريدو في الطبقة السادسة عشرة وهي اقدم الطبقات ،وكان هذا المعبد يتألف من غرفة واحدة مساحتها حوالي ثلاثة امتار مربعة ووجـد ان فيه ميزات المعابد التي شاعت فيما بعـد في المدن السومرية وهي دكة القرابين والطلعات والدخلات والارتفاع عن سطح الارض وتطورت المعابد في هذه المدينة من ناحية اساليب البناء والاضافات بازدياد وارد المعبد اقتصاديا وتوسع نفوذه في المجتمع، هذا علما انه توجد ثماني عشرة

طبقة في اريدو•ويظهر من نتائج التحريات ان استيطان الفلاحين في هذه القرية انقطع تقريبا من بعد عصر الوركاء واقتصرت حياة القرية في العصور التاريخية اللاحقة على جملة بنايات ذات طابع رسمي وديني تعهدها الموظفون والكهنة التابعون للمعبد والزقورة وما يتبعهما • وقد تبين ان اقدم قرية تأسست في الطبقة التاسعة عشرة فوق ارض كانت خالية من المباني مما يشير الى ان طلائع القرويين سكنوا في الاكواخ •

اما مستوطنة تبه‌كورا فانها تقع على بعد ثلاثة كيلومترات من خرائب خرساباد دورشروكين وعلى بعد ٢٢ كيلومترا الى الشمال الشرقي من مدينة الموصل • وأقرب قرية لها هي قرية الفاضلية التي تقع عند سفح جبل بعشيقة على بعد نحو كيلومترين الى الشمال من التل ويجري بالقرب منها جدول ماء وهي قريبة ايضا من نهر الخوصر الذي ينحدر الى نهر دجلة وتشرف على سهول نينوى الخصبة ولذلك لم يهجرها الناس لاية مدة طويلة • استمر الاستيطان فيها حتى اصبحت تلا مرتفعا مخروطي الشكل • تعتبر المستوطنة هذه من المستوطنات الزراعية النموذجية التي تعود بداياتها الى حقبة تعاصر فترة مستوطنة اريدو ، وتبه كورا اسم كردي معناه التل الكبير ويسميه المجاورون للمستوطنة حاليا من العرب بتل علي بك نسبة الى اسم مالك قديم للارض التي يرتفع عليها التل • ان اول من اهتم بتبة كورا هو السيد هنري لايارد وقد ذكر في وصفه لها انها تل مرتفع مخروطي الشكل وبوسع المرء ان يراه من مدينة الموصل • وهو احد التلول المتعددة المنتشرة في سهول بلاد اشور وذكر ايضا ان مدينة خرساباد ربما دلت على ارتباطها بنوع من الاتصالات بهذه المدينة القديمة • وقام السيد لايارد بشق حفر اختبارية في هذا التل ولكنه لم يجد سوى كسور الفخار التي لم تكن لها اهمية كبيرة في ايامه•وفي سنة ١٩٢٧ وصلت تبه‌كورا هيئة اثارية من جامعة بنسلفانيا بادارة الدكتور سبايزر ، وبدأت الهيئة اعمالها بدراسة المنطقة الممتدة بين جبل

بعشيقة ونهر دجلة لعدة ايام فزارت عددا من التلول وجمعت من تلك التلول كثيرا من اللقى الاثرية التي تعود لعصر قبل التاريخ . واعتمدت الهيئة على كسور الفخار لتثبيت الادوار الزمنية التي مر بها التل ، وقد سبق ان عثر على مثل هذه الكسور الفخارية في جولات تفتيشية جرت في المنطقة الممتدة بين الموصل وكركوك وتبين منها ان هذه المنطقة كانت مستوطنة في العصر الحجري المعدني . ووجدت الهيئة ان معظم التلول كانت واطئة وغير منتظمة وقد هجر اغلبها في الفترة الانتقالية من عصور ما قبل التاريخ الى العصور التأريخية غير ان تبة كورا تميزت عن غيرها بارتفاعها وسعتها وانتظامها فقد بلغ ارتفاعها ٢٢ مترا عن سطح الارض المجاورة وبلغ قطرها ١٢٠ مترا عند القاعدة وكانت اثارها السطحية قديمة جداً في تاريخها ووجدت الهيئة ان ثلثي المنحدرات السفلية من التل تعود مخلفاتها الى العصر الحجري المعدني على حين كانت اثار قمته تعود للعصور التأريخية أي أن القسم الاعظم من التل قد تشكل خلال عصور قبل التاريخ بينما كانت القمة تمثل العصور التاريخية المبكرة مثل عصر فجر السلالات والعصر الاكدي والعصور التاريخية الاخرى(٣٠) . وقد اظهرت التنقيبات في هذا المستوطن وفي مستوطن اخر قريب يعرف بتل جيلا القريب من بعشيقة ان طبقات عديدة فيهما تمثل مرحلة انتقالية من عصر حلف ــ الاربجية الى عصر العبيد وهي فترة مهمة حدث فيها التحرك السكاني من الشمال باتجاه الجنوب نظرا لقلة نسبة الامطار ولتزايد اعتماد التجمعات السكانية الزراعية على الري سقيا . وتمثل مجموعة المواقع المكتشفة في حوض حمرين استقرار تجمعات سكانية في بعض هذه المواقع من الحقبة نفسها أي الحقبة المحصورة بين حلف ــ الاربجية والعبيد وصولا الى الحقب التاريخية والحقب اللاحقة كالبابلية والاشورية في مواضع اخرى . واهم المواضع التي ظهرت فيها معالم الحضارة الزراعية من هذه المرحلة مستوطنة تل عبادة الذي يقع في الجانب الشرقي لنهر ديالى وعلى بعد ١٢ كم

جنوب شرق ناحية السعدية ويمتد المستوطن في سهل زراعي واسع[٣١] وكذلك هناك مستوطن اخر من حقبة لاحقة لمستوطن تل عبادة ومن عصر العبيد هو مستوطن تل رشيد[٣٢] الذي يقع على بعد « ١٢ كم » جنوب تل عبادة ومن الحقبة نفسها أي عصر العبيد كاملاً وتتوضح من خلال مستوطنة تل عياش الزراعية معطيات مهمة موضحة لقرية نموذجية زراعية في حوض حمرين والمعروف عن تل عياش انه يقع على بعد حوالي ٧ كم الى الشمال الغربي من ناحية السعدية ويقع قريبا من الضفة الشرقية لنهر ديالى ويعتمد في زراعته على السقي والديم[٣٣]. وفي الحوض مستوطنات اخرى من عصر العبيد ومنها تل صنكر أ[٣٤] ومستوطن ابو قاسم الذي يبعد حوالي ١٫٥ كم عن جلولاء[٣٥] . ومستوطن تل مظهور الزراعي الذي يعود الى اواخر عصر العبيد في منطقة حوض حمرين وفي نفس المستوطن توجد استمرارية معيشة زراعية وصولا حتى بدايات العصور التأريخية وعصور فجر السلالات[٣٦] . وعن صور الزراعة المروية والتحضر في منطقة ديالى في نهايات عصر العبيد أي في الالف الرابع قبل الميلاد فان تطور الزراعة يلاحظ في مستوطنات تمتد قريباً من هور الشويكة وهذه الخطوط من المستوطنات تمتد من ابو يوالك وكذلك من ابو زعيل وابو رأسين وتمتد بموازاة مستوطنات مجاورة لتل أسمر وتل عقرب ثم هناك مجموعة اخرى تتركز على ابو دبس ثم خفاجي وبالتالي تل الضباع وخشم الواوي ويبدو انه كانت هناك شبكة متصلة من المجاري المائية تؤدي الى سهل ديالى ، والواقع فان معظم المستوطنات القروية الصغيرة كانت تقع قريبة من شبكة الانهار ، وتوضح خطوط هذه الشبكة نقاط الاستطيان المتباعدة مع ملاحظة احتمالات التحوير الحاصلة[٣٧] . ويبدو ان الاستيطان في هذه المرحلة من حوض ديالى الاسفل كان يتجمع بشكل طولي ومتقارب بحيث يوحي بوجود علاقات اجتماعية واقتصادية اضافة الى الوظيفية وخاصة اعمال الري التعاونية[٣٨] .

وفي جنوب وسط العراق وجنوبه تمتد مستوطنات زراعية عديدة مهمة مثل مستوطنة اور وحاجي محمد والعقير والعبيد • ويحتمل ان تكتشف لاحقا مستوطنات أخرى من مرحلة نهاية العصر الحجري الحديث وعصور قبل التاريخ ، وقد توصل المتخصصون الى تصنيع الزراعة ومكملات المجتمع الزراعي النموذجي واحتياجاته الرئيسة ومنها استعمال العجلة والمعادن ووسائل الري المنتظمة[٣٩] وتطوير البناء وتنظيم اقتصاديات المجتمع وتطوير التقنية وبصورة خاصة تقنية البناء وصناعة الطابوق • وكل هذه من العناصر الرئيسة التي هيأت امكانية اختراع الكتابة وهي العملية الحضارية الكبيرة التي حددت مرحلة عصور ما قبل التاريخ عن العصور التاريخية وبداية مرحلة حضارية كبيرة ما زلنا حتى اليوم نعيش فيها •

التصنيع الزراعي :

كانت بداية استخدام الادوات المتخصصة للحصول على المواد الغذائية من النباتات وأجزائها ، ومن هذه الادوات تلك المستعملة للطحن والدق اضافة الى المناجل والسكاكين • وفي الحقيقة ان المناجل كانت من الادوات المستخدمة لحصد النباتات البرية قبل ان تستخدم فيما بعد في عمليات الزراعة المدجنة ، والمناجل كانت عبارة عن مجموعة من النصال المصنوعة من حجر الصوان ومن الحجر الاوبسيدي[٤٠] المثبتة على مقابض خشبية وتدل بقايا الانواع المكتشفة في مستوطنتي جرمو وحسونة على استخدام طويل لهذه الادوات وذلك بفعل الاثار الدالة على ذلك ، وكذلك على شيوع استخدامها من خلال العثور على اعداد كبيرة من منهافي المستوطن الواحد •

ومن الادوات الحجرية المستخدمة في الزراعة : القدوم والمعازق وشكل الاخيرة مشابه لشكل الفأس واحد الطرفين يكون حادا ويمسك

بواسطة مقبض خشبي يمرر في ثقب معد خصصا لذلك وتعتبر هذه الاداة من الناحية العملية بمثابة المحراث اليدوي •

كذلك صنعت مجاميع عديدة من المجارش والهواوين والاواني الحجرية المتطورة وصنعت هذه الاواني قبل صناعة الاواني الفخارية التي ستصبح من الصناعات الضرورية في حياة المجتمعات الزراعية اليومية وكانت صناعة الاواني الحجرية نتيجة من نتائج التحسن والتطور في تقنية النقر والتثقيب حيث تجوف في المراحل الاولى بالنقر بواسطة مطرقة حجرية ثم تستكمل بالصقل وبالتهذيب والمادة التي صنعت منها تلك الاواني هي حجر الكلس والمرمر •

وكانت الهاونات والمدقات من التوابع الاساسية للزراعة ويبدو ان الهاونات البدائية كانت مستخدمة قبل العصر الحجري الحديث وذلك لسحق الجذور والبذور والاصباغ ••• الخ •

كما وجدت الرحى الحجرية المستخدمة لطحن الحبوب وقد وجدت في معظم المستوطنات الزراعية في العراق •

وافرزت الزراعة والاستقرار عمليات مكملة حضارية اخرى ومنها الغزل والحياكة وصناعة السلال ومثل هذه الصناعة كانت معروفة في جرمو • من سيقان الحشائش والبردي واوتار الحيوانات وقطع الجلد واستخدام مثل هذه المواد يمكن استنتاجه من حقيقة كون بعض الادوات الحجرية والعظيمة كانت قابلة للاستعمال فقط في حالة تثبيتها بمقابض بواسطة التسد والربط • وخلال الالف السادس قبل الميلاد صنع سكان قرية حسونة الكثير من الادوات الحجرية والطينية والفخارية والعظيمة وشملت هذه الصناعات المجارش والهواوين والازاميل والسكاكين والقاطعات والمعازق ورؤوس

الرماح ونصال واقراص مغازل صنعت جميعها من الصوان والزجاج البركاني . كذلك صنعوا من الطين اقراص المغازل وباعداد وفيرة وصنعوا دمى الطين الممثلة لرمز الخصوبة على شكل الالهة الام قسم منها وجد مصبوغا باللون الاحمر .

كذلك صنعت كرات المقلاع من الحجر والطين المجفف بالشمس والمفخور بالنار وذلك كنوع من عدة الحرب والصيد معا وتكون هذه الكرات صغيرة الحجم لا يتجاوز قطرها العشرة سنتمترات وبقاياها كثير في مواقع المستوطنات الزراعية واحيانا تكون غزيرة . والمقلاع عبارة عن قطعة من الجلد او النسيج يرتبط كل طرف بخيط يستقر الحجر فيها ويمسك الرامي بالطرفين ويلوح بالمقلاع في حركة دورانية ثم يطلق ما في المقلاع بعد ان يفك احد الطرفين ويمسك بالطرف الاخر(٤١) .

الصناعات الرمزية والفنية :

كانت العمليات الزراعية وكثرة انواع النباتات وفصول ومواسم زراعتها تستأثر بطبيعة الحال باهتمام معظم مستوطني القرى الزراعية . وكان الانتاج الزراعي ووفرته او قلة مصدره من مصادر الانفعالات الانسانية التي تتباين بحسب ذلك فضلا عن فعاليات متنوعة يتظاهر بها هؤلاء الافراد والجماعات ولا نعرف عنها الا من خلال استقراء البقايا المادية ، من هذه اللقى الاثرية من المنحوتات الطينية والحجرية والرموز والحركات المتممة لاشكالها ومظاهرها الخارجية بما في ذلك الوان وقطع مضافة من الخرز والحلي على هذه التماثيل.ولقد اتضح لمعظم الباحثين ان كثرة صناعة التماثيل الممثلة للنساء والحيوانات ما هي الا ترجمة لعقائد سكان هذه المستوطنات ومن هذه العقائد تقديس الارض وعلاقتها الواضحة بوفرة الانتاج وتقديس للمرأة ايضاً التي تعتبر السبب في خصوبة الانسان.وسمبت مثل هذه

النماذج بالالهة الام رمز الخصوبة والخصب لكل مظاهر الحياة ولقد وجد ان بعضا من هـذه النماذج قد جـرى تصليحها وترميمهـا انذاك وبعضها الاخر انتقلت حيازته من جيل الى اخر باعتبارها مواد مقدسة •

والدليل على اعتبار القدسية واضح في مثل هذه النماذج الدالة على الخصوبة وهو كونها ممثلة في الغالب للنساء ويندر جدا ان يكون الرمز رجلا كما هو الحال في نماذج مستوطنة تل الصوان(٤٢) •

وصاحبت الخرز الحجرية المصنعة والطبيعية الانسان خلال الفترات التي سبق العصر الحجري الحديث ايضا • وكانت في الغالب تدفن مع الاموات كدليل واضح على استخدامها اضافة الى الناحية الجمالية والتزيينية كرموز سحرية وفق اعتقادات خاصة لا نعرف تفاصيلها الواضحة •

والجدير بالملاحظة ان التقنية العالية لثقب الخرز الحجرية كانت تستلزم تجربة متنوعة في ذلك حيث كانت تثقب على شكل ندبة ثم يستخدم مثقـاب يدوي لجعل الثقوب دائرية او قرصية او حلزونية أو مخروطية • والمحفـر اليدوي المستخدم في تثقيب الخرز الحجرية يمكن ان يكون عبارة عن عصا اسطوانية وفي احد طرفيها رأس مدبب من الصوان ويعرف المحفر ذو الأكتاف الذي من المحتمل ان يكون قد استخدم في ثقب الخرز كما هو الحـال في النماذج المكتشفة من هذه المحافر في موقع جرمو(٤٣) •

واستعملت ايضا القلائد المصنوعة من اعداد متباينة من الخرز التي تصل اعدادها احيانا الى ما يزيد على الخمسين خرزة مصنوعة من احجار متنوعـة بينها العقيق والفيروز (الازرق والاخضر) والاصداف والعظام ••• وتكون اشكال الخرز المكـونة لهـذه القلائـد متنوعة الحجـوم ومن ضـمنها الدائـري والاسـطواني •

كذلك استخدمت مجاميع من الدلايات في الرقبة وانواع من الدلايات الحجرية مثل الدمالج والخرز من المرمر الابيض • كما استخدمت ايضا مجاميع من الاختام المستديرة والمربعة والمثمنة بتشكيلات من الوحدات الهندسية ، ونمت صناعة هذه الاختام من الحجر وصنعت في اول الامر كرموز ودلايات اضافة الى استخدامها فيما بعد وعلى نطاق واسع في المعاملات التجارية وخاصة بعد ان بدىء في صناعتها بأشكالها الاسطوانية المعروفة في بداية العصور التأريخية واصبحت واحدة من الصناعات المهمة التي تعتبر من الوثائق الخاصة بدراسة حضارة وادي الرافدين(٤٤) •

وفي الحقيقة فان بداية صناعة الفخار والعثور عليه في موقع جرمو وبداية من الطبقة الخامسة تثير تساؤلات عديدة وهامة فالمعروف ان صناعة الفخار تعتبر واحدة من الصناعات الرئيسة المكملة لطبيعة المجتمع الزراعي وخاصة في مراحل ممارسة الزراعة المبكرة • ولا تحتمل امكانية العثور على صناعة الفخار في فترة اقدم من فترة صناعته في جرمو ، كذلك فان اهتداء الافراد من الممارسين للزراعة المبكرة في الاقسام الشمالية في وادي الرافدين لصناعة الفخار كان بعد انتقال لجماعات من الكهوف الى بيوت بسيطة من مواد غير طينية ، فصناعة الفخار قد تم التوصيل اليها بعد استقرار هذه التجمعات السكانية في بيوت مستقرة وعلى شكل مستوطنات ثابتة نوعا ما • وصناعة الفخار بالنتيجة تعتبر واحدة من الخطوات المهمة التي تحدد طبيعة تعامل الافراد مع البيئة الجديدة وفي سبيل توفير الضروريات من الصناعات المكملة لهذا المجتمع القروي الزراعي الجديد • ويفهم مما سبق ذكره أن صناعة الفخار سبقتها صناعة الاواني من الحجر ، ان الدافع الرئيس لصناعة مثل هذه الاواني بشكل عام كان نفعيا بالدرجة الاساسية فقد توصل اهالي جرمو الى استخدام الاواني المصنوعة من الفخار للطبخ وحفظ السوائل وخزن مواد مختلفة اضافة الى نقلها والاتجار بها وشاع استخدام الفخار بديلا

عن الاواني من الحجر مما يدل على وعي جيد يضاف الى ذلك فان تطوير صناعة الفخار منذ مرحلة الصناعة الاولى مرورا بالمراحل اللاحقة من استخدام الزخارف والالوان يستلزم خبرة وتجربة • ومثل هذه الممارسة يجوز ان نعتبرها فنا خاصا لا يمكن ان يمارسه معظم افراد التجمع السكاني سواء في جرمو أو في اية قرية اخرى من نفس الفترة ولا حتى خلال الفترات اللاحقة وعلى الرغم من ان صناعة الفخار بفعل عدم شي الاواني في درجات حرارية كافية تدل ولا شك على عدم توصل الخزاف الى تجربة كافية الا ان نماذج اخرى تبدو مميزة باشكال وكأنها اقرب الى اشكال الحيوانات المحورة المظاهر وتبدو احيانا وكأنها في حالة حركة • ان استخدام الالوان وتنفيذها على الفخار في هذه الفترة يدل ولا شك على تحسين متميز ليس فقط من الناحية الجمالية وانما بدقة ملاحظة الخزاف وادراكه • وان مثل هذه الموضوعات المنفذة على الفخاريات سواء من هذه المرحلة أو خلال المراحل القريبة التالية تدل على كون مثل هذه الاشكال مثيرة حسيا سواء كانت موضوعات حيوانية او نباتية ، وهكذا تؤكد على دراسة مثل هذه الانتاجات الفخارية والزخارف والالوان المنفذة على سطوحها الخارجية لتكون موضوعا رئيسيا يعتمده الاثاري ومؤرخ الفن والمتخصص بفترات ما قبل التاريخ • وكانت مثل هذه الصناعة والزخارف المنفذة عليها الدليل المادي الوحيد احيانا لمعرفة تفاصيل عديدة تهم بعض تفاصيل الحضارات القديمة •

ان الدراسات العلمية تمكننا من معرفة انتقال وحركة التجمعات السكانية وعلاقتها مع بعضها ومعرفة نسبة المستويات التقنية وغيرها من خلال اختبار الانتاج الفخاري •

وظهرت صناعة متوسعة للفخاريات تتناسب مع حجم توسع الانتاج الزراعي وعرفت طرز خاصة من الطراز المعروف بطراز حسونة الذي

تميز منذ الطبقة الاولى القديمة في المستوطن ولاهمية هذه الصناعة المكملة لطبيعة المستوطنات الزراعية ولتعدد طرز صناعته ونوعياته المختلفة حسب الاستخدام والتقنية فقد قسمه المتخصصون الى اربعة اقسام رئيسة : ـ

١ ـ فخار حسونة الخشن الصناعة ويتميز بكونه مثل فخار جرمو مصنوع باليد ومفخور بدرجات حرارية غير مرتفعة وتتوفر فيه شوائب بفعل الطينية غير النقية وتتميز بكونها مخلوطة بالتبن ومن أنواعها الطاسات الصغيرة المستخدمة بكثرة في الحياة اليومية اضافة الى صناعة جرار كبيرة الحجم تستخدم في العادة للخزن ونقل المواد .

٢ ـ صناعة اخرى لفخار يتميز بأن سطوحه الخارجية مدلوكة ومزخرفة باشكال محورة عن الاشكال الطبيعية المنظورة وقوام هذه الاشكال خطوط متشابكة ومتعامدة ومتقاطعة .

٣ ـ صناعة أنواع من الفخار المصبوغ باللون الاحمر على سطح الاواني المزخرفة بدورها بخطوط هندسية تشابه المذكورة آنفا في النوعية الثانية .

٤ ـ انتاج نوع من الفخار المعروف بالصناعة النموذجية من عصر حسونة ويتميز بالاوانى المخصصة لفرك الحبوب والتي تتميز بكونها بيضوية الشكل او مستطيلة وتكون مقسمة الباطن الى حقول خشنة قسم لفرك الحبوب وربما الزيتون أو لاستخراج الزيت ايضا . كما شاع استخدام الاواني والجرار ذات الزخارف الهندسية والنباتية معا .

تميزت الصناعة الفخارية من فترة حسونة ايضا بكونها مزينة بتشكيلات تجميلية متنوعة ونخص بالذكر منها هنا الالوان المستخدمة لتزيين السطوح الخارجية للقطع الفخارية بالذات فاضافة الى معرفة الافراد لعملية تلميع السطوح الخارجية للقطع الفخارية باسلوب دلك القطعة بقطعة حجر او

خشب وهو النوع المعروف بالفخار المدلوك فان فخاريات فتـرة حسـونة الاخرى تتميز بشكل خاص بتزيينات متنوعة اخرى ٠ وهناك الفخاريـات المزينة برسوم قوامها وحدات زخرفية تحتوي على اشكال اغصان وسـنابل واشكال حلزونات يمكن اعتبارها نوعا من التحوير للاشكال المرئية بوضوح، والتحوير هنا مستلهم من الاشكال الزراعية ٠ واغرب ما نجده مـن بقايـا الزخارف على الفخاريات من هذه الفترة اشكال الزخارف الهندسية وأبرزها الشكل المتكرر على النماذج الفخارية المتكاملة الشكل مثلا ، واهمية مثل هـذه الاشـكال تبـرز لتفسـيرها العلاقة بالمـرأة واعتبارهـا رمـوزا للصـورة الانثويـة ٠

ان عملية تأدية الرمز والتجريد الذي بدأ بطريقة اكثر بساطة من ناحية تحوير الاشكال عرف في الانتاج الخاص بتزيينات الفخاريات من عصر حسونة بشكل خاص ليكون منطلقاً لمدرسة متكاملة المفاهيم اعتبرت مرحلة ناجحة من الناحيتين الفنية والفكرية وذلك خلال المراحل المعروفة في تاريخ الفـن العالمي والمحلي، والمعروف ان تحوير الاشكال يأخذ احيانا طابع الشدة بحيث لايستطيع الباحث المتتبع معرفة الاصل الطبيعي او الاكاديمي الذي يرجع اليه الشكل أو الصورة المحورة عن ذلك الاصل ٠ واستمر الخزافون بممارسـة الاشكال الطبيعية الى جانبالاشكال المحورةوحتى بالنسبة للدمى أوالتماثيل المصغرة للاشكال الادمية والحيوانية أريد لها ذلك بوصفها نوعا من اللغـة واسلوبا خاصا للتعبيرقبل الحقبة اللاحقة وهي مرحلة التدوين٠ويتوضح ميل الخزافين من عصر حسونة وحلف ايضا باعتماد اسلوب التحوير في الاشكال الادمية والنباتية فبالنسبة للاشكال الادمية نجد ان هذا التحوير متـدرج ومفهوم ، ويصعب احيانا معرفة الاصل الطبيعي للشكل حيث يكون التحوير قويا وخاصة في الاشكال التي تبـدو في النهاية ذات تشـكيل هندسـي واضح ٠ وتبـدو بعض الاشكال الحيوانية اقرب الى ان تكـون مـؤداة

بصورة رمزية صرفة . وفي الحقيقة فان الخزاف من حسونة بالذات يمكن ان يعزى اليه استخدام التحوير وصولا الى الرمز ولاول مـرة في العصـر الحجري الحديث في هذه المنطقة من جنوب غرب آسيا . وأول منطقة كان الاستقرار السكاني فيها ذا طابع زراعي متكامل تقريبا يبدو نموذجيا فريدا ويبدو احيانا من خلال هذه الاشكال الحيوانية المحورة وصولا الى الرمز لها انها احيانا وهي في صورتها الرمزية يمكن ان تعبر عن اكثر من شكل واحد واكثر من دور واحـد(٤٥) .

وتتلمس بكل وضوح استمرارية هذا الاعتبار الفني في تحوير الاشكال لترجمة المستويات الفكرية للتجمعات السكانية خلال العصر اللاحق المعروف الآن بعصر سامراء ــ حلف او عصر او حضارة سامراء . وهـذه الفتـرة متميزة بوضوح بانتاجات حضارية ترتبط بالفترة السابقة واللاحقة لها مـع امكانية تحديد فترة التداخل بين المرحلتين والتي يمكن للباحثين رصـدها ولكن بصعوبة ظاهرة حيث ان هاتين المرحلتين الحضـاريتين الرئيسـتين تتداخلان في ظهورهما احيانـا في بعض المواقـع علمـا انهمـا يوجـدان في معظم مواقع التجمعات السكانية في شمال وادي الرافدين وآسيا الصغرى وسوريا وايران . وفي الوقت نفسه فان كلا مـن الحضـارتين المعروفتـين بحضارة عصر سامراء وحلف قد توضحت معالمها بشكل متفرد وظاهـر في مواقع عديدة في هذه الاقطار السابقة الذكر .

ان التطورات الصناعية المتنوعة في مستوطنة اريدو في جنوب العراق صاحبها تطـور كبير ايضا في طبيعة العلاقـات الاجتماعية والفكرية وهكذا يبدو الحال نفسه في جمال الحرف وتصنيع الزراعة ، وكان مجموع هـذه التطورات ممهـدا لعمليـة التحضر وانتقال بعض التجمعـات السكانية من القرى الزراعية الى المدن وبمفهومها المتكامل الذي تتوافر فيه شروط التصنيع

ووجـود المراكـز الاسـاسـية لتنظيـم المجتمـع والعلاقـات العامـة والمؤسسـات المتخصصـة ٠

لقد تطورت عملية الصناعة الفخارية بسرعة في هذه الفترة الاولى من عصر العبيد الاول او المبكر او ما يعرف بعصر حضارة اريـدو في القسـم الجنوبي من وادي الرافدين ويبدو العديد من النماذج الفخار يـة مزينـة بوحدات ذات استلهام وتصوير محلي ٠ ويبدو اللون البني على ارضـية تميل الى الاصفر الباهت واضحا ٠ كما توجد نمـاذج ملونة تتراوح ظلالها من اللون البني الغامق الى اللون الاسود واحيانا اللون الاحمر الغامق ٠

ووجدت مجموعات من الاواني في الطبقات السفلى من موقع اريـدو مزينة بشرائط وخطوط متموجة وتشكيلات هندسية وتبـدو مثـل هـذه التشكيلات الزخرفية انها كانت ذات علاقة مع نماذج مشابهة من موقع سامراء كما يظهر ذلك بالنسبة للبعض من الباحثين ، ولكنها في الواقـع تتضح في اريدو اكثر تطورا واعمق في دلالاتها الرمزية واكثر دقة في تأديتها حينما نتأمل في مدلولاتها التي تبدو محورة من اشكال طبيعية ٠ هذا علما بامكانية مقارنـة انتاج اريدو من الفخار والاستدلال باشكال زخارفه بانتاج مواقع أخرى في المملكة العربية السعودية والبحرين وموقع آخر في ايران يعرف بجوخاميش ٠ وتمثل مكتشفات حاج محمد الوجه التالي لمرحلة اريدو وهو ايضا الوجـه الحضاري الثاني لعصر العبيد في جنوب وادي الرافدين ٠ وهو يقع على ضفة نهر الفرات غير بعيد عن الوركاء[٤٦] ٠ والمرحلـة المتميزة الثانية من حضارة العبيد تم رصدها من خلال الصناعة الفخارية من هـذا الموقع النموذجـي المعروف بقلعة حاج محمد وفخاريات موقع رأس العمية القريبة مـن موقـع كيش اضافة الى مواقع اخرى تقع الى الشرق وتصل الى مواقع في ايـران اليوم ومنها ما يعرف بموقع الخزنة الواقع الى الشمال من اقليم عربستان ٠

ويبدو من خلال اكتشاف مواقع عديدة من هذه المرحلة الهامة ازدياد واضح للتجمعات السكانية في القرى الزراعية الجديدة المنتشرة في هذه البقع الجغرافية التي كانت تعتمد على الري في اسلوب انتاجها الزراعي المتطور بسرعة حيث وجدت بقايا العديد من انواع الانتاج والاهتمام بالرعي والعناية بالحيوانات[٤٧] .

ويوضح الانتاج الفخاري ووحداته الزخرفية خلال هذه المرحلة المعروفة بمرحلة حاج محمد مظهرا حضاريا لانتاج مناطق شمال اقليم عربستان والعديد من مناطق جنوب وادي الرافدين ومن ذلك انتاج موقع رأس العمية وصولا الى اقسام تقع حتى في حوض حمرين[٤٨] ويرى البعض تأثيرات واضحة من فترة حلف المتأخرة في هذا الانتاج[٤٩] .

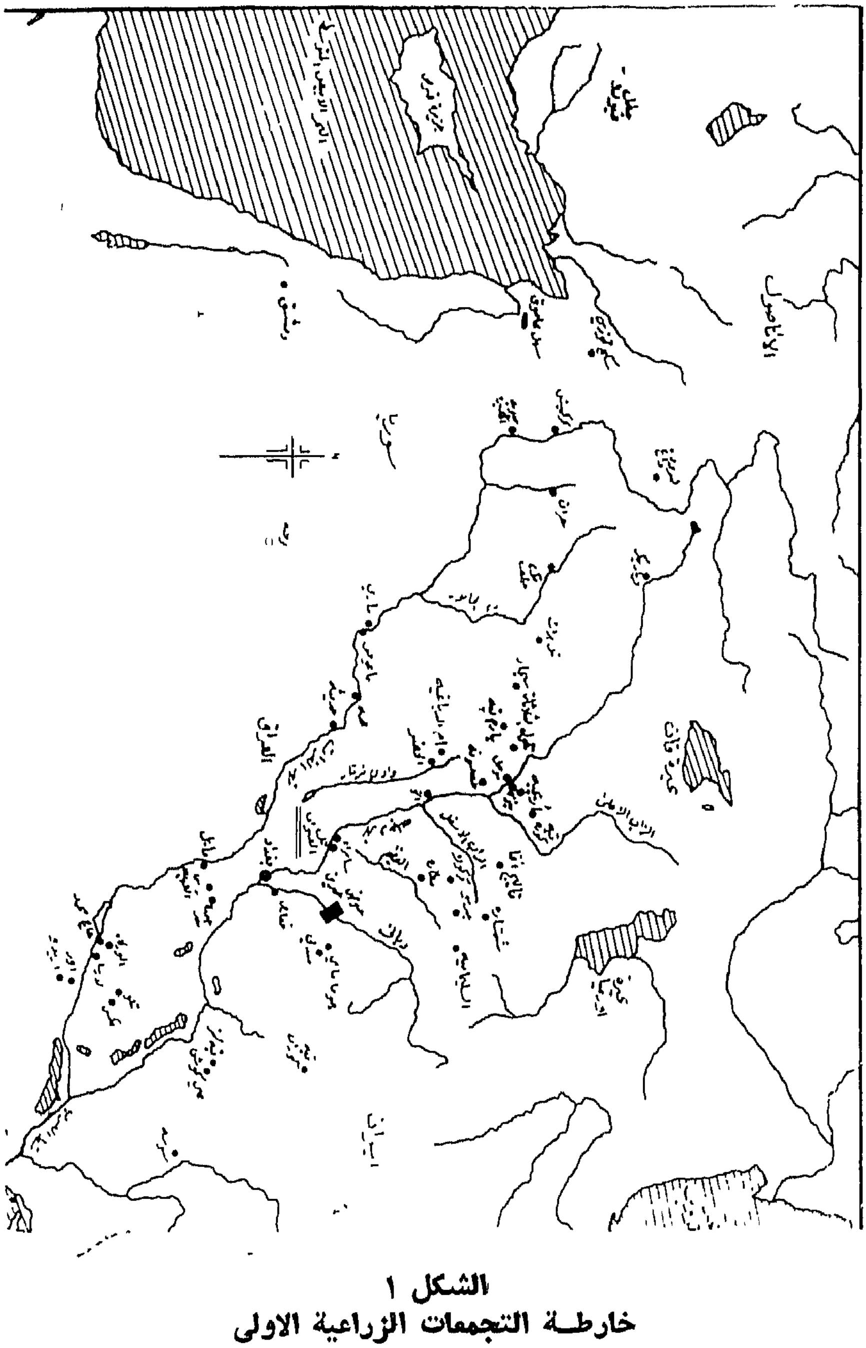
واضافة الى ميزة الفخار المتقارب الصناعة تتميز العمارة واسلوب البناء خلال هذه المرحلة التي تتوضح اولا في الطبقات الرابعة عشرة والثالثة عشرة والثانية عشرة من موقع اريدو[٥٠] .

وبصورة عامة يمكن ملاحظة معالم حضارة هاتين المرحلتين من مرحلة حضارة العبيد في مناطق اخرى عديدة في وادي الرافدين وايران وهو الحال نفسه تقريبا بالنسبة للمرحلتين التاليتين وهما حقبتا العبيد الثالثة والرابعة . فالنسبة الى المرحلة الثالثة من حضارة العبيد وكذلك الرابعة فانها تتمثل بكل وضوح في اثار موقع العقير المعروف اضافة الى مكتشفات موقع تبه‌كورا الذي يقع شمال شرق مدينة الموصل واسفرت بعثة جامعة بنسلفانية الامريكية عن كشف عشرين طبقة سكن تبدأ من مرحلة حضارة حلف وحتى عصور منتصف الالف الثاني ق.م . وما يهمنا من هذه المرحلة وهو رصد مرحلتي حضارة العبيد الثالثة والرابعة فانها واضحة بين الطبقات ١٩ ــ ١٣ .

تتميز المرحلتان الاخيرتان من عصر العبيد بتوسع انتشار التجمعات السكانية حتى شمال وادي الرافدين وتتميز بعلاقات تجارية مع

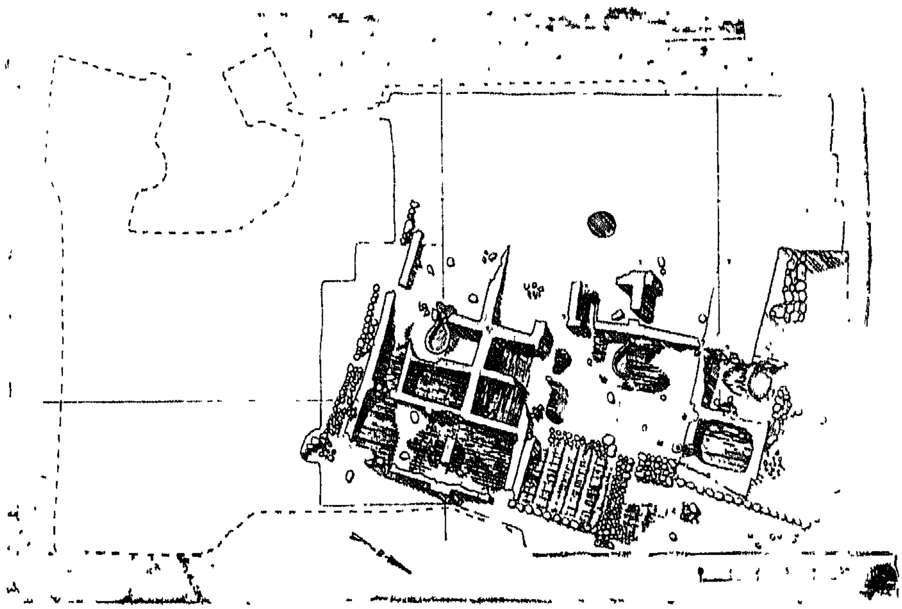
انتاجات جماعات سكنية في الخليج العربي عن طريق البحر اضافة الى اتصالات برية مع جماعات في آيران وآسيا الصغرى وسوريا وتتوضح نتائج مثل هذه الصلات التجارية عن توسع استخدام المعادن وخاصة النحاس والذهب • هذا الى جانب تطوير تخطيط القرى الزراعية وتطوير عمليات واساليب الدفن وتخصيص مواقع خاصة للدفن خارج مقرات السكن •

لقد اتضحت التطورات المتلاحقة للتجمعات السكانية خلال فترة العبيد بمراحلها الاربعة الواضحة بفضل توسع التنقيبات الاثرية والتوسع في دراسة الاثار المكتشفة وتحليلها باساليب علمية حديثة أدت الى قفزة نوعية ظاهرة تمثلت بانتاجات عصر اوركاء العريقة والمتمثلة بشكل خاص في نفس موقع الوركاء الذي يقع على مسافة حوالي ٣٠ كم جنوب غرب السماوة • والجدير بالذكر ان مرحلة العبيد المتأخرة وهي المرحلة الرابعة تمثلت ايضا في مدينة الوركاء وخاصة فيما عثر عليه من تفاصيل معبدين نموذجيين ابعاد احدهما ٥ر١٤×٥ر١٨ م • مما يدل على تأكيد سكان الوركاء خلال هذه المرحلة على تشييد المعابد على مساطب اصطناعية من التراب أصبحت في الفترات اللاحقة ممهدة لفكرة بناء الزقورة وهكذا تتبلور الحضارة المدنية في مدينة الوركاء لتأخذ اتجاها شموليا جديدا يضم مدناً اخرى تنمو في اور ولكش وكيش ويتطور منظور الانسان الفرد تبعا للتطور الحضاري العام الحاصل(٥١) وتجيء تسمية التجمع السكاني الكبير الجديد في عهد السومريين مع نمو التنظيم المتكامل للتجمعات السكانية والمتوضحة في تبلور ووضوح طبيعة السلطات الادارية والعسكرية والدينية اضافة الى تطوير مفاهيم المدينة وتحديد تكاملها وانشاء الاسوار والحصون(٥٢) •



الشكل ١

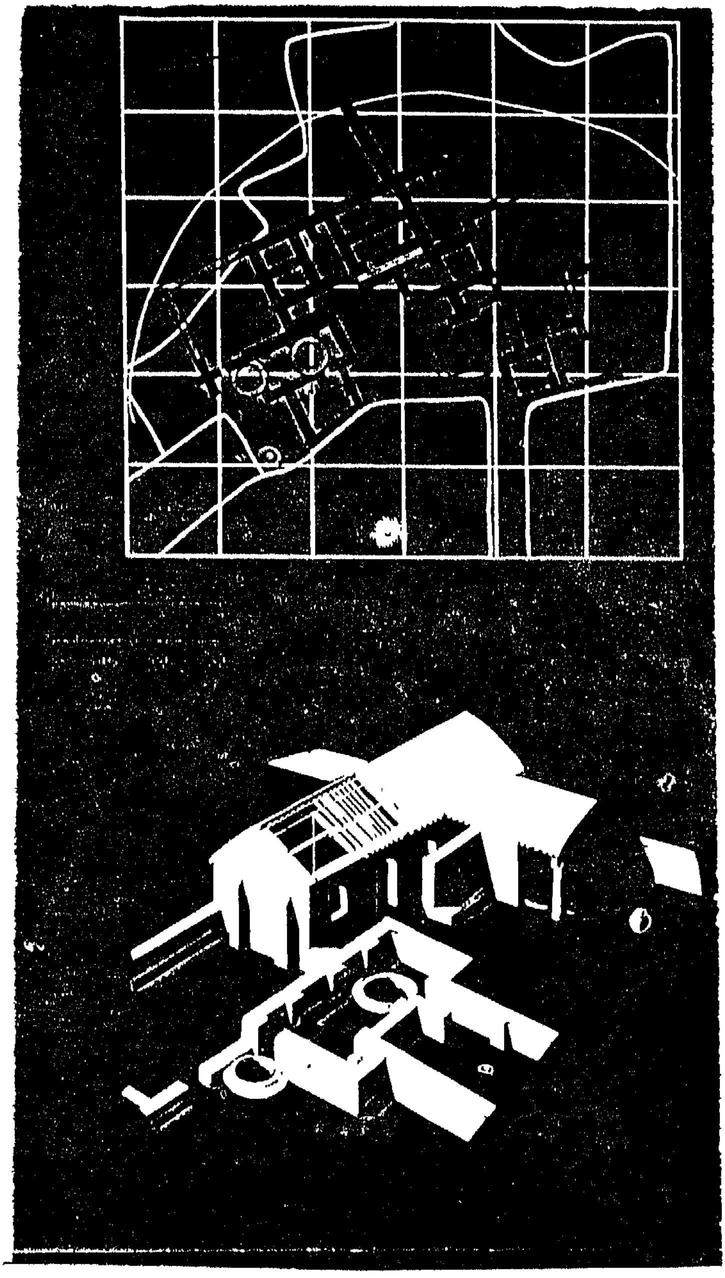
خارطـة التجمعات الزراعية الاولى



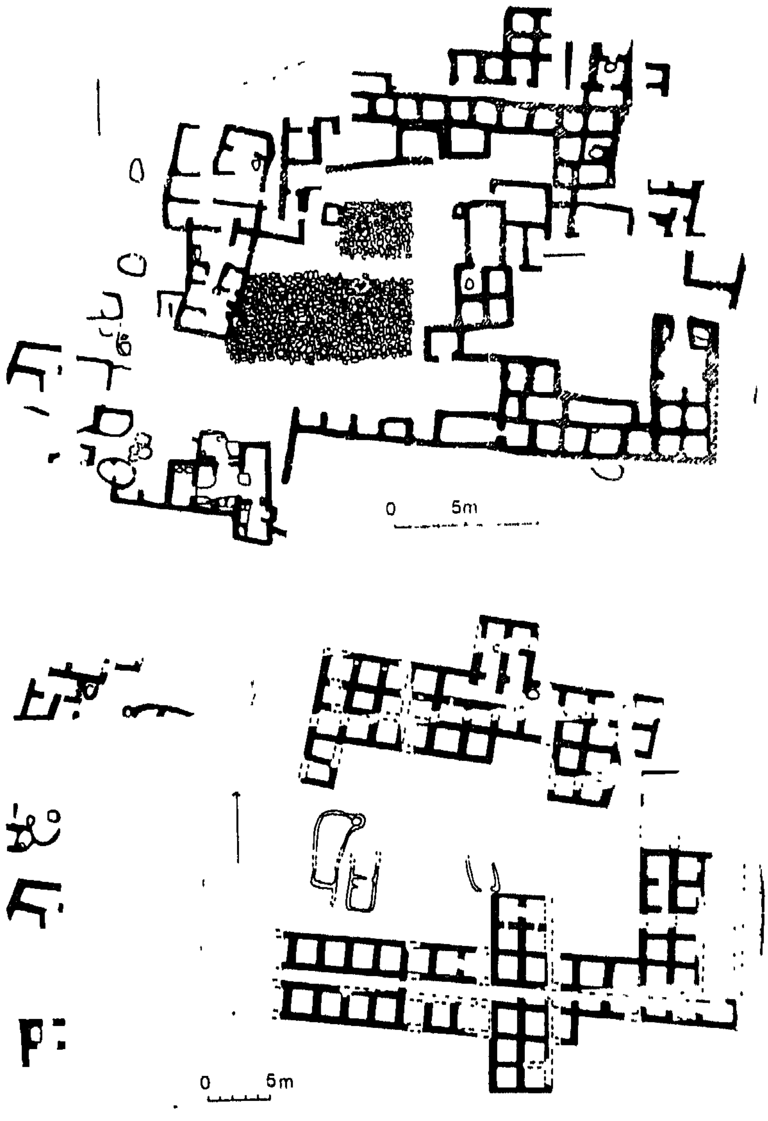
الشـــكل (٢)

اسس وجدران بيوت سكن من جرمو

عن بريدوود تنقيبات ما قبل التاريخ



الشكل ـ ٣ ـ
جانب من مستوطنة حسونة مع نموذج لدار سكن
في نفس المستوطنة . اندريه يارو . سومر . ١٩٦٠



الشكل ٤

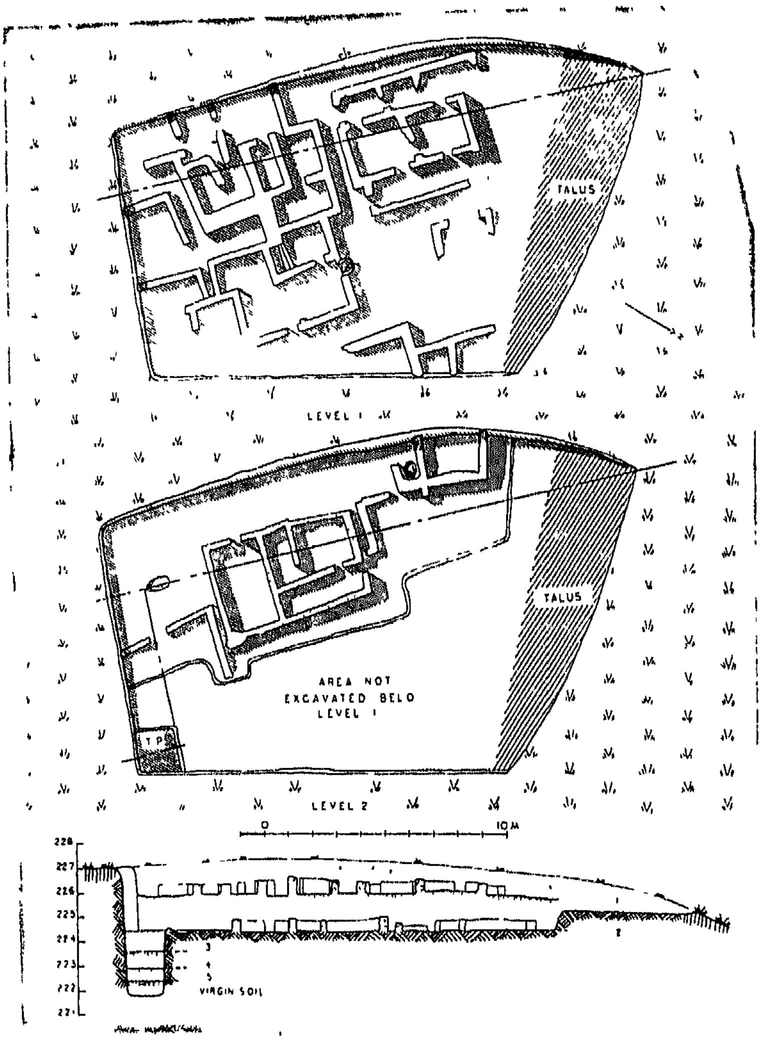
مستوطنة ام الدباغية من المرحلتين

الثانية والثالثة . كيركبريد . مجلة العراق ١٩٧٢



الشكل ٥

دور سكـن في مستوطنة يارم تبـة
من عصـر حسونة في مرحلـة الالف
السادس قبل الميلاد .



الشكل ٦

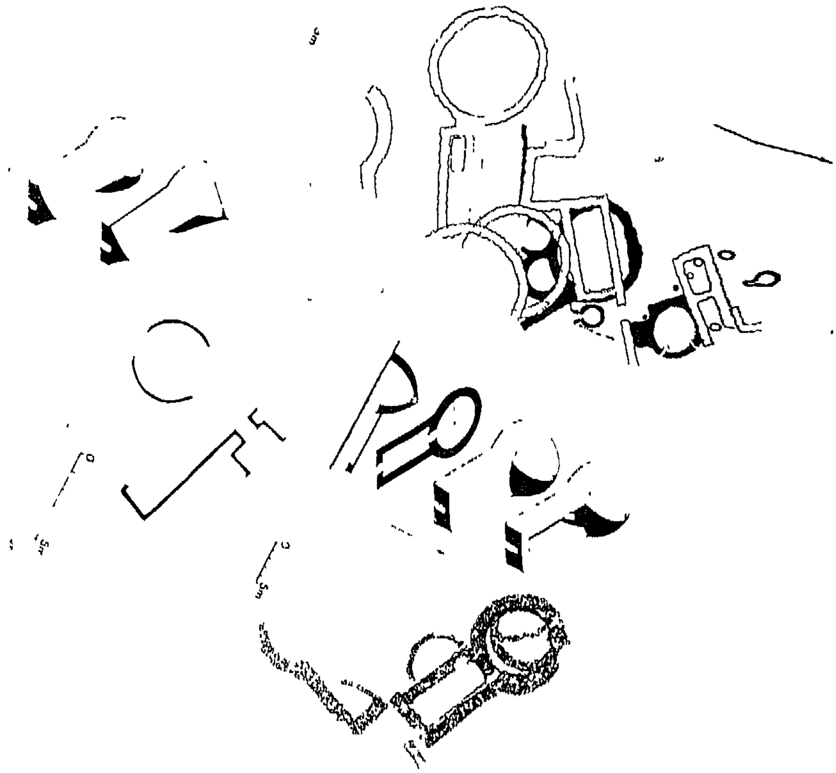
مطارة ـ الطبقة الاولى والثانية

بريدوود   JNES ١٩٥٢



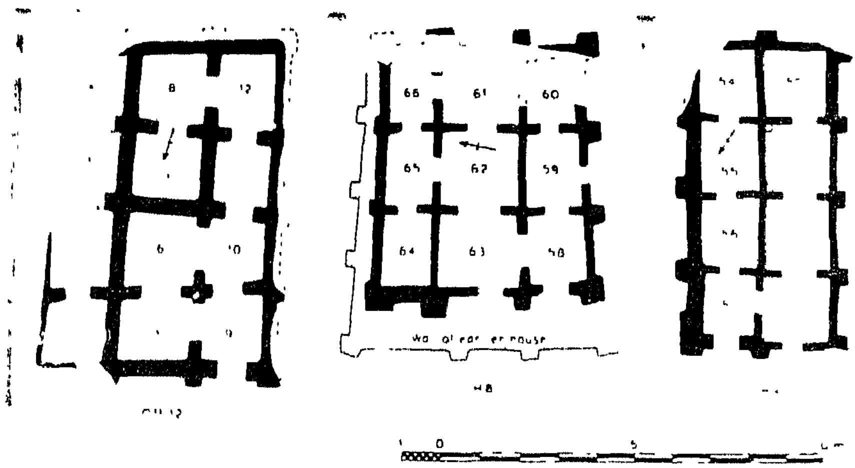
المخطوطة رقم ٩

الشكل ـ ٧ ـ
تل الصوان
ابنية الطبقة الثالثة
الدورين آ ، ب
دوني جورج : عمارة الالف السادس



الشكل ـ ٨ ـ

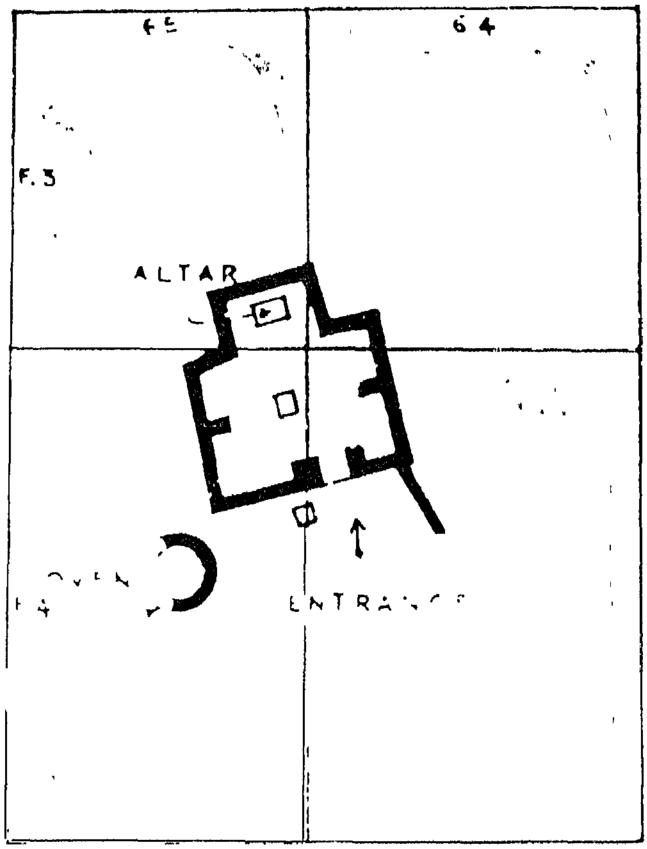
أسس دور سكن من حلف والاربجية



جرمو ماتحي

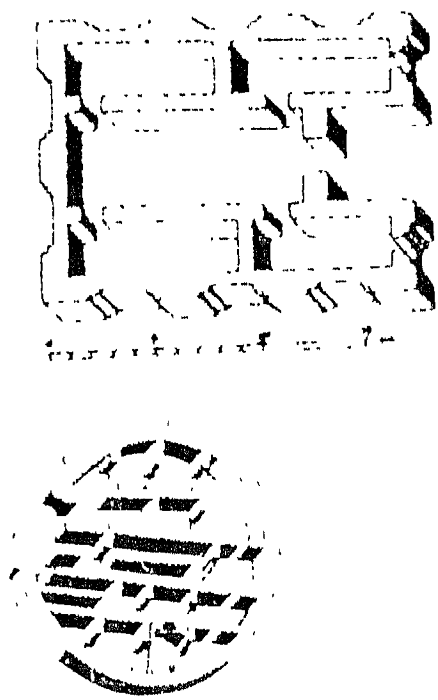
الشكل ـ ٩ ـ

عن جون اوتس (١٩٦٩)



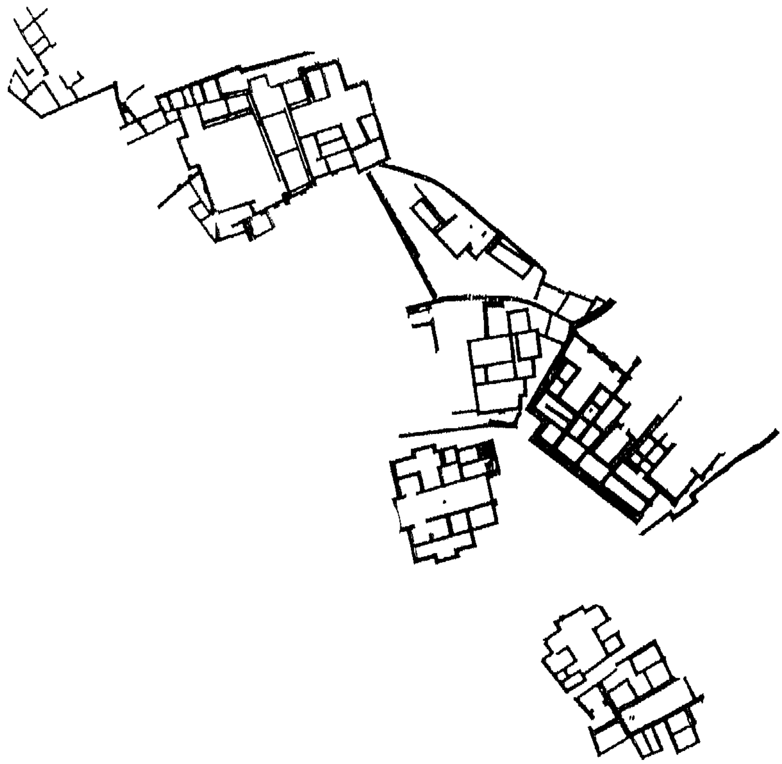
الشكل ١٠

مخطط المعبد السادس عشر في مدينة اريدو

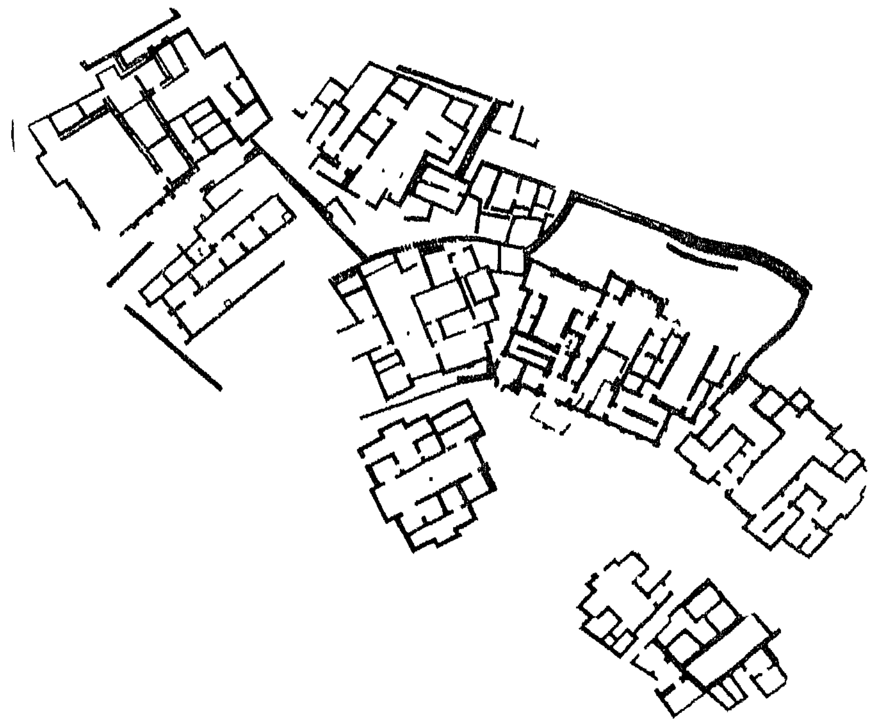


الشكل ــ ١١ ــ

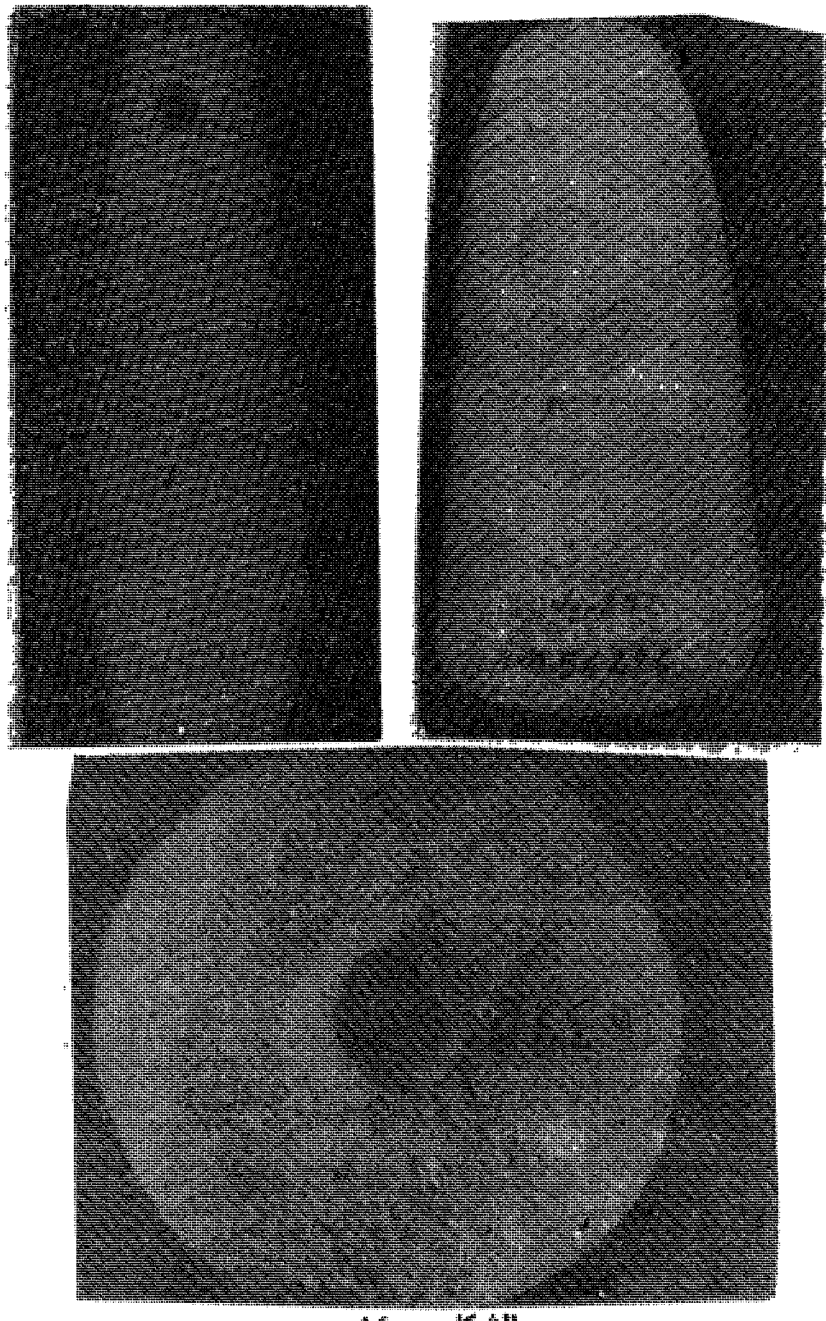
تصور بناء معبد من تبة كورا الطبقة الثامنة
دور سكن محاطة بسور من تبة كورا الطبقة الحادية عشر
عن سبايزر تنقيبات في تبة كورا ١٩٣٥ وعن توبلر ١٩٥٠



الشكل ١٢
تل عبادة : مستوطن الطبقة الاولى



الشكل ـ ١٣ ـ
مستوطن الطبقة الثانية تل عبادة

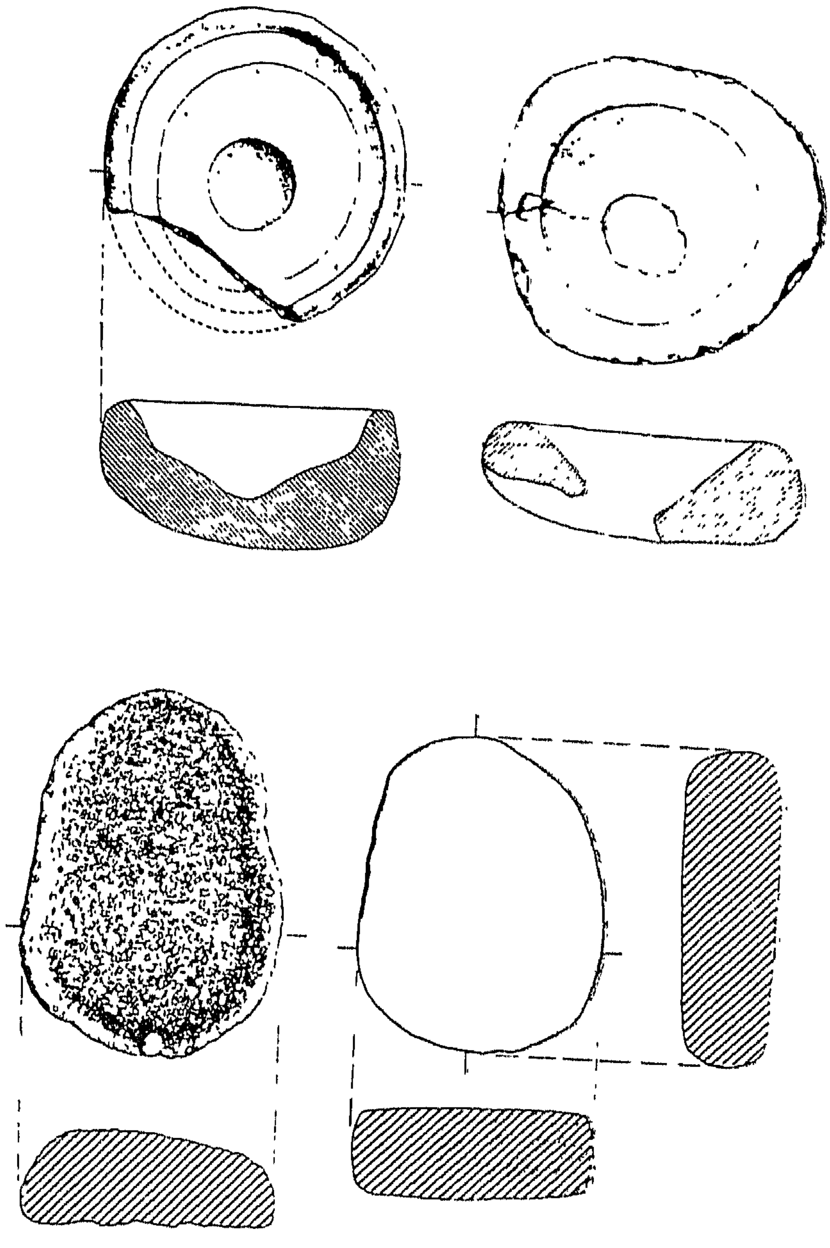


الشكل – ١٤ –

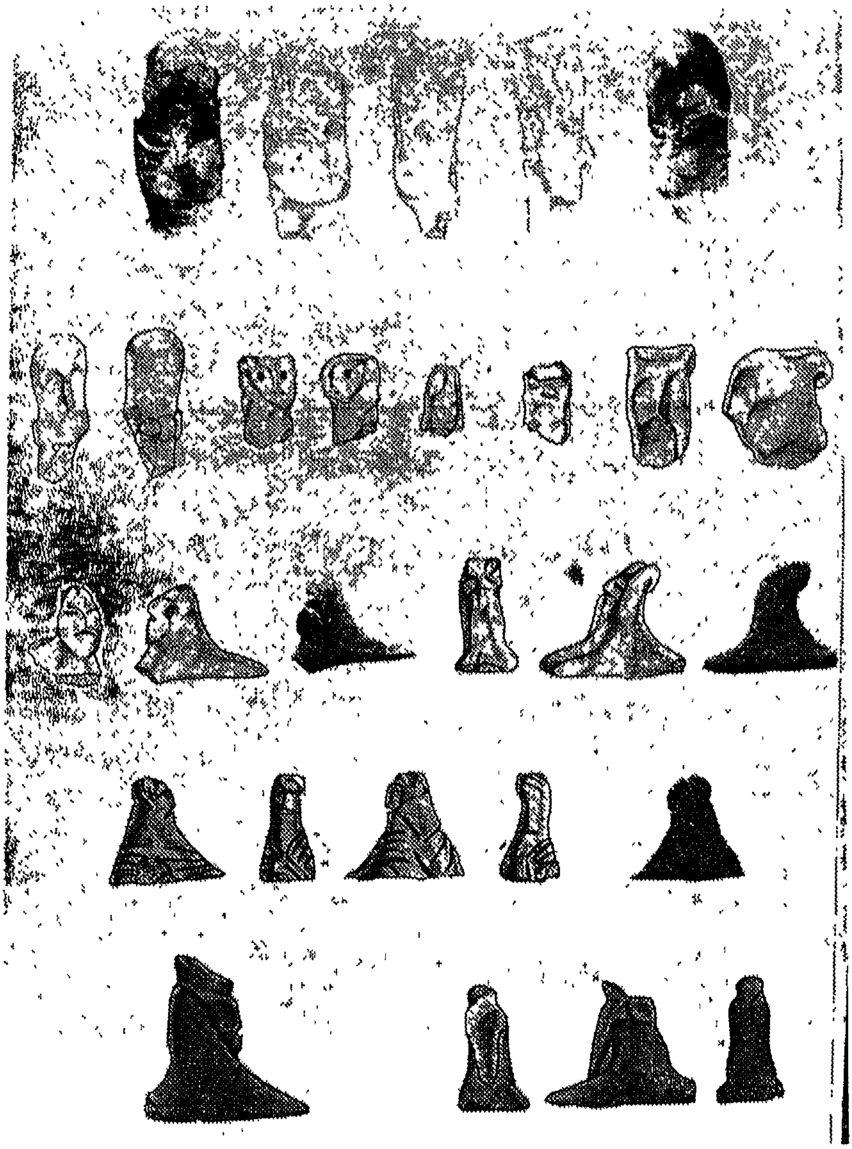
١ و ٢ نموذج لمدقة من مستوطنة جرمو ومن تل الصوان .

٣ – جانب من رحى من تلول الثلاثات

عن عماد طارق توفيق (الصناعات الحجرية ١٩٨٦)

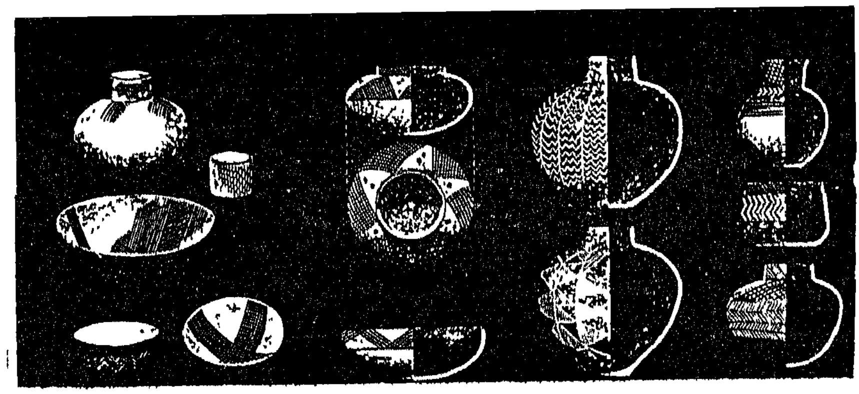


الشكل ـ ١٥ ـ
هاونات وادوات سحق من جرمو
عن عماد طارق توفيق



الشكل ١٦

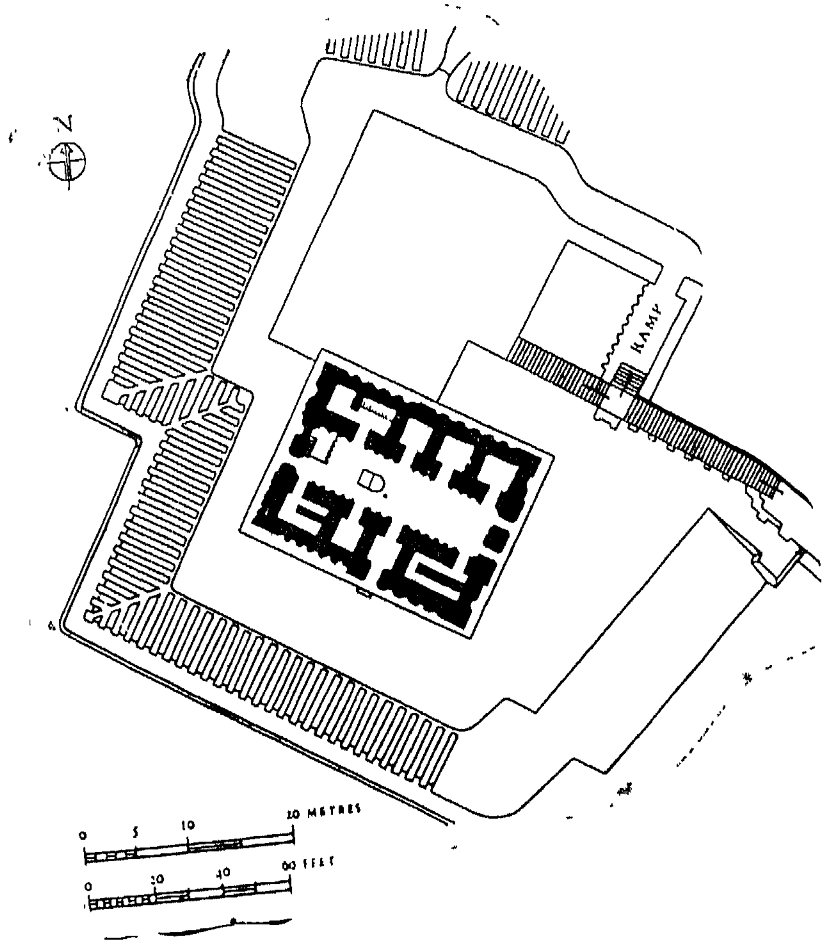
عن بريدوود . تنقيبات ما قبل التاريخ ١٩٨٣



الشكل ـ ١٧ ـ

من نماذج صناعة الفخار من مستوطنة حسونة الزراعية

اندريه بارو ٠ سومر ١٩٦٠



الشكل ١٨

مخطط المعبد الابيض في مدينة الوركاء

الهوامش

(١) Fisher . W . B. A Physical, Social and Regional Geography, London. Methuen and Company Ltd. 1957.

(٢) د . تقي الدباغ : « البيئة الطبيعية والانسان » . في حضارة العراق جـ١ ، بغـداد ١٩٨٥ ص ٤٤ .

(٣) والملاحظ هنا استمرار عمليات صيد الحيوانات والاسماك من قبـل جماعات المستوطنات المبكـرة ويستـدل على ذلك من نوعيات الالات والادوات المستخدمة لذلك :

(٤)

Sonia Cole The Neolithic Revolution. London. Natural History. 3 edition. 1965 P. 5.

Braidood. R., J. Prehistoric Invistigation In Iraqi Kurdistan. Chicago 1960.

زراعة القمح والشعير تعتبر اقدم الحبوب المعروفة في العالم وظهرت لاحقا زراعة الذرة في مناطق اخرى من العالم وخاصة في وسط امريكا ، ثـم زراعة الرز في جنوب وشرق اسيا وعرفت زراعة الذرة في جنوب غرب الولايات المتحدة الامريكية بحدود بين سنة ٣٦٠٠ قبل الميلاد و ٢٥٠٠ قبل الميـلاد .

(٥) المعروف ان طريقة التاريخ بواسطة كربون ١٤ الاشعاعي تقتصـر على اختيار مواد عضوية مثل الخشب المتفحم او قرون الحيوانات والعظام والحبوب . وتعتمد الطريقـة علـى اساس ان نسبة ثابتـة من ذرات الكربون في المادة الحية هي مشعة وذرات الكـربون ١٤ هذه مأخـوذة اصـلا من الجو لا تتبدل بعـد موت النبات او الحيوان بل تتحول الى اشعاعات ذرية بمعدل ثابت بعـد الانحـلال وتبعا لذلك فان عمر المادة العضوية القديمة يمكن أن يعرف بقياس المتبقي من الاشعاع الذري وفي السنوات الاخيرة اصبح ممكنا تثبيت تاريخ عمر المواد العضوية الى حد ٨٠٠٠٠ سنة مضت بفضل التحسينات التي ادخلـت على العـــداد المعروف بعداد كايجر وكانت الاختبارات بواسطة الكربون الاشعاعـي على بقايا عضوية من المستوطن المعروف زاوى جمي وكهف شانيـــدر

نشير الى تاريخ ٨٩٠٠ قبل الميلاد : انظر في ذلك :
Mellaart, J. The Neolithic of the Near East. London, 1975. p. 70.

(٦) تلاحظ نسبة الكروموسومات في بذور النباتات ولهذا يمكن تمييز حبوبه البذار عن حبوب الخبز .

(٧) عادل عبدالله الشيخ « بدء الزراعة واولى القرى في العراق » رسالة ماجستير في قسم الاثار بكلية الاداب ، كانون الاول ١٩٨٥ (غير مطبوعة بعد) ص ٦٢ ، ٧٠ .

(٨) Hel baek, H. "the Palecethnobotany of the Near East and Europe" In. Braid wood, R. J. and Howe, Prehistoric Invistigations in Iraqi Kurdistan. Chicago 1960.

(٩) صباح عبود جاسم « مرحلة الانتقال من جمع القوت الى انتاج القوت في العراق وجنوب غربي آسيا » رسالة ماجستير تقدم بها المؤلف الى قسم الاثار عام ١٩٧٥ (غير مطبوعة بعد) ص ٨٦ .

وتم الكشف عن مستوطنات اخرى معاصرة لقرية جرمو خلال حملة الانقاذ لمواقع الاثار في حوض حمرين وسد الموصل ومن هذه المواقع تل الريحان في الطرف الغربي من حوض سد حمرين عبر نهر نارين ونمريك على ضفة نهر دجلة الى الغرب من مركز قضاء فايدة في محافظة دهوك والمغزلية الى الغرب من مركز قضاء تلعفر في محافظة نينوى والموقع الاخير يعتبر من المستوطنات الزراعية التي تعود الى فترة الالف الثامن ـ السابع قبل الميلاد وفيه مرحلة ما قبل الفخار التي سبق اكتشافها في موقع جرمو . انظر في ذلك :

Munchaev, R. M. & Merpert, N. J. Earliest Agricultural Settlement of Northern Mesopotamia. The Investigation of Soviet Expedition In Iraq. Nauka Moscow, 1981.

كتاب منشور بالروسية مع ملحق بالانكليزية ص ٢٧٠ .

(١٠) Mortensen : Tell Shimshara, The Hassuna Period. Kobenhann. 1970.

(١١) Lioyd. S. and Safar, F, Tell Hassuna Excavations by the Iraqi Government, JNES, Vol. IV, 1945.

انظر ايضا : العمارة في العراق القديم منذ اقدم ظهورها وحتى عصر فجر السلالات : Umm حضارة العراق ج٢ بغداد ، ١٩٨٥ .

(١٢) Kirkbride, D, Iraq. Vol. XXXIV "1972" p. 5 umm Dabaghiyah 1971 : Apreliminary Report on Early Ceramic Farming Settlement in Marginal North Central Jazira, Iraq. Volvue XXXIV Part I "1972" p. 3.

(١٣) اشتغلت في هذا الموقع بعثة سوفيتية برئاسة رؤوف منجاثيف وذلك من عام ١٩٦٩ ونشرت تقارير التنقيبات في مجلة سومر العراقية .

(١٤) قامت بعثة يابانية برئاسة ناميو ايكامي بالتنقيب في هذه المنطقة ونشرت ابحاثهـا في تقارير منتظمة في مجلة سـومر ثم في كتاب صـدر عـام ١٩٨١ . عن جامعة طوكيو :

Egami, N. Sumer Vol XXII "1966"
Shinji Fukai, Toshio Natsutani :
Telul Eth - Thalathat, The excavation of Tell II. Season 1976. Tokyo. 1981.

(١٥) Braidwood, R. J. L. A Southern Variant of the Hassuna Assemblage, Excavated in "1948" In JNES.

(١٦) المصدر نفسه. كذلك انظر طه باقر «مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة» ط ١ (١٩٧٣) ص ٢١١ – ص ٢١٤ .

(١٧) المصدر نفسه .

(١٨) المصدر نفسه .

(١٩) دوني جورج يوخنا « عمارة الالف السادس قبل الميلاد في تل الصوان » ، رسالة ماجستير اجيزت في شهر آب / ١٩٨٦ في كلية الاداب قسم الاثار غير مطبوعة بعد . (ص ٥) .

(٢٠) المصدر نفسه .

(٢١) دوني جورج يوخنا « عمارة الالف السادس قبل الميلاد في تل الصوان » ، رسالة ماجستير اجيزت في شهر آب / ١٩٨٦ (غير مطبوعة بعد) ص٥ .

(٢٢) المصدر نفسه ص ٣٦ – ص ٤٦ .

(٢٣) المصدر نفسه ص ٧٩ .

(٢٤) اكتشف هذا المستوطن عام ١٩٢٨ وبدأ التنقيب فيه عام ١٩٣٣ من قبل بعثة بريطانية برئاسة ماكس ملوان وتم نشر نتائج التنقيبات في مجلة : (Iraq Vol. II, 1935) .

(٢٥) عادل عبدالله الشيخ : المصدر نفسه ص ٩١ .
انظر ايضا : اكرم محمد عبد كسار : « عصر حلف في العراق » رسالة ماجستير غير مطبوعة بعد ١٩٨٢ .

(٢٦) ماكس ملوان المصدر السابق ص ٥ .
وايضا انظر : موسوعة العراق ج ٢ « العمارة في العراق القديم » .
كذلك انظر :

Iraq XXVI (1964) p. 62-82.
Iraq : XXVII (1965) p. 82-99.
Iraq : XXII (1960) p. 186-196.

(٢٧) تم تنقيب المستوطنة هذه من قبل مديرية اثار ومتاحف المنطقة الشمالية ولمدة اربعة مواسم واستظهرت اربعة طبقات اثارية انظر : عادل عبدالله الشيخ : المصدر نفسه ص ١٠١ .

(٢٨) د . تقي الدباغ : في حضارة العراق ج ١ ، بغداد ، ١٩٨٥ ص ١٣٥ .

(٢٩) صباح عبود الجاسم : المصدر نفسه ص ١٤٥ .

(٣٠) د . تقي الدباغ : ود . وليد الجادر واحمد مالك الفتيان : طرق التنقيبات الاثرية . بغداد ، مطبعة جامعة بغداد ، ١٩٨٣ ص ٣٢٥–٣٢٩ .

(٣١) صباح جاسم عبود (تل عبادة) مجلة سومر ج ١–٢ ، المجلد ٣٥ (١٩٧٩) ص ٥٢٥ — ص ٥٢٦ .

(٣٢) صباح عبود (تنقيبات تل رشيد) مجلة سومر ج ١–٢ مجلد ٣٥ (١٩٧٩) ص ٥٣٥ .

(٣٣) د . وليد الجادر . سومر . المصدر نفسه اعلاه ص ٥٥٦ — ٥٦٥ .

(٣٤) كين ماتسوموتو وفريق البعثة الاثارية . سومر ١٩٧٩ ص ٥٢٠ — ص٥٢٢ المصدر اعلاه .

(٣٥) المصدر اعلاه : ص ٤٧٢ — ص ٤٧٣ .

(٣٦) روبرت كيليك ومايكل روف : سومر المصدر نفسه اعلاه ص ٥٣٠ — ص ٥٣٣ .

(٣٧) روبرت آدمز « اطراف بغداد تاريخ الاستيطان في سهول ديالى » (ترجمة د . صالح احمد العلي ، د . علي محمد المياح ، د . عامر

سليمان) بغداد مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٤ ، ص ١١٣ — ص ١٢٠ .

(٣٨) المصدر نفسه : ص ١٢٢ .

(٣٩) Braidwood, R. J. "The Early Village in South Western Asia" in Journal of Near Eastern studies. Vol. 32 Nos. I, 2, 1973. p. 34-39.

Adams, R. M. Historic Patterns of Mesopotamian Irrigation Agriculture". in Irrigation's Impacte Society, the University of Arizona Press Tucson, Arizona 1974. p. 1-5.

(٤٠) بلغ نموذج مكتشف من المناجل المصنوعة من الحجر الزجاجي البركاني الاسود (الاوبسيدي) ٣٥ سم .

(٤١) رالف لنتون : شجرة الحضارة (ترجمة د . احمد فخري) ج ١ القاهرة ص ١٣٦ ، عماد توفيق اطروحة ص ١٥٢ — ص ١٥٣ .

(٤٢) د . وليد الجادر : النحت حتى عصر فجر السلالات ، موسوعة حضارة العراق ج ٤ بغداد ١٩٨٥ ص ١١ .

(٤٣) من انواع المثاقب المستخدمة في حفر ونحت العظام المثاقب المنقاري ويعرف ايضا الفلك وهو من ادوات النحت والنقش :

(Semenov, S. Prehistoric Technology 1976).

من :

اطروحة السيد عماد طارق توفيق العاني الصناعات الحجرية في العراق حتى نهاية العصر الحجري الحديث ، حزيران ١٩٨٦ ص ١٤٥ .

(٤٤) د . تقي الدباغ ود . وليد الجادر : عصور قبل التاريخ . مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٣ ص ١٥٤ .

(٤٥) د . تقي الدباغ ود . وليد الجادر : عصور قبل التاريخ ، ص ١٣٦ .

(٤٦) عصور قبل التاريخ ، ص ١٥٧ ، ص ٢١٢ .

(٤٧) المصدر اعلاه ص ١٥٨ .

(٤٨) المصدر اعلاه ص ١٥٨ .

(٤٩) المصدر نفسه ص ١٥٨ ، ٢١٢ كذلك أكرم عبدالكسار :

(٥٠) مجلة سومر ، المجلد الرابع (١٩٤٨) .

(٥١) عصور قبل التاريخ .

(٥٢) Adams. R. M. "Patterns of urbanization in Early Southern Mesopotamia".
GERALD DUCK WORTH & COLTD. LONDON, 1972.
p. 735-748 Huot, J. L. "Des Villes, existent - elles en orient des L'époque neolithique?" In : Annales economies Societes Civilizations, No. 4 Paris 1970 p. 1091-1100.

الفصل الثالث

تخطيط المدن في العراق القديـــم

المستوطنات الاولـــى

الدكتور بهنام ابو الصوف

١ ـــ عاش انسان العراق الاول في كهوف المنطقـة الجبلية ، كما استقر حينا في مستوطنات في العراء على مصاطب نهري دجلة والفرات ، وتجول في بادية الرطبة والاقسام الغربية الاخرى من وسط العراق وجنوبـه في منطقتي الرزازةـالاخيضر واريدو وذلك منذ اكثر من ربع مليون سنة مضت[١]،وكان ذلك الانسان لايزال يدرج ، كما كان حـال معاصريه في بقاع العالم القديم الاخرى،في مضمار التطورالجسدي والعقلي،اذ كان يختلفعن جنسناالبشري المعاصر ، فقد كان ينتمي الى نوع انسان النياندرتال[٢] المنقرض الذي كشفه عن عدد من هياكله العظمية في كهف شانيدار[٣] ، في محافظـة اربيل ، والتي تعاصر مثيلاتها في فلسطين في مغارة الصخول في جبل الكرمل[٤] ، كان انسان الكهوف العراقي[٥] هذا بدائيا في شكله وفي طريقة معيشـته ، وكان يتميز برأس ضخم ووجه عريض وحاجبين بارزين وجبهة منحدرة الى الخلف

وذقن صغير يكاد يكون معدوما • ومع أن طوله لم يكن يتجاوز خمسة آقدام الا قليلا غير ان مظهره الغليظ وصدره الواسع واكتافه العريضة كانت تكسبه ملامح خشنة وقاسية • عاش انسان النياندريال في جماعات صغيرة معتمدا في حياته على جمع التقاط ماتجود به الطبيعة آنذاك • كما كان يسعى وحيدا أو في جماعات لمهاجمة واصطياد الحيوانات الضخمة التي كانت تزخر بها بيئته القاسية • وكان سلاحه فؤوس مدببة من لب الحجارة يهيئوها لهذا الغرض بالاضافة الى هراوات وعصى من اخشاب الاشجار • لقد اثبتت دراسات علم الانسان المقارن في السنوات الاخيرة أن نوع انسان النياندرتال الذي سكن كهوف العراق وفلسطين في الاقسام الاوسيطة من العصر الحجري القديم قد مر بمراحل تطورية احيائية سريعة خلال الـ ٣٥ــ٤٠ ألف سنة الماضية نتج عنها نوع عاقل من الجنس البشري له من الصفات والمظاهر الجسدية والطباع ما يجعله مؤهلا ليكون السلف المباشر لجنسنا البشري الحاضر في هذه المنطقة من العالم ومنها العراق بالذات[٦]• واذا ما تذكرنا بأن سكنة كهف شانيدار من عراقي النياندرتال قد أعتنوا بدفن موتاهم اسفل ارضية الكهف وأنهم قد زودوا بعض اولئك الموتى بزهور كانت تنمو في المنطقة ، ووجدت بقاياها عند جماجم عدد من هياكلهم ، كما قاموا بالعناية بالمعوقين والكسيحين من ابناء جنسهم[٧] ، تأكد لدينا التوجه الانساني والاجتماعي والعقائدي المبكر لاولئك البشر سكنة العراق الاوائل وأنهم كانوا في طريقهم لتحقيق الطفرة التطورية الهائلة لبني نوعهم من البشر •

٢ ــ اثبتت التحريات والبحوث الأثرية لمرحلة العصور الحجرية في القطر، ومنذ اواخر العشرينات من القرن الحالي، وجود مخلفات انسان العراق الاول في اكثر من بقعة من شمالي وادي الرافدين وغربه خلال العصور الحجرية القديمة بمراحلها المختلفة[٨] • فقد عثر على مخلفات انسان العصر الحجري القديم ، من قسيمه الاسفل والاوسط ، بهيئة الات وادوات حجرية معمولة ابرزها حجارة القطع والفرم وبعض الفؤوس الحجرية الكمثرية الشكل

والشظايا والمقاشط والسكاكين والمثاقب وغيرها ، من الصناعتين الآشـولية والموستيرية ، والتي حدد زمانها بين ثلاثمائة الف سنة وثمانين الف سنة قبل الآن في صحراء الرطبة ومنطقة الرزازة ـ الاخيضر غربي كربلاء وفي الصحراء الكائنة غربي منطقة أور ـ اريدو بعيدا عن سهل الرسوبي من جنوب غربي العراق في محافظة ذي‌قار • وعلى طرفي نهر الفرات في منطقة الفحيمي وجزيرة بيجان في حوض سد القادسية ، وعلى طرفي نهر دجلة في حوض سد صـدام بمنطقة اسكي موصل ، والى الجنوب من مركز ناحية فايدة، في محافظة دهوك على الضفة الشرقية لدجلة واكتاف الوديان المؤدية اليه في اطراف قريتي كرخوش وبا بيرة المغمورتين بمياه الحوض الآن• وفي منطقة برده بالكا قرب مركز قضاء جمجمال في محافظة السليمانية وفي الطبقة السفلى من كهف شانيدار في محافظة اربيل • كما عثر على بقايا العصر الحجري القديم الاعلى (٣٠ ألف ـ ١٢ ألف سنة قبل الآن) لاول مرة في شمالي العراق في كهفي زرزى وهزارمرد في منطقة السليمانية وفي الطبقات العليا من كهف شانيدار، وفي كهف بالى كورة في جبال قرەداغ وكهف ببخال في محافظة اربيل وكهف باراك في محافظة نينـوى ، واكتاف وادي الابيض في منطقة الأخيضر في محافظة كربلاء[٩] • وقد اطلق على هذه المرحلة الاخيرة من مراحل العصر الحجري القديم في العراق اسم العصر البرادوستي نسبة الى جبال برادوست التي يقع فيها كهف شانيدار الذي تعكس بعض طبقاته السكنية بقايا مميزة لهذا العصر [١٠]• وعند نهايات هذا العصر (في حدود ١٥ ألف ـ ١٢ ألف سنة مضت) وحين بدأ مناخ العالم بالتغير وقارب آخر عصر جليدي[١١] على الانتهاء وبدأت مرحلة الدفء والجفاف النسبي تسود العراق، ومنطقة الشرق الاوسط، أخذ العراقيون سكنة الكهوف في الاقسام الشمالية من القطر يهجرون كهوفهم ولفترات طويلة ، خلال اشهر الصيف على وجه الخصوص ، باحثين عن مقار ومستوطنات وقتية في العراء ، غير بعيدة عن اماكن كهوفهم ومغاورهم، قرب الينابيع والجداول ومجاري الانهار، ينزلونها

مع عوائلهم واطفالهم . ومن ابرز تلك المقار والمسنوطنات الاولى في العراق التي حل فيها العراقيون اثر خروجهم من الكهوف زاوى جمي على ضفة الزاب الاعلى ، ليس بعيدا عن كهف شانيدار ، وكريم شهر بالقرب من مركز قضاء جمجمال في محافظة التأميم ، وملفات على الكتف الغربي لنهر الخازر قرب طريق موصل - اربيل في محافظة نينوى ، ونمريك على ضفة دجلة الشرقية الى الغرب من مركز ناحية فايدة في محافظة دهوك ، والمغزلية وقرمز دره غربي قلعة تلعفر في محافظة نينوى ، وتمر خان الى الشمال قليلا من مركز قضاء مندلي في محافظة ديالى، وتل ريحان على الكتف الغربي لنهر نارين في الطرف الغربي من حوض سد حمرين في محافظة ديالى ايضا وأسفل طبقات جرمو قرب مركز قضاء جمجمال في محافظة السليمانية وعشرات غيرها لم يكشف عنها البحث الاثاري حتى الآن . وفي هذه المقار والمستوطنات الاولى شبه الدائمة احتاج العراقيون الاوائل الى مسقفات تحميهم واطفالهم من حر النهار وبرد الليل ومن المطر،كما احتاجوا الى اماكن يحفظون فيها حاجاتهم وادواتهم ولوازمهم فبدأوا،ولاول مرة في تاريخ البشرية ، يخطون منازلهم الاولى وكانت اكواخ دائرية بسيطة ، شيدت اسسها واسافل جدرانها من الحجارة والطين وسقفت بالقصب واغصان الاشجار وجذوعها .

٣ - اظهرت الدراسات والمسوحات الآثارية التي اجرتها فرق العمل المساهمة في حملة التنقيبات الانقاذية في حوض سد صدام بمنطقة اسكي موصل في اواسط الثمانينات ، وجود مخلفات اكيدة لانسان العراق خلال المراحل الاولى من العصر الحجري القديم يرجع زمنها الى ما قبل ثلاثمائة الف سنة . وتتكون هذه المخلفات من ادوات وآلات ذلك الانسان متناثرة في عدد كبير من المقار والمستوطنات الكائنة على مصاطب نهر دجلة الاربع التي كونتها العصور الجليدية خلال دهر البلايستوسين في المليون سنة الأخيرة من عمر الأرض . فقد عثر على ما يقرب من اربعين مستوطنا لأنسان العصر الحجري القديم الأسفل

على مصاطب نهر دجلة فوق قرية رفان عليا الى الجنوب من مركز ناحية زمار (قبل الغمر) في الطرف الغربي من الحوض • كما عثر على مايقرب من نصف هذا العدد من مستوطنات ذلك الانسان على مصاطب دجلة الشرقية واكتاف الوديان المؤدية اليه جنوبي مركز ناحية فايدة بمحافظة دهوك • وفي اوائل الثمانينات وجدت اعداد اخرى من مقار ومستوطنات انسان العصر الحجري القديم الأسفل على طرفي نهر الفرات في منطقة الفحيمي وفي جزيرة بيجان في حوض سد القادسية • وقبل ذلك وفي اوائل الخمسينات على وجه التحديد ، عثر على العديد من مستوطنات هذا الأنسان وادواته الحجرية الاولى في صحراء الرطبة غربي العراق • كما وجدت آلات وأدوات انسان العصر الحجري القديم بقسمية الاسفل والاوسط ، في اوائل السبعينات ، في عدد من مستوطنات ذلك الانسان ابرزها :

طار الجمل وحفنة الابيض في القسم الغربي من محافظة كربلاء بين منخفض الرزازة وقصر الاخيضر ، غير بعيد عن مجموعة كهوف الطار(١٢) •

كما التقطت من على اماكن مرتفعة في نفس المنطقة ، قبل ذلك بعقدين من السنين أدوات حجرية تعود للقسم الاخير من العصر الحجري القديم • ووجدت في اواسط الستينات اعداد من الشظايا والمقاشط الموستيرية ، من العصر الحجري القديم الاوسط ، يرجع زمنها الى مايقرب من سبعين الف سنة، في مستوطن يقوم على الكتف الايسر لوادي القصير (ويسمى ايضا شعيب القصير) في الصحراء جنوب غربي منطقة أور ـ اريدو خارج السهل الرسوبي • وفي المنطقة الجبلية من القسم الشمالي والشمالي الشرقي من العراق عثر على مواطن انسان العصر الحجري القديم منذ أواخر العشرينات، فقد كشف في المجموعة من كهوف منطقة السليمانية عن ادوات هذا الانسان ، في كهفي زرزى وهزارمرد ، والاول كهف صغير في الجبال المقابلة لمركز ناحية سورداش ، ويشاهد الثاني الى يمين الطريق العام الذاهب الى السليمانية بعد اجتياز منطقة طاسلوجة ، وقبل الوصول الى مدينة السليمانية

بمسافة ثلاثة عشر كيلومترا . كما عثر على آثار انسان العصر الحجري القديم الاعلى في كهف كورة الكائن في سلسلة جبال قرهداغ ، الى يسار الطريق الذاهب الى السليمانية، وقبل الوصول الى منطقة طاسلوجة ببضعة كيلومترات وتنتشر حول صخرة برده بالكا ، الكائنة على بعد أربعة كيلومترات الى الشرق من مركز قضاء جمجمال ادوات وآلات حجرية من الصناعة الآشورية ، يرجع زمنها الى ما قبل مائة الف سنة. وفي جبال برادوست، في محافظة اربيل، وعلى ارتفاع ٢١٠٠ قدم فوق سطح البحر يقع كهف شانيدار بقرب الضفة اليسرى للزاب الأعلى . وهو من اوسع الكهوف في شمال العراق ، يبلغ عرض فتحته ٨٢ قدما وارتفاعها ٢٦قدما ويتسع عرضه من الداخل فيصل الى ١٧٥ قدما وعلو سقفه في الوسط ٤٥قدما عن ارضيته الحالية ، ويتلاشى هذا السقف في نهاية الكهف شانيدار في عام ١٩٥١ وأستمرت بمواسم متقطعة حتى نهاية عام ١٩٦٠ . وقد كشف عن طبقات للسكنى في ارضية الكهف الحالية من أحدث العهود الى اقدم استيطان فيه يرقم الى العصر الحجري القديم الاوسط ، المسمى بالدور الموستيري ، والذي كانت بدايته قبل نحو من سبعين ألف سنة في قاع الكهف الصخري على عمق ٤٣ قدما . تعقبه من اعلى المرحلة البراد وستيه في العصر الحجري القديم الاعلى والتي ابتدأت قبل ما يقرب من ثلاثين الف سنة . تلي ذلك طبقة تمثل العصر الحجري الوسيط الذي يتميز بآلاته الحجرية الدقيقة والذي يرجع تاريخه الى ماقبل اثني عشر الف سنة . ثم تختم طبقات السكنى في اعلى قاع الكهف ببقايا العصر الحجري الحديث الذي كانت بدايته قبل نحو عشرة الاف سنة .. أن ابرز ماكشف عنه التحري الاثاري في كهف شانيدار الهياكل العظيمة التي وجدت في الطبقة الموستيرية السفلى اذ عثر على سبعة منها تعود لأنسان النياندرتال بينها هيكل لطفل من النوع نفسه . ودلت الدراسات المختلفة في التاريخ الجيولوجي للكهف وبنتيجة فحص تربته أن مناخ القسم

الشمالي من العراق كان يختلف عما هو عليه الآن . فقد مرت فترة جيولوجية عمت فيها الرطوبة والحرارة بحيث ان انواعا من النخيل كانت تعيش في المنطقة كما دل على ذلك ما وجد من غبار طلع النخيل في تربة الكهف .

الهوامش ومراجع البحث

١ ـ انظر بهذا الشان المراجع التالية :

a) Braidwood, R. and Howe, B. Chicago, 1960. "Prehistoric Investigations in Iraqi Kurdistan".

b) Braidwood, R. and Howe, B. Chicago, 1983. "Prehistoric Archaeology Along the Zagros Flank".

c) Solecki, R. in Sumer 1952, Vol. 8. and Sumer 1953, Vol. 9 "Palaeolithic Site in the Zagros Mountains of Northern Iraq, Report on Sounding at Shanidar Cave".

d) Garrod, D. A., 1930 in Bulletin of the American Schools of Prehistoric Research No. 6, pp. 8-42.
"The Palaeolithic of Southern Kurdistan. Excavations in the caves of Zarzi and Hazar Merd".

e) Field, H. 1951, in Journal of Anthropology, Vol. 7 No. 1 "Reconnaissance in South Western Asia".

f) Wright, Henry, T. In Sumer 1966, pp. 101-106.
"A note on Apalaeolithic Site in the Southern Desert".

fi) Fujii Hideo 1976 Tokyo, Japan.
"Excavations in Iraq 1971-1974. Al-Tar, pp. 303-326".

ـ مسوحات البعثة البولونية التابعة لجامعة وارشو العاملة في التنقيبات الانقاذية في حوض سدة القادسية (تنشر تباعا في مجلة سومر) .

ـ مسوحات البعثة البولونية التابعة لجامعة وارشو في التنقيبات الانقاذية في حوض سد صدام بمنطقة اسكي موصل في اواسط الثمانينات (تنشر تباعا في مجلة سومر) .

- مسوحات البعثة الفرنسية التابعة لجامعة السوربون العاملة في التنقيبات الانقاذية في حوض سد صدام بمنطقة اسكي موصل في اواسط الثمانينات . (تنشر تباعاً في مجلة سومر) .

٢ - سمي هكذا نسبة الى اكتشاف بعض بقاياه العظمية المتحجرة لاول مرة في وادي النياندر قرب مدينة دسلدورف في المانيا الاتحادية عام ١٨٥٦ ، وقد عرفت بقاياه بعدئذ في اماكن عديدة من جنوب شرق اوربا والشرق الاوسط والهند .

٣ - وربما في كهوف واماكن اخرى من العراق لم يكشف عنها البحث الاثاري لحد الان .

٤ - انظر :

Garrod, D. A. 1962 in Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain, Vol. 92.

"The Middle Palaeolithic of the Near East and the Problem of Mount Garmel Man".

٥ - عاش انسان النياندرتال العراقي في كهوف العراق وعلى هضابه الشمالية قبل اكثر من مائة الف سنة ، واختفت اخر بقاياه منذ ما يزيد على ثلاثين الف سنة .

٦ - انظر :

a) Solecki, Ralph, 1957 in Scientific American, Vol. 197, No. 5, "Shanidar Cave".

b) Erick Trinkaus. 1983, Academic Press. "The Shanidar Neanderthal", pp. 424-472.

٧ - وجد هيكل عظمي لرجل كسيح قرب موقد للنار في احدى مستويات كهف شانيدار الاثرية ، مما يدل على انهم عهدوا اليه بالعناية بالنار وادامتها حين خروجهم للصيد .

٨ - الدكتور فرج بصمقمجي : مجلة سومر لسنة ١٩٥٥ المجلد ١١ (العصور الحجرية في العراق في ضوء المكتشفات الحديثة) .

٩ - انظر المراجع المدرجة في الهامش رقم ١ أعلاه .

١٠ - انظر :

Bridwood, R. Chicago, 1967, Prehistoric Men.

١٢- في عصر البلايستوسين ، وهو عصر ظهور الانسان وبداية العصور الحجرية القديمة سادت الاقسام الشمالية من الكرة الارضية اربع عصور جليدية غطى فيها الجليد الاقسام الشمالية من قارات اوربا وآسيا وامريكا الشمالية . وقد كان يقابل هذا في منطقة الشرق الاوسط ومناطق الصحارى الكبرى في العالم عصور مطيرة شديدة البرودة . وفي فترات ذوبان الجليد الكائنة بين العصور الجليدية الاربع كانت منطقتنا تتمتع بفترات دفيء وجفاف نسبي ، كالفترة التي اعقبت اخر عصر جليدي والتي لازالت تسود هذه المنطقة من العالم ومنذ اكثر من خمسة عشر الف سنة مضت والتي يطلق عليها احيانا اسم العصر الحجري المتوسط او الوسيط .

١٣- ان الدراسات الاولية للمواد الحجرية المكتشفة في مستوطنات انسان العصر الحجري القديم الاسفل والمكتشفة في مواقع غربي العراق وعلى طرفي نهر دجلة تظهر تشابها كبيرا مع مثيلاتها المكتشفة سابقا في مواطن انسان نفس الفترة من هضبة الجزيرة العربية الشمالية .
انظر بهذا الشأن : -

Field, H. Chicago 1960. Northern Arabian Desert, Archaeological Survey 1925-1950.

وهذا التشابه قد يشير الى المسار الذي سلكه انسان المنطقة العربية ، وكان دائما يسلكه في الازمان اللاحقة الاكثر حداثة ، بانحداره نحو وديان الانهار العظيمة في المنطقة . ونتيجة لذلك فانه يؤكد ايضا ان جزيرة العرب كانت موطن معظم الموجات البشرية التي استقرت في وادي الرافدين وبلاد الشام وفلسطين ، ومنذ العصور الحجرية القديمة . بقي ان نذكر ان انواعا من الادوات الحجرية من الصناعة الموستيرية اللاحقة (٨٠ - ٤٠ الف سنة قبل الان) والتي تتشابه مع مثيلاتها في مقار ومستوطنات جبال العراق الشمالية والشمالية الشرقية وكهوفها قد وجدت ايضا في بعض مستوطنات ضفتي دجلة في حوض سد صدام شمالي مدينة الموصل ، وانها من الصناعات المحلية في تلك المقار والتي تطورت فيها على مر الزمن من قبل مرتادي تلك المناطق الذين كانوا ينحدرون احيانا من اماكن تواجدهم في المناطق المرتفعة من شمالي العراق حاملين معهم آلاتهم وادواتهم الحجرية الى ضفاف دجلة طلبا للماء والقنص .

الفصل الرابع

المدن الدينية والمعابد

د . مؤيد سـعيد
دائرة الآثار والتراث

لاتتوافر المعلومات عن اول اشكال العبادة في العراق القديم ومراكز العبادة والمعتقدات الدينية التي رافقتها • وبالرغم من ان الكثير مــن المنقبين يحلو لهم ولاسباب عدة اهمها الفروقات المعمارية بين بناء واخر من موقع اثري واحد ، اعتبار أحد المباني مزارا او معبدا •• الا انه لم تقع كثير من هــذه المباني المشار اليها على انها معابد ، في مجموعة المعابد الحقيقيــة • الا ان حالة نضج عمارية توضحت فجــأة في كثير مــن المدن المشهورة بمعابــدها وتحولت هذه المعــابد الى شــواهد عمــارية دائميــة قابلــة للتطــور ومحافظة على موقعها وكذلك على اسمها وخصائصها •

وتعتبر معظم المدن الرئيسة في العراق القديم من مدن المعابد • وفي ذات الوقت فان كل المدن المتوسطة والصغيرة منهــا تمتلك معابــد خاصة بهــا وكثرة المعابد والمزارات لها علاقة باعداد الالهة واشكالها واسمائها وصفاتها وعلاقات بعضها ببعض وبالبشر ايضا • ولقد اتاح علم الاثار ، واعتمادا على

متابعة الاشكال والانظمة المتقدمة تاريخيا للمعابد ، والرجوع بالمقارنات الى اشكال اقدم ، التوصل الى اقدم معابد ممكنــة •• ولكن من دون معرفــة الاله الذي كان يحل فيها ، خاصة اذا كانت هذه النماذج من المقارنات هي بين مدن مختلفة • وعموما يمكن ان نقسم المعابد في العراق ومن ثم المدن التي تحتويها الــى : ـــ

ا ـــ المعابد للالهة الكبيرة :

وهي المعابد في المدن الرئيسة في العراق القديم وتمتاز بان الآلهة الكبيرة هي في قمة الهرم التنظيمي لمجمع الالهة (Pantheon) وهي آلهة ذات صفات سلطوية على غيرها من الآلهة الاقل منها مرتبة ولذلك فهي التي تتحكم في مصائر الناس •

وعموما فان المدن التي تحتويها هي مدن حج وزيارات واعياد واحتفالات ســنوية كبــرى •

ب ـــ معابد الآلهة القومية :

وهي معابد لالهة رئيسة كانت اصلا تحمي مدنا خاصة بها ، ثم اتيح لها وبفضل الفعل السياسي والعسكري لسكان هذه المدن بالتحول الى آلهة ذات طابع وطني ، وبدأت بالتداخل وبتبني صفات عدة من الالهة الكبيرة بحيث تحولت صفاتها القومية والوطنية الى طبيعة مزدوجة ذات ملامح كونية او فلكية او دينية واسطورية، ومن هذه الآلهة الاله انليل في العهد الكاشي (القرن الخامس عشر ق•م) • والاله آشور منذ بداية الالف الثاني ق•م • والاله مردوخ في بابل منذ بداية الالف الثاني ق•م ايضا •

ج ـــ معابد الالهة المحلية :

وهي معابدلالهة ذات صفات منفردة لمنطقة واحدة او مشــتركة لعدة مناطق وباسماء مختلفــة وقد تكون بنفس الاســم واللقب او باختــلاف يسير في الالقاب •

فيقال عشتار الآشورية وعشتار الاكدية وعشتار سبار كما يقال الاله انليل او Umun - gal اومون ـ غال وهي كلها للاله انليل او الاله نابو أو الاله نابو شخاري وهكذا . وتنفرد هذه الآلهة في مدن صغيرة بها ، وقد تكون حلقة تضاف في مدينة رئيسة الى الهة المدينة الكبيرة .

٢ ـ المعابد المنفردة والبسيطة والمزارات :

وهي الانواع المنتشـــرة في احياء المدن وتخص اصناف المهـــن والحرف والصناعات والزراعة والطب والفلك والتنجيم وغيرها كما انها قد تنتشر كما هو الحال الان في مواقع ريفية تتوسط عدة قرى تتجمع حولها وتحولها تدريجيا الى مدينة مركزية صغيرة .

هـ ـ المعابد التعليمية :

وهي معابد متخصصة في تدريس علوم الكهنة المتعددة لطبقة معينة من التلاميذ ابتداء بالكتابة ثم تنتقل الى تدريس مـــواد الادب واللغـــة والفلك والرياضيات والطب .. الخ .

ومن هذه المعابد معابد تل حرمل وتل السيب في حمرين ونابوشخاري في بابـــل .

توزيع المعابد على المدن :

تتوزع هذه المعابد على المدن بصيغ واشكال متعددة . فهي اما تكون معابـــد :

أ ـــ مستقلة بذاتها ولها شهرتها خارج المنطقة وتستقبل الحجاج .

ب ـ مرتبطة بغيرها كأن تكون معابد مزدوجة او متعددة الالهـــة ، مثـــل معبد سن ـ شمش او آنو ـ أدد في اشور وكما في المعبد المربع شارة ومعبد عشتار في اشچالي وغيرها .

ج ـ متكررة في عدة مدن حسب الحاجة اليها كما هو الحال في معابد عشتار المتوزعة في كل مكان ومعابد انليل وكذلك معابد (نابووتشميتم) .

د ـ ان تكون معابد او صوامع صغيرة مضافة الى الهة اخرى اكبر منها في المنزلة في تلك المدينة كما هو الحال في الالهة سن، وادد وشمش، في معبد نابو الكبير في خرسباد .

اشكال المعابد واحجامها قياسا الى المدينة

العلاقة بين المعابد والمدن هي متناسبة تماما في الحجم والكثافة لذا ان المدن الكبيرة مثل اشور وخرسباد وبابل واور والوركاء وكيش وبورسبا وسبار تمتلك معابد كبيرة تحيط بها عدة اسوار وساحات اما المدن المتوسطة الحجم فأنها عادة تمتلك معابد كبيرة الحجم او متوسطة الحجم ايضا. الا ان الفرق الحقيقي بينها وبين المدن الكبيرة هو في كون هذه المدن تمتاز بمعبد لاله واحد رئيس بينما في المدن الكبيرة تكون هناك معابد كبيرة لاكثر من اله او لعدة الهة ايضا .

وبالطبع فان العواصم الملكية لها حصتها في المعابد وبطريقة ترينا الاهمية الدينية والدنيوية للمدينة .. لذا ان العاصمة تمتاز عادة بزقورة كبيرة (وفي مدينة اشور عدة زقورات) يحيط بها صحن واسع او عدة ساحات مع اسوار ومداخل ، وتحاول العاصمة عادة تبني معظم الالهة الرئيسة للمدن المهمة التابعة لها ، وبذلك تبقى هي كمدينة فوقية تشرف على المدن الاخرى دينيا ودنيويا وتضمن بذلك ولاء المدن والمناطق لها .

وتعتبر عمارة المعابد جزءا من العمارة الخاصة بالمدينة وخاصة بالعمارة الرسمية منها وذلك في طرازها وفي شكلها وفي اثاثها .

فاذا كانت القصور ترفع على مصاطب عالية فالمعابد ترفع على مصاطب خاصة او ملحقة بالقصر الملكي ، واحسن مثال لها هو في مدينة خرسباد

الاشورية • حيث يقع معبد القصر الرئيس او الزقورة على مصطبة القصر نفسه بينما هناك مصطبة خاصة بمعبد نابو الكبير • اما في النمرود (كالح الاشورية) فان المعابد الرئيسة تقع على المصطبة الملكية وكذلك الزقورة • وفي اشور المدينة المقدسة نرى ان المعابد تمتاز باشكال معمارية خاصة ويختلف بعضها عن بعض • وهي تجمع بين طرز شمالية وجنوبية في مخططاتها • اما عمارة جدرانها فانها ذات مميزات فردية مستقلة تماما بعضها عن بعض •

وفي المدن الصغيرة فان المعابد تبقى علامة مهمة ومؤشرة في عمارة المدينة فهي مرتبطة بالقصر الحاكم كما في معبد شوسن في تل اسمر على نهر ديالى من العصر السومري الحديث وهي الاعلى في الجدران بحيث تبدو واضحة فوق مستوى سطح البيوت من على بعد •• كما في معابد سن في خفاجي وكذلك في معابد تل حرمل واشجالي ونوزي • وهي ترتبط بالزقورة مباشرة كما في معابد كارتوكلتي نينورتا (تلول العقر) وتل الرماح ومعبد داكان في ماري •• وهي تقع على مستوى مقارب من الزقورة على ارضية الساحة المحيط بها كما في معابد انليل في نفر وننار في اور ودب — لال — ماخ في اور او مستقلة عنها كما في معبد التل (A) في دور كوريكالزو (عقرقوف) والامثلة متعددة على اشكال المعابد واحجامها الا انها عموما اكبر واعلى من احجام المباني المجاورة لهـا •

وتتميز بمداخلها البرجية العالية التي تؤشر البوابة الرئيسة للمعبد وكذلك المدخل الى الصومعة في الداخل حيث يتكرر بناء هذه الابراج •

مواقع المعابد بالنسبة لتخطيط المدن :

تختلف المعابد باختلاف اساليب تخطيط المدن • ففي الشمال حيث النظام المتراص في تتابع الاحياء والقطاعات السكنية تكون المدينة الملكية عادة خارجة جزئيا عن

اسوار المدينة او تقع على الحافة الخارجية القريبة للنهر والمطلة عليه • وهناك عادة تنتشر المعابد بين القصور • ففي اشور نرى معبد آ شور وزفورة الاله انليل ومعبد سن ـ شمش المزدوج وكذلك معبد آنو ـ أدد المزدوج تقع كلها في الجزء الشمالي على حافة المدينة النهرية تتخللها القصور الملكية وكذلك الحال في النمرود وفي خرسباد وفي نينوى •

اما في الجنوب حيث تتركز منطقة القصور والمعابد في مركز المدينةووسطها فان المعابد تتوزع عادة في المناطق المجاورة للزقورة وقد يحيط بها جميعا سور مركزي واحد •

وتعتبر اور افضل نموذج لهذا النوع من المدن التي تتميز بوجود المعابد الرئيسة والزقورة وبيت الخزينة الدينية والمقبرة الملكية والقصر الملكي في مركز المدينة تماما يحيط بها سور خاص جدد بناؤه عدة مرات منذ العصر السومري الحديث وحتى زمن الملك نبوخذ نصر الثاني وللسور مداخل رئيسة واخرى خاصة • تربطها ببقية اجزاء المدينة لمختلف اغراض الاحتفالات والخدمات •

وهناك مدن صغيرة ايضا تشابه اور ومنها موقع تل محمد الحالي • اما المدن التي يخترقها النهر عادة فان المركز الديني الدنيوي يتحول على حافة النهر ويكون على جانب واحد (المدينة القديمة) او على الجانبين المتقابلين ومن هذه المدن الوركاء وكيش ونفر •

وتعتبر المواقع التي تشيد عليها المعابد داخل المدن مقدسة ولذلك لاتترك او تهمل وانما تبقى في مواقعها انما يجدد بناؤها بين فترة واخرى • ومن الشواهد الاساسية على استمرار تشييد المعابد في نفس مواقعها مجموعة معابد اريدو الثمانية عشر والتي تبدأ في بداية عصر (العبيد) وتستمر حتى يشيد الملك السومري اورنمو زقورة فوقها وهي معابد مشيدة بعضها فوق بعض بحيث

اصبحت مؤخرا كتلة صلدة تحولت الى مصطبة اتاحت المجال لتشييد معابـد جديدة فوقها ومن هذا النوع من المعابد ايضا معابد نفر من عصـر فجـر السلالات ومعابد الوركاء في منطقة أي ــ أنا والتي لم ينقطع البناء فيها طيلة عصر العبيد والوركاء وجمدة نصر وبداية فجر السلالات وكذلك معـابد الاله سن في خفاجي والتي اسـتمرت بعضها فوق بعض باكثر من احـد عشر طبقة بنائية ومعبد عشتار في آشور والذي تغير مخططه ولكن موقعه استمر منذ عصر فجر السلالات وحتى سقوط آشور عام ٦١٥ ق.م .

تعتبر المعابد عادة مركزا اقتصاديا واداريا مهما خاصة في العصور التاريخية والقبتاريخية المبكرة . لذا ان موقع المعبد في المدينة اصبح مؤشرا مهما لعدة ظواهر حضارية اهمها :ن :ــ

١ ــ تطور عمارة المعبد يشير الى تطور الفكر العماري في المدينة .

٢ ــ غناء المعبد وثروته يشير الى القوة الاقتصادية للمدينة وسيطرتها على الاراضي المحيطـة .

٣ ــ طبيعة الاله وخواصه تشير الى القوة الجاذبة للمتعبدين مـن خـارج المدينـة اليهـا .

٤ ــ الامكانيات العلمية والتعليمية في المعبد هي الاخرى تشير الـى قدرة المعبد على الاستمرار والديمومة لكثرة الاجيال التي تتدرب على اداراته واحدة بعد الاخرى .

٥ ــ علاقة المعبد بادارة المدينة او الحاكم او الملك تشير الى مدى نجاح المعبد في توفير احتياجاته وتنظيم اموره .

ولقد لاحظنا في تاريخ العراق القديم انه كثيرا ما كان الملك يقوم باعمال صيانة وترميم المباني في جنوب العراق خاصة في اور ونفـر وكيش وسـبار الكهنة وسكان المنطقة او المدينـة •

ولقد اهتم الملوك الاشوريون بالذات في تجديد معابدهم دوما وكذلك في صيانة في معابد عدة موزعة على كل المدن المهمة وذلك لتخليد ذكراه ولارضاء وكوثا وبورسبا وبابل الا انهم وفي ساعات الغضب كثيرا ما كانوا يخربـون المعبد وينقلون الاله الى مدينة اخـرى ••

ولقد عانت بابل من هذا الاسلوب في الانتقام من المدينة وسكانها عدة مرات حيث خرب المعبد والزقورة ونقل تمثال مردوخ الى خارج بلاد الرافدين او الى مدينة اخـرى •

وكانت المعابد موقعا مألوفا لنصب المسلات خاصة التي تحتـوي على تشريعات وقوانين مثل مسلة حمورابى والتى كانت قد نصبت في بابل وكذلك في سبار في معبد الاله شمش اله القوانين والعدالة •

اهـم المدن الدينية في العراق القديـم

وتعتبر مدن الوركاء واور وبابل واشور من اهم المدن الدينية على الاطلاق، اذا ماراعينا توزيعها الجغرافي • فالوركاء المدينة التى عبد فيها كل من الالـه آنو اله السماء إنانا الهة الحب وامتازت بوجود منطقتين دينيتين فيها هما كلاب واي ــ انا والمنطقتان مملؤتان بالمعابد ولقد استمرت حتى نهاية عهد الاحتلال الفرثي وهي مملؤة بالمعابد والقصور الدينية والتي تجمعت تقريبا في المركز •

ومن اهم معابد الوركاء (المعبد الابيض) في منتصف الالف الرابع ق•م• وهو معبد الاله انو ويرتفع فوق مصطبة عالية وطراز المعبد هـو من النوع (الثلاثي الاجزاء) (Tripartite) وهو يشابه في هذا معبـد تل العقـير وكذلك معابد اريدو من عصر (جمدة نصر) •

وفي الوركاء ايضا مجموعة من المعابد بنيت كلها فوق مصطبة يحيط بها سور ولها مدخل رئيس وهذه المعابد كلها من طراز يسمى طراز الوركاء (وهو طراز متطور عن نظام المعابد ثلاثية الاجزاء) بالاضافة الى قاعات عدة للاحتفالات الدينية وساحة كبرى للطقوس العامة (شبه المسرحية) وهي كلها مشيدة بحدود الالف الثالث ق.م ومخصصة لعبادة الالهة اينانا السومرية (عشتار) . اما أور فان العبادة فيها هي للاله نار الاله القمر السومري وهو اله رئيس عبد في اور وكذلك في حران في اعالي الفرات (بصيغة الاشورية) .

ويتربع الاله نار في معبده اعلى زقورته التي بناها له الملك اورنمو السومري (٢١١٣ ق.م) تحيط به ساحات وغرف عديدة بينما معبد زوجته (نينكال) يقع في الجناح الجنوبي الغربي من الساحة الاولى . وتحيط بالساحة عدة معابد منها معبد كاهنات الاله والمعبد يسمى gipar - Ku وهو مسكن لرئيسة كاهنات الاله القمر . وفي نفس الوقت يحتوي على معبدين وغرف متعددة للصلاة .

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية في الساحة عند مدخلها في هذه النقطة اقيم المعبد ـ الارشيف وهو المركز الاداري للمدينة الدينية وفيه عثر على مجاميع الرقم الطينية المكتوبة بالسومرية والتي تحوي على اعمال وافكار كهنة المعبد والملوك الذين سكنوا المنطقة ايضا بصفتهم المقدسة ملوك مؤلهين مثل الملك شولغي ابن اورنمو والملك ابي ـ سين حفيده ويسمى المعبد أي دب لال ماخ وهناك بيت الكنز او الخزينة الذي يضم اهم الاموال والاثاث المقدس وهي بناية غريبة متداخلة بعضها ببعض بقسمين القسم الداخلي هو (النواة) ويحتوي على خمس قاعات طولية بمدخل مشترك يحيط بها ممر يفصلها عن القسم الثاني (الخارجي) والذي يتكون من مجموعة صفوف من القاعات على طول الممر الذي يدور

حول الجزء الداخلي وتسمى البناية أي نون مـاخ اى بيت الكنوز وهناك القصر الرئيس للملك اورنمو أي خرساك وكذلك مدافـن الملوك الثلاثـة اورنمو ـ شولغي ـ امرسن والتي شيدت كبيوت عادية ثم انشئت القبور في سراديب تحـت الارض •

يحيط بكل هذه المنطقة سور شبه مستطيل جدد بناؤه عدة مرات اخرها في العهد البابلي المتأخر •• ويتم الدخول اليها خلال مداخل خمسة وتحتل المنطقة الدينية مساحة مركزية داخل المدينة ومن وسطها تقريبا بحيث يمكن الوصول اليها من خلال الشوارع وكذلك بواسطة مينائين في الزاوية الشمالية وفي الضلع الغربي ايضا من المدينـة •

وفي الشمال تعتبر اشور من المدن الدينية المهمة فهي مدينة الاله اشور وهو اله قومي للمنطقة الشمالية وقد اكتسب كل صفات الاله انو واصبح الاله انليل ابنه نتيجة لذلك•• ولقد شيدت المعابد في المدينة على طول الضلع الشمالي للمدينة والمطل على فرع نهر دجلة القديم وتوزعت من صف واحـد تقريبا تفصل بينها الزقورة والقصر الملكي القديم وشرفة القصر الحديث • وهي من الزاوية الشمالية الشرقية وعلى التوالي •

معبد اشور ←ـــــ زقورة انليل ←ـــــ القصر القديم والمقبرة الملكيـة ←ـــــ معبد انو اداد المزدوج←ـــــ القصـر الجديد ←ـــــ بيـت الاحتفالات السنوية (بيت اكيتو) ويقع خارج السور •

ويقع كل من معبدي سن ـ شمش ومعبد نابو في خط ثان خلف معبـد أنو اداد • ويتم الوصول الى منطقة المعابد والتي كانت معزولة بواسـطة جدران قاطعة وبوابات فرعية بواسطة الازقة والشـوارع المعبدة بالحجـر وكذلك بواسطة البوابة الشمالية الغربية (بوابة گرگري) ولبيت الاحتفالات (بيت آكيتو) دور مهم اذ تنتقل اليه جميع الالهة بواسطة الزوارق الخاصة بها في رأس السنة العراقية القديمة للاحتفال بالعيد ثم تعـود ثانية ولذلك كان لابـد من ان تكون المعابد وبيت الاحتفالات جميعها مطلة على النهر •

ويبدو من طبيعة المعابد المزدوجة للمدينة وكذلك من نوعية الالهة التي تسكن فيها ان مدينة آشور صممت دينيا بحيث تعوض عن الجنوب وتكتفي ذاتيا بجمع آلهة قوية تحت قيادة الاله اشور الذي صار كبير الالهة •

ولقد تحولت هذه الظاهرة في الموقع الديني الدنيوي الخاص بآشور الى ظاهرة تجمعها على حافة المدينة ومطلة على النهر وفي الوقت نفسه الى تقليد عام لكل الملوك الاشوريين فيما بعد •

ولقد حاولوا جميعا وبنجاح تشييد عاصمة بديلة لآشـــور وقامـــوا بتشييد مصطبة عالية اصطناعية بدلا من الحافة الجبلية العالية المطلة علـــى النهر ، وقاموا ببناء قصورهم ومعابدهم والزقورة عليها ، وحولوهـــا الى (أكروبوليس) ملكي وبالتالي مدينة محرمة على المواطنين (اللهم الا في اوقات الاحتفالات) فاحتفظوا بذلك بالعصمة الدينية والدنيوية بايديهم • الا ان آشور بقيت المدينة الدينية الرئيسة اينما كانت عواصـــمهم ، ولذلك كانوا يعيشون ملوكا في كالح (نمرود) ونينوى ودورشروكين (خرسباد) ولكنهم كانوا يدفنون تحت جدران القصر القديم في اشور •

اما بابل في العصر البابلي المتأخر فأنها تعتبر مفخرة المدن الدينية القديمة واكبرها واقواها •

فلقد تركزت المنطقة الدينية وبمعزل عن منطقة القصور الملكية على نهر الفرات (شط الحلة الان) • وشيدت الزقورة في وسط المدينة تماما تحيط بها ساحة واسعة جدا بمداخل عدة اهمها المدخل المطل على شـــارع الموكب وبعمق ٢٥م • يفصل بين الزقوة ومعبد ايساكيلا (معبد الاله مردوخ) والذي يقع جنوبه منعطف شارع الموكب (الشارع المقدس) باتجاه جسر المدينـــة (المشـــيد بالاجـــر) •

وتبلغ مساحة الصحن المحيطة بالزقورة (برج بابل الشهير) (١١٧٠٠٠) م٢ تقريبا بينما يبلغ ارتفاع البرج المكون من ٧ طبقات يعلوها معبد به سرير الاله مردوخ (عرشه) ٩١٫٦م×٩١٫٦م×٩١٫٦ م أي مايعادل كتل مقدارها (٧٦٨٫٥٧٥ م٣) تقريبا .

ويعتقد ان طبقات الزقورة كانت ملونة الوان عدة اخرها اللون الذهبي ولقد عثر على كسر قليلة من الاجر المزجج باللون الازرق في ركامات الزقورة التي نقلها الاسكندر المقدوني الى المنطقة الشمالية من المدينة القديمة (خلف المسرح الاغريقي) .

ويعزل الشارع الموصل بين الجسر وشارع الموكب بين صحن الزقورة ومعبد الايساكيلا Esagila معبد الاله مردوخ اله بابل .. وهو معبد كبير يتكون من ساحتين كبيرتين تحيط بهما الغرف ولهما مداخل برجية عالية ينتهي المدخل في الفناء الداخلي الى صومعة الاله مردوخ ذات الغرف اللاثلة العريضة المتوازية مع بعضها والمرتبطة ببعضها بمداخل تقع على المحور الوسطي، ولقد تم التنقيب عن اجزاء من هذا المعبد الضخم وكذلك عن معابد نينماخ وعشتار ونابو ونينورتا وگولا وهي من المعابد الرئيسة في بابل..

وتروي النصوص ان في بابل ٥٣ معبدا كبيرا للالهة المختلفة و (٥٥) صومعة للاله مردوخ و ٣٠٠ صومعة للاكيكي آلهة العالم السفلي و ٦٠٠ صومعة للانوناكي الهه العالم السماوي و ٣٨٤ مذبحا للالهة موزعة في انحاء المدينة . ان هذه الارقام تعطي مدينة بابل صفة دينية مطلقة ولاشك . ولقد اسميت بوابات المدينة الثماني وكذلك الشوارع التي تربط بينهما وبين المعابد باسماء الالهة في هذه المعابد .

وترتبط مدينة بابل بمدينة بورسبا بقناة خاصة هي قناة بورسبا وبواسطتها تنتقل الالهة في احتفالات رأس السنة البابلية الى معبد نابو في بورسبا في زوارقها الخاصة منطلقة من (بيت اعياد رأس السنة) أي (بيت اكيتو) الواقع في شمال الاسوار الداخلية للمدينة القديمة في المنطقة خلف بوابتي عشتار وسن ٠

وهناك مدن دينية عدة صغيرة ومتوسطة لها تأثيراتها المحلية على المناطق التي تقع فيها ٠ ومن اهم المدن هي مدينة شادوبوم (تل حرمل حاليا) وهي مدينة كهنوتية تعليمية مورست فيها الابحاث في دور خاصة تحيط بمعابد المدينة الثلاثة الصغيرة ولقد عثر فيها على رقم رياضية اشتهر منها الرقيم الذي يوضح نظرية في المثلثات اعتقد سابقا انها من اكتشاف يوقيليدس اليوناني ٠

وتؤرخ مدينة تل حرمل الدينية التعليمية في العصر البابلي القديم ٠
وتقابل شادوبوم مدينة اخرى (حاليا تسمى بتل محمد) وهناك عثر على معبد مزدوج (بصومعتين) ٠ ومن خواص هذا المعبد انه يقع في وسط المدينة الصغيرة مع بيت الحاكم والمقبرة الخاصة ويفصلها عن بقية البيوت شارع يدور حول الاتجاهات الاربعة للقطاع مشكلا بذلك مدينة تتكون من نواة يحيط بها شارع ثم قشرة تحيط بهما مكونة من بقية بيوت المدينة ٠

ومن المدن الدينية عموما والمشهورة في العراق القديم ٠
الوركاء مركز الالهة اينانا والالهة انو
اريدو مركز الاله ايا
نفر مركز الاله انليل والاله نسكو
أور مركز الاله ننار

ايسن مركز الالهة كولا

سبار مركز الاله شمش

بابل مركز الاله مردوخ / + ٥٣ اله آخر

دور كوريكالزو (عكركوف) مركز الاله انليل

آشور مركز الاله اشور والالهة عشتار الاشورية + مجموعة من الالهة

خرسباد (دورشروكين) مركز الاله نابو + مجموعة من الالهة

نمرود (كالخو) مركز الاله نابو + الالهة عشتار + الاله نينورتا

غيرسو (مملكة لكش) مركز الاله نين ـ كرسو (غرسو)

كيش مركز الاله ننخرساك

خفاجي مركز الاله سن

اشجالي مركز الاله عشتار كتيتوم

ومن المؤكد حاليا ان موقع تبه كورة (الطبقة ١٣) من عصر العبيد يعتبر من المدن الدينية الاولى بينما تعتبر اريدو في الجنوب اقدم مدينة دينية ولاشك اذا استمرت فيها المعابد من عصر العبيد وحتى سلالة اور الثالثة .

وهناك مدن اخرى قديمة وفيها معابد او مزارات الا انها لاغراض المدينة ذاتها ولايمكن اعتبارها مدنا دينية ذات طبيعة شمولية ومراكز دينية لمناطق او اجزاء معينة من بلاد الرافدين .

والمدن الدينية عموما امتازت بالحي الديني الخاص ومن بعد عصر اورنمو بالزقورة المرتفعة والتي تجري حولها احتفالات سنوية كبرى .

كما ان المدن المهمة التي امتازت بوجود بيوت اكيتو فيها مثل بابل والوركاء واشور تعتبر من المدن المركزية في مجالات العبادة والعلوم المرتبطة بالدين وبالسيادة الكهنوتية والملكية ايضا .

كما ان هناك مدنا توسعت في عصور معينة ثم استمرت في اهميتها بالرغم من ضمورها سياسيا مقابل مدن اخرى مثل اور التي اصبحت من اشهر المدن في عصر سلالة اور الثالثة حيث نادى ملوكها بالالوهية لانفسهم ومابعد سلالة أور الثالثة حيث انتصرت العبادة على (ننار) اله القمر مجددا او بابل بعد زمن كوريكالزو حيث عادت اليها عبادة مردوخ مجددا بعدما شيد هو مدينته الخاصة في عكركوف وخصصها لعبادة الاله انليل .

المصــادر

آســور : فؤاد ســفر بغداد ١٩٦١ .

كذلك الاعداد (٦٧/٦٦/٦٤/٥٨/٢٤/٢٣/١٠) من WVIDOG والمنشورة في لايبزيج .

استحكامات آشور : فالنراندريه ، الموصل ، ١٩٨٧ .
معابد عشتار الحديثة في آشور : فالتراندريه ، الموصل ، ١٩٨٦ .
معابد عستـ ر القديمة في آشور : فالتراندريه ، الموصل ، ١٩٨٦ .
أريدو : فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى ، بغداد ، ١٩٨٣ .
معابد بابل وبورسبار : الموصل ، ١٩٨٦ .

وكذلك كافة اعداد WVIDOG المرقمة ٥٩/٥٤/٤٨/٤٧/٣٢/١٥/٢ والمنشورة في لايبزيج عن بابل وترجماتها المنشورة من قبل دائرة الاثار والتراث .

تل حرمــــل : طــه باقر ، ١٩٥٩ .
عقرقوف :طــه باقر ، ١٩٥٩ .
نمرود : عبدالله امين اغا وميسر سعيد العراقي بغداد ١٩٧٦ كذلك (Nimrud and the Remains) و Max Mallown

تلول ديالى و (تل اسمر ــ خفاجي ــ اشجالي ــ شارة) .
راجع منشورات المعهو الشرقي في شيكاغو :ــ OIP , OIC

خرســـباد : loud, OIP 38
loud-Altmann, OIP, 40

تل الرماح : D. Oates, IRAQ 30 1968

نفر : OIP 78 1967 وآخرين McCown

كتب وتقارير التنقيبات الاخرى كافة .

الفصل الخامس

المدن الملكية والعسكرية

الدكتور سامي سعيد الاحمـــد
الاستاذ في كلية الاداب ـ جامعة بغداد

يذكر الثبت السومري للملوك ان كيش هـي اول مدينة نزلت فيها الملكية من السماء بعد الطوفان حيث اختير ايتانا الراعي ملكا لسلالتها الحاكمة الاولى • وبذلك تكون كيش في رأس مدن العواصم العراقية فاحترمها السومريون وصار اتخاذ اللقب ملك كيش مبعث احترام ورمزا لسلطة شاملة • ووجد خلال الحفريات في مواقع الاحيمر ، انغرة ، تل بندر وخزنة التي تمثل موقع كيش بأن اولى المستوطنات فيها تعود الى نهاية العصر الشبه الكتابي وخلال ٢٠٠ ـ ٣٠٠ سنة توسعت المدينة وصار لملوكها اهمية •

كانت كيش تقع على مجرى قديم لنهر الفرات وترتبط بقناة بفرع الاراختو من نهر الفرات الذي تقع عليه مدينة بابل وتبعد حوالي ٢٣ كم عن شرق بابل • وصارت كيش عاصمة لسلالة حاكمة اخرى أطلق عليها الاثبات السومري سلالة كيش (الثانية) كما كانت لكيش اهمية خلال العصر الاكدي والفترات التي اعقبته •

يصعب معرفة امتداد كيش بالضبط خلال عصورها الاولى لعدم تكامل الحفريات ، غير أن كيش القديمة كانت تشمل، كما يبدو ، تل الاحيمر وانغرة. فالزقورة عند تل الاحيمر تعود الى عصور المدينة الاولى وترتفع الان حوالي ١٨ر٥ مترا وكذلك المنطقة التي اطلق عليها الاثاريون آ حيث كشفت بنايةعرفت باسم بناية الحجر المستوي المحدب شمال انغرة . والمنطقة كما يظهر رئيسة للسكن في العصر السومري القديم وللبناية عدة غرف وقد تكون مخازن او ذات طبيعة دينية . كما كان التل المعروف باسم W غرب انغرة جزء من كيش القديمة والذي استمر السكن فيه حتى الاحتلال الاخميني للبلاد وهناك عدد من البيوت الكبيرة في القسم الجنوبي من هذا التل . ويعود القصر في التل آ من مجموعة تلال انغرة للعصر السومري القديم ، كما يرجع لعصور كيش الاولى التل E في انغرة حيث موقع الزقورتين التوأمين المشيدتين بالحجر المستوي ـ المحدب .

ونعرف ان معبد خورزاك كلامما يعود قديما الى كيش وقد يكون مكرسا الى الالهة عشتار حيث كان لهذه الربة معبد في كيش خلال عصر ايسن ـ لارسة . كما شملت كيش القديمة المنطقة المعروفة الان بالحرف y عند الاثاريين حيث عثر على بيوت وبناية كبيرة الى جانب قبور ومدافن العربات . وبذلك فان كيش كانت خلال العصر السومري القديم تشمل جميع المنطقة من تل الاحيمر الى انغرة ، وربما كان هناك سور يضم كلا من منطقتي انغرة والاحيمر (كيش القديمة) لم يكتشف بعد .

اظهرت الحفريات عند موقع كيش أن المدينة قد اضيف لها خلال العصور اللاحقة فالبناية المعروفة بـ Z ارجعها المنقبون الى الفترة من العصر الاكدي حتى البابلي القديم على اساس الالواح المكتشفة . وارجعت المنطقة التي يسميها الاثاريون T عند الاحيمر الى فترة ليست احدث من

العصر البابلي القديم وحيث عثر على ما لايقل عن ٣٥ غرفة واعتبرها مكاني مركزا مهما للنسخ • والى العصر البابلي القديم ارجعت البناية في التل C القريب من تل بندر وكذلك القسم الشرقي من التل W .

كما توسعت كيش خلال السلالة الكلدية ، فاقدم بناء للقلعة عند التل الواقع جنوب غرب المنطقة T يعود الى زمن الملك نبوخذ نصر الثاني (٦٠٤ — ٥٦٢ ق•م) حيث عثر على سور واق وبناية مربعة الشكل تقريبا ، والى هذا العصر يعود المستوطن عند تل خزنة وربما برج القلعة عند قمة تل بندر والذي يمتد منه سور الى غرفة واستحكام شبه دائري وبرج في الزاوية الجنوبية الشرقية •

يذكر اثبت السومري للملوك انتقال الملكية من كيش الى اوروك وربما نتيجة الحرب بينهما زمن ملكيها اككا وكلكامش التي نقرأ عنها في لوح سومري، وبذلك صارت اوروك عاصمة ملكية حكم بها الملوك• ويذكر الاثبات ان عدد الملوك بلغ اثنى عشر ملكا واتخذها لوكال زاكيري في نهاية العصر السومري القديم عاصمة لسلالة اطلق عليها اثبت سلالة اوروك الثالثة والتي وضع سرجون الاكدي نهاية لها ، كما اتخذها اوتو حيكال عاصمة لسلالة قصيرة الامد دعاها اثبت سلالة اوروك (الخامسة) • وكانت اوروك عاصمة لدولة عمورية شكلها سن كاشيد •

تقع اوروك على بعد ١٨كم عن خضر الدراجي وتغطي مساحة تقرب من سبعة كيلومترات مربعة وكانت قديما محاطة بسور يبلغ محيطه ٩٫٥كم بيضوي الشكل كما يبدو ، كانت تقع على مجرى نهر الفرات الرئيس ولكنه ابتعد بحوالي ١٨كم عندما غير مجراه مما كان له اثر في حياتها •

اكتشف لسور اوروك حتى الان بابان يقع الاول في الشمال والثاني في الجنوب (بوابة اور) ، وكان السور مكونا من جدارين متلاصقين عرض

الداخلي خمسة امتار والخارجي حوالي المترين • ويلاصق السور من الداخل سلسله من انصاف الابراج كثيرة العدد على مسافات معينة ويبرز كل منها عن السور بما يقارب ٢ر٥ مترا • وربما يعود السور الى العصر السومري القديم حيث ان البوابة مشيدة باللبن المستوي ــ المحدب ، وقد نسب الى كلكامش تشييده سورا لاوروك • وتشير نتائج الحفريات التي تمت باجزاء منفصلة ومتباعدة من موقـع اوروك بانها حتى في عصـر العبيد كانت ذات مساحة كبيرة قد تصل الى ٢٠٠ ايكر • وكانت اوروك في العصر السومري القديم تتألف من منطقتين همـا الاي أننا وكولا"ب • واطلقت الاولى على المنطقة حول معابد المدينة القديمة والتي ربما كرست لانانا ــ عشتار • اما كولا"ب فهي منطقة معبد الاله انو (المعبد الابيض) •

وتقع منطقة الاي أننا في وسط المدينة تقريبا وفيها معبد ضخم عرف باسم اي أننا للالهة عشتار • اما كولاب فتعرف الان بتل وصواص ، وقد شيد معبد انو فيها على مصطبة عالية تشبه الزقورة ارتفاعها حوالي ١٢ مترا وربما اكثر ، وان زقورة اوروك التي شيدها اورنمو تعود الى معبد انو وتقع في وسطه •

وكان لمعبد انو زمن اورنمو سوران داخلي وخارجي وبينهما غـرف وساحات وللسور بابان واسعان في الجانب الشرقي والجنوبي ، ومساحـة المعبد الكلية حوالي ١٢٠ الف متر مربع • يقع خارج السور مـن جهـة الشمال على بعد كيلو مترين من المدينة تل عال هو بقايا برج مرتفع ربما كانت نقطة حراسة • والى شمال غرب منطقـة المعابد عثر على بقايا قصـر الملك سن كاشيد في بداية القرن الثامن عشر ق•م •

توسعت اوروك كما يبدو خلال فترتي الاحتلال السلوقي والفرثي فقد شيد خلال فترة السلوقيين معبد انو انتوم (بناية بيت ريش) على مصطبة الى الشمال الشـرقي من معبـد انو السابق • ثم معبـد اري كال (البناية الجنوبية) الى جنوب بيت ريش ، ربما لعبادة الالهة عشـتار • ثم البناية

الواسعة الكبيرة في التل المسماة حاليا حمد الوركي شمال شرق منطقة المعابد والتي عرفت باسم بيت اكيتو • وفي جنوب اطلال اوروك وعند التل المعروف باسم ورور حاليا تقع بقايا معبد كاريوس من الفترة الفرثية • وربما يعود الى نفس الفترة القصر المربع الكبير الحجم (طول ضلعه ١٤٠ متر) الى الشرق من منطقة المعابد • والى يسار زاوية القصر الجنوبيـة مجموعة من الغرف لابد وان كانت مصلى •

يجعل الاثبات السومري للملوك مدينة أور (المقير حاليا) مركزا لسلالتين حاكمتين خلال العصر السومري القديم ثم صارت قاعدة لسلالة أور الثالثة وكان لاور مركز استراتيجي وموقع مهم ادى الى اختيارها عاصمة مزدهرة • فقد نشأت قرب طرق تجتاز الصحراء التي وراءها وفي وسطها منطقة زراعية خصبة وافرة المياه وقد ربطها نهر الفرات بمدن العراق الداخلية وكان لقربها من الخليج العربي واتصالها به اثر كبير في ارتباطها بالعالم الخارجي الى جانب كونها مركزا لعبادة الاله القمر وزوجته نينكال •

كانت اور مدينة واسعة يبلغ طولها ٤ر٥ ـــ ٥ كم وبعرض مقداره ١ر٥ ـــ ٢ كم اغلبها بساتين تحيط بالمدينة • اما المساحة المسكونة من اور فكانت ١٢٠٠ × ٧٠٠ متر ويحيط بها سور ضخم مشيد باللبن بيضوي الشكل يتسع من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي مع وجه خارجي ينحدر بشدة وكان القسم الاعلى حاجزا امام جانب التل الذي شكل المدينة القديمة •

وكان مجرى الفرات القديم يحيط باور من الشمال والغرب الى جانب قناة عريضة قد حفرت على بعد ٤٥ مترا من قدم السور الشرقي • ولذلك صارت اور محاطة بخندق من الجوانب الثلاثة ولا يمكن دخول المدينة ارضا الا من الجنوب • اما السور الثاني ذو الطلعات الضخمة فكان يحيط بالمنطقة المقدسة في جزء المدينة الشمالي الغربي •

المعتقد آن تخطيط اور خلال العصر السومري القديم لا يختلف كثيرا عنه في زمن سلالة اور التالثة ، وابرز معالم اور هو الحي المقدس ويضم الزقورة التي شيدها اورنمو المشيدة على مصطبة ومحاطة باسوار مزدوجة . والى الجنوب الشرقي من مصطبة الزقورة تقع بناية الگيپار المكرسة الى الالهة نينگال وتحوي بضع مصليات اضيفت لها على مدى العصور اللاحقة والمعتقد انها هي المعبد الارضي . ثم البناية المربعة الصغيرة المسماة معبد نين ماخ التي اختلف الاثاريون في طبيعتها فاعتبروها قصرا او معبدا او حتى بيتا للمال . اما المدخل الرئيس لمنطقة الزقورة امام الزاوية الشرقية للزقورة فكانت الدوب لال ماخ وتشرف طارمتها الخارجية من الجنوب على الجزء الرئيس من المنطقة المقدسة واستعملت كمجلس للقضاء وقد فصلها الملوك المتأخرون عن المصطبة وجعلوها مع غرفتها المشيدة حولها محكمة . ثم معبد الكيكك ــ پركو (قصر رئيسة كاهنات معبد الاله القمر) الذي شيده الملك امارسين جنوب غرب الزقورة ربما على بقايا معبد سابق ، وكان المعبد مستطيل الشكل تتوسطه ساحة ، وفي الزاوية الجنوبية من الساحة المقدسة بالحي المقدس كان قصر اورنمو وكان على الاغلب مركز الدولة الاداري . والى شرق هذا القصر وفي الشمال الشرقي من الحي المقدس تقع مقابر اورنمو وخليفتيه المباشرين وقربها المقبرة الملكية .

تقع في القسم الشرقي من اور مجموعة البيوت السكنية من بداية العصر البابلي القديم ، والى الغرب منها البيوت البابلية ذات الشوارع المستقيمة والدروب الفرعية . وقسم الحي السكني الى وحدات بنائية بواسطة الازقة الكثيرة التي تقطعها ، ثم منطقة الميناء جنوب شرق أور الذي يعود الى عصر سبق حيث شيد امارسين معبدا للاله اينكي .

توسعت أور خلال العصر الكلدي حيث كان السور الذي شيده نبوخذ نصر الثاني يمر ببقايا مقابر سلالة اور الثالثة قرب المقبرة الملكية .

كما شيد نبوخذ نصر الثاني معبد الميناء الذي يتصل في المدخل الغربي بالقصر الذي شيده نبونائيد اخر ملوك السلالة الكلدية ويقع في القسم الشمالي الشرقي من المدينة .

ان مدينة بابل من مدن العواصم وخير مثل للمدن المحصنة في العراق القديم التي ظلت عاصمة لجنوب ووسط العراق لفترات طويلة . وتقع على ضفة الفرات اليسرى الذي شكل لها حصنا طبيعيا وزود دائما بتحصين خاص ، وكان الفرات يخترق بابل من الشمال الى الجنوب وكان اكثر استقامة في السابق منه الان . وكانت مدينة بابل واسعة جدا ، فرغم الجهود الالمانية المكثفة فلم تنقب خلال الخمس عشرة سنة الا يجزء منها يعود الى العصر البابلي الحديث ولان مستوى سطح المياه الجوفية لا يسمح بالحفر اكثر من ادوار ذلك العصر ، وكانت مساحة بابل حوالي عشرة ملايين متر مربع ويقرب محيطها من ١٦٫٥ كيلو متر . وكانت مربعة الخطة وامتدت زمن نبوخذ نصر الثاني لتضم منطقة واسعة اخرى على جانب الفرات الغربي فصار المربع بذلك متوازي مستطيلات ، محاطة بسورين خارجي (نيمتي انليل) محيطة ١٨ ــ ٢٠ كم يحيط بالقصر الصيفي من الشمال وداخلي (امكور انليل) يتألف من سورين الاول من داخل المدينة عرضه ٦٫٥٢ كم والثاني صغير ٣٫٧٢ كم ، وخلفهما خندق ماء . ويختلف عرض الخندق من ٢٠ــ٦٠ مترا يترك النهر ثم يعود له من كلتا النهايتين ، وقد تمت تقوية وجه الخندق الداخلي بسور من الطابوق المتسيد بالقار . وقد اكد كولدفي ما اورده هيرودوتس بان هناك مجرى مفتوحا للقوارب والسفن من كل الانواع حول الخندق والتي تؤدي اليها الطرق ، وكانت اسوار بابل مقواة بابراج بارزة في محلات مع ابراج صغيرة تبرز فوق الشرفات الخارجية المسننة . وكانت الاسوار مرتبطة وسطوحها عريضة تسمح بمرور عربتين يسيران بسرعة في اتجاهين معاكسين . وعلى طول ضفة الاراختو (فرع الفرات الذي تقع عليه

بابل) الشرقية حيث تقترب الشوارع من جهة النهر شـيد نبونائيد سورا جديدا مع رصيف عريض عند قدمه •

كانت لبابل بوابات عدة قدرها هيردوتس بمئة عرفت منها ثمانية خلال الحفريات يبدأ من كل واحد شارع سمي عادة باسم اله معين يقع معبده على مقربة من البوابة • وقد ذكرت النصوص المسمارية اسماء اربعة وخمسـين شارعا وشارعين لمسيرة الجند وثلاثة جسور للعبور الى ضفة الاراختـو الغربية • وكل بوابة تتألف من بناية واسعة داخل حصن بارز وتتكون على جانبيه غرف للحراسة ، وفي السور الثاني حل محل الغرفة الجانبية فناء مـع حصن الباب ربما كان لتفتيش المارة واستقبال الزوار • ومن بوابات بابـل بوابة عشتار وهي باب المدينة الشمالي الغربي ذات مدخل مزدوج يقطـع جداري سور بابل وتمر منها مواكـب اعياد رأس السنة قادمة من معبـد مردوخ في طريقها الى بيت الاكيتو عبر شارع (لايعبره العدو) الذي اطلق عليه منقبو بابل الاوائل شارع الموكب • وعرض هذا الشـارع من الجهة الشمالية لباب عشتار ٦٣ قدما يكتنفه من الجانبين جداران سمكهما سـبعة امتار • ويضيق شارع الموكب بعد بوابة عشتار ويتجه جنوبا مـارا مـن حافة القصر الشرقية • وقد رفع مستوى شارع الموكب بجانب المنطقة التي يوازي بها القصور في مراحل بنائها الاخيرة ، ثم يعبر قناة ليبيل خيكـالا ويستمر مارا بسور الزقورة فمعبد مردوخ ثم ينحرف غربا ويعبر الاراختو على الجسر ذي الدعامات الحجرية الخمس الى جانب المدينة الغربي حتى بيت الاكيتو • والى جانب بوابة عشتار من الجهـة الشمالية هناك بوابة سـين (بوابة الملك والبوابة العظيمة) ، وكانت بوابتا الجنوب مكرستين للالـه اوراش وانليل (وسميت باب السوق) • وفي الشرق كانت بوابة زبابا وعلى مقربة منها شمالا قناة بانيتو التي تمتد غربا مارة من قرب بوابة اوراش حتى الفرات • ثم باب مردوخ (بوابة گيشو) • ومن جهة الغرب هناك بوابتان

شمش (توبا) وادد (اكومي) • وبموازاة شارع الموكب حتى وسط المدينة يمتد شارع سين قادما من الشمال وشارع انليل قادما من الجنوب ويؤديان الى شارع مردوخ الذي يخترق المدينة من الشرق الى الغرب وينتهيان عند باب مردوخ • وكانت تحد هذه الشوارع احياء وعدد من الشوارع الصغيرة المتعرجة •

كانت بابل مقسمة الى احياء عدة ، امثال حي اريدو الذي يقع فيه معبد مردوخ ثم حي كادينكيرا قرب بوابة عشتار وحيث معبد الاي ماش داري الخاص بعشتار اكد الذي يقع ضمن بيوت سكنية وشوارع ضيقة تؤدي غربا الى شارع الموكب (سماها كولدفي جميعا المركز) التي تشير النصوص المسمارية المكتشفة الى رجوع بعضها الى نهاية سلالة بابل الاولى ، ومعبد الاي ماخ للالهة نين ماخ (بيليت ايلي) والقصر الجنوبي الذي ذكر نبوخذ نصر انه بين سور ايمگور انليل وقناة ليبيل خيگالا (القناة الشرقية) ومن ضفة الاراختو حتى شارع الموكب الى جانب بوابة سين قرب زاوية بابل الشمالية الشرقية • والى شرق احياء كادينكيرا واريدو يقع حي تي اي كي ثم حي شوأننا (تينتير) المحدد ببوابتي اوراش وانليل • والبوابة الاولى على الامتداد الجنوبي للسور الداخلي قرب ضفة الاراختو الشرقية في وقت كانت الثانية ابعد الى الشرق ، وفي هذا الحي معبد الاي گال بوررا الذي اطلق عليه كولدفي معبد Z وهو في الغالب للالهة ايشارا الذي اعتبره اخرون للربة گولا • وكذلك معبد الاي خورزاكك تيلـلا الخاص بالاله نينورتا جنوب شرق المعبد السابق • اما المدينة الجديدة (الوايشو) فكانت بين الزقورة والقصر الجنوبي على ضفة الاراختو الشرقية وتقطعها قناة المدينة الجديدة من الجنوب وقناة ليبيل خيكاللي من الشمال التي وضعها بعضهم على جانب الاراختو الغربي • وتقع في حي المدينة الجديدة معابد عشتار كاكابي ومنصة عرس نبو ومعبد كيتوش كيزالا ، اما حي توبا فيقع بين بوابة

شمش (توبا) والاراختو داخل سور المدينة وفيه معابد نين سينا ، نين كاراك وشيدادا وكان حي كلاّب محصورا بين أحياء اريدو غربا وكادينگيرا شمالا وتي اي كي شرقا وتقع فيه معابد الاي گيشنوگال الخاص بسين وبناية بيت ريش اكيتو (بداية الاكيتو) ، ثم حي نوخار اودكي (ربما منطقة باب لوگال گيرا شمال حي كوماري) ذو الاهمية الدينية • وعلى مقربة منه حي كوماري بين منطقة باب لوگال گيرا من الشمال وحي توبا من الجنوب وتقع فيه سبعة معابد منها تلك لشمش وادد التي نعرف بعضها منذ العصر البابلي القديم •

يقع قصر بابل الشمالي (الحصن الشمالي ، القصر الرئيس) شمال بابل الغربي جنوب باب عشتار بين شارع الموكب شرقا ونهر الاراختو غربا وقناة ليبيل خيكاللي جنوبا وهو اكثر القصور سعة • وعلى مقربة منه القصر الجنوبي الذي يعود اقدم دور بنائي له لسرجون الثاني الاشوري وربما شيد على قصر سابق ، وهو اصغر من الشمالي سعة ومحاذ لحافة الاول الشرقية • ويفصل القصر الجنوبي عن الشمالي الذي في شماله عدة خطوط من الاسوار التي تمتد من جهة الاراختو لتلتقي ببوابة عشتار ، ثم القصر الصيفي الذي يقع في شمال بابل ويماثل في خطته القصرين الرئيس والجنوبي •

كانت العاصمة الاخرى في بلاد بابل كانت دور كوريكالزو وهي قصبة اوشا القديمة التي اعاد تعميرها الملك الكشي كوريكالزو الاول واتخذها عاصمة له• وامتازت دور كوريگالزو بموقعها الخاص المهم حيث انشأت بالاصل على نتوء واطىء من الحجر الجيري الناعم شمال السهل الرسوبي الىغرب مركز مدينة بغداد الحالية وعند منطقة يقترب بها نهر الفرات من دجلة • ويكون موقع دور كوريگالزو (عقرقوف الان) احيانامنفذا لمياه الفراتالزائدة وقتالفيضان• ولم تكن دور كوريكالزو ، حسب ما يبدو من التنقيبات الحالية ، بالعاصمة المحكمة التحصين كبابل واشور بل احيطت بأسوار دفاعية عثر على بقاياها خلال الحفريات ابتداء من بداية القنال على الجانب الشرقي • وان السور

الخارجي يحيط بالمدينة من الشمال الشرقي ويتحول الى الشمال الغربي حتى نهاية ارض مرتفعة ويتلاشى في الشمال الغربي والجنوب الغربي من اول البيوت السكنية حتى منطقة القصور ، ويقل ارتفاعه في الجهة الشمالية الغربية ، وكان معدل عرض السور عشرين مترا وما تبقى من ارتفاعه بين ١ ــ ٣ امتار • ويظهر ان قناة باتي انليل التي كانت تربط دور كوريكالزو بمدينة سبار تنشطر عند الاولى الى شطرين يتجهان الى الشمال الغربي والجنوب الغربي من المدينة • ولم تكن دور كوريگالزو بالمدينة الواسعة فطولها حوالي ٢٦٢٠ مترا ويختلف عرضها من مكان الى اخر حيث يكون في الجهة الجنوبية الشرقية ثلثمائة متر وفي وسطها حيث المعابد حوالي ستمائة متر وفي نهايتها الشمالية الغربية ٦٤٠ مترا ، والاثر البارز في موقع المدينة هو زقورتها المرتفعة ذات القاعدة المربعة تقريبا المحاطة بسور خاص • وكشف على مقربة من الزقورة اربعة معابد مكرسة الى الالهة انليل ، وننليل وننورتا في وقت تذكر النصوص وجود ستة معابد فيها • وتجمع هذه المعابد ساحة مركزية واسعة وهيكل مشترك • واهم المعابد هو الاي يوكال (بيت الالهة العظيم) المكرس الى الاله انليل ومعبد الاي زاكك دينكيراين للاله انليل ايضا ، ومعبد الاي كوشان اين تيكال للالهة ننليل • وتتماثل هذه المعابد في الصفات العامة مما يرجح تشييدها في وقت واحد •

هناك قصور دور كوريگالزو الملكية عند التل الابيض في الجزء الغربي من الموقع على بعد تسعمائة متر الى الجنوب الغربي من الزقورة • وهناك قصر من عصر متقدم يشمل على بهو طويل ملون بالابيض مع ثلاثة صفوف من مصاطب صغيرة •

تعتبر مدينة اشور اقدم عاصمة اشورية معروفة وتتمثل اطلالها في موقع قلعة شرقاط على بعد ١١٠ كم جنوب مدينة الموصل ، وكانت عاصمة الملك شمشي ادد الاول وظلت عاصمة الاشوريين لمدة طويلة ولم يهملها الملوك

الاشوريون حتى عندما تحول مركز الدولة عنها • وتقع اشور على الصفـة اليمنى لدجلة في بقعة تحاذي نهاية جبال مقلوب والى الغرب منها تبدأ البادية (الجزيرة) والتي اهتم بها الملوك وبنوا فيها الاستحكامات لسهولة اختراق الاعداء لها • وقد شيدت اشور على مرتفع من الحجر الجيري يطل على دجلة وحيث يصب به رافده الزاب الاعلى ولذلك اعطى دجلة ورافده الزاب لاشور الحماية من جهتين مما جعل الاهتمام يتركز على تقوية دفاعاتها البرية حيث تتألف من جدران رصينة هلالية الشكل تحيط بمنطقة عرضها ثلاثة ارباع الميل وتركز بناء معابد وقصور المدينة في الشمال والشمال الغربي •

كانت اشور محاطة بسور داخلي قوي اسمه دورو شيده الملك كيكيـا وجدده ايلو شوما يحاذي نهر دجلة من الشمال والشرق ويستدير ليلتقـي بقسمه المحاذي لدجلة ويضم المنطقة المسماة مركز المدينة (لبي الي) وحوى ابراجا عدة اشبه بقلاع • ثم السور الخارجي (شالخو) الذي يمتد مـن زاوية المدينة الشمالية الغربية بسوازاة السور الداخلي ثم ينحرف عنه جنوبـا وينعطف مرة اخرى باتجاه النهر شاملا منذ زمن الملك يوزوا اشور الرابـع (١٥٣٠ ــ ١٥١١ ق•م) المنطقة المسماة المدينة الجديدة (الواشو) ، وقـد شيد الملك شلمنصر الثالث سورا ثانيا في المنطقة الغربية على ارض مرتفعـة فصار السور الغربي لاشور بذلك مزدوجا (داخلي وخارجي) وكان سمك السور سبعة امتار يحوي على ابراج يبعد كل منها على الاخـر ثلاثين مترا ويبرز عن السور اربعة امتـار •

كانت لاشور ابواب عدة يذكر دليل الالهة من القرن السابع ق•م كونها ثلاثة عشر ولكن الابواب المعروفة هي باب تيبيرا (بوابة الصناعات) المشـيدة على مصطبة من اللبن فوق كتف طبيعي من الحصى الصغير وتطل على الوادي المحاذي للسور الغربي • وهي ذات ثلاثة مداخل وتتألف من وحدتين منفصلتين ومرتبطة بأحـد اقسـام السـور المـزدوج الغربـي • وكـان في جزئهـا

المرتبط بالسور الخارجي مدخل عرضه اربعة امتار يسير عبر قاعة مستطيلة التشكل . ويتم الدخول للبوابة من منحدر صخري على جانبيه خندق وتركت امام البوابة صخرة مربعة منحدرة لحصر الاعداء .

وتبرز الباب قليلا عن السور وتتبع مسار السور الخارجي الملتوي . والى جنوبها الغربي باب اللات وفي امتدادها وعند السور الداخلي هناك بوابة تيساري المؤدية الى المدينة الجديدة ، وفي جدار المسناة (السور الشرقي) الذي شيده ادد نراري الاول على طول جهة دجلة الشرقية وقواه الملوك اللاحقون لحماية اشور من الفيضان هناك بوابتان الاولى شمالية باسم ايا شارري تطل على مجرى دجلة ثم باب دجلة في جنوب الموقع عند التقاء السور الخارجي الجنوبي الغربي بالسور الشرقي . ومن الشمال على طول مجرى دجلة القديم هناك اربع بوابات هي بوابات اشور ، موشلالو ، البرج وشمش . والى يمين المدينة هناك معبد اشور (انليل) وشرقه زقورته الكبيرة (الخورزاكك كوركورا) اي الجبل الكبير . والى غرب الزقورة بقليل تقع قصور ثم زقورتا معبد انو ــ أدد الصغيرتان وجنوب الزقورة معبد الالهين سين وشمش من منتصف الالف الثاني ق.م ، والى يساره معبد عشتار وقربه معبد نبو وتشسيتوم . وعلى مقربة من الزاوية الشمالية الغربية للمدينة يقع ما يسمى بالقصر الجديد وهو بناء ضخم . وفي اقصى شمال غرب المدينة خارج الاسوار يقع دار حفلات عيد الاكيتو الذي شيده سنحاريب وسط حديقة . كما شيد الاخير قصرا لولي عهده في جنوب المدينة الشرقي المعروف باسم قصر ولي العهد . واطلق على الساحة التي بين القصر والمعبد اسم ساحة العرض للجموع السماوية والى غرب زقورة معبد انليل (اشور) يقع القصر الاشوري من العصر الاكدي المشابه في الخطة قصر نرام سين عند تل براك مما يعطي سببا لاحتمال بناء الملك الاخير له في اشور . وقد شيد

فوقه فيما بعد قصور العصرين الاشوري الوسيط والحديث • وعثر تحت معبد سين ــ شمش في اشور على بيت من العصر الاكدي •

لقد اعيد الاهتمام بأشور خلال فترة الاحتلال الفرثي حيث صارت مدينة واسعة بشوارع مستقيمة ظهرت في بناياتها الاعمدة وشيدت بها الاسواق على نمط الاگورا اليونانية ودخلت العمارة التي استخدمت بها الحجارة المهندمة وظهرت الاواوين المفتوحة من الخلف والساحات المحاطة بالاعمدة • وقد نقب في ثلاثة اجزاء من مدينة العصر الفرثي باشور منها فناء المعبد عند طرف المدينة الشمالي المنسيد فوق معبد قديم والبوابة • ثم قصر المدينة الواسع الذي يقع في جانبه الشرقي فناء محاط بسلاسل من الاعمدة المنتظمة الابعاد • وفي البلدة ساحة محاطة بسور تؤدي اليها ممرات عدة • وامام البوابات فناءان واسعان يتعامدان على بعضهما كان الشمالي منه ذا طريق مسقوف باعمدة والاخر غرب ساحة المدينة •

ان المدينة العاصمة المهمة الاخرى هي نينوى ذات الموقع الاستراتيجي حيث يحيط بها نهر دجلة من الغرب والجبال من الشرق وعلى مقربة من البادية الى جانب وقوعها في منطقة وافرة المياه ومواد البناء الضرورية • وقد اثبتت الحفريات قدم نينوى حيث وجد في الطبقة المعروفة بنينوى الاولى والثانية فخار يرجع الى عصر حسونة من بداية الالف السادس ق•م ، واثار عدة قصور لعصور لاحقة (سومرية ، اكدية ، وبابلية قديمة الخ) • وتتمثل نينوى الان في موقعي قوينجق وهي مركز المدينة الرئيس وتل نبي يونس (التوبة) حيث عثر على بعض القصور والمعابد من العصر الاشوري المتأخر وبضع تلال اخرى •

كانت مدينة نينوى على هيئة شبه منحرف محاطة من الخارج بسور ضخم يليه خندق كبير • وكان للمدينة من الجهة الشرقية سور خارجي من

اللبن يليه خندق يمتد من الشمال الى الجنوب • ومحيط السور الخارجي حوالي ١٢ كم وهو متفاوت العرض بين ١٥ ــ ٤٥ مترا •

ويخترق نينوى نهر الخوصر وطول سور الجهة الشرقية خمسة كيلو مترات تخترقه ستة ابواب هي بوابات (سنحاريب ، خيلزي ، شمش وهـي كبرى الابواب ، انليل (ننليل) ، مشلال ، شـبانيباو خلاخي) ، وطول السـور الشمالي كيلومترين وفيه ثلاثة ابواب وهي من الشرق الى الغـرب (ادد ، نركال وسين) • اما السور الغربي الذي يسير على طول دجلة فطوله اربعة كيلومترات ومائة متر ويتضمن خمسة ابواب هي (ماشكي (المسقى) ، كاري (المسناة) ، ايكال مشارتي (بوابة السلام) وخندوري) • وطول السور الجنوبي ٨٠٠ متر وتخترقه باب واحدة هي باب اشور • وفي داخل المدينة مواضع سكن وثكنات جنود ومنشآت اخرى • وتركزت القصـور في تلي قوينجق ونبي يونس اللذين يفصل بينهما نهر الخوصر • وعلى مقـربة من قصر اشور بانيبال هناك معبد نبو ويقع قصر سنحاريب الذي اطلق عليه اسم القصر الذي لا مثيل له في جنوب تل قوينجق وهو قصـر واسع • وشـيد سنحاريب في نينوى شوارع واسعة كما اهتم بالطرق التي تربط نينـوى بالمدن المجاورة لها • وغرس سنحاريب الحدائق والبساتين في نينوى خارج اسوار المدينة وشيد قناة جديدة يزيد طولها على ٥٠ ميلا مع قناطر لجلـب الماء الصافي الى نينوى •

وبموازاة الجهة الشرقية لسور نينوى هناك سور ثان خارجي ويفصل بين السورين خندق كبير • وان اسوار نينوى مدعومة بابراج ضخمة تعلوها شرفات من الحجر • وكانت نينوى محاطة بخندق من ثلاث جهات الشمالية ، والشرقية ، والجنوبية حيث كان دجلة يحميها من الغرب ، وكان الماء يصل الى هذه الخنادق من مشروع سنحاريب الاروائي • وكانت بوابات الاسوار ضخمة وتشكل وسائل دفاعية مهمة • فبوابة شمش تحوي ابراجا وشرفات

وضمت بوابة ادد قاعة للحرس يتصل بهـا سلم وكان ارتفاع بوابة نرگال.
٥ر٢١ متر وطول واجهتها ٧٠ر٢٠ متر مع برجين جانبين •

كانت بوابة المسقى تشرف على دجلة وفيها اربعة ابراج اثنان شـمال المدخل واثنان جنوبه والمسافة بين كل برجين حوالي ٥ر١٢ مترا وعرض مدخل البوابة ٨٠ر٥ مترا وشيدت واجهتها فوق مصطبة حجريـة مواجهة لدجلـة ويتوسط بوابة شمش مدخل عرضه ٥٥ر٤ متر وهي ذات ستة ابراج عرض كل منها ٥٠ر٣ متر وتبرز عن السور ٥٠ر٢٢ مترا وفي واجهتها برجان عرض كل منهما ٥٠ر٩ متر ويتصل المدخل الشرقي للبوابة بالغربي بممر طولـه ٦١ مترا مرصوفا بالحجر الى جانبـه ثلاثـة ازواج من غرف للحـرس وخـزن.

الاســلحة :

شيد شلمنصر الاول (١٢٨٠ ــ ١٢٦٠ ق•م) مدينـة عاصمة جديدة لبلاد اشور هي كالح (نمرود الحالية) التي تقع اطلالها الان على بعد ٣٥ كم جنوب شرق الموصل • وكان نهر دجلة الى الغرب منها وينعطف نحو الجنوب الشرقي حيث يصب به نهر قادم من الزاب الاعلى • وقد ابتعد دجلة الان عن كالح حوالي الكيلومترين باتجاه الغرب وهي الاسهل منبســط وشـيد على ضفة دجلة مسناة ارتفاعها عشرة امتار من الحجارة الكبيرة • وكانت كالـح محصنة بحصن مستطيل الشكل تخترقه ابواب ضخمة عـدة • وقـد اعـاد تعميرها الملك اشور ناصر پال الثاني (٨٨٤ ــ ٨٥٩ ق•م) واتخذها عاصمة له وشيد بها قصرا فخما في الزاوية الشمالية الغربية • كما حفر قناة سـماها بتليتو تنقل الماء من الزاب الاعلى الى كالح طهرهـا فيما بعـد اسـرحدون. وشيد ولده شلمنصر الثالث (٨٥٩ ــ ٨٢٤ ق•م) اسوار المدينة وجـدد معابدها والمسناة على ضفة دجلة وشيد قاعدة عسكرية متكاملة متوسـطة الموقع ٢٠٠ × ٣٠٠ متر اطلق عليها اسم ايكال ماشـرتي في زاوية المدينـة الجنوبية الشرقية لصق سور المدينة • وحوت هذه القاعدة قصرا ومخـزن.

اسلحة وساحتين كبيرتين ومخازن طعام وخمر وساحة ثالثة الى غرب ساحة الاستعراض فيها مخازن واسعة • والى جنوب هذه البناية كان قصره الملكي المرتبط بساحة الاستعراض • كما شيد شلمنصر الثالث زقورة ومعبد مكرستين الى الاله نينورتا اله الحرب • وان اعمال هذا الملك تدل على ان كالح كانت عاصمة ملكية ومركزا عسكريا • وبنى اسرحدون (٦٨٠ ــ ٦٦٩ ق•م) في الجنوب الشرقي من المدينة قصرا يطلق عليه الاثاريون القصر المحروق وقربه معبد نبو وتشميتوم ، وفي وسط الجنوب الغربي هناك القصر المعروف بقصر الحاكم الذي ربما شيده الملك ادد نراري الثالث •

وبنى تجلات بيلزر الثالث قصر في الجنوب الغربي من المدينة ويرتفع هذا القسم عن سطح المدينة والسهل المجاور المحيط به حوالي عشرة امتار • وفي القسم الشمالي الغربي من المدينة كانت الزقورة والمعابد وقصور الملوك وافراد حاشيتهم وهو الجزء المعروف الان باسم تل نمرود • وفي جنوب حارة المعابد يقع قصر اشور ناصر پال الثاني يفصل بينهما شارع عام ويعرف القصر باسم القصر الشمالي الغربي • وان المنطقة الاولى مفصولة عن سائر اجزاء المدينة بسور طول ضلعه الشرقي والغربي حوالي ٧٥٠ متر والجنوبي الاصغر حوالي ٤٥٠ متر وربما حوت اجزاء القسم الشمالي من السور الشرقي المطلة على السهل ابراجا مثل سور المدينة الخارجي ، وفي القسم الجنوبي باب واسعة لمر وغرف حرس وفي الوسط شارع يمتد غربا الى داخل القصور بين القصر الجنوبي الشرقي وقصر الحاكم ويتجه شرقا الى حدائق المدينة والبيوت السكنية •

ان مدينة كالح مستطيلة الشكل بابعاد تصل في حدها الاعلى ١٫٢٥ ميل تقريبا وتبلغ مساحتها حوالي ٤ كم٢ محاطة بسور سميك من اللبن محيطه ٨ كم ربما حوى ابراجا على مسافات نرى اثارها الان في المرتفعات الشرقية المتساوية الابعاد وبمحاذاة السور من الخارج خندق • وسور المدينة الغربي

متعرج تبعا لتعرجات ضفة دجلة وفي الغالب هناك مسناة على ضفة دجلة في الجنوب تشابه مسناة الجانب الغربي ٠

ابتنى سرجون الثاني الاشوري عاصمة جديدة له على الشاطيء الايسر من نهر الخوصر في موقع مكانيا قرب مجرى ماء يرد من جبل اطلقت عليه المصادر الاشورية الاسم مصرى ومنطقة غنيـة بمواد البناء الجيدة ووسط ارض خصبة الى الشمال الشرقي من نينوى اطلق عليها اسم دور شروقين التي تقع اطلالها اليوم مقابل قرية خورصباد ٠ وكرس سرجون المدينة قبل وفاته بسنة واحدة (٧٠٦ ق٠م٠) وكانت مساحة المدينة ميلا مربعـا تقريبا ذات سور تخترقه بوابتان بكل جهة عدا الشمالية الغربية حيث عوض عن واحدة بمعقل حصين مشيد على واجهة سور المدينة واستعمل كقاعدة للمقر الملكي ٠ وفي نهاية المدينة الجنوبية كانت قلعة تحمي المدخل من البوابة الخامسة وهي اهم البوابات وتمر بها الطرق القادمة من الجنوب ٠ وقرب القصر عدد من البنايات الرسمية شيدت داخل سور القلعة ، ويواجه احدى البواباب جبـل مقلوب وبوابتان ترتبطان بالطريق الرئيسي المؤدي الى نينوى ٠ ويحيط بدور شروقين سور ضخم عرضه ٢٥ متر ومحيطه ٧ كم تخترقه سبعة ابواب ذات حجرات سميت كل واحدة باسم احـد الالهة الاشورية (انليل ونليل في الضلع الشمالية الغربية ، شمش وادد في الضلع الشماليـة الشرقيـة وانو وعشتار في الضلع الجنوبية الشرقية) وكلها متشابهة في مخططاتها ٠ وهناك بوابتان داخليتان تؤديان الى القلعة الملكية التي يقع داخلها القصر الملكي على مصطبة مرتفعة تبرز نصفها تقريبا خارج اسوار المدينة باتجاه الشمال الغربي بينما نصفها الثاني داخل القلعة نفسها ٠ والقصـر واسع يحتوي على ١٧٠ غرفة وقاعات كثيرة وغرفة عرش و ١٨ ساحة ، كما شيد في جنوب المدينـة مستودع الاسلحة (ايكال مسشارتي) الذي اعتبره سنحاريب مقره الملكي عندما كان وليا للعهد ٠

وكان القصر مركزا عسكريا وتيدت ضمنه المعابد جميعها التي خصصت للالهة الاشورية نبو ، سين ، شمش ، نينگال ، نينورتا وايا ، واقيم معبد الاله نبو على دكه عالية غرب سور القصر الخارجي مع الزقورة ، وكانت زقورة دور شروقين ذات سبع طوابق • وقد فصل سرجون قصره الشمالي والمعابد عن المدينة بسور ذي بابين ، وهناك معبد في القسم المنخفض من دور شروقين خارج الضلع الشمالي الغربي من سور المدينة مكرس الى الاله سيبتي ذي العلاقة بحظ البشر • وقرب معبد نبو هناك ثلاثة معابد صغيرة على جانب القصر الجنوبي الغربي احدها معبد الاله سين وزقورة هذه المعابد صغيرة •

والمدينة الملكية الاخرى كانت تربيصو (شريف خان الحالية الواقعة على بعد ٨ كم تقريبا عن الموصل وسط سهل خصب) مقر ولي العهد الاشوري زمن سنحاريب اضافة الى كونها مركزا دينيا تقدم به الاضاحي الخاصة بالملك الاشوري • وعثر في تربيصو على بناء كبير يحوي على قاعات عدة ربما كانت مغتسل (بيت رمقي) • وكانت تربيصو محاطة بخندق الى جانب سور ترابي نرى اجزاء منه باقية في شمال غرب الموقع وقد عثر في المنطقة التي سماها المنقبون جـ بزاوية الموقع الجنوبية الغربية على معبد ضخم للاله نرگال وعلى بناء واسع قد يكون هو مقر ولي العهد (بيت ريدوتي) ملحقا به المغتسل • ويفصل البناية الملكية عن المعبد شارع عريض يمتد على طول الجهة الشمالية الغربية من المعبد وفي المنطقة التي سماها المنقبون ب عثر على بناية في زاوية الموقع الشرقي وتشرف على السهل المجاور وبمستوى اعلى منه ذات ثلاث ساحات متجاورة مع غرف محيطة كانت في الغالب نقطة حراسة وثكنة للدفاع عن المدينة خاصة عن البناية والمعبد •

اتخذ سلوقس الاول (٣١٢ ــ ٢٨١ ق•م•) وولده انطيوخوس الاول (٢٨١ ــ ٢٦١ ق•م•) مدينة سلوقية على دجلة (رومية الاسكندر ،

الرومقان) عاصمة لهم • وتتمثل سلوقية على دجلة الان بتل عمر على ضفة دجلة الغربية مقابل المدائن على بعد ٢٠ ميلا جنوب بغداد • وكانت سلوقيه ذات موقع مهم حيث تربطها قناة ملكا (قناة اليوسفية الحالية) بالفرات وتقع بالمنطقة التي يقترب بها الفرات من دجلة وعلى بعد اميال قليلة من مصب ديالى بدجلة • وكانت ملتقى القوافل القادمة من سواحل البحر المتوسط ، الخليج العربي واسيا الصغرى الخ • ويظهر انها كانت مدينة كبيرة ذات سكان متعددي الهويات والاديان حيث تحدثت المصادر السريانية عن كنائسها ويذكر پلني الكبير (ربمايكون مبالغا) ان نفوسها زمانه كانت ستمائة الف نسمة• وقد خططت سلوقية على هيئة شبكة مربعات حيث صفت بيوتها على طرفي شوارع وطرقات مستقيمة ومتعامدة ، وقوام اسلوب التخطيط الشبكي للمدينة هو شارعان رئيسان يتقاطعان في وسط المدينة بزاوية قائمة يطلق على الشارع الممتد من الشمال الى الجنوب اسم كاردو وعلى الثاني الممتد من الشرق الى الغرب اسم ديكومانوس وتتفرع من الاثنين شوارع فرعية عديدة • وقسمت المدينة الى حارات منتظمة ومتجانسة مستطيلة الشكل • وقرب مركز المدينة كان السوق (الاگورا) وهو منطقة مستطيلة الشكل واسعة (شارع مسقوف) مما يدل على اهميته • وامام السوق تل شبه دائري ربما كان مسرحا والى الغرب منه الملعب ثم ساحة سباق العربات فمجلس الشيوخ فالمحاكم فالبنايات الرسمية الاخرى وجميعها شيدت على طول الشارع الرئيس للبلدة ، وفي الجنوب الشرقي كان ميناء سلوقية • وعثر في الزاوية الشمالية الشرقية من تل عمر على معبد من فترة الاحتلال الفرثي ومسرح صغير للطقوس الدينية ربما يعود الى الفترة السلوقية • وقد تكون المنطقة المستطيلة الشكل حول المرتفعات عند تل عمر معابد •

كانت سلوقية محاطة من ثلاث جهاتها بسور دائري الشكل غير منتظم ، وربما كان هناك جسر يربطها مع المدائن • وفي قسم المدينة الشمالي ما قد

يكون قبرا لامير أو مذبح كبير فقد ذكر اميانوس مارسيلينوس مشاهداته على الفرات عند مدخل قناة ملكا برجا عاليا يشبه المنار ، وفي جانب المدينة الشرقي هناك في الغالب معبد او قصر • وعثر في سلوقيـة على معابـد مكشوفة تحيط بها ممرات ربما كانت محاطة بابنية وكذلك على بنايه لحفظ السجلات الخاصة بمعبد ابولو في جنوب تل عمر • واشتمل القصر الكبير في سلوقية على عدة وحدات • كما وجدت في تل عمر بناية بخطة غـير اعتيادية بين البرج المربع وسط التل والسور قد تكون معبدا او مصلى رئيس وربما معبد ابولو المعروف في سلوقية •

أن المدينة المدورة على ضفة دجلة اليمنى هي كوخة او سلوقية الجديدة التي تعود الى بداية فترة الاحتلال الساساني • وعثر المنقبون فيها على ما اطلقوا عليه اسم احياء اصحاب الحرف ويعود الى بدء حياة المدينة الجديدة هذه وترك سلوقية على دجلة •

وقد شيدت سلوقية الجديدة على موقع مقبرة فرثيـة بخطة اعتيادية وشاع في بيوتها طراز الايوان • ولم تكن شوارع سلوقية الجديدة بمستقيمة شملت على ساحات واماكن مكشوفة وترك الاسلوب الشبكي السابق الشبيه برقعة الشطرنج في البناء ، وكثرت دكاكين الحرفيين على جانبي الشوارع •

والمدينة العراقية الاخرى هي الحضر في شمال العراق الغربي على نهر الثرثار وجنوب غرب الموصل بحوالي ١١٥ كم • وكانت اشهر مركز للقبائل العربية في بادية الجزيرة الشمالية حيث شيدت معبدا ربما خلال فترة الاحتلال السلوقي وصارت عاصمة لمملكة عربية عرفت باسم عربايا ، وقد ساعد على قيام الحضر عوامل عدة منها وقوعها على طرق التجارة التي تربط العـراق بسورية وموقعها الجغرافي وكثرة مراعيها ولمكانتها الدينية ووفرة مياه المطر والينابيع مما ساعد على ازدهار الزراعة في السهول والسهوب المحيطة بها • وقد حصنت الحضر تحصينا محكما فقد كانت مدينة مستديرة تقريبا بقطر

يبلغ حوالي الكيلومترين بسور داخلي مزدوج يفصل بينهما خندق . ويحوي السور الاول على ١٦٣ برجا وقطره ٨ كم وقطر السور الثاني ٦ كم وعرض الاول ثلاثة امتار والثاني ٥ر٢ مترا مشيد بالحجارة المهندمة ، والمسافة بينهما عند البوابة الشمالية اثناء عشر مترا واعتياديا حوالي نصف كيلومتر وهناك تعلية ترابية على بعد نصف كيلومتر من السور الداخلي قد يكـون سورا خارجيا للحضر .

وكان سور الحضر تخترقه اربعة ابواب في الجهات الاربعة وشيد فوق الخندق بالمنطقة الشمالية قنطرة عرضها ٥ متر توصل الى الحضر . وكانت الشوارع تمتد من كل بوابة للمدينة تصل مركز المدينة حيث المعبد الرئيس . وحوت الحضر على معابد ثانوية عشر على احد عشر معبدا منها ، وفي القسم الشرقي من المدينة هناك مدافن وعند الباب الشمالي قصر واسع وبقسـم المدينة الجنوبي الغربي كانت ساحة واسعة حوت بحيرة ، وحول كل هـذه كانت الاحياء السكنية التي بلغت مساحتها حوالي ثمنمائة دونم . ويقـع المعبد الرئيس في وسط المدينة وله باب كبيرة في الجهة الشرقية وسبعة ابواب في جهاته الاخرى . وللمعبد سور طوله ٥ر٤٣٧ مترا وعرضه ٥ر٣٢٢ مترا مع جدار يمتد بين الجدارين الشمالي والجنوبي يفصل اهم المباني الواقعة في الجهة الغربية عن الساحة الواقعة في الجهة الشرقية . وقد كشف على معبد صغير للاله مرن (الاله الاب) امام المدخل الشمالي لصحن المعبد الكبير .

مراجع الفصل

١ - Sami Said Ahmed, The Ancient City of Uruk Iraq, No.. 236 (1985).

٢ - Sami Said Ahmed, Kish, Iraq, No.. 247 (1985).

٣ - Sami Said Ahmed, Seleucia on the Tigris, Iraq, No. 240 (1985).

٤ - Sami Said Ahmed, Hatra, Archaeology, Vol. 25, No. 2, (1972) pp. 103-111.

٥ - Antonio Inverrnizzi, Ten years research in the Al-Madain area, Seleucia and Ctesifon, Sumer, Vol. 32 (1976). pp. 167 - 175 .

٦ - Eva Strommenger, Ur, (Munchen, 1964).

٧ - بحوث مجلة سومر المجلد ٣٥ ج ١ - ٢ (١٩٧٩) .

٨ - سيتون لويد ترجمة د . سامي سعيد الاحمد ، اثار العراق (بغداد ١٩٨٠) .

٩ - د . طارق مظلوم ، نينوى في ضوء التنقيبات الاثرية (١٩٦٥ - ١٩٦٧) سومر مجلد ٢٣ (١٩٦٧) ص ١٣٥ - ١٤٠ .

١٠- طه باقر ، عقرقوف (دور كوريكالوزو) (بغداد ، ١٩٥٩) .

١١- د . عامر سليمان اكتشاف مدينة تربيصو الاشورية ، اداب الرافدين ، مجلد ٢ (١٩٧١) ص ١٥ - ٤٩١ .

١٢- د . فرج بصمهجي ، نمرود ، سومر مجلد ٨ ج ٢ (١٩٥٢) ص ١٩٦ - ٢١٣ .

١٣- د . فرج بصمه جي ، الوركاء ، سومر مجلد ١١ ج١ (١٩٥٥) ص ٤٧ - ٥٩ .

١٤ـ فؤاد سفر ، اشور (بغداد ، ١٩٦٠) .

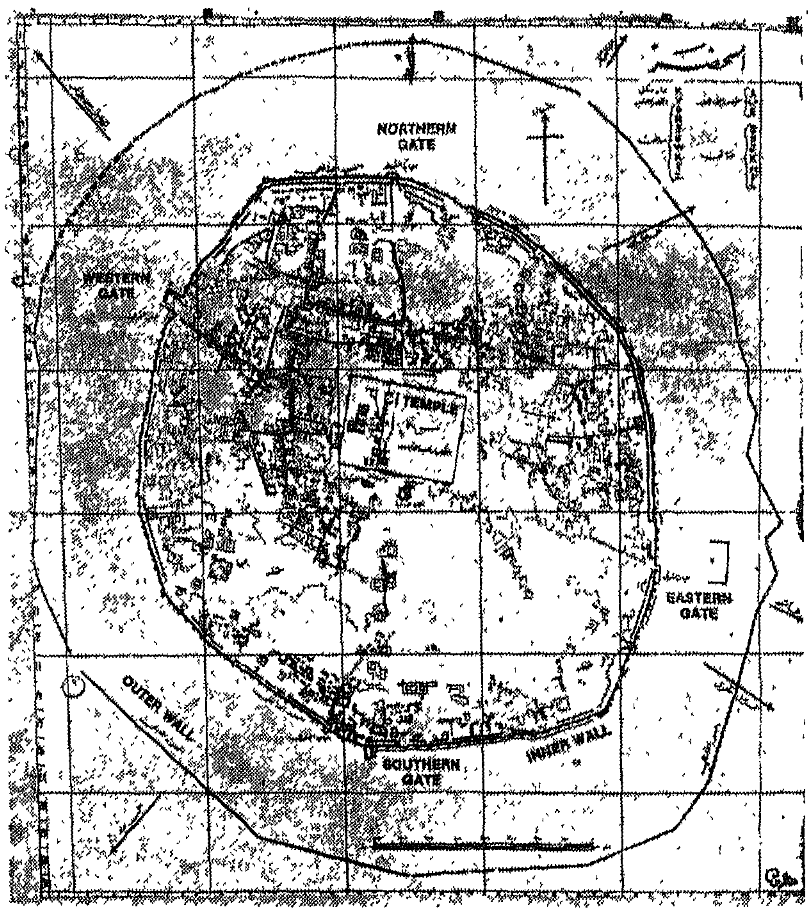
١٥ـ فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى ، الحضر مدينة الشمس (بغداد، ١٩٧٤)

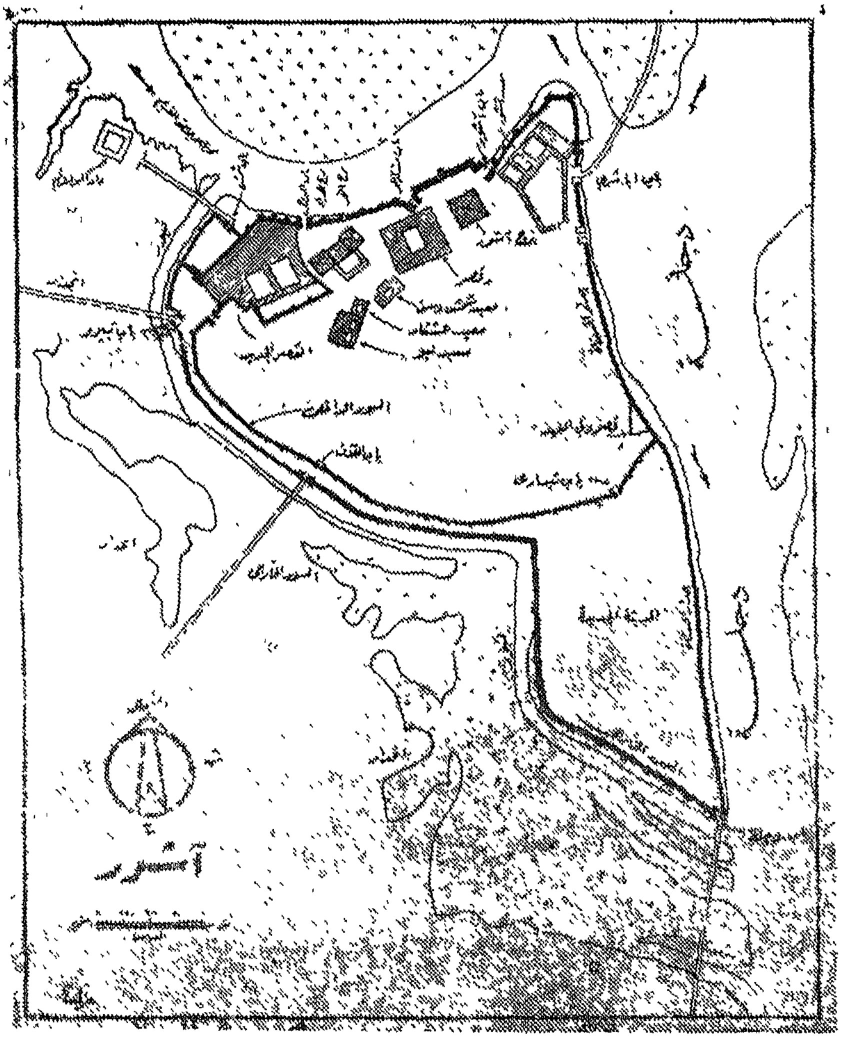
١٦ـ P.R. Moorey, Kish Excavations 1923-1933, (Oxford, 1978).

١٧ـ د . مؤيد سعيد ، العمارة من عصر فجر السلالات الى نهاية العصر البابلي الحديث ، حضارة العراق ج ٣ (بغداد ، ١٩٨٥) .

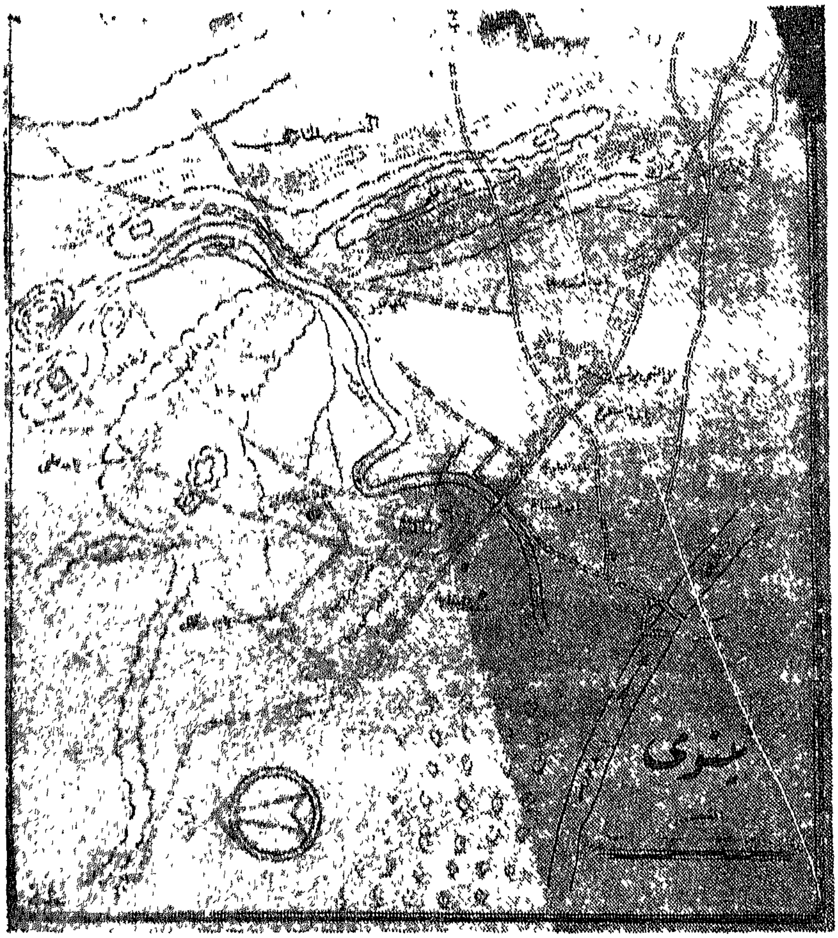
١٨ـ د . واثق اسماعيل الصالحي ، العمارة في العصر السلوقي والفرثي عمارة الحضر ، حضارة العراق ج ٣ (١٩٨٥) .

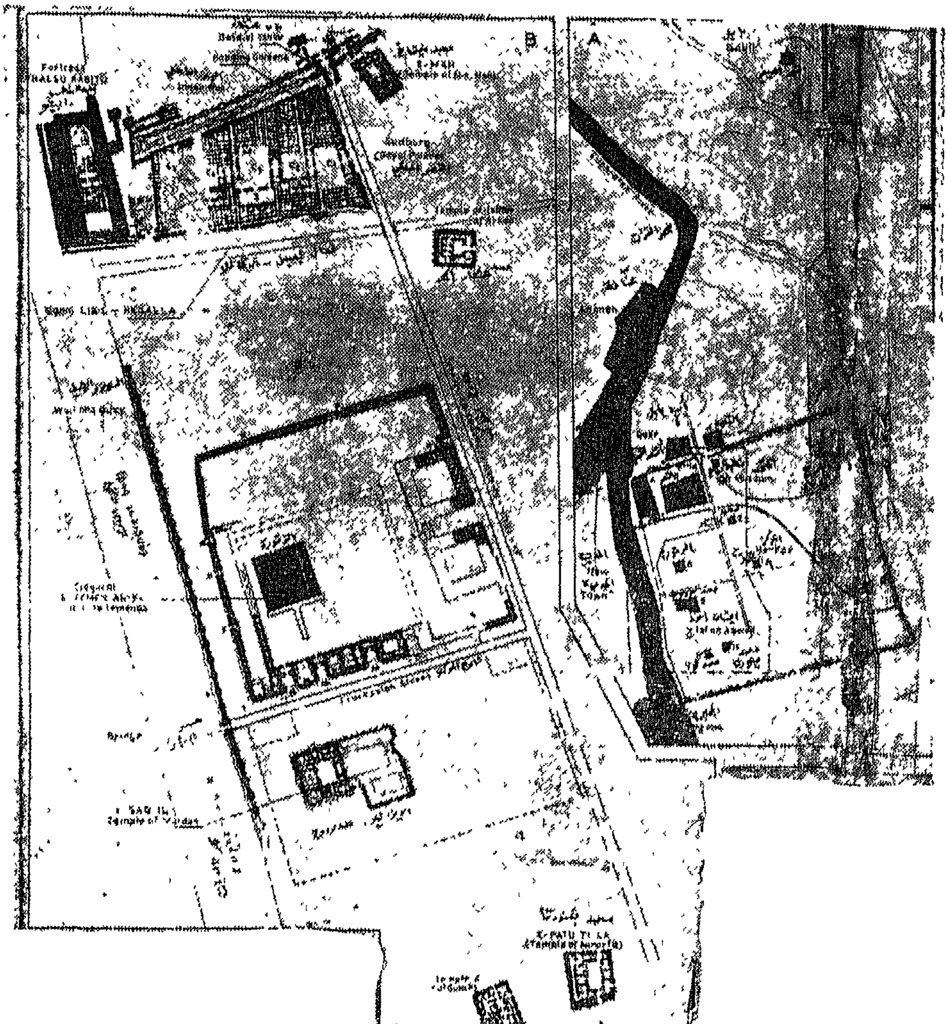
١٩ـ Sir Leonard Woolley, Ur Excavations, (New York, 1965).

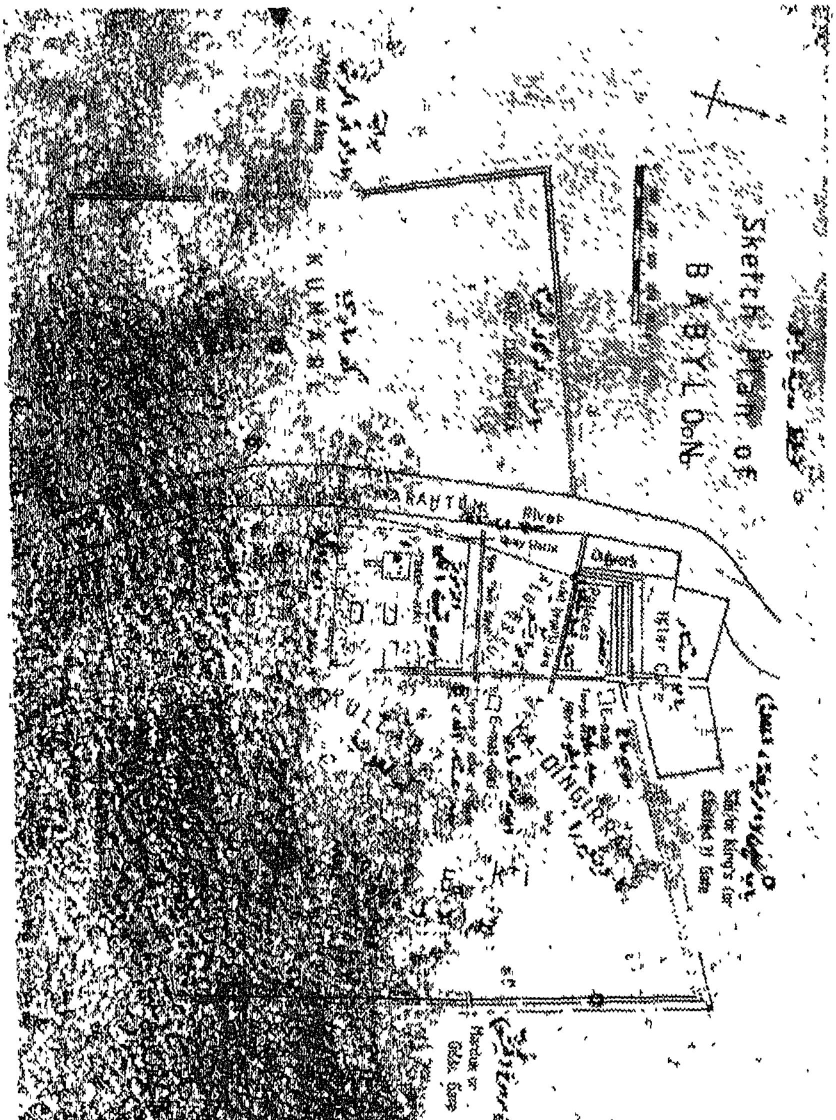

NORTHERN
GATE
WESTERN
GATE
TEMPLE
EASTERN
GATE
OUTER WALL
INNER WALL
SOUTHERN
GATE










Sketch Plan of
BABYLON

الفصل السادس

الحياة الاجتماعية والخدمات
في المدن العراقية
في الازمنة التاريخية القديمة

الدكتور عامر سليمان
استاذ التاريخ القديم
كلية الاداب ـ جامعة الموصل

تمهيـد :

شهدت القرى الزراعية الاولى التي نشأت في العـراق القديـم على شواطىء دجلة والفرات تطورا كبيرا خـلال الالفين الخامس والرابـع قبـل الميلاد ، كما اشير الى ذلك في الفصول السابقة ، وغدا بعضها من المدن المهمة والمراكز الحضارية التي كان لها دورها المؤثر في نضوج الحضارة العراقية القديمة وبلوغها قمة ازدهارها في الفترة التالية • وحافظت بعض المدن على اهميتها الحضارية ومركزها السياسي او الديني لفترات طويلة مـن الزمـن وتعاقب على السكنى فيها اقوام مختلفة • ومع ذلك ، ظلت محافظة على طابعها العراقي الخاص حتى غدا من الصعب على الباحـث في الحضارة العراقيـة القديمة التمييز بسهولة بين اصول العديد من العناصر الحضارية اهي سومرية

ام اكدية ام غيرها مما يشير الى قدرة العراقيين القدماء الفائقة في استيعاب جميع العناصر الحضارية وصهرها في بودقة عراقية واحدة يطغى عليها طابع خاص مميز ، وان ذلك لا يتقاطع او يتناقض مع اصالة الحضارة العراقيـة . اضافة الى ذلك ، فالمعروف ان العراق قد تعرض عبر العصـور التاريخيـة الطويلة وحتى التحرير العربي الاسلامي الى غزو اقوام اجنبيـة عدة جـاء معظمها من جهة الشرق بدءا من الاقوام الكوتية والعيلامية والكشية وانتهاء بالاقوام الاخمينية والفرثية والساسانية ، وعلى الرغم من تسلط تلك الاقوام الغازية على المدن العراقية القديمة لفترات طويلة من الزمن ، الا انها لم تتمكن من التأثير على حضارتها وتغيير طابعها العراقي الخاص تأثيرا كبيرا بل انها على العكس من ذلك ، اخذت عن حضارتها وعاشت في ظلها كما تؤكـد ذلـك المكتشفات الاثرية الكثيرة ، وان ذلك يشير الى حقيقة واضحة هي قـوة الحضارة العراقية القديمة واصالتها من جهة والى ان الاقوام الغازية كانت اقل حضارة من العراقيين القدماء من جهة ثانية .

والحياة الاجتماعية ، بعاداتها وتقاليدها وقوانينها ، مـن اكثر المظاهر الحضارية التي حافظت على سماتها العراقية العامة دون ان تتأثر بما قد يطرأ على المدن من تغيرات سياسية او تأثيرات اجنبية ، ولاسيما ابان الغزو الاجنبي لها ، بل ان بعض تلك السمات ظلّ يميز العادات والتقاليد السـائدة حتى يومنا هذا ، كما تشير الى ذلك اية مقارنة بسيطة بين ما كان سائدا من عادات وتقاليد الزواج مثلا وما هو سائد ومعروف لدينا الآن ولاسيما في الاوساط الشعبية . ومع ذلك ، ونظرا لطول الفترة الزمنية التي استغرقها تاريخ العراق القديم وتباين المناطق والاقاليم ، فقد كان لكل فترة من الفترات ولكل منطقة من المناطق خصوصيتها وسماتها ولكن ضمن اطار الحضارة العراقية العام .

ان الحديث عن الحياة الاجتماعية في أي عصر من العصور هو في الواقع ، من امتع الاحاديث واكثرها واقعية والتصاقا بالنفس طالما انه حديث يعنى بحياة الافراد والجماعات وبعلاقاتهم بعضهم ببعض • ولرسم صورة تقريبية عن الحياة الاجتماعية في المدينة العراقية القديمة ، لدينا العديد من المصادر الاصلية التي تزودنا بمعلومات وافية وغزيرة عن ذلك تأتي في مقدمتها القوانين المدونة والعادات والتقاليد والاعراف التي كانت سائدة مما تعكسه النصوص المسمارية المختلفة التي كشف عن عشرات الالاف منها حتى الان • اضافة الى ذلك ، فقد تم الكشف عن اثار مادية امدتنا بمعلومات مهمة عن الحياة الاجتماعية من ابنية عامة وبيوت سكنية واثاث منزلية والات وادوات وتماثيل ومسلات ومنحوتات جدارية مملوءة بمشاهد من الحياة العامة وغيرها مما يعكس لنا جوانب من الحياة الاجتماعية • ومع كثرة المصادر وغزارة المعلومات المتوفرة الا انها غير موزعة على جميع الفترات والعصور بشكل متوازن ، كما نتمنى ان تكون ، كما انها لاتخصّ جميع المدن في العراق ، فقد تتوافر معلومات جيدة عن فترة من الفترات ، كفترة العصر البابلي القديم مثلاً ، وقد تقل او تنعدم احيانا بالنسبة لفترة اخرى اما لاسباب عفوية ناتجة عن عدم اكتشاف مدينة من المدن او ناتجة عن ندرة فعلية في المصادر بسبب تعرض هذه المدينة او تلك لغزو اجنبي كان من نتائجه التدمير والتخريب والاحراق لكل ما كان موجودا في المدينة • وحيث ان معظم المعلومات المتوافرة لدينا عن الحياة الاجتماعية ترقى بتاريخها الى العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠ ـ ١٦٠٠ ق•م) لذا ان الحديث سيركز على هذه الفترة بالذات خاصة وانها تتوسط فترتين مهمتين ، اخذت عن الاولى منهما ، وهي الفترة السومرية ـ الاكدية ، الكثير من العادات والتقاليد والقوانين ، واعطت للثانية ، وهي الفترة التي حكمت فيها السلالة الكشية في بلاد بابل والدولة الاشورية في عصرها القديم في بلاد اشور ، نظاما اجتماعيا متكاملا متمثلا بالقواعد القانونية التي وردت في قانون حمورابي

وغيره من القوانين البابلية • كما ان فترة العصر البابلي القديم تعد ، من جانب اخر ، من الفترات المضيئة والمزدهرة ربما بسبب توافر المعلومات الكثيرة عنها • غير ان التركيز على هذه الفترة لا يعني اهمال الفترات الاخرى بل اننا سنشير لها كلما دعت الحاجة الى ذلك وتوافرت المعلومات اخذين بنظر الاعتبار طبيعة هذا البحث الموجزة •

القوانين والاصلاحات الاجتماعية :

عرف بعضهم القوانين بانها « مجموعة القواعد التي تنظم الروابط الاجتماعية والتي تقسر الدولة الناس على اتباعها ولو بالقوة عند الاقتضاء » • ولعل هذا التعريف يوضح اكثر من غيره اهمية القوانين في دراسة الحياة الاجتماعية في اي مجتمع من المجتمعات قديمها وحديثها • وطالما ان مهمة القوانين الاساسية هي تنظيم الروابط الاجتماعية ، فان وجودها يرتبط بوجود المجتمعات المنظمة التي قطعت مرحلة البدائية في حياتها وتنظيماتها • ولقد برز العراقيون القدماء في مجال التشريع القانوني وكانوا السباقين في تدوين القواعد القانونية التي كانت تحكم حياتهم فخلفوها لنا بصيغة قوانين مدونة تعد الان اقدم القوانين المدونة المعروفة في العالم حيث سبقت جميع القوانين القديمة الاخرى بقرون عدة • كما ان القوانين العراقية المكتشفة والتي ترقى بتاريخها الى اواخر الاف الثالث ومطلع الالف الثاني قبل الميلاد ما هي في الواقع الا مرحلة متطورة وناضجة من صيغ العلاقات والروابط الانسانية الاجتماعية والاقتصادية وغيرها لابد ان سبقتها مراحل اخرى • كما ان غياب القوانين المدونة في الفترة السابقة مع وجود دلائل ثابتة على تطبيقها بصورة وثائق قانونية يؤكد اصالة القوانين العراقية القديمة وامتداد جذورها الى عصور موغلة في القدم وربما سبقت ظهور وسيلة التدوين نفسها •

لقد سبق القوانين المدونة المكتشفة من حيث الفترة الزمنية النشاطات الاجتماعية والاقتصادية التي قام بها اخر حكام سلالة لجش ، المدعو اوروانيم جينا (اوروكاجينا) في القـرن الرابع والعشرين قبـل الميـلاد وعرفـت باصلاحات اوروانيم جينا ، وهي اقدم اصلاحات اجتماعية معروفة في العالم قاطبة . لقد ذكرت هـذه الاصلاحات في نص سومري عثر على ثلاث نسخ منه وبينت تفصيل الاوضاع الفاسدة التي آلت اليها لجش قبل تولي هـذا الحاكم الحكم فيها حيث كان « جباة وموظفو الحاكم يبتزون الاموال مـن الناس بشتى الوسائل ، وكانت ثيران الالهة تحرث مساحات البصل التابعة للحاكم وكانت حقول بصل وخيار الحاكم تقع في احسن حقول الالهة .. » كما شملت الضرائب التي فرضها الحاكم مختلف اوجه الحياة وحتى بعد الممات حيث فرضت ضريبة للدفن . كما يشير النص الى المفاسد الاجتماعية التي انتشرت في البلاد فاصبح القوي يعتدي على الضعيف ويسخره للعمل دون مقابل . ثم يستطرد النص بعد ان يذكر تفصيل ذلك قائلا : « هذه هي الاساليب التي كانت سائدة في الايام السابقة » ، ولكن عندما منح الاله ننجرسو ، محارب الاله انليل الاول ، ملوكية لجش الى اوروانيم جينـا ، وامسك بيده من بين الجموع ، التي تؤلف سكان المدينة ، تمسك اورو انيم جينا بالكلمة التـي قالها له ننجرسو « فمنع الرجل المسؤول عن اصحاب القوارب من الاستيلاء على القوارب .... ولم يعد هناك جابي ضرائب من حدود ننجرسو الـى حدود البحر » كما خفض الضـرائب المفروضـة على الناس ... وخصص جرايات دائمة لاصناف من الكهنة واصحاب الحرف وبعض العمال ... » ثم وضع بعض القواعد القانونية ذات المفعول الدائم منعا لاستغلال الضعيف . كما قام اورو انيم جينا باطلاق الحريات للمواطنين الذين وقعوا تحت طائلة الديون والضرائب المتراكمة حيث يذكر بانـه اطلق حرية مـن كان مقيـدا بسبب دين او ضريبة او غرامة بسبب سرقة او قتل . وفي احدى النسـخ

الاخرى ، ذكرت بعض العقوبات التي فرضت على المجرمين ، « فكان السارق يرجم بالحجارة التي (كتبت عليها) نيته (الشريرة) • (اما) الممتلكـات المفقودة (عندما يعثر عليها او تستعاد من السارق) فكانت تعلق على الباب الكبير (حيث يمكن ان يطالب بهـا صاحبها الشرعي) » • ثم يذكر انـه « اعتادت المرأة في الايام السابقة ان تأخذ زوجين • (ولكن اذا حاولت المرأة ذلك اليوم ، كانت ترجم بالحجارة (التي كتب عليها سوء) نيتها » •

وعلى الرغم من ان هذه الاصلاحات لا تؤلف قوانين كالقوانين المكتشفة في العراق القديم ، الا انها بلا شك تمثل اقدم محاولات الحاكم والملـوك نحو اصلاح الاوضاع الاجتماعية وتنظيم العلاقات التي تربط افراد المجتمع ومنع الاستغلال وسوء استخدام الوظيفة والى غير ذلك مـن الاصلاحات الاجتماعيـة •

ويبقى قانون اور ــ نمّو (٢١١٣ ــ ٢٠٩٥ ق•م) ، مؤسس سلالة اور الثالثة ، اقدم القوانين المدونة المعروفة في العالم • وقد ضم القانون بين مواده المعروفة ، مواد خاصة بتنظيم الاحوال الشخصية وهروب الرقيـق والاعتداء على الاشخاص وشهادة الزور مما له علاقة بالحياة الاجتماعية • وتكمن اهمية هذا القانون اضافة الى كونه اقدم القوانين المكتشفة ، انه دون باللغة السومرية وتضمن قواعد واحكاما سومرية تختلف عن تلك التي نجدها في القوانين البابلية التالية ، فلم ياخذ قانون اور ــ نمو بحالته الراهنة بمبدأ القصاص الذي اخذت به القوانين البابلية مثـلا بل نص على اتباع مبـدأ التعويض المـادي فقـط •

اما قانون لبّت ــ عشتار ، فيأتي بعد قانون اور ــ نمّو مـن حيث الفترة الزمنية وهو الاخر مدون باللغة السومرية ويرقى تاريخ اصداره الى القرن العشرين قبل الميلاد ، حيث اصدره خامس حكام مدينة ايسن المدعو

لبت ـ عشتار الذي حكم في الفترة ١٩٣٤ ـ ١٩٢٣ ق٠م ، وهي المدينة التي ورثت سلالتها الحاكمة سلالة اور ـ نمو في اور ٠

امكن التعرف على اجزاء من هذا القانون مدونة على لوح من الطين مهشم الى ثلاث قطع ، ويبدو ان القانون بهيئته الكاملة كان يضم ثلاثة اضعاف المواد المعروفة الآن ، ويمثل اللوح الطين نسخة من القانون الاصلي الذي كان قد دون على مسلة من الحجر ووضع في المعبد الرئيس في المدينة ، كما يستدل على ذلك من نص خاتمة القانون ٠ ويتألف النص حاليا من مقدمة وخاتمة تتوسطهما ثمان وثلاثون مادة قانونية ، اي ان القانون بشكله الكامل كان يضم اكثر من مائة مادة ٠

تضمنت المقدمة تمجيداً للالهة السومرية ولاله المدينة الرئيس الذي اختار لبت ـ عشتار الراعي الحكيم ، لنشر العدل في البلاد والقضاء على الشكاوي والعداوة بقوة السلاح ولجلب الرفاهية لابناء سومر واكد ، فقام لبت ـ عشتار ، ذو الصفات الرفيعة والنبيلة ، امتثالا لرغبة الالهة وتنفيذاً لارادتها بنشر العدل في البلاد فجعل « الوالد يساعد اولاده والاولاد يساعدون والدهم » ، « واعطى الحرية لابناء وبنات ايسن وابناء وبنات سومر واكد » ، ثم تشير الخاتمة الى انجازات لبت ـ عشتار في مجال نشر العدل والحق والقضاء على البغضاء والعنف وتحقيق رفاهية البلاد ٠ وعالجت مواد القانون ، فيما له علاقة بالحياة الاجتماعية ، العقوبات الخاصة بالسرقة وهروب الرقيق والاعتداء على الاشخاص في حين خصصت اربع عشرة مادة لمعالجة الاحوال الشخصية مما له علاقة بالارث والزواج للمرة الثانية ٠ والخطوبة والزنا وغير ذلك ٠

ويعد قانون اشنونا ، المنسوب الى مملكة اشنونا في منطقة ديالى ، اقدم القوانين المدونة باللغة الاكدية واكثرها مواد بعد قانون حمورابي ، ويسبق قانون حمورابي زمنياً بما يقرب من مائة سنة وقد تم الكشف عن

نسختين منـــه مدونتين على لوحين مـــن الطـــين في موقـــع تـــل حرمـــل القريـــب مـــن بغـــداد .

يضم القانون مقدمة قصيرة ، هي عبارة عن تاريخ احدى سنوات حكم ملك من ملوك اشنونا ، وستين مادة قانونية تضمنت مواضـــيع اقتصاديـــة واجتماعية مختلفة . وقد خصص القانون خمس عشرة مادة لمعالجة الاحوال الشخصية اضافة الى المواد الاخرى ذات العلاقة بالحياة الاجتماعية كالسرقة وهروب الرقيق والايذاء واضرار العجماوات. وتناولت المواد الخاصة بتنظيم الحياة الاجتماعية جوانب مختلفة من الخطوبة والزواج والطـــلاق والزواج للمرة الثانية بالنسبة للرجل والمرأة والخيانة الزوجية والاغتصاب والزنـــا والتبني والارث وغيرها من الاحكام ذات العلاقة بالاحوال الشخصية . غير ان القانون لم يعالج ، كبقية القوانين العراقية القديمة ، جميع ماله علاقـــة بالاحوال الاجتماعية بل انه تطرق الى حالات معينة ربما لانها كانت ، فـــي نظر المشرع القديم ، اكثر اهمية او بحاجة الى تعديل او تثبيت او تغيير .

اما قانون حمورابي ، فهو بحق اكمل واوضح القوانين العراقية المكتشفة حتى الان ، ويظل محور الدراسات التاريخية والقانونية الكثيرة التي ظهرت وتظهر بمختلف اللغات العالمية ، وهو القانون الوحيد الذي وصلنا بصـــيغته الاصلية مدوناً على مسلة من الحجر الديوريد الاسود باللغة الاكدية وخطها المسماري ، وقد تضمنت مواده القانونية ٢٨٢ مادة تقريباً اضافة الى المقدمة والخاتمة . وكان حمورابي قد اصدر القانون في الســـنوات الاخيرة مـــن حكمه ، بعد ان وحد جميع المدن العراقية في دولة مركزية واحدة ، وحكـــم حمورابي في الفترة من ١٧٩٢ الى ١٧٥٠ قبل الميلاد .

وكعادة الملوك القدامى ، ادعى حمورابي في مقدمة قوانينه ان الالهـــة العظام دعته لنشر العدل في البلاد حتى يقضي على الشر والخبيث ولكي لا يستعبد القوي الضعيف ولكي يعلو كالشمس فوق ذوي الرؤوس الســـود

ولكي ينير البلاد » ثم يستعرض حمورابي بكل فخر القابه واعماله وانجازاته العسكرية والعمرانية . ويتبع المقدمة نص المواد القانونية تليها الخاتمة التي اقتصرت في حديثها على القوانين نفسها ، شرعيتها ونسبتها الى حمورابي مع بيان اهدافها وكيفية الاستفادة منها والتاكيد على مراعاتها وعدم الاخلال بها ومن ثم انزال اللعنات على كل من يحاول تخريبها او نسبتها لنفسه . فيذكر حمورابي بعد ذكر صفاته ومؤهلاته وقابلياته انه في سبيل أن : «لا يظلم القوي الضعيف ، ولمنح العدالة لليتيم والارملة في بابل ، ولاطبق قانون البلاد ولاتخذ القرارات في البلاد ولامنح العدل للمظلومين، كتبت كلماتي القيمة على مسلّتي وثبتهم امام تمثالي (المسمى) (ملك العدالة) أنا الملك البارز بين الملوك ، كلماتي مختارة وقدرتي ليس لها مثيل بارادة الاله شمش قاضي السماء والارض العظيم ، عسى ان تسود عدالتي البلاد...دع كل مظلوم وله شكوى ان يذهب امام تمثالي (ملك العدالة) ومن ثم يقرأ الكتابة على مسلتي ويستمع الى كلماتي القيمة، فعسى أن توضح له مسلتي الشكوى وعسى ان يفهم شكواه وعسى أن يرتاح فؤاده ويقول : حمورابي السيد الذي هو والد الشعب الحقيقي ، قد صدح الان بكلمة الاله مردوخ سيده وحقق رغبة مردوخ من الشمال الى الجنوب ، واسعد قلب مردوخ سيده وجلب الرفاهية للناس الى الأبد ومنح العدالة للبلاد ، دعه يعلن هذا ودعه يصلي من اجلي بكل قلبه للاله مردوخ سيدي وصربايتم سيدتي » .

بعد ذلك ، يبدأ حمورابي بالدعاء الى الالهة من اجل الملوك الذين سيأتون بعده ويطبقون قوانينه وينشرون العدل في البلاد ثم ينزل لعناته ولعنات الالهة على كل من يتجاهلها .

اما متن القوانين ، فقد تضمن ما يقرب من ٢٨٢ مادة كان حمورابي قد اختارها من بين القواعد والاحكام القانونية السائدة في عصره وصاغها صياغة جديدة موحدة تنسجم وظروف الدولة البابلية التي اسسها والتي

تميزت بوحدة القطر السياسية وسيادة القانون على جميع المواطنين دون استثناء • ويبدو ان حمورابي قد ضمن قوانينه تلك المواد التي كانت بحاجة الى تثبيت او تعديل او تغيير في حين هناك قواعد قانونية كثيرة اخرى لم تثبت في متن القوانين • ومهما يكن من امر ، فقد خصص حمورابي جزءاً كبيرا من مواد قانونه الى تنظيم العلاقات الاجتماعية بين افراد المجتمع ووضع الضوابط والاحكام الصارمة على كل من يخرج عنها او يسيء اليها ، وقد غالى احيانا في انزال العقوبات القاسية بحق كل من يعبث بامن المواطنين وسلامتهم او يظلم الضعيف منهم ، فحق بذلك لحمورابي ان يفخر ويقول انه نشر العدل والحق في البلاد • ان استعراض سريع لمضمون المواد القانونية يبين بوضوح ان حمورابي خصص اكثر من ستين مادة قانونية لتنظيم الاحوال الشخصية في حين تناولت المواد الخمس الاولى قضايا خاصة بالقضاة والمحاكم وشهادة الزور وهناك حوالي عشرين مادة اخرى خاصة بالجرائم التي تقع على الاموال كالسرقة واللصوصية وايواء الرقيق الابقين ، اضافة الى ذلك هناك تسع عشرة مادة خاصة بعقوبات الايذاء واربع اخرى خاصة بطبقة العبيد • وهكذا يتضح اهتمام المشرع بالحياة الاجتماعية وتنظيمها ووضع العقوبات الصارمة على كل من يحاول الاضرار بنظامها •

اما القوانين الاشورية الوسيطة والتي ترقى بتاريخها الى الفترة الواقعة بين ١٤٥٠ و ١٢٥٠ ق•م ، فقد خصص اللوح الاول منها ، وهو اللوح الوحيد الذي يمكن قراءة مواده بصورة كاملة ، جميع مواده لتنظيم الروابط الاجتماعية والاحكام والقواعد الخاصة بالجرائم التي ترتكبها النساء وتلك التي ترتكب ضد النساء • وسنحاول الاشارة الى بعض نصوص المواد القانونية من خلال الحديث عن الروابط الاجتماعية والاحوال الشخصية بصورة عامة •

التكوين الاجتماعي :

تطرقت القوانين العراقية القديمة ، وعلى وجه الخصوص قانون حمورابي ، الى طبقات وفئات المجتمع العراقي القديم عرضا كما اشارت الى ذلك بعض الوثائق اليومية والقانونية الاخرى • ومن خلال ما ورد في هذه النصوص يبدو ان مجتمع المدينة العراقية في العصور القديمة كان على درجة كبيرة من التنظيم والتعقيد استوجبت اصدار قوانين تفصيلية لتثبيت القواعد والاحكام التي تحدد الروابط الاجتماعية وتنظمها وكما سبقت الاشارة الى ذلك • وكان المجتمع بصورة عامة يتألف ، كغيره من المجتمعات القديمة والحديثة ، من فئات وشرائح اجتماعية متعددة منها الحاكمة والمتنفذة او المسيطرة ومنها المحكومة التي لم يكن لها نفوذ او سلطان بل كان عليها تنفيذ الاوامر حسب • اضافة الى ذلك ، ضمت المجتمعات القديمة عامة طبقة خاصة من المملوكين ، اي العبيد •

وتاتي الاسرة الحاكمة او المالكة في مقدمة المجتمع العراقي القديم، وكانت تحتل مركزا مقدسا في نظر ونفوس العراقيين القدماء ، ولم يرق الملوك الى مرتبة الالوهية التي وصل اليها فراعنة مصر • ومع ذلك هناك من يرى ان بعض ملوك الفترات المبكرة الهوا أنفسهم ، كالملك الاكدي نرام ــ سين مثلا • وكان ينظر الى الملك بانه ممثل الالهة على الارض ونائبها فيها لذا هو يحمل وظيفة الهية مقدسة، وهي وظيفة الملك، منحته اياها الالهة ليسوس بها الناس ، وقد تجاوز بعض الملوك هذا الحد وادعى قرابته الى الالهة عن طريق التبني ليزيدوا من احترام وتقديس الناس لهم • وكانت واجبات الملك كثيرة ومتنوعة منها الدينية ومنها الدنيوية ، ويعاونه في ادائها جمع ضخم من كبار الموظفين الملكيين ، كما اشرك بعض الملوك ابناءهم في ادارة شؤون مملكتهم وعينوهم نواباً لهم او حكاماً في بعض المقاطعات والاقاليم التابعة للمملكة • وطبيعي ان حياة الاسرة المالكة كانت تختلف تمام الاختلاف عن

حياة عامة الناس ، فقد عاشت في قصور فخمة مزودة بجميع وسائل الراحة المتيسرة انذاك ، وكان يقوم على خدمتها اعداد كبيرة من الخدم والحاشية والعبيد من الذكور والاناث وضمت القصور الملكية المئات من الخدم والندماء والعاملين على اختلاف اصنافهم • اما تفاصيل حياة الاسرة المالكة ، فمعلوماتنا عنها قليلة نسبياً ومستمدة بالدرجة الاولى من المخلفات المادية كالقصور وما فيها من مرافق واثاث في حين لم تردنا مشاهد او نصوص خاصة بحياة الاسرة المالكة على غرار مانجده في التاريخ المصري • وكان مقر اقامة الملك ، او الحاكم ، يسمى القصر ، واصبح المصطلح يعني مقر الدولة بصورة عامة •

ويلي الاسر المالكة ، او الحاكمة ، فئات عدة تؤلف بمجموعها الطبقة المتنفذة في المدينة وقد ضمت الى جانب الامراء واصحاب الاقطاعات الكبيرة، قادة الجيش وضباطه وكهنة المعابد وكبار موظفي الدولة من حكام مناطق وقضاة واطباء وكتبة ومفتشين ومراقبين وغيرهم من الموظفين • كما ضمت هذه الطبقة جميع المتنفذين سياسيا او اقتصاديا او دينيا من تجار وصناع واصحاب رؤوس اموال • وطبيعي ان حياة هذه الفئات كانت مرفهة نسبياً فقد وفرت لها مراكزها الاجتماعية او امكاناتها المادية العيش في بيوت فخمة مؤثثة باثاث مريح ومزودة بمختلف وسائل الراحة كما كان يعمل في معظم بيوت الاسر المرفهة هذه عدد من الاماء والعبيد لخدمة افراد الاسرة وتوفير الراحة لهم •

وكان للكهنة وبعض اصناف القوات المسلحة والتجار امتيازات خاصة اشارت اليها القوانين مما يضعهم في مركز اجتماعي متميز • اضافة الى ذلك، عاش الكهنة بصورة عامة معتمدين على واردات المعبد الكثيرة التي كانت تنهال عليه من جهات مختلفة الى جانب ما كان يجنيه المعبد من ارباح كثيرة من خلال نشاطاته الاقتصادية •

اما بقية سكان المدينة ، وهم عامة الناس باستثناء طبقة العبيد ، فهم صغار التجار والكسبة والباعة والاجراء واصحاب الحرف والصناعات اليدوية والعاملين في الحقول والبساتين والمزارع وغيرهم من ذوي الدخول القليلة • وكانت هذه الفئات تعيش حياة بسيطة في بيوت صغيرة ، او ما يشبه الصرايف ، وتعتمد اساسا : على جهدها اليومي لتوفير معيشتها ، وغالبا ما كانت تقع تحت طائلة الدين ، لاسيما في فترات الازمات الاقتصادية التي تمر بالبلاد نتيجة الجفاف.او غيره مما كان يدفع الملوك والحكام الى اصدار مراسيم خاصة لتخفيض نسب الفائدة والغاء بعض الديون والبيوعات التي اضطر اليها اصحاب الاملاك الصغيرة •

وكانت بعض الحرف والصناعات الشائعة في المدن العراقية القديمة ، وخاصة تلك التي تحتاج الى مهارة خاصة وتدريب طويل ، مقصورة ومحصورة في اسر محدودة احتفظت باسرار حرفتها لنفسها فكانت الحرفة تنتقل بالتدريب الطويل من الاب الى الابن ؛ وفي حالات معينة ، كان صاحب الحرفة يتبنى له صبياً او اكثر ويعدهم كاولاده بغية تعليمهم حرفته ومن ثم الاستفادة منهم في مستقبل الايام • ويبدو ان اصحاب الحرفة الواحدة كانوا ينتظمون فيما يشبه النقابات المهنية تماما كما كانت عليه الحرف في مطلع القرن الحالي في المدن العراقية الحديثة وكأن يرأس كل حرفة او صنعة اكثر المنتمين لها شهرة ونفوذا واحسنهم سمعة ، وكان اصحاب الحرفة الواحدة يحتكمون اليه في فض المنازعات والخلافات التي قد تنشب بينهم وربما قام ايضا بدور الوسيط بينهم وبين السلطة • ولا يعرف بالضبط هل كان اصحاب الحرفة الواحدة يعملون في اسواق مخصصة ام انهم كانوا ينتشرون في المدينة ام انهم كانوا يقومون باعمالهم في بيوتهم ومن ثم يعرضون منتجاتهم في الاسواق • ويبدو ان النساء كن يشاركن في بعض الحرف اليدوية ولاسيما تلك التي تتطلب الصبر والاناة والدقة في العمل كالحياكة والنسيج والخياطة

والتطريز • وكان للمعابد ، وخاصة في الفترات المبكرة ، نشاط ملحوظ في المجال الاقتصادي حيث ضمت بعض المعابد مشاغل عديدة عمل فيها الرجال والنساء والصبيان من الاحرار اضافة الى الكهنة والعبيد التابعين للمعبد، وقد ذكر بين مشاغل المعابد مشغل النحات والصائغ والنجار وصانع الجلود والخياط والخزاف وغيره •

وكان الرقيق يؤلف الفئة الدنيا من فئات المجتمع وكانت اقلها حظاً من جميع الاوجه الاجتماعية والاقتصادية • ولم يكن الرقيق يؤلفون نسبة كبيرة من سكان المدينة في الفترات الاولى من تاريخ العراق القديم ثم زاد عددهم تدريجياً بازدياد الحروب والمعارك العسكرية ومن ثم زادت اعداد الاسرى الذين آلت اليهم حالة الاسر الى العبودية • وكان عدد الاناث من الرقيق في الفترات الاولى اكثر من عدد الذكور نظراً لفائدة الاناث المزدوجة كعاملات وخادمات وكمحضيات او سرايا ، وكان يؤتى بهن من الاقاليم المجاورة ، ولاسيما الجبلية كما تشير الى ذلك العلامة الصورية المستخدمة للدلالة على كلمة أمة او عبد ، عن طريق الشراء • ثم زاد عدد الذكور نتيجة الحروب الكثيرة واسر جند الاعداء ، كما كان التجار البابليون يجلبون العديد احيانا من بلدان مختلفة بهدف بيعهم ، وكانت اسعارهم تختلف من فترة الى اخرى وتعتمد على جنس الرقيق وشكله وقابلياته واوصافه العامة والخاصة • ولم يقتصر مصدر الرقيق على الخارج فقط ، فقد كان يؤول حال بعض الافراد الاحرار من ابناء المجتمع الى العبودية اما نتيجة وقوعهم تحت طائلة الدين او لارتكابهم بعض الجرائم التي نص عليها القانون وحدد عقوبتها بالاستعباد او لولادة بعض الاطفال غير الشرعيين ورميهم والتخلص منهم • كما كان عدد الرقيق يتزايد نتيجة التناسل حيث كان اولاد الرقيق يعدون رقيقا بالولادة •

وكان الرقيق من ممتلكات مالكه ، له الحق بالتصرف به كيفما شاء ، ولم يكن الرقيق ينتسب الى ابويه بل كان يذكر اسم مالكه وربما كان يعلم بعلامة خاصة بالعبودية على يده او باسلوب قص شعره ، كما اشار الى ذلك قانون حمورابي • وكان يباع بموجب عقد محرر وتنتقل ملكيته ، كأي شيء آخر ، الى المالك الجديد • ولم تعترف القوانين بكامل اهلية الرقيق القانونية بل عدته قاصراً ومنعت التعامل التجاري معه • ومع ذلك ، لم يكن الرقيق يختلف عن مالكه من حيث اللون او الجنس او الدين او الزي الا اذا كان يحمل علامة خاصة • وعلى الرغم من وضع الرقيق السيء ، فقد كانت له بعض الحقوق ، فكان له حق الزواج الشرعي وتكوين عائلة وامتلاك الاموال والتمتع بها طوال حياته كما كان من الجائز للعبد ان يتزوج من امرأة حرة وبالعكس كان من الجائز للامة ان يتزوجها رجل حر ، ففي الحالة الاولى ، كان الاولاد الناتجين عن الزواج يعدون احرارا اما في الحالة الثانية ، فان اعترف صاحب الامة او سيدها ببنوة الاولاد ، عندها يصبحون اولادا شرعيين لا يختلفون عن اولاده الاخرين ، وبعد وفاة الاب تمنح الحرية للام كذلك • وعاقبت القوانين كل من يعتدي على الرقيق • ويبدو ان مركز الرقيق كان في تحسن مستمر حيث اصبح لهم في العهود الاشورية والبابلية الحديثة مركز قد يفوق احيانا مركز بعض الاحرار ، فكان بامكان بعضهم ان يتقلد الوظائف الحكومية وان يمتلك الاموال الخاصة وان ينفق مع مالكه على افتداء نفسه وشراء حريته باموال يجنيها هو نفسه من خلال عمله في احدى الحرف وكان في مثل هذه الحالات يتفق مع مالكه على مبلغ معين يدفعه له باقساط شهرية • الى ان يتم شراء نفسه ، وكان له ان يسكن في بيت خاص به وتشير بعض النصوص المسمارية الى ان بعض الرقيق وصلوا الى المركز الذي امتلكوا فيه رقيقا يقومون على خدمتهم وراحتهم مما لا نجد له مثيلا في أي مجتمع قديم اخر حتى تلك المجتمعات التي عاشت بعد المجتمع البابلي بقرون عديدة كالمجتمع اليوناني والمجتمع الروماني •

وهكذا تألف مجتمع المدينة العراقية القديمة من فئات كثيرة تتباين من حيث الامكانات المادية والمركز الاجتماعي تباينا كبيرا غير انها كانت تنضوي جميعها تحت لواء طبقتين اجتماعيتين فقط، اعترفت بوجودهما القوانين وميزت بينهما في المعاملة ، شأنها في ذلك شأن القوانين القديمة الاخرى عند كل المجتمعات، تلك هما طبقة الاحرار وطبقة العبيد. وضمت طبقة الاحرار جميع الفئات الاجتماعية من سكان المدينة باستثناء العبيد المملوكين الذين كانوا يؤلفون الطبقة الثانية . وهناك من الباحثين المحدثين من يرى ان المجتمع العراقي القديم ضم ثلاث طبقات اجتماعية وان هناك طبقة تتوسط هاتين الطبقتين كانت لها حريتها ولكنها كانت حرية مقيدة في حين كانت طبقة العبيد معدومة الحرية . وقد اعتمد اصحاب هذا الرأي على ماورد في قانون اشنونا وقانون حمورابي من اشارات للدلالة على فئات اجتماعية مختلفة ، فقد ورد مصطلح « اويلم » بمعنى « الرجل » وكأنه يشير الى الفرد من طبقة الاحرار في حين ورد ذكر مصطلح « مشكينم » بمعنى « المسكين » للاشارة الى الفرد من الطبقة المتوسطة مقيدة الحرية . غير ان تحليل المواد القانونية القليلة التي ورد فيها ذكر المشكينم ومقارنتها مع بقية المواد يؤكد ان المقصود من كلا المصطلحين هو الاشارة الى طبقة الاحرار غير ان القوانين قصدت من المصطلح الاول عامة الناس من المتمكنين اقتصاديا في حين استخدمت المصطلح الثاني بشكل خاص ومحدود للدلالة على الفرد من طبقة الاحرار من غير المتمكنين اقتصاديا ، اي من فئة الفقراء والمساكين . لذلك لم تذكر القوانين مصطلح مشكينم الا حينما تكون هناك معالجة لناحية اقتصادية او مادية . وتظهر دراسة قانون حمورابي الى ان المشرع كان يحاول دائما التخفيف عن كاهل هذه الفئة من المساكين اخذاً بنظر الاعتبار وضعها المادي عند فرض العقوبات المادية عليها وتحديد الاحكام تماما كما تفعل القوانين الحديثة المتطورة عند اصدارها الاحكام واخذها بنظر الاعتبار حالة الفرد

المحكوم المادية ومستواه المعاشي وخاصة في القضايا ذات العلاقة بالاحوال الشخصية .

العائلة :

ان متانة البناء الاجتماعي للعائلة يعني متانة بناء المجتمع المؤلف من مجموع العوائل ، وتشير جميع القوانين والوثائق الاخرى المكتشفة في العراق الى متانة بناء العائلة العراقية القديمة وقوة تماسكها . ان ما لدينا من معلومات عن العائلة في العراق القديم كثير جداً ويكفي لاعطاء صورة تفصيلية عنها بفضل اهتمام المشرعين الكبير بتنظيم واحكام الاحوال الشخصية وعدم اعتراف القوانين باي عقد ، أزواجاً كان ام طلاقاً ام تبنياً ام غيره ، الا اذا كان محررا ومشهدا عليه ، وهكذا تم العثور على المئات من مثل هذه العقود وفيما ياتي نبذة عن بعض جوانب الاحوال الشخصية .

الخطوبة والزواج :

من الطبيعي ان الزواج هو الاساس الذي تقوم عليه العائلة ، ولم يكن الزواج يعد شرعيا وتتحقق بموجبه حقوق الزوج والزوجة الا اذا تم تسجيل العقد على رقيم من الطين . وطبيعي ايضا انه كان يسبق عقد الزواج ما يعرف بالخطوبة ، اي اختيار الرجل لزوجته المقبلة والاعلان عن ذلك بالطرق المألوفة . ويبدو انه لم يكن هناك اجراءات قانونية خاصة بهذا الاختيار بل كانت العادة ان يتم اختيار الفتى لفتاته من خلال ذويه وقلما يحدث العكس ، كما لا توجد اشارة الى خطوبة تمت بين الفتى والفتاة دون تدخل ذويهما بل انالقوانين نصت على عدم شرعية الزواج ان لم يكن مقترنا بموافقة الوالدين حتى وان قضت المرأة سنة كاملة في بيت زوجها ، ويشير هذا الى الدور الرئيس الذي كان يؤديه الوالدان في الزواج ولاسيما بالنسبة لاختيار الفتاة . وقد يفسر ذلك أن التقاليد السائدة كانت تقضي بالزواج المبكر حيث لم يكن سن الفتاة او الفتى كافيه لحسن الاختيار . وبعد انيتم اختيار الفتاة،

تقام الاحتفالات العائلية وتقدم الهدايا الى بيت الفتاة وقد تجري بعض الطقوس الخاصة بذلك كأن يقوم الفتى بصب الزيت والعطور على رأس الفتاة اشارة رمزية عن اتمام الخطوبة . وقد تطول فترة الخطوبة او تقصر تبعا لظروف الخطيبين المادية او الاجتماعية. ولم يكن هناك سن محددة للزواج بل ربما كان سن البلوغ هو المعوّل عليه . وقد تفسخ الخطوبة لسبب او آخر ، حيث نصت القوانين على تحمل الطرف المسؤول عن فسخ الخطوبة التبعات المالية . اما اذا كان سبب فك الخطوبة هو وفاة الفتاة ، عندها يحق للفتى اختيار احدى اخواتها او استرداد الهدايا ، وبالعكس اذا توفي الفتى حق لوالده ان يزوج الفتاة الى احد ابنائه الآخرين . وكان يحق للرجل ان يختار زوجته المقبلة بحرية تامة غير انه كان هناك عدد من الحدود والقيود لهذه الحرية حددت المحارم من الفتيات والنساء بالنسبة للرجل . فمثلا لا يجوز الزواج من امرأة متزوجة كما لا يجوز الاتصال بالابنة وزوجة الابن . وطبيعي ان مجتمعا وصل الى هذا التنظيم عدّ اتصال الابن بامه بعد وفاة ابيه من الجرائم الشنيعة التي عاقب عليها بقسوة شديدة كما منع الاتصال بالاخت ، غير ان معلوماتنا عن بقية الاقرباء قليلة ولنا ان نفترض بانها كانت مشابهة لما عرف عن الاقوام الجزرية في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام في الفترات التالية .

وبعد ان يتم تسجيل العقد ، يصبح الزواج قانونيا وتتحقق حقوق ومسؤوليات والتزامات كلا الطرفين المالية والاجتماعية التي نصت عليها القوانين ، ويصبح الرجل والمرأة زوجاً وزوجة . وقد تم العثور على مئات من عقود الزواج المسجلة على رقم الطين . ويبدو ان العقد كان يبرم بين الرجل وولي امر الزوجة المقبلة ، تماما كما يحدث في الوقت الحاضر . وقد يكون غياب رأي الفتاة في العقد ناتجاً عن صغر سنها او ضعف مركزها الاجتماعي . في حين تؤكد القوانين بانه كان للمرأة احيانا حق صريح في اتخاذ القرار واختيار الزوج حيث منحت بعض النسوة حرية اختيار الزوج

ان كن من الكاهنــات او كان زواجهــن للمــرة الثانية او عنــد غيــاب الــزوج غيبــة طويلــة ٠

وتتضمن عقودالزواج اضافة الى اسماء الاطراف المتعاقــدة ، كميــة المبالغ والهدايا المقدمة والتزامات كلا الطرفين واحيانا بعض الشروط الجزائية ويختم العقد عادة باسماء الشهود وقد يطبع الرقيم بختم احــد المتعاقديــن ويذيل بالتأريخ محدداً باليوم والشهر والسنة ٠

وكان يحق للزوج ان يدخل بزوجته بعد تسجيل العقد ، وقد يتأخــر الدخول لحين استكمال متطلبات الزواج ، ولابد انه كانت هناك احتفالات وطقوس ترفيهية ودينية خاصة يشترك بها ذوو الفتى والفتاة لاضفاء طابــع الخير والبركة على الزواج واشهاره امام الناس ٠

ولم يكن الزواج في العراق القديم ، كما يراه بعضهم ، تجارة تتضمن بيع الفتاة الى الزوج المقبل لقاء مبلغ معين ، بل كان يقوم ، كما تشير الــى ذلك القوانين صراحة ، على مساهمة كلا الطرفين بتجهيز متطلبات الــزواج المادية ٠ فكان والدا الفتاة يقدمان الى ابنتهما هدايا خاصة عنــد الــزواج تتناسب وامكاناتهما المادية وقد تتضمن اموالا منقولة واخرى غير منقولــة تمثل حصة الفتاة في اموال والديها ، وكانت هذه الهدايا تسمى «شريفتوم»، وكانت الزوجة تقدم هذه الهدايا الى زوجها للمحافظة عليها وتنميتها غير انها كانت تحتفظ بملكيتها طالما كانت على قيد الحياة ، وكانت تؤول من بعدها الى اولادها او الى والديها ان لم يكن لها اولاد ٠ وبالمقابل ، كــان الزوج يقدم لزوجته هدايا الخطوبة اولا ومن ثم هدايا الزواج التي كانت تســمى « ترخاتم » وهناك هدية اخرى تسمى « بيبلوم » كانت تسـلم لوالــدي الزوجة ، ولكنها لم تكن من الهدايا الاساسية في الزواج وربما كانت تمثل نفقــات مراسيم الــزواج ٠

وهنا لابد من الاشارة الى ان الزواج الذي يتم وفق ماذكر اعلاه يمثل القاعدة العامة وهو الزواج الكامل او التام في حين انه كان هناك انواع اخرى من الزواج اقل ورودا وشيوعا ، منها الزواج الناقص ، الذي يتم فيه تحرير العقد ويتأخر تنفيذه والدخول بالفتاة الى فترة معينة وقد تطول لاسباب مختلفة ربما لصغر سن الفتى او الفتاة او لعدم اكتمال الترتيبات اللازمة وتستمر الفتاة في العيش في كنف ابيها حتى يتم الزواج فعليا . وقد تنتقل الفتاة الى بيت حميها وتعيش فيه لحين اكمال الزواج . وهناك الزواج الذي يتم دون تحرير عقد ويقع هذا الزواج في حالات خاصة اعترف القانون بشرعية هذا النوع من الزواج غير انه لم يعط المرأة حقوق الزوجة الكاملة فقد تدخل المرأة بيت رجل ثانٍ لغياب زوجها غيبة طويلة دون ان يترك لها ما يعيلها .

العلاقات الزوجية :

من الواضح ان السمة العامة التي اتصفت بها العائلة العراقية القديمة هي سلطة الاب المطلقة في بيته لذا كان يسمى رب الاسرة ، فهو معيلها واليه ينتسب الاولاد وعليه يعتمدون في حياتهم ، وله حق الزواج والتزويج والطلاق في حين كانت حقوق المرأة محدودة في هذا المجال ولكنها كانت تأتي في المرتبة الثانية ، وهذا لا يعني انه لم يكن للمرأة حقوق بل بالعكس حيث كان لها حقوق نصت عليها القوانين منها ما لا نجده حتى في بعض القوانين الحديثة. فقد كانت لها شخصيتها المالية المستقلة ، تمتلك الاموال المنقولة وغير المنقولة وتتصرف بها وفق مشيئتها ، وتظهر المرأة تاجرة ومقرضة للاموال وبائعة خمر وكاهنة وكاتبة وقاضية او شاهدة . وكانت تركتها تؤول الى اولادها او الى ابويها ان لم يكن لها اولاد . وكان لها الحق في الزواج ثانية في حالات معينة كما كان لها حق طلب الطلاق في حالات حددها القانون مما سنتطرق اليه فيما بعد .

وكانت القاعدة العامة في العائلة هي الزواج الاحادي ، ولكن كان يحق للرجل التسري ، كما جرت العادة ان تدفع الزوجة العاقـر باحدى امائهـا الى زوجها بهدف انجاب الاطفال ، وكان للزوج ايضا ان يتزوج بامرأة ثانية ان كانت زوجته الاولى مريضة مرضا لا يرجى شفاؤه وتشير القوانين الى ان منزلة الزوجة الاولى تبقى محفوظة حتى في حالة زواج الرجل للمرة الثانية .

والى جانب الحقوق التي حددتها القوانين للزوج والزوجة كل عنـد الآخر فقد فرضت عليهما واجبات والتزامات ، ويأتي في المقدمة المحافظة على بيت الزوجية وعدم الاخلال بسمعته . وهكذا نصت احدى مواد قانـون اشنونا (البابلي) على طرد الزوج من بيته وخسرانه املاكه المنقولة ان هو اراد تطليق زوجته وام اولاده بسبب عشيقته كما منعته مـن الزواج مـن العشيقة ، في حين نص قانون حمورابي على حق الزوجة طلب الطلاق مـن زوجها ان ثبت تكرر خروج الزوج من بيته واتيانه اعمالاً تحط من سمعته وسمعة زوجته . ومن ناحية اخرى ، كان على الزوجة ان تحافظ على سمعتها وشرفها وحسن سلوكها ولا تؤتي ما يغضب الزوج او يحط من كرامته والا وقعت تحت طائلة القانون فاما ان تطلق او ان تعاقب بعقوبة قاسية قد تصل الى الموت ان هي ضبطت متلبسة بجريمة الخيانة الزوجية او ان تستعبد كأمة من قبل زوجها . كما اشارت القوانين الاشورية الوسيطة الى حق الـزوج تأديب زوجته وضربها او سحب شعرها في حالات معينة . وتنص القوانـين الى العقوبات الصارمة التي يعاقب بها كل من الزوج والزوجة ان تسـبب احدهما بموت الآخر عن قصد .

وكان من واجبات الزوجة الرئيس ان توفر لزوجهـا واولادها بيتـاً هادئاً مطمئناً وتسهر على تربية الاولاد وتوفر لهم ولزوجهـا المأكل والملبس وقد تعمل اثناء النهار في الحقل او البستان او تقوم ببعض الحرف اليدويـة البسيطة وهي في بيتها كالحياكة او صناعة النسيج او غيرهـا في حين كـان

الزوج يتولى مهمة توفير المسكن ومستلزمات المعيشة لجميع افراد الاسرة ، وكانت سلطته في بيته تشبه تماما سلطة الملك في مملكته • وكان احترامه واجب نصت عليه القوانين حيث اشارت ، اضافة الى ماذكر اعلاه بالنسبة للزوجة ، الى معاقبة الولد الذي يتجاوز على ابيه بالكلام او الضرب ، وقد تصل عقوبة الولد العاق الى الاستعباد والحرمان من الابوة وما يتحقق نتيجة ذلك من تبعات مالية •

الاولاد :

ان الهدف الرئيس من الزواج ، الى جانب اتحاد الجنسين جسديا ، هو تكوين اسرة جديدة على اسس قويمة وانجاب اطفال ينتسبون الى ابوين معروفين ويبدو ان الرغبة في الاكثار بالبنين كانت هي الشائعة ، كما هي اليوم • ومع ذلك ، فان ولادة الاناث لم تكن تخلق مشاكل عائلية رئيسة بالنسبة للزوجة بل ان المشكلة كانت تظهر في حالة عدم انجاب الاطفال• ويبدو ان العراقيين القدماء ظنوا ان اسباب عدم الانجاب هي الزوجة دائما لذلك نراهم يضعوا الحلول امام الزوج للحصول على الاولاد كما تشير الى ذلك القوانين • ومن هذه الحلول اعطاء الحق للزوج بالزواج ثانية او اتخاذ امة له سرية تقوم بالانجاب دون ان يؤثر ذلك على مركز الزوجة الاولى او تطليق الزوجة العاقر بعد دفع هدية الزواج التي كانت قد جلبتها من بيت ابويها اضافة الى مبلغ الطلاق المتفق عليه • اما اذا عزف الزوج عن كل هذه الحلول التي قد تؤثر على زوجته الاولى ، عاطفياً على اقل تقدير ، فله ان يتبنى طفلاً من احدى الاسر الفقيرة التي تعرض اطفالها للتبني مقابل مبلغ معين من المال، وقد اجازت القوانين هذا النوع من التبني ونظمت اسلوبه وحددت حقوق وواجبات والتزامات كل من المتبني والمتبنى ، وكان على الاطراف المعنية تحرير عقد خاص بالتبني بعدها يصبح الطفل كالطفل الحقيقي بالنسبة

لحقوقه المادية والاجتماعية عند ابويه بالتبني حتى وان رزقا اطفالا بعد التبني •

ويبدو ان حالات التبني وغيرها من الحالات التي لا تتمكن فيها الام من ارضاع أفلها وتربيته ، قد استوجبت استخدام المرضعات ، وقد حددت القوانين مسؤولية المرضعة ومقدرتها على ارضاع الطفل وسلامة صحتها •

ولا بد ان الوالدين كانا يسميان طفلهما الجديد في الايام الاولى من الولادة ، وكان اختيار الاسم من الامور المهمة لديهم وكان الاختيار يقع غالبا على « الاسم الحسن » الذي يدل على البركة او النعم الالهية ، وقد يتألف الاسم من جملة كاملة لها معنى مفيد وغالبا ما كان يدخل في تركيب الاسم اسم او صفة احد الالهة الرئيسة • واذا اخذنا اسماء بعض الملوك وجدنا ذلك واضحاً جداً فيعني اسم سرجون (ضروّ ــ كين) الملك الثابت ، وسنحاريب (سين ــ اخي ــ اريا) يعنى « الاله سين يزيد عدد الاخوة » واشور بانيبال (اشور ــ بان ــ ابلى) يعني « اشور خالق الابن » وغيرها •

الطلاق :

الطلاق هو فسخ العلاقة القانونية والاجتماعية القائمة بين زوجين ، وقد سبقت الاشارة الى عدد من الحالات التي كان يحق فيها للرجل تطليق زوجته او يحق للزوجة ان تطلب الطلاق من زوجها • ويبدو ان القاعدة العامة التي كانت سائدة هي استمرارية الزواج حتى في حالة زواج الرجل ثانية ، ولكن هناك حالات تستوجب الطلاق مما اشارت اليه القوانين • وكان الطلاق عادة بيد الرجل ولكن كان يحق للزوجة طلب الطلاق إن هو أخلّ بالتزاماته الزوجية مثلاً ، أو غاب عنها غيبة طويلة دون ان يترك لها ما يكفيها لتغطية نفقات معيشتها وكان الطلاق مثل الزواج ، يتم بموجب عقد محرر ويترتب عليه تبعات مالية معينة ولم يكن يتم

كيفياً وحسب الاهواء بل كانت تحدده القوانين كما تحدد حقوق المرأة المطلقة المادية • فان اراد الزوج ان يطلق زوجته بسبب عشيقته ، فله ان يفعل ذلك ولكن عليه ان يدفع لزوجته مبلغ الطلاق ومن ثم لن يسمح له بالزواج من عشيقته ، اما اذا كانت زوجته هذه اما لأولاد ، فعندها يطرد الزوج من البيت ويخسر جميع املاكه الى زوجته واولاده (قانون اشنونا) • كما كان يسمح للرجل بتطليق زوجته الكاهنة او العاقر وعليه ان يدفع لها مبلغ الطلاق المتفق عليه عند الزواج اضافة الى الهدايا التي كانت قد جلبتها الزوجة من بيت ابويها هذا بالاضافة الى حالات لطلاق عند عدم محافظة اي من الزوجين على سمعة بيت الزوجية والحط من كرامة الزوج الاخر •

التحجب :

من العادات والتقاليد التي عرفت في العراق القديم ، في العصر الاشوري على اقل تقدير ، عادة التحجب بالنسبة للنساء المتزوجات من الاحرار • فقد اشارت القوانين الاشورية الوسيطة لى اضرورة تحجب المرأة الحرة المتزوجة وحرمت ذلك على الاماء الا اذا تزوجن من رجل حر وعلن الزوج ذلك امام شهود • ولا نعرف طبيعة التحجب الذي اشارت اليه القوانين اهو خاص بارتداء عباءة خاصة تغطي الجسم والرأس والوجه ام نه ارتداء الخمار فقط حيث لم يعثر حتى الان على ما يفصح عن ذلك من المنحوتات او النصوص المسمارية باستثناء ما ورد في القوانين •

الارث :

من الامور التي اهتمت بها القوانين العراقية القديمة ، توزيع التركة على الورثة لما لذلك من تأثير كبير في مستقبل العلاقات الاجتماعية بين افراد الاسرة الواحدة • ومع ذلك ، فهناك العديد من الامور الغامضة التي لم تتطرق اليها القوانين شأنها في ذلك شأن العديد من الامور الاخرى

التي اغفلتها القوانين على الرغـم من اهميتها • ومن خلال ما هو متيسر مـن معلومات يبدو ان التركـة كانـت توزع بين ابناء المتوفـى الذين من صلبه بالتساوي من بعد اقتطاع حصص ومبالغ معينة اشارت اليها القوانين • فكان الابن الاكبر يختار الحصة الاولى ، وقد يعطى بعض الامتيازات الاخـرى تقديرا لمركزه الاجتماعي بعد وفاة الاب ، وتحمله مسـؤوليات وتبعيـات اجتماعية ومادية جديدة • كما كان يقتطع من التركـة ما سبق للاب ان اوصى به ، بموجب وثيقة محررة ، لاحدى زوجاته او لابنه المفضل او لابنه بالتبني ، من امواله المنقولة وغير المنقولة • واذا كان بعض الابناء صبية صغاراً دون سـن الزواج ، فعلى اخوتهم ان يقتطعوا لهم من تركـة ابيهم مبلغـاً من المال يساوي هدية الزواج وذلك قبل تقسيم التركة ، اضافة الى حصصهم القانونية في التركـة كبقية الابناء • ولم يكن هناك حق لابناء الامة بالتركـة الا اذا كان ابوهم قد اعترف ببنوّته لهم قبل وفاته •

اما بالنسبة لبنات المتوفـى ، فهو ما اغفلت ذكره القوانين ويستشف من بعض المواد القانونية بانـه كان يحق للفتاة غير المتزوجة اقتطاع جزء من تركة ابيها مقابل هدية زواجها قبل تقسيم التركة ، كما تشـير مادة اخرى الـى تخصيص حصة معينة تساوي ثلث حصة الابن الذكر الى البنت مـن صنف الكاهنات التي لم تحصل على هدية زواج في حياة ابيهـا • اما الزوجـة ، فكانت تأخذ هدية زوجها ان كان الزوج قد ثبت ذلك بموجب وثيقة محررة خلال حياته • ولا توجد هناك اشارات الى توريث اخوة والاخوات الا في حالة وفاة الزوجة دون ان يكون لها اولاد حيث تؤول املاكها الى بيت ابويها •

وفي حالة وفاة الزوجة ، يبدو ان تعيين حصص الورثة لم يكن يختلف كثيرا ، ولكن اذا كان الابناء هم اخوة بطنين مختلفين ، فيرث كـل مـن الابناء تركة امـه على انفراد ويتقاسـمون تركة الاب بالتساوي •

وفي حالة وفاة الاب وتركة صبية قصّر ، تكون الزوجة وصية على اولادها وعلى حقوقهم ، واذا تزوجت ثانية ، ينتقلون مع امهم الى بيت الزوج الثاني وتقع على الام وزوجها الجديد مسؤولية المحافظة على املاك وحقوق الاولاد القصرّ وعلى الحاكم ان يثبت ذلك وفق وثيقة محررة •

وكان حجب التركة عن احد الاولاد من العقوبات القاسية التي يمكن للاب ان يوقعها باحد اولاده • ولم يكن ذلك يتم الا باصدار قرار من الحاكم ولاسباب مقنعة حددها القانون •

البيت العراقي القديم :

كشفت التنقيبات التي اجريت في مدن العراق المختلفة عن العديد من الاحياء السكنية الخاصة بعامة الناس ، كما كشفت عن قصور ملكية ومعابد وابنية عامة كثيرة كانت تحتل اماكن خاصة من المدينة • ومن الطبيعي ان الاثار المتبقية من دور سكن العامة قليلة نظراً لطبيعة المواد المستخدمة في بنائها ، التي اقتصرت غالبا على الطين غير المفخور (اللبن) والاخشاب ، وكذلك بالنسبة لاثاثها • ومع ذلك ، يمكن الاستعانة بما تبقى من تلك الدور مع ما يمكن استنتاجه من النصوص المسمارية والمنحوتات المختلفة لرسم صورة تقريبية عن البيت في العراق القديم •

ان دراسة مخطط البيت العراقي القديم العام والتعرف على اسلوب بنائه والمواد الانشائية المستخدمة في ذلك تشير الى ان العراقيين القدماء قد حاولوا بما لديهم من امكانات ومواد ان يجعلوا من بيوتهم البسيطة اماكن ملائمة للسكن تقوى على مواجهة التقلبات المناخية وتطرّفها من حيث الحرارة والبرودة • فقد استعاضوا عن الشبابيك الواسعة ، التي لا تساعد على تدفئة البيت او تبريده ، بفتحات صغيرة للتهوية والانارة ، واستخدموا الطين او الآجر للبناء ، وقد ثبت بانه اكثر المواد الانشائية المتوافرة ، ملاءمة للمناخ في العراق ، وجعلوا جدران البيت سميكة ليزيدوا من عزل البيت عن

التقلبات المناخية ، واستخدموا الرمل الجاف في اسس الابنية ووضعوا طبقة من القير على القسم السفلي من اوجه الجدران الداخلية ، وحيانا غلفوا الجدران الداخلية بقطع من الرخام او الحجر لمنحوت كل ذلك من اجل منع تسرب الرطوبة الى داخل البيت ، وغالبا ما كانت البيوت تطلى من الخارج بالابيض لزيادة جمال البيت من جهة ولعكس حرارة الشمس المحقة في الصيف من جهة ثانية •

وطبيعي انه كان هناك طرز مختلفة من البيوت حسب الفترات الزمنية واختلاف المدن ، كما كان هناك طرز خاصة بالبيوت الضخمة المرفهة واخرى للبيوت الخاصة بالطبقة الفقيرة والمعدمة • ومع ذلك ، كان هناك طابع عام يميز البيت العراقي القديم ، وظل هذا الطابع هو السائد حتى فترات متأخرة جداً من تاريخ العراق الحديث • فاما البيوت الصغيرة البسيطة ، فكانت عبارة عن اكواخ صغيرة من الطين ذات جدران سميكة بلا شبابيك تقريبا وتضم عددا من الغرف المتلاصقة وتسقف بالاخشاب والحصران والطين وكانت السقوف تميل الى احد الجوانب منعا لوقوف مياه الامطار عليها ، وقد تسقف على هيئة الجملون احيانا ، فهي بذلك شبيهة من حيث الشكل واسلوب البناء ومواده للاكواخ المعروفة في العراق حتى اليوم في المناطق الريفية وخاصة في القسم الشمالي من العراق والتي تعرف محليا باسم « دامه » وجمعها « دوم » اما الطراز الثاني من البيوت التي شاعت في العراق القديم فهو ما يمكن تسميته بالطراز الشرقي ، ويتألف في العادة من ساحة وسطية ، مربعة الشكل او مستطيلة مكشوفة يحيط بها عدد من الغرف المتلاصقة تطل مداخلها على الساحة ، وقد يتصل بعضها ببعض بمداخل صغيرة ، ويتناسب عدد الغرف وعدد افراد الاسرة وامكاناتها الاقتصادية وقد تصل الى عشر غرف احيانا ، وينفذ الى داخل البيت من خلال دهليز ضيق اشبه بالممر ، ويطل البيت على الطريق او الشارع الضيق

الذي تتجمع حوله ابواب البيوت الاخرى ، واحيانا دون انتظام • وكانت مداخل البيوت ضيقة ومنخفضة الى درجة قد يضطر الداخل الى الانحناء ، وكان لكل غرفة عدد قليل من الفتحات الضيقة للانارة والتهوية وغالبا ما تسد بواسطة قطعة من الاجر مثقبة بثقوب صغيرة تسمح بالانارة والتهوية فقط وتمنع دخول الحيوانات • وكان المطبخ يشغل احدى الغرف الصغيرة او احدى زوايا الساحة المكشوفة حيث يقام الموقد والتنور • اما ارضية الساحة والغرف ، فكانت تسوى وتعدل وتغلف احيانا بالآجر المفخور • وكان الطين يشكل المادة الاساسية في البناء بالنسبة لجميع طبقات وفئات المجتمع ، وقد يستخدم الآجر المفخور او الحجر احيانا ولكن على نطاق ضيق جدا • كما استخدمت الاخشاب والحصران للتسقيف • وقد يضم البيت الواحد طابقين ، لاسيما في مركز المدينة حيث ترتفع اسعار قطع الاراضي السكنية • وكان هناك بناءون محترفون يقومون ببناء البيوت عند الطلب ويتقاضون اجورهم استنادا ، كما تشير القوانين ، الى مساحة البناء ، كما كانوا يتحملون مسؤولية الاهمال والتقصير في البناء ويعاقبون بقسوة ان تسببوا في موت صاحب الدار او ابنه او أي فرد آخر من ساكنيه •

وقلما كانت البيوت الاعتيادية تضم حمامات خاصة والتي اقتصر وجودها على القصور الفخمة ، كما لا نعرف فيما اذا كان هناك حمامات عامة مشابهة لما نجده في مدن العراق في الفترات العربية الاسلامية • ويبدو ان سكان الدار استخدموا الدهليز او احدى الغرف و زوايا الساحة الوسطية مكانا للاستحمام ، كما اعتادوا الاستحمام في النهر والجدول القريب سيما ان معظم المدن قامت على شواطىء الانهار وضفاف الجداول والقنوات • وكان الصبية والفتيات من افراد الاسرة يقومون بنقل المياه النظيفة من النهر او البئر الى البيت بواسطة الاواني الفخارية او جلود الحيوانات (القِرب) ، على ظهور الحيوانات ، وكان في كل بيت عدد من

الاواني الفخارية الكبيرة (الحباب) لخزن المياه • ولم يكن هناك انظمة خاصة لتصريف المياه الثقلية غير انه وجدت حفر كبيرة وسط ساحات البيوت كانت معدة لتجمع المياه القذرة في حين ضمت القصور والابنية العامة الكبيرة، وخاصة الاشورية منها ، نظم دقيقة وكفوءة لتصريف المياه قوامها اقنية فخارية مدفونة تحت مستوى ارضية الغرف والحمامات حيث تتجمع فيها المياه ويتصل بعضها ببعض لتؤدي الى خارج البناء وتصب في الوادي او النهر القريب ، وكانت فوهة المجرى النهائية تسد بمشبك من الفخار لمنع دخول الحيوانات الى الداخل •

وقد تضم البيوت مكانا خاصا للمرافق الصحية ، ولاسيما البيوت الخاصة بالطبقة الغنية ، وكان تصميم المرفق الصحي لا يختلف عن تصميمه في الوقت الحاضر في مدن العراق المختلفة حيث كان يتألف من دكتين من الحجر او الآجر المفخور تتوسطهما فوهة حفرة تتجمع فيها الاوساخ • وقد كشف عن مجموعة من هذه الرافق في احد القصور في اشنونا في منطقة ديالى كما عثر في بعضها على أوانٍ فخارية لحفظ المياه النظيفة وجد في احدها مغرفة صغيرة مما يشير الى استخدام المياه للتنظيف ، وهي الطريقة المثلى الشائعة اليوم في العراق والتي تتناسب تماما ومناخ العراق •

الانارة والتدفئة :

كانت الانارة في البيوت تتم بواسطة المسارج والمشاعل • وقد استخدمت انواع بسيطة من المسارج تتألف من اناء صغير في احدى نهايتيه ثقب يخرج منه الفتيل ، وكان الزيت يوضع في الاناء •

بعض النصوص المسمارية الى استخدام زيت السمسم في الغالب وقودا وقد كشف عن انواع مختلفة من المسارج منها ما هو جميل للغاية • وتشير للمسارج كما استخدم زيت الزيتون ولكن في حالات قليلة وربما استخدم النفط الخام ايضا الذي كان يسمى (زيت الحجر) وان لم يكن مصفى غير

ان النور الذي يعطيه هو افضل من بقية الزيوت . اما المشاعل ، فكـــان استخدامها خارج البيوت في الحقول والطرقات واثناء المعارك شائعاً .

وكانت التدفئة تتم بواسطة حرق اغصان الاشـجار وجذوعها داخـل مواقد مصنوعة من الطين المفخور ، وربما اســتخدمت فضــلات الحيوانات لهذا الغرض ايضا .

الاثاث : ـــ

ومن الطبيعي ان اثاث البيت وجودته يتناسب ومستوى العائلة المعاشي . وان كنا قد تعرفنا على مخطط البيت العراقي القديم العام وبعض طرز بنائه الغنية من البقايا المكتشفة ، فان مما يؤسف له اننا لم نعثر على بيوت مؤثثة ربما لان معظم الاثاث كان يصنع من مواد سريعة التلف كالاخشاب والسجاد والقماش ، كما ان الاثاث الجيد لا يبقى في البيت بعد هجره الا في حالات قلية . ومع ذلك ، يمكن الافادة من النصوص المسمارية للتعرف على اسماء العديد من قطع الاثاث المنزلية وكذلك من المنحوتات التي تصور لنا بعض مشاهد الحياة اليومية وخاصة في القصور الملكية الى جانب ما تم الكشف عنه من ادوات منزلية مصنوعة من مواد غير قابلة للتلف .

ويبدو ان البيت المتوسط كان يضم بعض الاسرة والكراســي الخشبية وعدداً من الخزانات او الدواليب الخشبية ايضــا . وكانت الاسرة تخصص للرب الاسرة غالبا في حين كان بقيــة افــراد الاسرة ينامــون على الارض ويلتحفون السجاد والجلود . وربما استخدمت الدكــاك الطين للجلوس وللنوم . ولا يعرف فيما اذا اعتاد العراقيون القدماء النوم فوق ســطوح المنازل ، كما يفعل احفادهم اليوم ، ام انهم اكتفوا بالنوم في ساحة البيت المكشوفــة او امام البيت في المناطق الفسيحة . ولنا ان نفترض ان ســكان البيت الواحد كانوا يجتمعون في ليالي الشتاء الباردة في احــدى الغرف قعودا على الارض ، او على الدكاك ، يتوســطهم موقد النار ، وقد فرشوا

الارضية بالسجاد والحصير • وعند تناول وجبة الطعام ، كانوا يضعون المائدة على الارض مباشرة او على مصطبة قليلة الارتفاع • اما في القصور ، فيبدو انه استخدمت المناضد المرتفعة وحولها الكراسي لقضاء الامسيات في تناول المشروبات او الاطعمة كما تشير الى ذلك مشاهد بعض المنحوتات الاشورية حيث كانت تقدم الاطعمة الى الالهة على المناضد • وربما استخدم سعف النخيل والقصب لصناعة الكراسي والمناضد والاسرة •

الى جانب الاثاث الخشبية ، كان البيت يضم ادوات كثيرة مصنوعة من الفخار التي شاع استخدامها في جميع الفترات الزمنية التي مرت على العراق منذ الالف الخامس قبل الميلاد فصاعدا وكانت ذات طرز فنية واشكال جميلة ومتنوعة وعليها نقوش وزخارف والوان غاية في الجمال • وقد تم الكشف عن كميات كبيرة من الاواني والكسر الفخارية في مدن العراق المختلفة وغدت طرزها الغنية واشكالها وطريقة صناعتها من العلامات الرئيسة التي توجه المنقبين لمعرفة تاريخ الطبقات الاثرية المكتشفة ، وكان المطبخ يضم عادة موقدا للطبخ وتنورا لخبز الخبز وكلاهما مصنوع من الطين • وكانت سيدة البيت ، وهي الزوجة الاولى ، تشرف على عملية طبخ واعداد الطعام يعاونها في ذلك بقية الاناث من افراد الاسرة والاماء • وقد كشف عن انواع مختلفة من الادوات المنزلية الخاصة باعداد الطعام ، ومعظمها من الفخار ، وبعضها من النحاس او الحجر ، ومنها الجرار على اختلاف احجامها واشكالها والأبا ق والصحون والاقداح والكؤوس والحباب والطاوات والمدقات والهاونات والمطاحن والمجارش والكاسات والطسوت والقدور وغيرها •

وكانت الطريقة الشائعة في الاكل بواسطة اصابع اليد ، ومع ذلك عثر على ما يشبه الشوكات مصنوعة من العظم وذات اصبع واحد ، كما كشف

عن سكاكين من النحاس او العظم وعلى ملاعق من الفخار او القار او العظم ومغارف من الطين وربما استخدم الخشب لصناعة الملاعق والمغارف •

المأكولات والمشروبات :

تختلف انواع المأكولات والمشروبات المستخدمة بالنسبة لمستوى العائلة المعاشي ، كما تختلف باختلاف المناطق والفترات الزمنية • وبصورة عامة يمكن القول اننا اذا استثنينا بعض المواد الغذائية التي دخلت العراق في فترات زمنية متأخرة ، كالرز والحمضيات والطماطة والبطاطا ، فان معظم المواد الغذائية الاساسية الموجودة حاليا في العراق كانت متوافرة في العصور القديمة ، وفي مقدمتها الحبوب على انواعها والبقوليات والخضراوات والفواكه والتمور واللحوم والاسماك ، ولم يدخل الدجاج العراق الا في الالف الاول قبل الميلاد • ويبدو ان اساس الوجبة الغذائية كان الخبز الفطير وبعض الخضراوات والزيوت ومشتقات الحليب • وقد ورد العديد من اسماء المأكولات في النصوص المسمارية ، كان من بينها الكبّة • وصورت بعض هذه المأكولات على المنحوتات • وكان اكل اللحوم محدودا بصورة عامة ويزداد في ايام الاعياد والمناسبات والاحتفالات • وكانت بعض اللحوم تملح وتجفف ليمكن حفظها الى فترات طويلة • ومن المشروبات الروحية ، كانت الجعّة منتشرة الى درجة ان قانون حمورابي اشار الى اسلوب بيعها وكانت تصنع من الشعير ، كما استخدم نبيذ التمر والعنب • وتشير بعض الوصفات الطبية الى ان الافراط في شرب الخمور كان معروفا ومن الظواهر المكروهة ، كما استخدمت الجعة في كثير من الوصفات الطبية المركبة من عقاقير مختلفة • وتمثل التمور مكانا بارزا في الغذاء اليومي وقد غالى بعض الكتبة في بيان اهمية النخلة حيث قال بان لها ٣٦٥ فائدة ، وربما قصد بذلك انها كانت مفيدة طوال ايام السنة •

الازياء : ـ

تشير المنحوتات والمسلات الى اختلاف ازياء النساء والرجال وفئات الناس المختلفة عبر العصور التي مرت على العراق ٠ فيشير بعضها الى ان الرداء الذي كان شائعا في الفترات السومرية كان اشبه بالتنورة وقد استخدم هذا النوع من الرداء حتى من قبل الجند مع رداء آخر فضفاض طويل يتدلى على الكتفين ويثبت بكلاب باسلوب تثبيت المعطف الصوفي ٠ كما مثل جوديا ، حاكم لجش ، مرتديا نوعا من اللباس السائب من الشال الطويل يصل الى الكعبين ويتدلى على الكتف الايسر تاركا الكتف الاخر عاريا ، وهي الطريقة التي شاعت في الفترات السومرية ٠ وفي الالف الثاني قبل الميلاد ، كان الرداء النموذجي يتألف من رداء داخلي من القماش الطويل غالبا ما يربط بحزام عند الخصر ٠ وقد ادخلت الملابس المخيطة في هذه الفترة ٠ وفي الالف الاول قبل الميلاد ، كان الرداء النموذجي هو القباء او عدة قباءات منثية اكثر مما هي متدلية ٠ وتختلف ازياء النساء عن الرجال كما تختلف بالنسبة لطبيعة عمل او صنف الشخص حيث كانت هناك ازياء خاصة بالكهنة والجند والعمال والفلاحين وغيرهم وكان جميعهم ينتعلون الصنادل ومعظمهم يلبس للرأس ٠

اما تسريح الشعر ، ففي بداية الالف الثالث قبل الميلاد ، كان لكلا الجنسين شعو طويل يتدلى بحزمة خلف الرقبة ، ولعله كان يربط بشكل من الاشكال ليبدو وكأنه يغطي الاذان ٠ وفي عصور فجر السلالات كانت التسريحة الرئيسة هي الشعو الطويل المدفوع الى الوراء من الوجه والمعمول على شكل جديلة ملفوفة حول الرأس على شكل العمامة ٠ وقد استخدمت احيانا الاطر لتساعد على رفع الشعر الى اعلى ٠ ومن التسريحات الاخرى جعل الشعر بجديلة او جديلتين او اكثر متدلية على الظهر ٠ وفي العصر الاكدي ، كان الشعر يجعّد بطريقة اصطناعية ، حيث كان هذا الطراز هو

الشائع في التماثيل والمنحوتات وكان يقسم عند الوسط وتترك حافة منه في الامام وعلى الصدغ . وكانت النساء يجعلن شعرهن على هيئة كعكة الى الوراء تمتد من مؤخرة الرقبة وحتى اعلى الرأس وقد تستخدم الشبكة المثبتة برباط الشعر .

واستخدمت النساء الى جانب الشباك والاربطة ، الدبابيس المختلفة والجميلة المصنوعة من مواد مختلفة . وفي الفترات السومرية ، يبدو ان الرجال كانوا يحلقون شعر رأسهم تماما او ان يكون لهم شعر رأس وذقن مجعّد بدقة في حين يظهر الملوك البابليون والاشوريون بلحى مموّجة كثيفة وغالبا بشعر مموج كثيف وطويل يتدلى بانسياب على الكتفين . وكان للرقيق اسلوب خاص في قص الشعر كما كان للكهنة والاطباء اسلوبهم الخاص في قص الشعر ايضا .

لغة التخاطب ووسيلة التدوين : ـ

مرت على المدن العراقية القديمة في عصورها المتتابعة اقوام واجناس مختلفة وتعرضت لغزو اقوام اجنبية عدة اختلفت لغاتهم ، ومع ذلك ، ظلت اللغة السائدة بينهم هي اللغات المحلية الاصلية السومرية او الاكدية . فاللغة السومرية ، وهي لغة منفردة لا تشبهها اي من اللغات المعروفة الاخرى ، شاع استخدامها في الالفين الرابع والثالث قبل الميلاد ودونت بها معظم النصوص المسمارية خلال هذه الفترة وابتكرت الكتابة المسمارية اصلا لتدوينها . وكان هناك اكثر من لهجة سومرية واحدة منها لهجة المخاطبة ، وهي اللهجة الاعتيادية الرئيسة ، واللهجة العالية والمنتخبة كما وردت تسميات لهجات اخرى خاصة بالسّفانة واخرى لرعاة الغنم وثالثة للكهنة . وكان هناك لهجة سميت بلهجة النساء أألق عليها باللغة الاكدية مصطلح لغة العراق ، ومنذ اواسط الالف الثالث قبل الميلاد ، دخلت اللغة السومرية في صراع لغوي مع اللغة الاكدية ، لغة الاقوام الجزرية (العربية القديمة) التي وفدت منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد على اقل تقدير ، وغدت لغتها لغة البلاد

الرسمية بعد ان قامت الدولة الاكدية في حدود ٢٣٧١ ق٠م ٠ ومع شيوع استخدام اللغة الاكدية ، الا ان اللغة السومرية ظلت مستخدمة حتى نهاية الالف الثالث قبل الميلاد عندما بدأ استخدمها ينحسر تدريجيا والّفت المعاجم اللغوية الاكدية ـ السومرية وغدت اللغة السومرية مقصورة على النصوص الدينية والعلمية البحتة وبعض النصوص التذكارية في حين انتشر استخدام اللغة الاكدية وتفرعت الى عدة لهجات في الفترات الزمنية المختلفة ، فكان هناك اللهجات البابلية المختلفة واللهجات الاشورية المختلفة اضافة الى اللهجات المحلية الخاصة الاخرى التي لم تجد طريقها للتدوين لكي نتعرف عليها ٠

ومنذ اواخر الالف الرابع قبل الميلاد ، بدأ العراقيون القدماء باول محاولات تدوين اللغة واستخدمت من اجل ذلك العلامات الصورية للاشياء المادية ثم ما لبثت ان تطورت من حيث الشكل واسلوب الاستخدام حتى غدت اسلوبا كتابيا غاية في التعقيد عرف باسم الكتابة المسمارية ٠ وقد استخدمت الكتابة المسمارية لتدوين اللغة السومرية واللغة الاكدية ايضا بعد ان اجري عليها بعض التحوير ٠ وكان تعلم اسلوب الكتابة من الامور الصعبة التي تحتاج الى وقت طويل للتعلم وقد تم الكشف عن مئات من النصوص التعليمية التي عرفت بالمدرسية تعكس لنا اساليب التعليم والتدريب على اتقان فن الكتابة والقراءة ٠ وتعطينا بعض النصوص المسمارية صورة عن الحياة المدرسية التي كان يعيشها المتعلم ٠ ويبدو ان طلب العلم كان يكلف ذوي المتعلم الكثير لذلك اقتصر التعليم غالبا على اولاد الميسورين من العوائل والمتنفذين ، وربما شمل التعليم الاناث ايضا ، ولكن على نطاق ضيق ، حيث ذكرت اسماء بعض الكاتبات الى جانب الكتّاب ٠

وكان التعليم يتم ومنذ فترات مبكرة من التاريخ في مدارس خاصة وان كنا لم نكتشف ابنية المدارس بعد وربما كان التعليم يتم في بعض اجنحة

المعابد او القصور او في بيوت خاصة • وكانت المدرسة تسمى (بيت الالواح) ويديرها مدير ويعينه في ادارتها وكيل المدير (ابو بيت الالواح) والمعلمون على اختلاف اختصاصاتهم • اما الطالب فكان يسمى (ابن بيت الالواح) ، وكان المتخرج من المدرسة يتفاخر بكونه قد تعلم فن القراءة والكتابة •

الحياة الدينية :ـ

يمكن القول ان معظم النصوص المسمارية المكتشفة ، حتى تلك التي لاتبدو ذات علاقة بالحياة الدينيية ،يمكن ان تلقى بعض الضوء على جانب من جوانب الحياة الدينية مما يشير الى مدى تغلغل الدين في نفوس العراقيين القدماء ومدى تأثيره في حياتهم الى درجة ظنوا ان كل ما قـد يحـدث للانسان من خير او شر ما هو الا نتيجة حتمية لرضاء او غضب الالهـة على ذلك الانسان • ومع وفرة النصوص المسمارية ذات العلاقة الا انها لا تمثل الا وجهة نظر الكهنة والقائمين بالطقوس والاحتفالات الدينية وقلما نجـد نصا يتحدث عن الممارسات الدينية التي كان الفرد الاعتيادي يقوم بهـا بل علينا ان نستنتج ذلك من النصوص الاخرى •

وكما هو معروف ، بان الديانة العراقية القديمة هي مزيج من المعتقدات السومرية والجزرية التي انصهرت في بودقة الحضارة العراقية القديمـة ، لذلك اتصفت بسمة الاستمرارية التاريخية ، أي ان المعتقـدات والطقوس والالهة العراقية ظلت محافظة على جوهرها العام على مر العصور التاريخية ولم تتغير الا في التفاصيل • كما تميزت المعتقدات القديمة بتعـدد الالهـة وبصفة التشبيه ، أي تشبيه الالهة بالبشر • اما الصفة الاخرى الاكثر اهمية بالنسبة لحياة الفرد الاعتيادي ، فهي صفة الحيوية ، أي ان الديانة قامـت على المبدأ القائل بوجود قوى خفية وحيّة في مختلف الظواهـر الطبيعية والكونية مثل الشمس والقمـر والكواكب والمطـر والرعد والسـماء والارض ••• الخ وبمرور الوقت جسدت هذه القوى وغدت الهة تعبد •

وكان المعبد الذي احتل مكانا بارزا في وسط المدينة ، المكان الذي تتم فيه الطقوس والاحتفالات الدينية بمعاونة الكهنــة . وكــان المعبد ، على مــر العصور ، يتكون من جزءين رئيسين الاول هو المعبد العلوي ، أي الزقورة والمعبد الذي كان يشيد فوقها ، وثانيهما المعبد الارضي . وغدت الزقورة من السمات العماريــة البارزة في العراق القــديم ، وهي صــرح مــدرج يتألف من ٣ الى طبقات مربعة او مستطيلة يرقى اليها بواســطة ســـلالم خارجية . اما المعبد الارضي ، فقد كان تخطيطه العام يتألف مــن مدخــل يؤدي الى ساحة واسعة لتجمع الناس واقامة الاحتفالات والمهرجانات الدينية وتنتهي الساحة بحجرة تؤدي بدورها الى حجرة اخرى تعرف بالهيكل التي كانت تعد من اقدس اجزاء المعبد حيث كان فيها محراب الاله وتمثاله . وفي غرفــة الهيكل توجــد ايضا دكة المذبــح التي كانت تقــدم عليها القرابــين والاضاحي . وتكون ابواب حجرات المعبد عادة باتجــاه واحــد بحيث ان الواقف في حجرة المدخل كان يستطيع ان يرى تمثال الالــه في محرابــه . اضافة الى ذلك ، حوى المعبد على اجنحة وغرف ومرافق اخــرى تحــف بالساحة او ملحقة ببناء المعبد خصصت للخزن والسكن والدرس وغيرها .

وكان المعبد يضم اصنافا مختلفة من الكهنة والكاهنات ، لها تقاليدهــا وأزياؤها وحياتها الخاصة . وكانت مهمة الكهنة الاساسية القيام بالطقوس والشعائر الدينية والاشراف على شؤون العبادات ومعاونــة المتعبديــن في أدائهم الطقوس الدينية اضافة الى مهام بعضهم الخاصة بادارة شؤون المعبد الاخرى الاقتصادية وغيرها . وكان من اصناف الكهنة ، بعد الكاهن الاعظم والكاهنة (سنكو) او نحر الذبائح (ناشي بطري) ومن هو متخصص بقراءة الطالع (بارو) وتفسير الاحــلام والتعزيم وهنــاك قارىء الرقى والتعاويذ والعازفون والمرتلون والقائمون على تطهير المعبــد ورش الدهــان والزيت والبخــور و ... الخ .

وكانت ساحة المعبد مفتوحة في الايام الاعتيادية لجميع الناس ، وغالبا ما كانت تغصّ بالناس من الكهنة والتجار والباعة والكتبة والمتعبدين ومن له دعوى او شكوى وغيرهم ، فقد كان المعبد ، وخاصة في العصور السومرية الاولى ، بؤرة النشاط الاقتصادي والثقافي والديني في المدينة . وكانت الطقوس والشعائر الدينية تجري يوميا في المعبد تصاحبها التراتيل والاناشيد والموسيقى الدينية ، وقد كشف عن الكثير من الالات الموسيقية التي كانت تستخدم لهذا الغرض ويأتي في مقدمتها قيثارة اور الشهيرة . وكانت القرابين والنذور تقدم على دكة المذبح وفق طقوس خاصة ومن ثم تطهى لحومها وتقدم مع الخبز والعسل والنبيذ والفاكهة الى الالهة على مائدة خاصة ، حيث ظن العراقيون القدماء بان الهتهم كانت تشبه البشر من حيث صفاتها وحواسها وحياتها . وخلال تقديم وجبات الغذاء الى الالهة ، كانت روائح العطور والبخور تتصاعد من المسارج والمشاعل الموزعة في ارجاء المعبد . وكان الكهنة منشغلين باجابة الناس عن اسئلتهم واستفساراتهم وتفسير احلامهم او قراءة طالع بعضهم او طرد الارواح الشريرة من جسم مريض او اعطائه الوصفة الطبية اللازمة اضافة الى انشغال بعضهم الاخر بالشؤون الدنيوية من بيع وشراء وقرض الى غير ذلك من النشاطات التي كان المعبد وكهنته يقومون بها . وشاركت الكاهنات في جميع اعمال الكهنة بما في ذلك النشاطات الاقتصادية والثقافية .

وكان المعبد مكانا لعقد بعض المحاكمات واداء القسم وابرام بعض العقود كما كان المكان الذي تقام فيه الاحتفالات العامة في ايام الاعياد الدينية وخاصة اعياد رأس السنة التي كانت تجري في بداية كل عام وتستغرق احد عشر يوما مملوءة بالنشاطات الدينية والاحتفالات والمهرجانات التي يرتاح فيها الناس من تعب ومشاكل السنة المنصرمة ويستقبلون عامهم الجديد ، الذي كانت بدايته مع بداية ايام الربيع في شهر نيسان من كل عام . وكانت

احتفالات رأس السنة الجديدة تجري عادة في معبد خاص يسمى ـ بيت ـ اكيتو يشيد عادة خار جاسوار المدينة وينقل الناس اليه مع تماثيل الهتهم وفق طقوس واحتفالات مهيبة وكانت مشاركة الملك في مثل هذه الاحتفالات من الامور الاساسية والضرورية وقد وردتنا تفاصيل الطقوس والاحتفالات التي كانت تجري خلال دلك ولاسيما في الايام الستة الاخيرة من ايام الاحتفالات •

وكان الانسان الاعتيادي يعتقد بانه محاط بقوى مهيمنة على حياته منها الالهة والعفاريت الخيرة ومنها الشريرة لذلك كان يسعى دائما للتقرب الى الالهة وكسب مرضاتها لكي تحميه من الشرو رفكان يقدم لها القرابين والصلوات ويضع التمائم والرقى ويتوسل اليها بكل وسيلة ممكنة • والى جانب عبادة الالهة القومية والرئيسة في المدينة ، كان لكل شخص اله حام يشفع له ، كما ظنوا ، امام الالهة الاخرى ، وكانت عبادته تتم عادة في البيت حيث كان يوضع تمثالهفي احد اركان البيت • وتوضح بعض المنحوتات ان المتعبد كان يقف امام تمثال الاله في وضعية الصلاة بخشوع وقد رفع يده امام وجهه بحيث تكون قريبة من الم ولعل ابرز مثال على ذلك وقفة حمورابي الخاشعة امام الاله الشمس في اعلى مسلته المشهورة التي ضمت قوانينه ، كما ان هناك العديد من المنحوتات الاشورية التي توضح ذلك •

وكان الاعتقاد السائد عند العراقيين ان اتباع الاساليب والطقوس الدينية المطلوبة في اعداد الجنازة ودفنها بالاسلوب الصحيح من الامور الضرورية لراحة الموتى في عالمهم السفلي ، وان عدم الاهتمام بذلك قد يؤدي بالمبيت لان يخرج روحه على هيئة شبح مخيف يؤذي اهله والمقربين اليه ، وهكذا حرص الناس وهم على قيد الحياة على ضمان اقامة الطقوس الدينية اللازمة اثناء وبعد الدفن واحيانا تبنوا اولادا للقيام بهذه المهمة ان لم يكن لهم اولاد •

الخدمات العامة

ان من الصعب حقا عقد مقارنة متوازنة بين الخدمات العامة التي كانت متوافرة في المدينة العراقية القديمة وبين ما هو متوافر فيها حاليا لا من حيث تنوع وشمول تلك الخدمات ولا من حيث كفاءتها ومدى تقدمها وتطورها .

ومع ذلك ، تشير المعلومات المتيسرة ، على الرغم من قلتها وندرتها احيانا ، الى وجود بعض الخدمات العامة في المدن وفرتها حكومات المدن او اداراتها في الازمنة القديمة تعد على درجة كبيرة من التقدم حتى بالنسبة الى مقاييسنا الحديثة في تقييم المجتمعات، ويمكن تلمس ذلكمن خلالدراسة وتحليل بعض النصوص القانونية التي ترقى بتاريخها الى اربعة الاف سنة خلت تقريبا .

ويظهر ان اهم الخدمات التي كانت تقدمها ادارات المدن القديمة ، وخاصة في القسم الوسطي والجنوبي من العراق ، هي الخاصة بالري وتجهيز المياه واقامة المشاريع العامة لدرء اخطار الفيضانات والاستفادة منها وقت الجفاف . بل يمكن القول ان من اهم العوامل التي ساعدت على نشأة المدن وتطورها هي حاجة الناس الملحة الى مشاريع الري التي لم يكن بمقدور الافراد والتجمعات السكانية الصغيرة القيام بها فكان لابد من تجميع الجهود وتكثيفها وتعاونها وفق اسس منظمة ، فكان ان نشأت اولى الادارات المركزية التي غدت فيما بعد ادارات مدن مهمة ومراكز حضارية ، وكانت معظم تلك المدن ، ان لم يكن جميعها ، واقع على ضفاف الانهار والقنوات والجداول الرئيسة ، وكان ازدهارها او اضمحلالها يرتبط ارتباطا وثيقا بكفاءة مشاريع الري واستمرار ادامتها . وهكذا اصبح من اولى واجبات الحكام والملوك توفير المياه للمدن والقيام بمشاريع الري ، وهذا ما تفاخر به الملوك ، ومنهم حمورابي ، الذي يقول عن نفسه : « السيد الذي جعل الوركاء تعيش ، الذي ثبت المياه الوفيرة لشعبها ... الذي وضع اماكن الرعي واماكن المياه ... » .

وتشير الرسائل الملكية المرسلة الى حكام المدن والمقاطعات الى مدى اهتمام الملوك بتطهير القنوات وتنظيفها ، ففي احدى هذه الرسائل يوجه الملك حمورابي احد حكامه قائلا : « ادع اصحاب الحقول على شواطىء القناة لتطهيرها خلال شهر » في حين اعتذر حاكم اخر عن المثول بين يدي الملك لانشغاله باعمال خاصة بالري تستوجب بقاءه في المدينة ، ويبدو ان ذلك عدّ عذرا مشروعا : ويستدعي حاكم آخر سكان المنطقة باجمعهم لاصلاح قنوات الري • كما يلاحظ ان الملوك والحكام أرخوا احيانا سنوات حكمهم باعمال ذات علاقة بالري مما يشير الى الاهمية التي احتلتها مشاريع الري لدى العراقيين القدماء •

وطبيعي انه لم يكن بمقدور ادارة المدينة ، سواء أمستقلة كانت أم تابعة لحكومة مركزية اخرى ، ان تقوم بتنفيذ مشاريع الري وادامتها من خلال الموظفين العاملين في الادارة لديها فقط بل كان لابد من تجنيد سكان المنطقة المستفيدة وتسخيرهم للعمل فيها لمدة محدودة ، وهذا ما تشير اليه كثير من الرسائل ومنها ما ذكر انفا • وهكذا انشأ نظام جديد خاص بتسخير الناس للعمل في المشاريع العامة واصبح من واجب كل مواطن العمل في هذه المشاريع لفترة محددة من السنة وكان لابد من وضع ضوابط وقواعد عامة لاسلوب تجنيد السكا نوتسخيرهم والا اصبح التجنيد كيفيا تتحكم فيه الاهواء ، كما كان لابد من وجود قواعد اخرى لاسلوب الاستفادة من مياه الارواء من قبل الفلاحين واصحاب الحقول والبساتين لضمان عملية الارواء وعدم الاضرار بحقول وبساتين الغير نتيجة التقصير او الاهمال في تقوية السداد او سد الفتحات • وكانت تلك القواعد في بداية امرها اعراف وتقاليد ثم اصبحت قوانين ملزمة صادرة عن الدولة ، يعاقب من لا يقوم بتطبيقها بصورة جيدة ، وهكذا نص حمورابي في المادة ٥٣ من

قانونه على انه : « اذا تقاعس رجل في تقوية سد حقله ولم يقوَّ سده وحدثت كسرة في سده فترك الماء يخرب الارض المزروعة ، فعلى الشخص الذي حدثت الكسرة في سده ان يعوض الحبوب التي سبب تلفها » • وتستمر المادة ٥٤ في بيان كيفية تعويض الضرر فتقول : « فان كان غير قادر على تعويض الحبوب ، فعليهم ان يبيعوه وممتلكاته وعلى المستأجرين (الفلاحين) الذين اتلف الماء حبوبهم ان يقتسموا (الثمن) » وهي عقوبة ظيفة جدا تعكس لنا مدى اهتمام الدولة بالمحافظة على حقوق الناس وعدم السماح لاي كان الاضرار بها • وتشير المادتان ٥٥ و ٥٦ الى الموضوع نفسه ولكن في حالة تقاعس الفلاح في فتح جدوله اثناء السقي مما اضر بالحقل المجاور ، عندها يعوض جاره حبوبا بقدر ما تسبب في اضراره ، فان كان التخريب قد وقع قبل نمو النبات ، فعليه ان يعوضه استنادا الى مساحة الارض المعدة للزراعة •

ولمراقبة حسن تنفيذ وتطبيق ما ورد في القوانين وما تعارف عليه الناس من قواعد واعراف غير مدونة ، كان لابد من وجود مفتشين ومراقبين حكوميين دائميين ، عندهم من السلطة ما يكفي لتطبيق القواعد القانونية قسرا عند الحاجة • وهكذا نشأ نظام شبيه بنظام الشرطة ولكنه على هيئة مفتشين ومراقبين للقنوات عرف الواحد منهم باسم گوكالو

وفي بلاد اشور ، حيث من الصعب ارواء الحقول والبساتين بمياه النهر عن طريق شق الجداول والترع نظرا لانخفاض مناسيب المياه في النهر عن مستوى الاراضي المجاورة ، لذا كانت طريقة الزراعة الشائعة هي الزراعة الديمية ، اضطر بعض الملوك الاشوريين الى جلب المياه الى المدن من اماكن بعيدة لكي يمكن ارواء الحقول والبساتين الخاصة بالمدن المهمة كمدينة نينوى ومدينة اربيل ومدينة تربيصو ، لذا قام سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ ق•م)

بجلب المياه من مسافة تبعد اكثر من خمسين ميلاالى مدينة نينوى واقام من اجل تنفيذ ذلك المسناة والسدود والقناطر التي تعد من اروع المنجزات التي قام بها سنحاريب ، ويتحدث سنحاريب عن ذلك نفسه فيقول : « لقد حفرت قناة : الى مروج نينوى واقمت جسرا من الصخر عبر الوادي العميق وتركت المياه تعبر فوقه » وقام سنحاريب بمشروع آخر جلب بواسطته المياه الى مدينة اربيل •

ومن الخدمات الاخرى المهمة التي وفرتها ادارات المدن القديمة للسكان هي المحافظة على الامن والاستقرار وحماية السكان من اي اعتداء خارجي او فوضى داخلية • وكان من اهم واجبات حاكم المدينة وجهازه الاداري ومسؤولياته امام الملك هو ضمان ذلك • ولتحقيق ذلك كان لكل حاكم مدينة ، وخاصة في العصور المتأخرة ، قوة عسكرية خاصة تابعة له على اهبة الاستعداد لمواجهة اي خطر يهدد المدينة من الخارج ، خاصة المدن الحدودية التي كانت معرضة دوما لغارات واعتداءات الاقوام والقبائل المجاورة • وهذا ما نجده واضحا في احدى الرسائل التي بعث بها حاكم احدى المقاطعات الى الملك الاشوري قائلا : « بالنسبة الى حاكم احدى المدن التابعة له ، والذي كان يلقب عادة بلقب راب ــ الان rāb ālān) اي (رئيس المدينة) : « ارسلت قواتا مع الراب ــ الان وجعلتهم يتقدمون بخط قتال ، وقد جرح ضابط الراب ــ الا نمع تسعة رجال بالسهام وقتل اثنان من العدو وجرح ثلاثة » • والاشارات الى صد الغارات على المدن الحدودية كثيرة وخاصة في العصر الاشوري الحديث •

اما بالنسبة الى حفظ الامن الداخلي ، فكان من واجبات قوات اخرى تابعة لحاكم المدينة وان معلوماتنا عنها قليلة نسبيا • ففي العهد البابلي القديم ، ورد في قانون حمورابي وفي النصوص المسمارية من هذه الفترة ذكر لبعض اصناف القوات المسلحة التي يمكن مقارنة واجباتها واعمالها

بواجبات واعمال ما يعرف بقوة الدرك ، اي انها كانت تجمع بين واجبات القوات العسكرية وقوات الشرطة ، واشير الى هذه القوات بمصطلح ريدوم redūm الذي يترجم عادة بالجندي . وتشير الرسائل والنصوص المعاصرة الى ان الريدوم لم يكن تابعا للقصر ، أي للحكومة ، فقط بل قد يكون تابعا للمعبد او لبعض الموظفين او لبعض القضاة مما يلقي الضوء على طبيعة الاعمال التي كان يقوم بها ، كما ورد في بعض النصوص ذكر لرئيس الريدوم (واكل ريدوتم) و (شابر ريدوتم) مما يدل على ان هذه القوات كانت منظمة فيما يشبه الصنف او النقابة . وقد حدد قانون حمورابي في عدد من مواده كيفية اعطاء هذا الصنف من الوقات الاراضي الملكية ومنحهم بعض الحقوق والامتيازات وحمايتهم من المتنفذين والاغنياء وكذلك تثبيت حقوقهم في حالات الاسر والوفاة اثناء الخدمة العسكرية وفي الوقت نفسه معاقبتهم بقسوة عند المخالفة . اما حالات الاضطرابات والفوضى الشديدة التي قد تعم المدينة ، فكانت تعالج بواسطة مجموعة خاصة من القوات العسكرية المتخصصة بمثل هذه الامور وقد اشير الى احداها بالنسبة الى مدينة اشور وهي قبيلة ايلتو .

والى جانب ذلك ، لابد وان كان هناك في كل مدينة جهاز أمني مسؤول عن حماية وحراسة المدينة وطرقها والمحافظة على أمن وسلامة سكانها وغيرهم من المتواجدين فيها ضد المجرمين وقطاع الطرق الذين قد يعبثوا بالنظام . وقد اشارت النصوص المسمارية الى حالات قبض فيها على المجرمين وحقق معهم وتم توقيفهم او ارسالهم الى العاصمة للمحاكمة ، وفي قانون حمورابي اشارات صريحة حول مسؤولية المدينة وحاكمها تقديم هذه الخدمات للمواطنين وضمان امنهم وسلامتهم وبعكسه تتحمل المدينة وحاكمها مسؤولية اي ضرر قد يقع على المواطنين من جراء اللصوصية التي تحدث بطبيعة الحال نتيجة لضعف الجهاز الامني في المدينة . فالمادة ٢٣ من قانون

حمورابي تنص على انه « اذا لم يقبض على السارق ، فعلى الرجل المسروق ان يعرض امام الاله عما فقده وعلى المدينة والحاكم الذي حصلت في ارضه ومنطقته السرقة ان يعوضه ما فقد منه » . وتستمر المادة ٢٤ لتقول : « فان كان نفس (قد فقدت اثناء السرقة) ، فعلى المدينة والحاكم ان يدفع مانا من الفضة لاهلها » . ان هذين النصين الواضحين لا يؤكدان مسؤولية المدينة وحاكمها في المحافظة على الامن وحماية المواطنين من المجرمين فحسب بل انهما يشيران الى مدى تفهم المشرع العراقي القديم لفكرة تغطية خطر السرقة التي قد يتعرض لها المواطنون ، اي لفكرة التأمين ضد السرقة ، وهي فكرة لم تظهر في المجتمعات الاوربية الا في القرون الوسطى في حين حددها حمورابي باسلوب يتطابق تماما مع الاسس والقواعد الخاصة بالتأمين ضد السرقة في العصور الحديثة فحدد الخطر الذي يمكن لحاكم المدينة تغطيته وبين مبلغ التعريض المتمثل بما يقابل المسروقات ، أي الضرر ، وحدد من له حق بطلب التعويض والجهة التي تقوم بالتعويض وهي الحاكم ، الذي يشرف على خزينة المدينة المكونة من الضرائب التي تمت جبايتها من المواطنين . ان هذا النوع من الخدمات الاجتماعية يضع مجتمع المدينة العراقية القديمة في مصاف ارقى المجتمعات الحديثة التي تتباهى حاليا بتطبيقها مبادىء حديثة تخفف من وطأة الاضرار التي قد تقع على المواطنين كأخطار السرقة وذلك بتطبيق مبدأ التأمين الذي طبقه حمورابي قبل اربعة الاف سنة تقريبا .

ولم يكتف المشرع العراقي القديم بهذا القدر من الحماية والضمان الذي وفره لجميع المواطنين دون استثناء بل انه خص بعض المواطنين بحماية اضافية نظرا لجهودهم الكبيرة وعطائهم الخاص في حماية الدولة نفسها فاشارت المادتان ٢٨ و ٢٩ من قانون حمورابي الى خطر الاسر الذي تتعرض اليه بعض اصناف القوات المسلحة ، وهم الرويدوم والبائيروم ، لذلك

نصت على اسلوب حماية وتعويض اسر هذين الصنفين في حالات الاسر ومسؤولية الدولة عن ذلك ، فالمادة ٢٨ تنص على انه « اذا ريدوم او بائيروم اسر في اثناء الخدمة العسكرية للملك وكان ابنه قادرا على القيام بالالتزامات الاقطاعية ، فعليهم ان يعطوه الحقل والبستان وعليه ان يمارس حقوق والده الاقطاعية » في حين تنص المادة ٢٩ على اعطاء والدة الابن القاصر ثلث الحقل والبستان لكي يتسنى لها القيام بتربيته • وليس هذا فقط ، بل كان على المدينة او الدولة من خلال معبد المدينة او قصر الحاكم ان تفتدي المواطن من هذين الصنفين من القوات المسلحة في حالة اسره وعتقه من قبل تاجر وذلك بان تدفع للتاجر ما يكفي لافتدائه ان لم يكن لديه مال منقول يكفي لذلك ولا يجوز بيع امواله غير المنقولة وهكذا نصت المادة ٣٢ من قانون حمورابي : « اذا اسر ريدوم او بائيروم في اثناء حملة الملك واعتقه تاجر واوصله الى بلدته ، فاذا كان يوجد في بيته كفاية للعتق فعليه ا ن يعتق نفسه اما اذا لا يوجد في بيته ما يكفي لعتقه ، فيعتق من بيت اله بلدته ، فاذا لا يوجد في بيت اله بلدته ما يكفي لعتقه ، فعلى القصر ان يعتقه ولا يجوز ان يعطي حقله وبستانه وبيته مقابل عتقه » • وتمثل هذه المادة دون شك ارقى ما يمكن ان تصله المجتمعات في حماية مواطنيها من المحاربين على وجه الخصوص ضد حالات الاسر وما ينتج عنه من ضياع •

ومن الخدمات الاخرى التي قدمتها المدن للمواطنين هي ضمان حسن تطبيق القوانين ومحاسبة المقصرين ومعاقبتهم وتعويض المتضررين • وكان ذلك يتم من خلال جهاز خاص بالمحاكم حيث يعمل القضاة لدى الدولة متمثلة بالقصر او المعبد ويقدمون خدماتهم للمواطنين دون استثناء • وعلى الرغم من ان معلوماتنا عن المحاكم والقضاة قليلة مقارنة مع ما هو متوافر من نصوص قانونية ، الا انها كافية لاعطاء صورة عامة عنها ولاسيما في العصر البابلي القديم • فقد كان لكل مواطن الحق في اقامة الدعوى ضد أي شخص كان قد ظلمه او غبن حقه حتى وان كان موظفا حكوميا ، ولكن في الوقت

نفسه كان عليه ان يثبت التهمة الموجهة الى خصمه والا عرض نفسه لعقوبة قاسية توازي العقوبة التي كان خصمه مهدد بها ، وقد جاء هـذا المبـدأ القانوني الرائع حماية للمواطنين من عبث العابثين ومحاولاتهم الاساءة الـى الخير او التشهير بهم او ابتزازهم •

وكان القضاة ، ومنهم من كان خاصا بالمعبد واخرين بالقصر او قضاة غير تابعين لمؤسسة معينة ، ينظرون في القضايا المحالة لهم من المحاكم او الملك او تلك التي يرفعها المواطنون ضد خصومهم ، وربما كانت المحاكمات تجري في احد اجنحة المعبد او القصر او في مكان مخصص لذلك مستقل حيث ورد في بعض النصوص الاشارة الى بيت القضاة • وكان على القضاة ان يدققوا في القضية المعروضة امامهم ويستمعوا الى شهادات الشهود بعد ان يؤدي كل واحد من الشهود اليمين القانونية امام تمثال الاله كمـا كـان عليهم ان يستمعوا الى افادة المتهم وشكوى المدعي واخيرا يصدر القـرار المناسـب استنادا الى ما كان معمولا به من قواعد قانونية ، وليس هناك اشارات الى ان القرارات كانت تشير الى المواد القانونية الواردة في قانون حمـورابي مثلا وان اشار احد النصوص الى المسلة بالنسبة الى تحـديد اجور بعض الاجراء • وكان قرار القضاة يحرر على لوح من الطين ويذكـر فيـه اسماء الشهود وربما اسم القاضي ويختم ويذيل بالتاريخ • اما اذا عاد القاضي وغير من حكمه الذي اصدره بسبب رشوة او تأثير متنفذ ، عندها يعاقب معاقبة قاسية حيث نصت المادتان الرابعة والخامسة من قانون حمورابي على طـرد القاضي من كرسي القضاة وتغريمه اثني عشر مثل الدعوى التـي غير فيهـا قراره • كما كانت عقوبة شاهد الزور قاسية جدا حيث كان يتحمل تبعـات شهادته فان لم يثبتها عوقب بمثل ما كان سيعاقب به المتهم ولو ثبتت ادانته •
وكان في معظم المدن العراقية القديمة ، وعلى وجـه الخصوص في العهـود

السومرية والبابلية ، مجلس من مسني المدينة كان يقوم احيانا بدور القضاة حيث كان ينظر بالقضايا التي تعرض عليه ويصدر قراره بشأنها .

ليس من المتوقع ان نجد في مدن العراق القديم من الخدمات الطبية الكثير التي تتوافر في مد نالعصر ، غير ان ذلك لا يعني انعدام الخدمات الطبية في المدينة العراقية القديسة بل تشير كثير من النصوص المسارية الى المدى الذي وصل اليه الطب في العصر البابلي القديم الى درجة ان خصصت عدة مواد من قانون حمورابي لتحديد اجور الطبيب وتحميله مسؤولية التقصير والاهمال في مهنته . وقد تم العثور على مئات من النصوص المسارية التي امدتنا بمعلومات وافية عن الممارسات الطبية غير ان ما يؤسف له ان لغة كثير من تلك النصوص لغة غامضة واحيانا غير مفهومة تماما وربما قصد الكاتب ان تكون كذلك لاضفاء نوع من القدسية والغموض على الممارسات الطبية بحيث لا يفهم النصوص الخاصة بها الا المختصون حتى ان بعض تلك النصوص يذكر العبارة « ليعلم الشخص المتعلم غير المتعلم والذي لايعرف لا يستطيع قراءتها والذي لا يحفظ السر عسى ان لا يبقى صحيح البدن وان تقصر ايامه » .

وقد ميز العراقيون القدماء ، بين نوعين من الطب والاطباء ، الطب السحري (اشيبوتو ashiputu) بمعنى السحر والتعويذ ، والطب العلمي (اسوتو asûtu) أي الطب والتطبيب . وينسحب هذا التميز على القائمين بتقديم الخدمات الطبية فسمي الاول اشيبو والثاني اسو فاما الاول ، فكان يدل على الساحر المعوّذ الذي كان ينتمي عادة الى طبقة الكهنة وكانت وظيفته الرئيسة طرد الارواح الشريرة والعفاريت ، التي تدخل جسم الانسان فتسبب له المرض ، وذلك من خلال اجراء بعض الطقوس السحرية ومن ثم يعرف المرض ويشخص ويعطى له الدواء . اما القائم بالطب العلمي ، اسو ، فيعني اسمه ، كما يظن ، (العارف بالماء) او (العارف بالزيت) ومع

ذلك ، لم يكن هنا لفصل كامل بين هذين النوعين من الطب فغالبا ما كـان الطب العلمي يغلف بقطوس سحرية لمعالجة المريض نفسيا واعطاء الـدواء اللازم لمعالجته عضويا •

ويبدو ان تعليم الطب كان يتم من خلال التدريب والممارسـة الطويلة مع الاطباء المتمرسين وربما كانت هناك مدارس خاصة تابعة للمعابد لتعليـم مبادىء التطبيب حيث ذكرت اسماء بعض المدارس الطبيـة كمدرسة نيبور ومدرسة ايسن ومدرسة بورسبا • وقد تفاخر احد الاطباء الاشوريين بانـه كان طبيبا كبيرا ماهرا من مدرسة ايسن في حين يشير نص آخر الى التطبيب وحسب طريقة بورسبا ، واخر يذكر ان على المريض ان يذهب الى مدينـة بورسبا للمعالجة • وتشير احدى الرسائل المكتشفة في مدينـة ماري على نهر الفرات بان الاطباء كانوا ينتظمون فيما يشبه النقابة المهنية طبقا لدرجاتهم ومراتبهم حيث نجد منهم من يحمل لقب رئيس الاطباء وورد لقب مسـاعد رئيس الاطباء وكان هناك عدد من الاطباء يعملون في البلاط الملكي في حين عمل اخرون خارج القصر والمعبد • وورد ذكر بعض الاطبـاء المتخصصين بالعيون والجراحين والمختص بالاسنان والطبيب البيطري • ولابد انه كان هناك قابـلات للتوليـد •

ويفهم من بعض الرسائل التي تتحدث عن ارسال الاطباء لمعالجة مرضى معينين انه كان على الطبيب معاودة مرضاه في بيوتهم ان كانوا من الاسـرة الحاكمة او الطبقة المتنفذة ، كما كان عليه ان يقدم تقريرا عـن حالة المريض الصحية • اما المرضى الاعتياديون ، فلابد أنهم كانو يراجعـون الطبيب في بيته او مكان عمله ، ان كان لديه مكان عمل مستقل ، ويطلبون اليه المعالجة لقاء اجور مرتفعة احيانا غير انها كانت تتناسب وخطورة المرض اولا ومركز المريض الاجتماعي والاقتصادي ثانيا ، وهذا ما اشارت اليه صراحة قوانين حمورابي • اما في حالات فشل الطبيب ، ولاسيما الجراح ، في مهمته وتسببه في

موت المريض او اتلاف عضو من اعضائه نتيجة الاهمال والتقصير ، عندها يحاسب حسابا عسيرا •

وكان الطبيب يرتدي زيا خاصا ويحلق رأسه باسلوب خاص تمييزا له عن غيره وكان يحمل حقيبة مملوءة بالالات الخاصة بالجراحة والضمادات مع بعض الاعشاب والعقاقير الاخرى وقناني لابد انها تملأ بالزيت او الجعة كما يفهم ذلك من مشهد خاص بطبيب نحت على ختم اسطواني ، كما ان احد الاطباء الاشوريين تفاخر قائلا « انا طبيب اعرف كيف اداوي واحمل معي جميع الاعشاب (اي الادوية) ، انا مجهز بحقيبة مملوءة بالتعاويذ واحمل جرة •• وامنح العافية » مما يشير الى ان الاطباء كانوا يستخدمون بعض الرقى والتعاويذ الى جانب الادوية لمعالجة مرضاهم •

وكان الاطباء يتمتعون بمركز اجتماعي مرموق ، وربما كانوا في مقدمة الفئات الاجتماعية ، ونال بعضهم شهرة واسعة حتى انهم كانوا يستقبلون مرضاهم من مدن اخرى او يرسلون الى بلدان اخرى لمعالجة بعض الملوك والحكام • ومع كل هذه المعلومات الا ان معلوماتنا عن دور العلاج قليلة حيث لم نرد اشارات واضحة عن بنايات المستشفيات وان ذكر في احد النصوص مكان خاص لمعالجة المغنين والمغنيا التابعين للمعبد •

وتشير التنقيبات الاثرية التي اجريت في مدن العراق القديمة المختلفة وخاصة الكبيرة منها مثل بابل واشور ونينوى ، ان سكان تلك المدن عاشوا فيظل خدمات بلدية تضاهي احيانا الخدمات التي تقدمها بلديات المدن الشرقية في الوقت الحاضر • فقد كان يقسم المدينة عدد من الشوارع الرئيسة والواسعة التي كانت تؤدي غالبا الى مركز المدينة وتنتهي من الجهه الثانية باحدى بوابات المدينة ، وكان كثير من هذه الشوارع مبلطا بالآجر واحيانا بقطع من حجر الرخام او الصخر • وطبيعي ان مثل هذه الشوارع التي نجدها في المدن العواصم ، كانت معدة للاحتفالات الدينية والرسمية

ولاستقبال القطعات العسكرية واقامة المهرجانات ، وكانت مثل هذه الشوارع تسمى باسماء خاصة غالبا ما تحمل اسم البوابة التي تؤدي اليها . الى جانب ذلك ، هناك شوارع ضيقة تقسم الاحياء السكنية والمباني العامة الاخرى وناخذ التشكل الذي تمليه الابنية لذلك كانت تتسع وتضيق حسب الابنية المشيدة على جانبيها وتشكل عموما شبكة غير منتظمة . اضافة الى ذلك ، هناك الازقة الضيقة التي لا تعدو كونها فواصل ضيقة تفصل بين البيوت السكنية . ولابد وان كان هناك ساحات واسعة في المدينة لتجمع السكان في ايام العطل والاحتفالات او لاتخاذها اسواقا مفتوحة .

وقد يقطع المدينة نهر ، كمدينة بابل او كوثا ، عندها تظهر الحاجة الى وجود جسر يصل بين جزئي المدينة ، وهذا ما نجده في اثار مدينة بابل حيث اقيم جسر مؤلف من خمس قناطر على نهر الفرات ليصل بين جزئي المدينة .

ويحدثنا سنحاريب بانه اقام في مدينته نينوى حديقة واسعة جمع فيها مختلف انواع النباتات وجلب اليها نباتات من جميع الاقاليم والبلدان التي وصلت اليها جيوشه بما في ذلك اشجار الصوف (أي القطن) . كما اشار ملوك اخرون الى الحدائق الغناء التي اقاموها في عواصمهم ولعله تكفي الاشارة هنا فقط الى الجنائن المعلقة التي عدت من عجائب الدنيا السبع لنتعرف مدى اهتمام ملوك العراق القدامى بالحدائق والبساتين وجلب المياه لسقيها . كما اشار بعض الملوك ، ومنهم سنحاريب ، الى اهتمامهم بالحيوانات وكيف انهم جمعوا مختلف انواع الحيوانات ووضعوها في حديقة حيوان خاصة .

ومن الخدمات الرئيسة التي وفرتها المدن الى السكان هي تجهيزها بالمياه العذبة للشرب . ولم يكن تجهيز المياه في مدن جنوب العراق ليخلق مشكلة رئيسة طالما كانت المدن على شواطىء الانهار وان تجهزها بالمياه

العذبة بواسطة القنوات والجداول كان من الامور السهلة • غير ان المشكلة تظهر في مدن شمال العراق والمدن الواقعة بعيدا عن مجرى المياه مما اضطر الملوك الى جلب المياه الى المدينة من اماكن بعيدة كما فعل سنحاريب عندما جلب المياه من جروانة على بعد خمسين ميلاد الى نينوى بواسطة قنوات وقناطر اقام بعضها على الوديان العميقة واقام السداد على نهر الخوصر لرفع مناسيب المياه ومن ثم تمكن من ايصاله الى مدينة نينوى وما جاورها • وفعل الشيء نفسه بالنسبة الى مدينة اربيل • وفي حالة الحصار او الجفاف ، كان الناس يعتمدون على مياه الابار والعيون وكان في كل مدينة كبيرة عدد من الابار يصل عمق بعضها اكثر من ثلاثين مترا وقد اظهرت التنقيبات في مدينة النمرود عددا من هذه الابار وكان احدها لا يزال ينتج ما قدره خمسة الاف غالون من الماء يوميا وقد عثر في البئر نفسه على بكرة خشبية مازالت عليها اثار احتكاك الحبال واضحة بينما كان هناك عدة عشرات من الاواني لايزال على رقبة بعضها قطع من الحبال التي استخدمت لتؤلف سلسلة من الاواني تعمل بدولاب لسحب المياه م ن البئر • وقد ذكر سنحاريب بعض اساليب سحب المياه من الابار عند حديثه عن اعادة بناء نينوى قائلا :

« ولاجل سحب الماء يوميا ، امرت بعمل الحبال والاسلاك البرونزية ، والسلاسل البرونزية وثبّت الاعمدة والقضبان العرضية على الابار بدلا من الاعمدة الخشبية » •

نخلص من هاذ الموجز السريع بان مجتمع المدينة في العراق القديم كان قد قطع شوطا بعيدا في مضمار التقدم الاجتماعي والخدمي ، وما الاصلاحات والقوانين الاجتماعية التي اصدرها الملوك والحكام منذ اكثر من اربعة الاف سنة لوضع الضوابط والاحكام وارساء القواعد والنظم التي يسير عليها افراد المجتمع بهدف تنظيم حياتهم وتحديد تصرفاتهم بما يخدم مصلحة

المجموع ويضمن حقوق وحرية الفرد والجماعة الا دليل ناصع على ذلك .
وتشير الاصلاحات والقوانين الى ان الضوابط والقيود والاحكام التي نظمت الحياة الاجتماعية في العراق القديم لم تكن تختلف كثيرا عما كانت عليه في الفترات التالية ، بل ان الملاحظ ان هناك العديد من الاحكام والقواعد والاعراف والتقاليد السائدة في مجتمعاتنا المعاصرة ما يمكن ارجاع اصوله وجذوره البعيدة الى القواعد القديمة التي تطرقت اليها قوانين حمورابي وغيرها من القوانين ولنا في تقاليد ومراسيم واحكام الزواج وتنظيم العائلة وحالات الطلاق وتوزيع التركة والتحجب وغير ذلك خير الامثلة .

كما تشير بقايا الاحياء السكنية المكتشفة في مدن العراق القديمة بما فيها من بيوت وشوارع وازقة الى ان العراقيين القدماء قد نجحوا نجاحا كبيرا في توظيف ما هو متيسر لديهم من مواد انشائية لانشاء بيوت سكنية تتلاءم وتقلبات الجو العراقي على مدار السنة وتطرفه احيانا حتى خلال اليوم الواحد ، فاستخدموا الطين او الآجر مادة اساسية للبناء وجعلوا جدران البيت سميكة وغلفوها من الداخل بالقير او الرخام ومن الخارج بالطلاء الابيض وسقوفها بالخشب والطين ، ولم يتركوا منفذا فيها الا ما هو ضروري للانارة والتهوية كل ذلك بهدف عزل مكان السكن عن الحرارة المحرقة والبرودة القارصة ، وفعلوا الشيء نفسه بالنسبة لتأثيث البيت حيث استخدموا المواد الرخيصة والمتوافرة لصناعة اثاث بسيط ينسجم وحاجاتهم الضرورية ، فكانت معظم الاواني المنزلية مصنوعة من الفخار او الحجارة او الخشب الى جانب الاواني المعدنية غالية الثمن .

وقد وفرت حكومات المدن واداراتها العديد من الخدمات العامة لتيسير الحياة واستغلال الموارد الطبيعية المتوافرة لخدمة الانسان فكان ان قامت تلك الادارات ومنذ اقدم العصور بتنفيذ مشاريع الري وايصال المياه الى الحقول والبساتين والى داخل المدن واصدرت القوانين التي تحدد

اسلوب الاستفادة من مياه القنوات والجداول ومحاسبة المهمل والمقصـر ووضعت المراقبين والمشرفين لمتابعة حسن تنفيذ وتطبيق القوانـين • كـما وفرت الادارات الامن لافراد المجتمع وهم في اماكن سكناهم وفي الطـرق العامة وعاقبت بقسوة كل من يعتدي على الغير وحملت القوانين حاكم المدينة او المنطقة مسؤولية المحافظة على أمن الطرق العامة وتعويض من يتعرض من المواطنين الى السرقة وهو ضمن حدود المنطقة الى جانب ذلك ، قامت ادارات المدن بتقديم بعض الخدمـات البلدية والطبيـة بما يتناسـب والفتـرات الزمنيـة القديمـة •

ومع كل ذلك ، فقد كانت معظم الخدمات تتركز في المـدن الرئيسـة ولاسيما العواصم ، في حين افتقرت المدن الصغيرة والقرى الى الكثير مـن الخدمات ، وهـي ظاهـرة كانت ولاتزال قائمـة في معظم بلدان العـالم قديمـا وحديثـا •

اهم المراجع

د . سامي سعيد الاحمد ، العراق القديم ، بغداد ، ج ١ (١٩٧٨) ج ٢ (١٩٨٠) .

ليو اوبنهايم ، بلاد ما بين النهرين ، شيكاغو ، ١٩٦٥ ، ترجمة سعدي فيضي .

طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج ١ ، بغداد ١٩٥٥

طه باقر ، فاضل عبدالواحد وعامر سليمان ، تاريخ العراق القـديم ، بغداد ، ١٩٨٠ .

د . فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، بغداد ، ١٩٧٣ .

د . جورج رو ، العراق القديم ، ترجمة حسين علوان حسين ، ١٩٨٤ .

نخبة من الباحثين العراقيين ، حضارة العراق ، ج ١ ، ج ٢ ، ج ٣ ، بغداد ١٩٨٥ .

هـ . ساكز ، عظمة بابل ، لندن ، ١٩٦٦ ، ترجمة د . عامر سليمان .

د.عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، موصل ١٩٧٧ .

د . فاضل عبدالواحد و د . عامر سليمان ، عادات وتقاليد الشعوب القديمة ، موصل ١٩٧٩ .

كريمر ، السومريون ، شيكاغو ١٩٦٣ ، ترجمة د . فيصل الوائلي

كريمر . من الواح سومر ، شيكاغو ، ترجمة طه باقر .

جورج كوتينو الحياة اليومية في بلاد اشور ، لندن ، ١٩٥٤ ، ترجمة سليم طه وبرهان عبد التكريتي ١٩٧٩ .

رضا الهاشمي ، نظام العائلة في العهد البابلي القديم ، بغداد ،

G. R. Diver and J. Miles, The Babylonian Laws, Oxford, 1955, -- Assyian Laws, Oxford, 1936.

A. Goetze, The Laws of Eshmuma, AASOR, 31 (1956).

H.W.F. Saggs, The Might that was Assyia, London, 1984. Everyday Life in Babylonia and Assyia, London 1965.

الفصل السابع

اقتصاد المدينة العراقية القديمة

الدكتور فاروق ناصر الراوي
استاذ مساعد كلية الاداب / قسم الاثار
جامعة بغداد

تطورت المستوطنات القديمة الى مدن بعـد ان زاد الاستيطان وكثر العمران بها . وتدل القرائن الاثارية ان طليعة تلك المدن كانت مدينة اريدو . ولا عجب اذن ان تشير قائمة الملوك السومريين ، التي تعد من اهم مصادرنا عن التاريخ القديم ، الى ان مدينة اريدو من جملة خمس مدن كانت قـد تأسست قبل الطوفان . وتثبت المخلفات المستظهرة وجود مركز ديني «المعبد» الذي استخدم كمركز اداري واقتصادي لمثل تلك المدن . وكان لمدينة اريدو والمدن الاخرى التي كشفت عنها التنقيبات ومن نفس الفترة اقتصادا زراعيا كفوءا جدا يستند الى نظام ري منتظم اضافة الى وجود بعض الحرف الصناعية مثل صناعة الاجر والمناجـل والسـكاكين والالات وادوات الحرب وبعض الصناعات الخاصة بالحلي كصناعة الدلايات والخرز وهناك ايضا صناعـة الاواني الحجرية والفخارية وبضمنها الاواني المستخدمة للاغراض الدينيـة اضافة الى صب وسبك بعض المعادن .

كما تدل المخلفات الاثارية على اهتمام سكنة المدن الاولى بالصيد وبخاصة صيد الاسماك حيث وجدت كميات كبيرة من عظام الاسماك التي قدمت كقرابين للالهة ويشير هذا دون ادنى شك الى اهمية صيد الاسماك في اقتصاد المدينة آنذاك ، كما يدل على اهتمام المجتمع بالاله الخاص بالانهار والبحار وهو الاله ايا الذي تعرفنا عليه عبر النصوص المسمارية التي جاءتنا من فترات لاحقة ويعد معبده الخلية الرئيسة لعمل المجتمع العراقي آنذاك .

ان انتشار الصناعات الحرفية لمدينة اريدو والمدن الجنوبية الاخرى وفي مواقع متعددة من بلاد وادي الرافدين والبلدان الدانية والقاصية ، كبلاد فارس وجنوبي انضوليا ووسطها والخليج العربي وسوريا ومصر وربما السند، ادى الى انتشار التجارة وتبادل السلع والخبر فيما بين تلك المجتمعات ويمكن اعتبار عصر بداية ظهور المدن العراقية القديمة اول بواكير تبلور الوحدة الحضارية للعراق لابل يمكن ان يشير الى تعزيز الوحدة الحضارية للوطن العربي التي تستمد اصالتها من جذورها القديمة الممتدة عميقا في تربة هذه الارض المعطاء وقدمها قدم وجود الانسان .

وفي هذه الفترة بالذات تم وضع الاسس المتينة للحضارة العراقية القديمة التي تبوأت الصدارة اكثر من ثلاثة الاف سنة والتي وضعت بصماتها على الحضارات اللاحقة ووصولا الى الحضارة حتى يومنا هذا .

والحديث عن فترة نشأة المدينة وتطورها يقودنا الى طبيعة التشكيلات الاجتماعية السائدة وتقسيم العمل فيمابين شرائح المجتمع وبناء المشاريع العامة وتنظيم الحياة الدينية والدنيوية والمجتمعات القروية ودورها في توفير القوت لسكنة المدن وغير ذلك ، فلقد ساعد التعقيد هذا على ايجاد ابتكارات مهمة غيرت مجرى حياة الناس عامة مثل ابتكار العجلة ودولاب الفخار والتقنيات المتعلقة بهما كتحويل محور حركة العجلات لصناعة المزارف اوما الى ذلك . فضلا عن تطور اعمال التعدين والصب والسبك للمعادن .. ووصولا الى

تطور المعارف بالكيمياء وتعقد العمليات الحسابية والعمل على ايجاد انجح الطرق والوسائل لحل تلك المعضلات كل ذلك اضافة الى رفع الروح المعنوية للناس وضبط علاقاتهم الاجتماعية التي تحكمهـا التوجيهات والمثل الدينية المتطورة •

وزودتنا الحفريات التي جرت في بعض المعابد بالكثير من الرقم الطينية التي كتبت بالخط الصوري ثم المسماري والمدون عليها جرايات من الحبوب وبخاصة الشعير والجعة واللحوم والملابس للقائمين علـى خدمـة المعابد او للعاملين في الحقول التابعة لها • وخير مثال على ماوصلته المدن العراقية القديمة من مستوى التقدم يمكن ان تمثله لنا بقايا مدينة الوركاء التي كان يقطنها مايقارب ٤٠/٠٠٠ ــ ٥٠/٠٠٠ الف نسمة يسكنون في بيوت مشيدة مـن الطابوق او اللبن وجلهم مرتبط اقتصاديا بالمعبد او بقصر الحاكم ، او باتحادات تشبه الجمعيات على حد رأي العلماء السوفيت ، وعثرت هيئات التنقيب على الكثير من قطع الاثاث المنزلية التي تشير الى وجود حرف مثل النحت ، والكتابة، والنجارة ، والحدادة ، والصياغة وصناعة الطابوق واللبن ، والحياكة ، واعمال الدباغة ، وصناعة الجلود ، وصناعة الاواني الفخارية والحجرية وصناعـة الاختام الاسطوانية • وتركت بصمات اولئك الحرفيين على اعمالهم لتشهد بدورهم في بناء الحضارة العراقية •

والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يعيش مثل اولئك الحرفيون ؟ • ولنأخذ على سبيل المثال النحات الذي يتوجه الى محل عملـه مارا بالمعبد لتقديم الصلاة لاجل مباركة يوم عمله • ولان مايعمل عليه هو الحجر النادر والمستورد من بلاد بعيدة توجب عليه العمل بدقة ومهارة فائقة والا فمصيره العمل الشاق في حقول او مشاغل المعبد الاخرى كيف لا وما يقوم بصناعته خاص بالمعبد وبالالهة احيانا او بالحاكم نفسه • ولذلك فلقد جاءت منحوتاتهم دقيقة الصنعة ومعبرة عن مختلف اوجه الحياة الدينية والاجتماعية وكان النحات

يأخذ اجرا من المعبد او من قصر الحاكم مقابل اعماله • واجره بطبيعة الحال، هو الطعام الكافي والكسوة وكان عليه ان يستلم الجرايات الخاصة به من المعبد او القصر مع زملائه الاخرين او مع الحرفيين الاخرين وكلهم يأخذون طبقا لاهمية الاعمال التي تناط بهم وربما تدور الاحاديث فيما بينهم حول السلع المنتجة والامور التي تقع بالمدينة وحول انتاج الحقول وكمية المحاصيل، وحظ كل منهم او دوره في الاحتفالات والمهرجانات الدينية وما الى ذلك •

ويدون اجر كل واحد منهم على لوح من الطين يكتب من قبل الكتاب المختصين لان عدد الكتاب كان محدودا ولان معظم القصص والملاحم البطولية والتراتيل الدينية كانت تحفظ من قبل الجميع وتتنقل شفاها •

وكان النحات وغيره من مواطني مدينـــة الوركاء يعتزون بالمنجزات الحضارية لبلدتهـــم وبلادهم ويساهمون بكل فخر في الاحتفالات العامـــة ويتزينون ويتطهرون ويلبسون افخر ما عندهم مـــن ملابس ويتطيبون قبل دخولهم المعابد على ان غالبيتهم ربما يلبسون الملابس الصوفية التي حيكت من قبل اصحاب حرفة الحياكة،وغالبا مايلحق بالمدينة او حتى يكون في داخلها الحقول والبساتين المزروعة بالنخيل والتفاح والبصل والثوم وانواع اخرى من الفواكه والخضروات المتنوعة • وتشير النصوص المسماريـــة الى اكل لحوم الاسماك والضأن والخنزير والطيور الطرية او المقددة • كما حفلت النصوص المسمارية بالاشارة الى موطن الاحجار الكريمة والعاج والاصداف ومن ذلك الخليج العربي والهند وافغانستان وايران وانضوليا ومدن البحر الابيض المتوسط ومصر وغيرها من البلدان •

وكان على النحات ان يدرب ابناءه على حرفته ليخلفوه في الصنعـــة وعندما لا يكون له ابناء ربما كان يتبنى احد الاشخاص ويعلمه الصنعة مقابل ان يقوم الاخير بتأدية الخدمات الواجبة له عند الكبر وبتأدية مراسيم الدفن

والتقدمات الخاصة بذلك وغالبا مايربط مثل ذلك الشخص بعقد كي لاتسول له نفسه ان يكون عاقا لانه سيتحمل عقوبات ثقيلة قد تؤدي بحياته ٠

وبعيد الالف الثالث ق ٠ م توسعت الاراضي المملوكة من قبل المجاميع المتاخية او « الجمعيات » كما كثر وجود الملكية الفردية الخاصة من قبل اثرياء الشريحة الاجتماعية الارستقراطية وخاصة كبار رجال الدين وحاشية الامير الحاكم وبعض الحكام انفسهم ٠ وشاع تبادل وشراء الاراضي وفقا لعقود مكتوبة ومصدقة ولدينا عقد من حدود ٢٣٠٠ ق ٠ م عن شراء ارض واسعة من قبل ٦٠٠ شخص احتفلوا لمدة يومين احتفاءا بعقد مثل تلك الصفقة وكانت الاسعار متفاوتة ربما بالنسبة لقربها وبعدها من المدينة او لصلاحها او عدمه للزراعة او زراعة نوع معين من المحاصيل ٠

فتعرف من خلال التحريات الاثارية والتنقيب عن وجود مايقارب ١٤٦ قرية حول مدينة الوركاء وفي كل قرية منها معبد ومجرى مشروع للري وتدار من قبل « الجمعيات الفلاحية » ذات الطبيعة الاقتصادية المتكاملة ٠

وعلى مقربة من تلك القرى يعيش البدو الرحل الذين يتنقلون بمواشيهم واغنامهم طلبا للماء والكلاء وغالبا ماكانوا يثيرون المشاكل وبخاصة اذا ما حدث جفاف او عدم سقوط امطار كافية وعلى اية حال فهم يمدون المدن بالمواشي والاغنام ومنتجاتها المتنوعة ٠ ومما لاشك فيه فان عدد القرى قد ينقص او يزيد ففي حدود ٢٧٠٠ ق٠م ٠ اصبح عدد القرى المحيطة بالوركاء ٧٦ وبعد ذلك بـ (٣٠٠) سنة تناقص هذا العدد الى ٢٤ قرية فقط وذلك لتكثيف السكن بالمدن او ايجاد مدن اخرى او لضغط القبائل البدوية المحيطة بالقرى ٠ وتشهد القرائن الاثارية على زيادة عدد المدن من مدينتين الى اربع مدن ثم الى ثمان مدن كبيرة انتشرت في المناطق المحيطة بالوركاء ٠ وهكذا تغير تركيب الشرائح الاجتماعية للمجتمع العراقي القديم ، ولكن نظام العائلة

لم يتغير . وورث الابن اباه ووسع ارضه او باعها لغيره وتاجر الولد او أمه ببعض المال فزاد او زال ماله ..

ومع توسع المدن انحسرت العلاقات العشائرية قليلا وتطورت العلاقات ذات الطابع الحرفي والانتماء للمدينة ككل اصبح هو السائد ولا غرابة في ذلك اذا ماعرفنا وحتى في يومنا هذا ان اغلب الناس تنتسب الى المدن مع الاحتفاظ بالنسب العشائري او القبلي للفرد داخل المدينة .

تقع على عاتق كل عضو من اعضاء المجاميع الحرفية حقوق عامة للمدينة بجانب اعمالهم الحرفية ، ومن تلك الحقوق العمل على انقاذ احد السدود التي قد تتعرض للانهيار او كري مجاري القنوات وهو مانعرفه في الوقت الحاضر بالريف باسم « الفزعة » والتي قد تكون ايام حصاد بعض المحاصيل . واذا ماتعرضت البلاد او المدينة لاعتداءات الغزاة فان الحرفيين ينظمون على شكل مجاميع يقودهم رئيس الصناع وغالبا ماكانوا يوزعون على بعض الضباط لقيادتهم في المعارك . ويدفع لهم مقابل ذلك مثلما يدفع لهم عند قيامهم باعمالهم الحرفية أي الطعام والكساء ووفقا لدورهم في سوح المعارك لان البعض منهم قد يكرم باغداق الهدايا او العطايا او منحه قطعة ارض للعمل فيها .

وبشكل عام فان المجتمع العراقي القديم في هذه الفترة يتألف من الملك وحاشيته ورجال الدين وشيبة المدينة وشبابها المحاربين وكبار ملاك الاراضي والتجار والحرفيين والفلاحيين والعبيد والبدو الرحل .

وتزداد معلوماتنا عن طبيعة ادارة الاراضي العائدة للمعبد بعد منتصف الالف الثالث ق.م . وتمكن الباحثون من تمييز ثلاثة انواع من اراضي المعبد ١ ـ الصنف الاول هو الاكثر شيوعا ويتمثل بتأجير الارض مقابل حصة من المحصول مقدارها الثلث ٢ ـ والصنف الثاني مايعرف بحقول السيد الذي يعمل على توفير حاجات المعبد والقصر ٣ ـ اما الصنف الثالث فهو حقول العمل التابعة للمعبد وتوزع على شكل اقطاعات او مقابل خدمات تقدم

الى المعبد والاله • واضافة الى تلك الاراضي هناك البساتين والحدائق الخاصة ومساحات واسعة تستخدم كمراعي وتمتد مثل هــذه الاراضي على ضفاف الانهار والاهوار حيث يمكن للرعاة اطعام مواشيهم واغنامهم وخنازيرهــم وحميرهم ، وعلى اية حال وكما اشرنا سابقا كانت هناك الاراضي المملوكــة من قبل « الجمعيات » وبعض الاملاك الفردية التي توسعت وزادت بموجبها ثروة اولئك الافراد •

ان زيادة املاك السيد والامير وسيطرته على املاك الاله والمعبد وزيادة الاراضي العائــدة للملاك الكبار احدثت تغييرات اخلت بتوازن النظــام الاقتصادي واخذ الكثير من السكان ينتقدون مثل تلك التجاوزات ويرى الاستاذ البريطاني ساكز ان سبب ذلك هو اعتماد المبادىء « الاشــتراكية » « والرأسمالية » في الدولة لذلك فان تلك المساوىء يمكن ان تفسر كنتيجة طبيعية لاحد هــذين المبدأين وحسب التفضيل السياســي وبالاضافة الــى الشكاوي المقدمة ضد اطماع الامير كانت هناك شكاوى المواطنين المعرضين لدفع الضرائب الباهضــة التي تجنى من قبل الامير وموظفي المعبد والتي توزعت على جميع مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية ووصولا الى دفع الضرائب عن دفن الموتى •

وتمزق الاقتصاد من جراء ذلك وبخاصة عندما زاد حجم الضرائب على الماشية والاغنام وعلى صيد السمك وعلى فروض الزواج او الطلاق او دفن الموتى وظهرت شريحة اجتماعية غنية بشكل فاحش جراء عمليات القروض والمطالبة بسدادها بوقت غير ملائم للفقراء الذين يضطرون لسداد ديونهم بتسليم حيواناتهم او بضائعهم التي تزيد قيمتها اضعاف المبلغ المدينين بــه •

وكعهدنا بالقادة المتميزين والمخلصين الذين ترعرعوا على هذه الارض المعطاء ، نرى الامير اوروانمكينا يتصدى لذلك الوضع المتردي ووضع حد

لانهائه عندما عمد الى اصدار اصلاحاته الاجتماعية ـ الاقتصادية والتي وردت بمتنها كلمة الحرية (اما ـ ار ـ كي) بكل ماتعنيه هذه الكلمة في الوقت الحاضر ولاول مرة في تاريخ البشرية • فاخبرنا هذا العاهل عن اطاحة الشعب بمضطهديه وقيامه باسترداد هيبة القانون واشاعة الامن والحرية • ويعتقد بعض الباحثين وبضمنهم الباحث الشهير كريمران اوروانمكينا جاء الى السلطة عن طريق الانتخاب •

ان حرية العمل في المجتمع الزراعي المذكور الذي يعتمد اساسا على « الاشتراكية » في المشاريع العامة ونظام « التعاونيات » وعلى الاعمال الحرفية والملكية الخاصة ساعد على غنى العاملين المجدين من الحرفيين والتجار ومكنهم من تصريف بضائعهم المتاجرة ببضائع اخرى عبر المراكز التجارية الموجودة في الخليج العربي او في بلاد فارس او في انضوليا او في بقاع اخرى من ارجاء الشرق القديم • ان ظهور هذه الشريحة الاجتماعية المتوسطة ساعد كثيرا على توسع المدن العراقية القديمة وازدهارها •

ان اصلاحات القائد العراقي المخلص اورانمكينا مكنت المجتمع والدولة ككل من الخروج من تلك الازمة الاقتصادية ـ الاجتماعية التي يمكن التعرف على مدى خطورتها من خلال مانصت عليه الوثيقة التاريخية المعروفة باصلاحات اوروانمكينا والتي جاء فيها : مفتش الزوارق حجز الزوارق ، مفتش القطعان حجز القطعان ، مفتش الصيادين حجز الصيادين • حين يجلب المواطن خروفا لكي يبيع صوفه ، كان عليه ان يؤدي خمسة شقلات (من الفضة) اذا كان الصوف ابيض ، واذا شاء رجل ان يطلق زوجته ، كان عليه ان يدفع خمسة شقلات (من الفضة) للحاكم ، وواحد للوزير ، واذا قام عامل بانتاج شيء من الزيت ، فعليه ان يدفع للحاكم خمسة شقلات (من الفضة) ، وواحدة للوزير ، وواحدا لمحافظ القصر • اما بالنسبة للمعبد وممتلكاته فان الحاكم قد استولى عليها كما لو كانت ملكه الخاص • وحتى الموت لايجلب

الخلاص من الحيـــاة • حين يؤتى بميت الى المقبرة ليدفن ، يحضر عدد من موظفي القصر لكي يسلبوا من اسرة الميت كميات من الذرة والخبز والشراب والاثاث • في طول البلاد وعرضها لا نجد الا جباة الضرائب ، فلا عجب ان بدأ القصر يسمن ويثرى وتزداد اراضيه واملاكه • بيوت الحـــاكم وحقول حريم الحاكم بيوت خدم الحاكم وحقول خدم الحاكم ، كلها تتزاحم وتصطف

وحاول اوروانمكينا وضع حدٍ لذلك الانحطاط الاقتصادي الاجتماعي فاعاد الاوضاع الى سابق عصرها كما اعاد الحـــق والعدالـــة والحرية الى المواطنين الذيـــن اصابهـــم الضيم ، فعزل المفتشين المرتشين واعفى الكثير من الاعمال من الضرائب ، ولم يعد موظفو الدولة يسلبون وينهبون ووضع حدا للظلم والاعتداء والتطاول وغيرها من المظالم التي كان يقاســي منها الفقراء وجاء في متن اصلاحاته الاجتماعية والاقتصـــاديه ان ليس للكاهن المعين ان يذهب بعد الان الى حديقـــة الفقير ويقطع شجرة او يأخذ فاكهـــة • اذا كان لفقير حمار جيد يحمل جنينـــا ، وقال له سيده : ساشتريه ، (ففي حالة ما) اذا رغب الرجل بالبيـــع ، فعليه (الفقير) ان يخبره (السيد) ويزن كمية مرضية من الفضة ، او أنه (الفقير) غير راغب في البيع ، فان السيد الساخط سوف لن يضربه •

واذا اقام فقـــير بحيرة للسمك فليس لاي من طبقـــة الذوات ان يأخذ سمكة • واذا كان بيت الرجل المتواضع مجاورا لبيت الرجـــل السيد ، وقال هذا السيد لجاره المتواضع الحال: أريد شراء بيتك وطلب الرجل متواضع الحال ثمنا معينا لبيته ، فان السيد له ان يوافق على الثمن ويشتري البيت ، والا فانه لا يستطيع سلبه • ولم يكن بامكان موظف كبير ان يتطاول على بستان امرأة فقيرة فيقطع الاشـــجار او ينهب الاثمار • كما قـــام بتقنين الضرائب المتعلقة بالزواج والطلاق والدفن واعفى المنتجين من الضرائب وبخاصة تلك الضرائب

التي كانت تفرض على جز الصوف وبعض منتجي الزيوت • وعاهد اورانمكنيا الالهة على عدم السماح باستغلال الارامل واليتامى والفقراء من قبل ذوي المكانة والحضوة والقوة •

ان زيادة حجم السكان وتوسع المدن ونمو الفائض المنتج من قبل الحرفيين ونمو وتوسع العلاقات التجارية مع اماكن قاصية ادت في النهاية الى ظهور المنافسة السياسية والاقتصادية وفتح الطريق للمنازعات والحروب الطاحنة حول الارض ومشاريع الارواء والمراعي وتأمين الطرق البرية والنهرية والبحرية وظهرت في هذه الفترة شريحة اجتماعيية اخرى وهم العبيد الا انهم لم يؤلفوا الاغلبية بين السكان ولم تعتمد اعمال كل المجتمع ، كما يحلو للبعض تصور ذلك ، بل كانوا شريحة اجتماعية مصدرها الاساس اسرى الحرب وبعض من يبيع نفسه نتيجة الديون المتراكمة وخشية من الجوع • على اية حال فلقد تطورت تجارة العبيد في فترات لاحقة واصبحت شائعة حوالي القرن التاسع عشر ق • م وكان عمل هؤلاء يتركز في المطاحن التابعة للمعبد او في الصناعات الحرفية التي تطورت في تلك الفترة مثل صناعة النسيج وحياكة الملابس وفي بناء تحصينات المدن وبناء المشاريع العامة كالمعابد والزقورات والقصور ومشاريع الري وما الى ذلك ، كما تطورت ملكية الرقيق من قبل الموسرين من افراد المجتمع العراقي القديم وقام البعض بدراسة عدد العبيد المملوكين من قبل احدى الاسر الموسرة فتوصلوا الى ان بامكان الاسرة العراقية ان تمتلك بين ثلاثة او اربعة عبيد ولعله من المفيد التنويه ان العبودية في العراق القديم لم تكن نظاما طبيعيا مقفلا مثل اليونان والرومان بل كان من المحتمل ان يصبح بعض الاحرار عبيدا وبالامكان البعض من العبيد ان يحصلوا على حرياتهم كما انه لم يكن زواج العبد من حرة غير شائع كما لدينا الشواهد الكثيرة على زواج احرار باماء •

واذا ماأخذنا على سبيل المثال مدينة الوركاء او مدينة لكش او اية مدينة عراقية اخرى فاننا نرى ان عدد العبيد الذين وردت اسماؤهم في النصوص المسمارية قليلا الا ان اعمالهم كانت مهمة جدا بالنسبة لحياة المدينة . وغالبا ماتركزت اعمالهم في النشاطات الاقتصادية الشائعة في المناطق الريفية المحيطة بالمدن وبخاصة لمساعدتهم في اعمال الغزل والحياكة او في عمل الخبز اللازم للمعابد او في اعمال القصور او الدور الواسعة للموسرين وكان عملهم مقابل وجبات الطعام وسقف يظلهم وعوائلهم وسيد يحميهم من استغلال الاخرين لهم . كما كانوا يستخدمون في اوقات الحروب عندما يخرجون مع اسيادهم لنزال الاعداء وربما لعدم الثقة بهم عند بقائهم في المدن بعد غياب الاسياد والشباب من المدن لان اكثرهم ان لم يكن كلهم من البلدان الاجنبية .

وقبل الاسترسال في تطور المدن وفي تقدمها كلما تقدم بنا التاريخ لابد من التأكيد على ماأتفق عليه كل المعنيين بمثل هذه الدراسات وهو تطور القرى العراقية القديمة الى مدن وشواهدنا على ذلك من الناحية الاثارية كثيرة كمدينة اريدو ومدينة الوركاء والعبيد ومدينة سبار ومدينة بابل ومدينة كيش والمدن الشمالية مثل اربيل ونينوى وغيرها .

ولنترك المدن الجنوبية قليلا ونتوجه الى الشمال ووصولا الى الحدود الطبيعية التي تفصل بلاد وادي الرافدين عن غيره من البدان فالى الشرق تشمخ سلسلة جبال زاجروس والى الشمال تمتد سلسلة جبال طوروس الوعرة وغير الصالحة للعبور والتي طالما وقفت حائلا بوجه الغزاة القادمين من منطقة ارمينيا . اما بالنسبة للغرب والجنوب فالمنطقة مفتوحة ولا يوجد مانع طبيعي يحد من الاتصالات وهذا مما ساعد على سرعة الاتصالات وبالتالي الوحدة الحضارية العراقية القديمة التي تكللت بالوحدة السياسية وذلك عبر توحيد بعض المدن الكبيرة ومن ثم العمل على توحيد

كل المدن ومنذ بدايات العصر الاكدي ومرورا بعصر سلالة اور الثالثة والعصور اللاحقة ، وعلى اية حال ، فلقد نشأت كبريات المدن العراقية القديمة في المنطقة الشمالية ضمن المثلثين المحصورين بين امتدادات الزاب الاعلى والزاب الاسفل وامتداد نهر دجلة ومنذ فجر التاريخ وقد تطورات تلك المدن وبضمنها اشور وكالح (النمرود) ونينوى وأربيل واربخا (كركوك) وغيرها التي تطورت عن قرى سبق استيطانها في عصور قبل التاريخ •

وتطورت تلك المدن بشكل بطيء ثم نمت لتصبح من كبريات مدن العراق القديم وذلك بعد التطور الديني والدنيوي الذي حدث وبخاصة فيما يتعلق بالمعابد والقصور والزقورات وتطور المجتمع نفسه وحياته الاقتصادية والسياسية واصبحت مدينة اشور المركز السياسي والديني في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد • وبقيت عاصمة للدولة الاشورية ، باستثناء فترات قليلة زمن شمشي ـ ادد الاول وزمن تنورتا الاول والى القرن التاسع قبل الميلاد عندما أسس أشور ناصر بال الثاني مدينة كالح (النمرود) التي دامت كعاصمة مايقارب القرن والنصف حيث انتقلت العاصمة الى مدينة جديدة شيدها سرجون الاشوري واسماها دور شروكين (خرسباد) ثم اتخذ ولده سنحاريب نينوى كعاصمة للامبراطورية الاشورية القريبة والموصلة بين المراكز الاشورية الكبرى مثل أربيل واربخا (كركوك) وكالح واشور والمدن الاخرى •

والذي يهمنا بالوقت الحاضر هو اقتصاد تلك المدن الذي لم يختلف كثيرا عن اقتصاد المدن الجنوبية في بدايته من حيث طبيعته الزراعية ومن حيث سيطرة المعبد وحاكم القصر على الموارد الاقتصادية الاساسية كالاراضي والتجارة وشيوع مايعرف بالملكية الجماعية المتكاملة « الجمعيات التعاونية » ووصولا في عصور لاحقة الى ظهور الاقطاعات الكبيرة وما يمكن تسميته بملكية العشيرة او القبيلة وتطور ذلك الى استحواذ بعض الافراد على

مساحات واسعة من الاراضي والذين يمكن ان تطلق عليهم « الاقطاعيون » ويرى الباحث اوبنهايم ان تلك الاختلافات في توزيع مساحات الاراضي قد ادت الى ظهور تأثيرات بعيدة المدى على اقتصاديات البلاد ككل ويعزى ذلك الى نظام رأسمالية الدولة او شكل اخر من تنظيم اجتماعي يختص بادارة ملكيات عقارية كبيرة •

وقد اختص سكان المدن في حراثة الارض التي تحيط بمدنهم وتمتعوا بامتيازات ملكية خاصة • واستعملت الفضة كوسيلة للتبادل ودفع الفروقات وفي فترة العصر البابلي الوسيط (القرن الخامس عشر ق•م• والى القرن العاشر ق•م•) اصبحت قيمة الفضة تساوي قيمة الذهب ، اما فترة العصر الاشوري الوسيط المزامن له تقريبا اصبح القصدير واسطة التبادل • وهناك اشارات في الكتابات المسمارية عن قيام الملك سنحاريب (٧٠٤ ــ ٦٨١ ق•م) باستخدام « مسكوكات » نحاسية كانت تصب في قوالب ، الا ان النصوص الاقتصادية والقضائية والقانونية تشير دائما الى استخدام الفضة • وهذا الاستخدام الواسع للفضة قاد بعض الباحثين الى الاعتقاد بان المعبد والقصر الحاكم قد سيطرا على عملية تداول الفضة بشكل حازم لان مادة الفضة مستوردةواستطاعوا عبر سيطرتهم علىالطرقالتجارية والتجارة الخارجيةتركيز التداول بهذا المعدن في المعابد والقصور وعدت مادة الفضة ثروة خاصة بهم ، وتبين النصوص الواردة من العصرين البابلي القديم والاشوري القديم والعصور اللاحقة عن تطور الثروة الشخصية والتحولات الاقتصادية الجيدة التي مكنت بعض الفقراء ، وعبر اشاعة القوانين والمفاهيم الاقتصادية العادلة ، بان يصبحوا اغنياء ، وان يخاف الاغنياء من تحديد ثرواتهم• وكنتيجة لذلك شاع وجود « بيوتات الاموال » او بعبارة ادق « المرابين » الذين قد تصل فوائدهم الى اضعاف المبلغ المقترض او الموظف للاغراض التجارية او الزراعية او الحرفية كما شاع وجود المراكز التجارية وخير مثال على ذلك المراكز التجارية الاشورية في اواسط انضوليا •

ويرى بعض الباحثين وبضمنهم الباحث المتضلع في الامور الاقتصادية لبلاد وادي الرافدين بولياني ان لاوجود لسوق محلية مقننة الاسعار ويعارضه الباحث البريطاني ساكز محاولا اثبات وجود مثل تلك السوق المقننة للاسعار عبر ماتشير اليه النصوص المسمارية وما امدتنا القرائن الاثارية من اوزان وحجوم مقننة استنادا للمعابد او الالهة او الحكام ، بينما يتحدث الباحث اوبنهايم عن تكامل اقتصادي مؤثر الى حد كبير اضافة الى وجود خزين في المعابد والقصور على ان ذلك لايمثل الوسائل الوحيدة الموجودة للتكامل الاقتصادي لانه يبدو ان انواعا من الترابط قد تم بين مراكز الخزين وبين عامة الشعب المنهمكين بالنشاط الاقتصادي المستقل والتركز بايدي الافراد او المجمعات من ذوي المكانة المتكافلة واستحسن استخدام النقود (الفضة مثلا) لتشعب وتباين المراكز الاقتصادية ، حيث ان « النقود » او مايعادلها من البضائع كانت تستخدم في مثل تلك الظروف باعتبارها اداة ووسائل لممارسة الضغط الاقتصادي عن طريق تأجيرها او جعلها بضاعة من الممكن الدفع بواسطتها • واحتاج الاقتصاد المخزون اصلا الى وسائل الاتصال بالعالم المحيط به لتوفير المواد الخام غير الموجودة في بلاد وادي الرافدين كالاحجار والمعادن والخشب •

ولذلك فلقد تمكن ذلك الاسلوب المترابط للحياة الاقتصادية من تزويد احتياجات كلا الطرفين وخلق مناخ اقتصادي ملائم في ظل المراكز المدنية العامرة •

فالسلع المنتجة في بلاد وادي الرافدين مثل الانسجة والملابس والصناعات الحرفية كانت وسيلة التبادل لجلب المعادن والاحجار والاخشاب والتوابل وهذا بطبيعة الحال ساعد على انتشار وتوسع وازدهار المراكز التجارية الداخلية والخارجية ، وساهمت التجارة بشكل مباشر وغير مباشر على

لازدهار ونمو المدن العراقية القديمة كما ساعدت على رفع مستوى المعيشة فضلا عن زيادة انتشار وتأثير حضارة بلاد وادي الرافدين في البلدان الاخرى .

وهناك عامل اخر ساعد على نمو وتطور اقتصاد المدن العراقية القديمة وهو اتساع الممالك ووصولا الى تكوين امبراطوريات فان ذلك ادى الى اشاعة الاستقرار وتوطيد دعائم الاقتصاد وبخاصة المدن الكبيرة كالعواصم حيث شيد الملوك القصور والمعابد لتكون مرآة تعكس الطموحات الابداعية للحاكم والشعب وهـذا بطبيعة الحال ادى الى ظهور القوى العاملة الاخرى في المجتمع او على اقل تقدير زيادتها واقصد هنا الموظفين ودورهم في مجتمعات المدن وحياتها الاقتصادية لان النصوص المسمارية زودتنا بعشرات الالقاب لموظفي القصر والمعبد والعاملين على ادارة وادامة السدود والمشاغل واعمـال البناء والرتب العسكرية وما الى ذلك .

ويرى الباحث كريسون (١٩٨٦) وغيره من الباحثين المحدثين ان قمة الابتكارات والمنجزات للعناصر الحضارية العراقية القديمة قد تركزت في المدن الكبرى وبخاصة اريدو وأور والوركاء ونفس بابـل وكيش وسپار واشور وكالح ونينوى وغيرها . وحاول هذا الباحث عبر مقاله الموسوم « نينوى عاصمة العالم : روما على دجلة » المقارنة بين المكانة الاجتماعية الاقتصادية لمدينة نينوى والحالة الاجتماعية والاقتصادية لروما واعتبار كـلا المدينتين قبلة العالم ولكن في أزمان مختلفة وسبقه بذلك كثيرون ممن اعتبروا بابـل قبلة العالم ومركزه للاشعاع الحضاري والفكري . ووصولا الى عقد البعض من الباحثين اوجه المقارنة مابين المدن العراقية القديمة وازدهارها الاقتصادي وبين المدن العربية الاسلامية الاولى التي شيدت بالعراق .

وخلاصة القول فان اهم العوامل التي ساعدت على ازدهار ونمو المدن العراقية القديمة هي التطورات المتفاعلة وزيادة الانتاج الزراعي وتزايد مراكز السلطة ونمو وسائل الاتصالات بين المدن والقرى ومناطق تواجد البدو ولم

يحصل الازدهار الاقتصادي والاجتماعي لعملية التمدن في مدينة واحدة او منطقة واحدة من بلاد وادي الرافدين لكنه بعد توحيد المدن في ارجاء البلاد وظهور الدولة الموحدة ومن ثم العمل على توحيد بعض الاقطار العربية التي خلقت قمة الازدهار الاقتصادي الاجتماعي في بابل ونينوى مثلما خلقته في ابلا وماري اوغاريت في سوريا ودلمون (البحرين) ومكان (عمان) وطيبة في مصر •

المامة في بعض المفاهيم الاقتصادية التي سادت في مدن العراق القديم : —

١ ـ العشر :

في مطلع هذا القرن وبالتحديد سنة ١٩٠٤م تناول الباحث جونس Johns موضوع ضريبة العشر بشيء من الشك نظرا لعدم توفر المصادر الكافية وركز عمله على الاشارات الواردة في العصر البابلي الحديث وبخاصة قيام الملك نبونائد (٥٥٥ ـ ٥٣٩ ق•م•) تقديم خمسة امنان من الذهب الى معبد سبار وذلك عند اعتلائه للعرش ايفاءً لضريبة العشر المفروضة على مثل ذلك الحدث •

كما توصل هذا الباحث الى ان ضريبة العشر كانت تدفع على شكل مواد مختلفة مثل الحبوب والزيوت والسمسم والتمر والطحين ووجبات الطعام والثيران والاغنام والحمير وما الى ذلك •

وفي بداية الثمانينات من هذا القرن اهتم باحث آخر وهو أركي سلونن Salonen الذي اعتبر ضريبة العشر من الضرائب القديمة مؤكدا توارثها من قبل اوربا واستخدامها بشكل واضح في الكنائس المسيحية خلال فترة القرون الوسطى • وقد اكد الكاتب على اصل هذه الضريبة ذات الطابع الديني والاقتصادي الى بلاد وادي الرافدين القديمة •

ولقد تعرفنا سابقا على مكانة المعبد والامير الاقتصادية والدينية وارتباط الاقتصاد بشكل او بآخر بالمعبد الى ان جاء الملك حمورابي وفصل بين المؤسسات الدينية والدنيوية ولان ضريبة العشر اصلا وجدت في المعابد فلقد استمرت بالرغم من جبايتها احيانا من قبل بعض الحكام او من قبل الحكومة •• ومن خلال دراسة النصوص المسمارية نرى ان ضريبة العشر قد عرفت عند السومريين باسم ZAG. 10 وفي العصر البابلي القديم والاشوري القديم عرفت باسم ايشريتم ešrētum اما في العصر البابلي الحديث فعرفت باسم ايشرو ešrû « العشر » وانتقلت الى سوريا حيث عرفوها بأسم مأشارو mešaru .

وتعود ضريبة العشر المذكورة في المصادر المسمارية الى عصر سلالة اور الثالثة وبالتحديد زمن حكم الملك شولكي وابنائه كما عرفت بنفس الاسم السومري زمن حكم سلالتي ايسن ولارسا أي بشكل عام بين ٢٠٩٤ ــ ١٧٦٣ ق • م وشاع استخدام الكلمة الاكدية ešrētum العشر بعد ذلك وبالتحديد منذ حكم الملك البابلي سابيوم في حدود ١٨٤٤ ــ ١٨٣١ ق • م ولكن معظم الاشارات عن هذه الضريبة وطبيعة فرضها جاءتنا من العصر البابلي الحديث والعصور اللاحقة وبالتحديد الزمني من سنة ٦٠٥ ــ ٣٢٣ ق • م وباختصار فان على المتاجر او المستثمر لاملاك او اموال المعبد او الاموال الحكومية دفع ضريبة العشر او بعبارة ادق ١٠٪ من ارباحه •

وتشير النصوص المسمارية الى اخذ ضريبة العشر في مراكز المدن الكبرى التي اضحت مراكز اقتصادية هامة مثل مدينة الوركاء ومعبدها المعروف باسم E. AN. NA معبد الالهة عشتار والمعبد الابيض معبد الاله شمش في مدينة سبار ومعبد ايساكيلا معبد الاله مزدوخ في مدينة بابل وغيرها من المراكز •

وكانت الضرائب المعروفة باسم العشر تدفع للمخازن ـــ المعروفة باسم بيت كاري او سوتومو او في الاصــراء الـــذي يعــرف بأســـم bit Karē Sutummu وبخاصة عشر الاموال التي تتضمن الشعير والسمسم والتمر •

والمهم لدينا هو دفع ضريبة العشر عند بوابات المدن او المعابد ومن ذلك دفعها عند باب المعبد الابيض في سبار ina abulli ša Ebabarra لان ذلك قد يشير الى ان الداخل الى المدينة او المعبد يدفع ضريبة لانه سيتعامل بشكل او باخر تجاريا سواء كان مشتريا او بائعا •

وهناك اشارات في النصوص المسمارية على دفع بعض صائدي السمك عشر ماقاموا بصيده الى المعبد في مدينة الوركاء وهذا ربما دليل آخر على انهم دفعوا ذلك لبيعهم الحاصل في المراكز المخصص للبيع • وهناك اشارات في الكتابات المسمارية على دفع عشر مواد الفضـــة والنحاس او العـــاج او الاحجار الكريمة في لارسا والتي اتت اليها من الخليج العــربي والهنــــد للقصر وذلك مقابل تأمين الطرق وتوفير المكان اللازم لعرض البضائع المتاجر بها مثل الاقمشة المصدرة والمعادن والاحجار والاخشاب الموردة • وتدفع مثل تلك المواد او الاموال في مراكز التجـــارة bīt Kārim او في « المناء » Kāru او المحل الذي تباع وتشترى البضائع فيه •

ويوجد في النصوص المسمارية مايعرف بالاكدية ببيت العشر bītešrû والذي تدفع فيه الاموال المنقولة من فضة وغيرها من المعادن او المنتجات المادية والحيوانية • ويدفع العشر على المنتوجات الحرفية مثلما يدفع على المنتجات الاخرى كدفعة عن الاقمشة والحلي وعلى الشراب مثل الجعة وعلى المنتجات الحيوانية وتستلم مثل هذه الضريبة من قبل احد الموظفين المعروفين باســـم Ša muḫḫi ešrû «جابي العشر» واخذ العبران هذه الضريبة ووظفوها في

ثرواتهم عندما يقومون بالتقدمة الى الههم واخذها عنهم الغربيون خلال القرن السادس واستخدامها المشرفون على الكنائس • كما عرفها قبل ذلك اليونان بأسم dekate والرومان بأسم decuma والتي انتقلت اليهم عبر سوريا الى اليونان ثم الرومان • وفي تيماء بالجزيرة العربية عثر على نصوص مسمارية تشير الى دفع ضريبة العشر والتي ربما كانت تدفع الى معبد الاله سين الذي ربما شيده او اعاد تشييده على أقل تقدير الملك نبونائيد ، كما ظهر نظام ضريبة العشر في مصر وكانت تدفع من قبل التجار الايجيين • وفي نص من مدينة الحضر العربية جاء فيه ان « عبنا اردكلا وجديه بنابيت عشرتا » « اي أن السيد عبنا المهندس المعماري واصحابه بنا دار المكوس » •

كما عرفت ضريبة العشر وبنفس الاسم باللغة العربية في الاقطار العربية الاسلامية الاخرى وان العشر الخاص بالاراضي ابان حكم الدولة العربية الاسلامية ذو قيمة عالية بالنسبة للمجتمع الاسلامي وفي فترات مختلفة من حكم الدولة العربية الاسلامية •

وهكذا فان هذا المفهوم الاقتصادي ولد في ارض بلاد وادي الرافدين قبل اكثر من ٤٠٠٠ سنة وبقي الى وقتنا الحاضر وفي بعض الدول مثل فنلندا في اوربا كان تستخدمه حتى سنة ١٩٢٤م •

٢ ـ اساليب توسع الملكية الخاصة :

تأكيدا لما ذهبنا اليه في بداية بحثنا فان ملكية الارض في العصور التاريخية الاولى كانت محدودة ولكنها زادت بعد الالف الثاني ق • م وتوسعت اكثر في العصور اللاحقة • وتمكن الباحثون من تمييز نوعين من ملكية الارض ، تمثل النوع الاول بالملكية الخاصة المتوارثة أبا عن جد وتمثل النوع الثاني بما يعرف بملكية الاقطاعات الملكية او « الاقطاعية » مقابل تأدية الخدمة العسكرية • كما يمكن للفرد ان يحصل على قطعة ارض اما بواسطة الشراء

او بالتبني الحقيقي لاجـل ان يرث قطعـة ارض او بواسـطة الالتفاف على القوانين والحصول على قطعة ارض عن طريق ما يعرف بالتبني الخاص بالاموال غير المنقولة او ما يطلق عليه الباحثون تبني البيع
او بواسطة اشتراكه في الاعمال الزراعية ذات الطابع التعاوني والمكتفية ذاتيا، او عن طريق القروض لاهل الارض واثقالهم بضرائب او فوائد عاليـة مما يجبرهم على التخلي عن اراضيهم لقاء سداد ديونهم او اعالتهم مقابل التنازل عن ارضهم ، وهناك طرق لا تحصى تفنن بها كبار ملاك الاراضي للاحتيال على القوانين والاستيلاء على الارض وحتى على اصحابها ومن ذلـك ماورد في نصوص القرن الخامس عشر ق.م. الاقتصادية والقانونيـة وبخاصـة تلك النصوص التي جاءتنا من مدينة نوزى (قرب قرية تاركلان) في محافظة التأميم ومدينة اربخا (كركوك) ومدينة كوروخاني (تل الفخار) وغيرها من المواقع التي سكنت خلال هذه الفترة ومن تلك النصوص ما يعرف بنصوص القرض تيد نوتو Tidennūtu المشابهـة لنظام القرض الانجليزي المعـروف باسـم
او الوثائق الخاصة بدخول بعض الافـراد في التعاونيـات والمعروفة باسـم نصوص آخوتي ahūtū (« التاخي » او المشـاركة) وبوثائق نقل الملكيـة المعروفـة باسم šupcultu او ramgurtu او lišānšll او بواسطة mārūtu اي « النبني » وبانـواع مختلفـة من هذا الشكل من اشكال نقل الملكية .

ان الاسلوب الاخير لنقل الملكية اي « التبني » وبخاصة تبني البيع من الاهمية بحيث دفعنا الى تناوله باختصار فمنذ العشرينات من هذا القرن شخص الاستاذ كاد Gadd طبيعـة هـذا النوع مـن التبني وذلـك من خـلال تاكيده على الطبيعة الاقتصادية له . واطلق الباحثان كيرا وشبايزر على التبني مصطلح تبني البيع« Saleadoption » وقبلت هذه التسمية من قبل معظم

المعنيين بدراسة الاقتصاد • وفي الاونه الاخيرة مال البعض من الباحثين لتسمية هذا الاسلوب « بالتبني » الكاذب او التبني الخاص بتحويل ملكية الاموال غير المنقوله وشاع المصطلح الاخير مؤخرا •

ومن خلال الدراسة المستفيضة للباحثين تتبين لهم ان السلطة قد منعت بيع الاراضي بعد ان اقطعتها الى من يستحقها من الناس • وذلك بعد الهجرة الواسعة لشعوب هندو ـ اوربية الى المناطق الشمالية الشرقية ومنطقة كركوك وربما خوفا من استحواذهم على اراضي تمكنهم من البقاء او النفوذ والتغلغل بين مجتمع بلاد وادي الرافدين وتحسبا للخطر الذي تمثله مثل تلك الحركة السكانية الواسعة التي استهدفت البلاد بكل نظمها الادارية والاجتماعية وبخاصة المؤسسات الموجودة في المدن • وبالفعل فلقد تمكن « الاقطاعيون » وبواسطه الحيل القانونية التي التفوا بها على ذلك القانون •

فنقرأ في مئات من النصوص ، ان اكثر من مائتي فلاح قد تبنوا اقطاعيا واحدا ، واصبح ابنهم البكر والمستحق للحصة المفضلة من الاراضي او جميعها والمنصوص عليها وعلى حدودها في العقد المبرم ، لقاء هدية « أي الثمن » يقدمها الاقطاعي لمتبنيه ، وهذا النوع من العقود يستند شرعا على المواد القانونية الخاصة بالتبني الحقيقي •

ان استعراض احد تلك النصوص قد يوضح ماذهبنا اليه ، والاتي ملخص لاحدى تلك الوثائق : عقد تبني بين الطرف الاول والطرف الثاني ، واستنادا اليه سيعطي الطرف الاول « المتبني » للطرف الثاني « المتبني » قطعة ارض في المدينة (المنصوص عليها في العقد) غرب الحقل العائد (للشخص المنصوص عليه في العقد) • واستنادا الى هذا العقد ايضا اعطى الطرف الثاني (المتبنى او « الاقطاعي ») الى المتبني الفلاح (صاحب الارض) عشر وزنات من الشعير (وكذا) من الفضة كهدية له • واذا ما ادعى احد بخلاف ذلك فعلى الطرف الاول (المتبني وصاحب الارض) ان يزكي الطرف

الثاني • ويأتي بعد ذلك شـرط جزاء ينص على دفع من" من الذهب ومن" من الفضة كعقوبة تترتب على اخلال طرفي العقد ببنوده • كما ينص على عقـد الاتفاق في بوابة المدينة (المنصوص عليها) واستنادا للوائح والقوانين المرعية في تلك البوابة • ثم يختم العقد بقائمة من الشهود وبضمنهم كاتب العقد ، ويوقع اللوح بواسـطة اختام الطرفين والشهود وبعض الاداريين وكاتب العقد •

بمثل هذه الطريقة وغيرها تمكن كبار ملاك الاراضي والاثرياء الموسرين في المدن من الاستحواذ على اراضي الفلاحين والجنود وبمثل هذه الاساليب الملتوية استطاع الكثير منهم تحويل عدد كبير من هؤلاء الفقراء الى اقنان او عبيد للخدمة في اراضيهم الواسعة التي تقع في المدينة او خارجها كما تمكنوا بنفس الطرق من الاستحواذ على البيوت وورش العمل او امتلاك الصناع المهرة ومع زيادة نفوذهم الاقتصادي زاد نفوذهم السياسي ايضا •

٣ ـ نتائج بحث اقتصاد المدن وتوجيهها :

في نهاية هذا الفصل لابد من الاشارة الى ماتوصل اليه الباحثون المعنيون وصف نتائج عملهم لتدعيم المفاهيم او النظم الاقتصادية التي ينتسون او التي يعملون على تعزيزها • فالعلماء السوفيت يرون ان اقتصاد المدن العراقيـة القديمة كان اقتصادا اشتراكيا سادت فيه الملكية الاشتراكية للدولة كمـا سادت فيه ملكية الكوميونات الزراعية ذات الاقتصاد المتكامل والاستقلال الذاتي • وان تطور الاقتصاد والمجتمع كان بفعل طبقة العبيد « ثـم طبقة الاقطاع » وصراعهما مع بعضهما ومع « الطبقات » الاخرى في المجتمع •

اما العلماء الرأسماليون فعلى الرغم من اقرارهم بوجود «الملكية الجماعية» وبعض المفاهيم الاقتصادية الاشتراكية الا انهم يرون قوة سلطة المعبد ورجال الدين والنظم الاقتصادية « الرأسمالية » « والاستعمار » لابل « الامبريالية »

هي اساس ديمومة الرقي الحضاري والازدهار الاقتصادي والاجتماعي لمدن بلاد وادي الرافدين ٠

وعبر دراستنا المستفيضة للوثائق والنصوص الاقتصادية التي تؤلف اكثر من ٩٠٪ من مجموع النصوص المسمارية المعروفة والتي تقدر بمئات الالوف والمكتوبة باللغتين السومرية والاكدية ، وحرصا منا على ابراز جوانب الفكر الاقتصادي العراقي القديم بحجمها وزخمها الفعال فلقد عمدنا الى حذف التفاصيل والاقتصار على طرح الاسس المهمة للجوانب الاقتصادية وبشكل نقاط مركزة جدا ادراكا منا ان مثل هذا الموضوع يصلح لبحث مستفيض قد يأخذ حجم كتاب في الاقل ٠

ومن خلال دراستنا توصلنا الى الاستنتاج التالي اننا نتفق والعلماء السوفيت ان الاقتصاد السائد كان « اشتراكيا » ولكننا نختلف في تقييم حجم القوة الفاعلة والمسيرة في المجتمع أي « طبقة العبيد » او «طبقة الاقطاع » والتي لم يكن لها الدور الاساسي في حركة المجتمع كما مر بنا كما انه لاتوجد اشارات في النصوص المسمارية الى صراع طبقي حاد مثلما تصوره المبادىء الماركسية اللينينية ٠ ونتفق ايضا مع علماء الغرب بان ما اسموه «الرأسمالية» وبخاصة مايتعلق منها بالملكية الخاصة كانت موجودة ايضا ٠ اما ما اسموه « بالاستعمار » « والامبريالية » واعتبارهما اساس تطور الاقتصاد والازدهار الحضاري فلنا فيه رأي اخر يخالفهم وينقض ماذهبوا اليه ٠

وملخص استنتاجنا الذي توصلنا اليه عبر دراسة المفاهيم الاقتصادية الشائعة هو ان اساس ، تقدم وازدهار وديمومة السمو الحضاري الاقتصادي والسياسي لبلاد وادي الرافدين كان اشتراكية الدولة وشيوع « القطاع الاشتراكي او نظام التعاونيات ذات الاقتصاد المتكامل والحكم الذاتي الخاضع للدولة واشرافها عبر التكافل الموجود بين الطرفين ، اضافة الى وجود وشيوع الملكية الفردية او الخاصة المشتركة مع الدولة المتمثلة بالمعبد او القصر ،

ويمكن مقارنة ذلك • بما يعرف بالقطاع المختلط » الذي ارتبط مصيرباً بالدولة والمجتمع والوطن •

اما الرقي الحضاري اثناء ما يسميه الغربيون بالاستعمار والامبريالية وبخاصة مايتعلق بالفترة الاشورية الحديثة فنرى فيه سعيا حثيثا من اجل الوحدة الوطنية والعمل على توحيد بعض الاقطار والقبائل العربية اي بداية الشعور بضرورة الوحدة القومية سيما وانهم وعلى حد قول الاستاذ البريطاني ساكز يعتقدون بوجود « امة اشورية » انذاك • اما حروبهم مع الاقطار والبلدان الواقعة خارج الوطن العربي فكانت حروبا عادلة من اجل دفع الخطر والقضاء على تحديات الاعداء اضافة الى تأمين الطرق والمسالك التي تربطهم والعالم الخارجي •

ومن الجدير بالملاحظة ان استخدام الاساليب الرأسمالية وبخاصة نمو رأسمالية الدولة والغنى الفاحش الذي حققه بعض الموسرين على حساب الشرائح الاجتماعية الاخرى كان السبب الاساس لارتباط بعض الحكام الخونة وكبار الملاك والتجار بالبلدان الاجنبية والذي ادى بطبيعة الحال الى تدهور الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والحد من النمو والازدهار الحضاري ، الا ان ذلك لم يدم طويلا وسرعان ما انتبه اليه عامة الشعب وعملوا على الاطاحة بمثل تلك الانظمة او ان البلاد اصبحت تحت رحمة الاجنبي الغازي والطامع الى ان توفرت لها القيادات المخلصة والتي طالما ظهرت واعادت الامور الى مجاريها السابقة : وبمنظور ومفهوم اقتصادي ، اجتماعي يعتمد اساسا على الاساليب التي ذكرناها في استنتاجنا ويعمل جاهدا على توفير عدالة اجتماعية اساسها البنية الاقتصادية التي تعتمد على نظام اشتراكية الدولة اساسا مع السماح بتنامي رأس المال الخاص « المرتبط مصيريا بالدولة والوطن والمسيطر عليه من قبل الحكومة » او بالعمل على اشاعة الجمعيات التعاونية ذات الاقتصاد المتكامل والمستقل ذاتيا ولكنه مرتبط مصيريا بالدولة

والمجتمع والبلاد ككل ويقع عليه مايقع عليها ويصيبه مما يصيبها من خيرات ونعـم .

١ ـ خريطة بمواقع مدن عصر فجر السلالات

٢ ـ اطلال مدينة اور من الجو .

٣ ـ اعمال نحت دينية

٤ ـ تمثال الكاتب دودو

٥ ـ اواني فخاريــة

٦ ـ اواني حجرية

٧ ـ نفائس من الذهب

٨ ـ حلي مصنوعة من معادن مختلفة واحجار كريمة

٩ ـ حلي مصنوعة من احجار كريمة متنوعة .

١٠ـ حلي من الفضة والذهب

١١ـ حلي معمولة من الاحجار والذهب

١٢ـ صناعة الاختام الاسطوانية

١٣ـ صناعة الاختام الاسطوانية

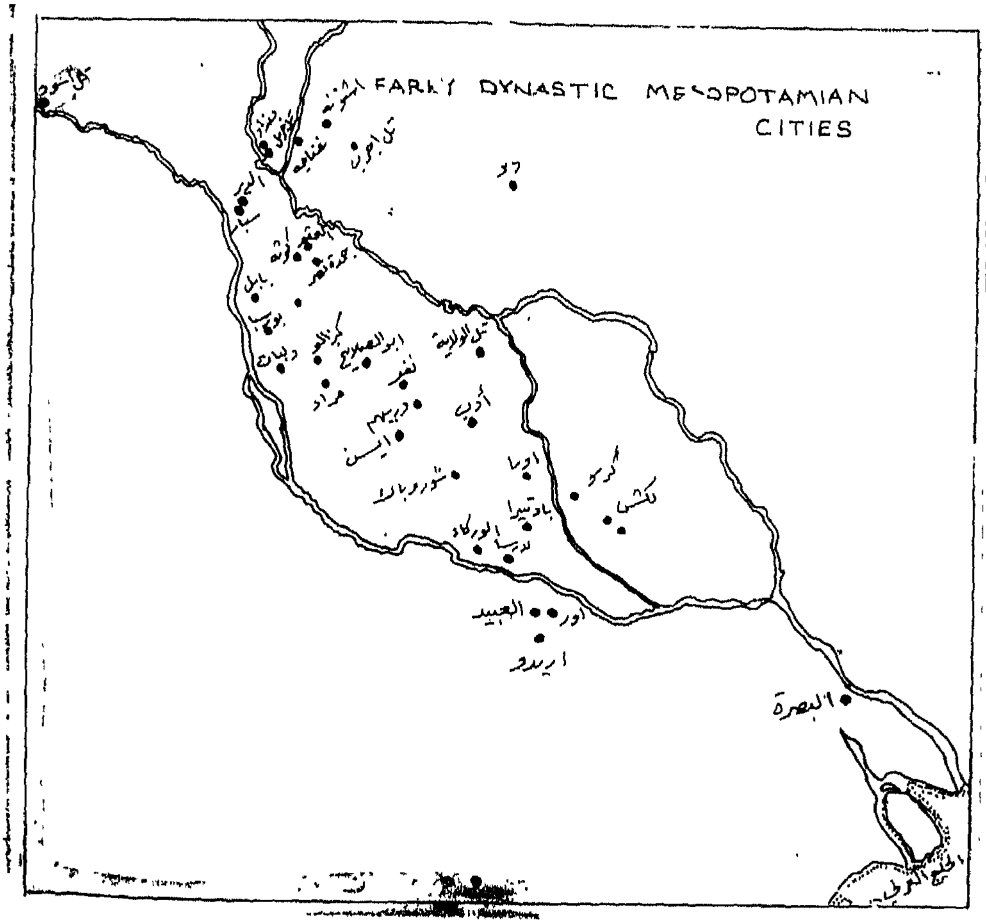
١٤ـ كتابات صورية ومسمارية

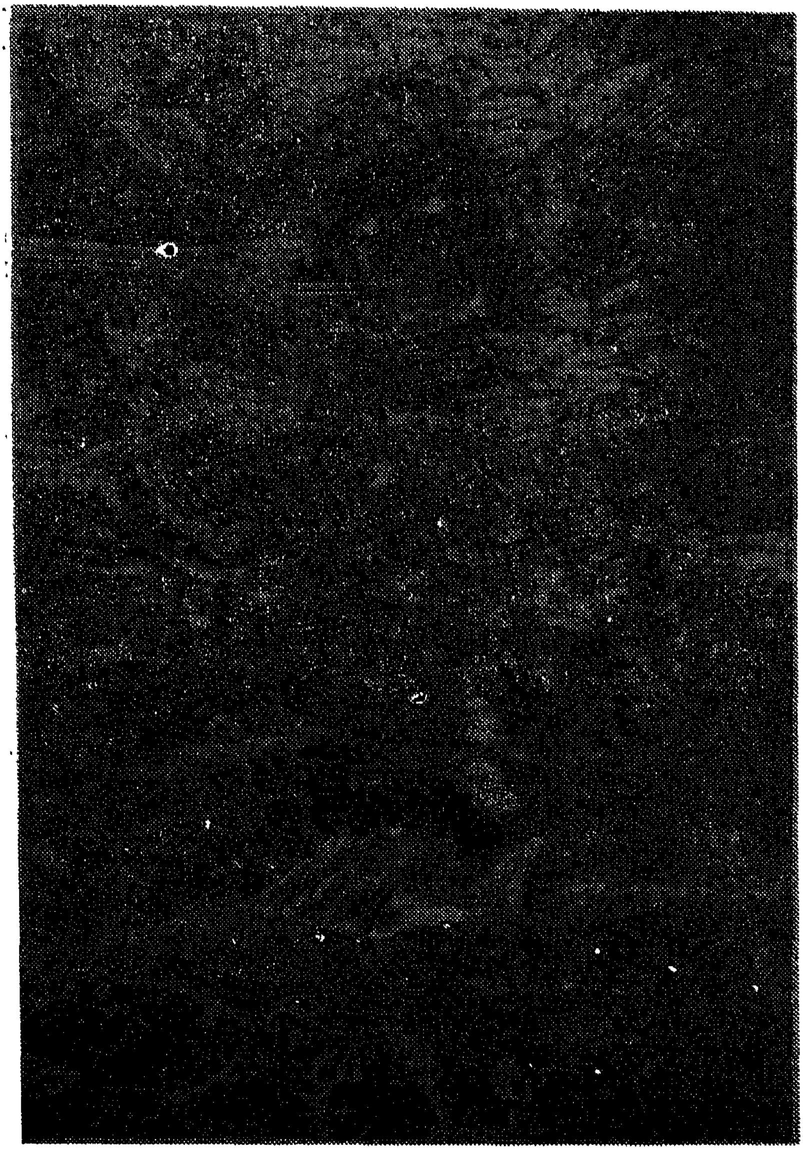
١٥ـ نص خاص بعقد . « تبني كاذب » .

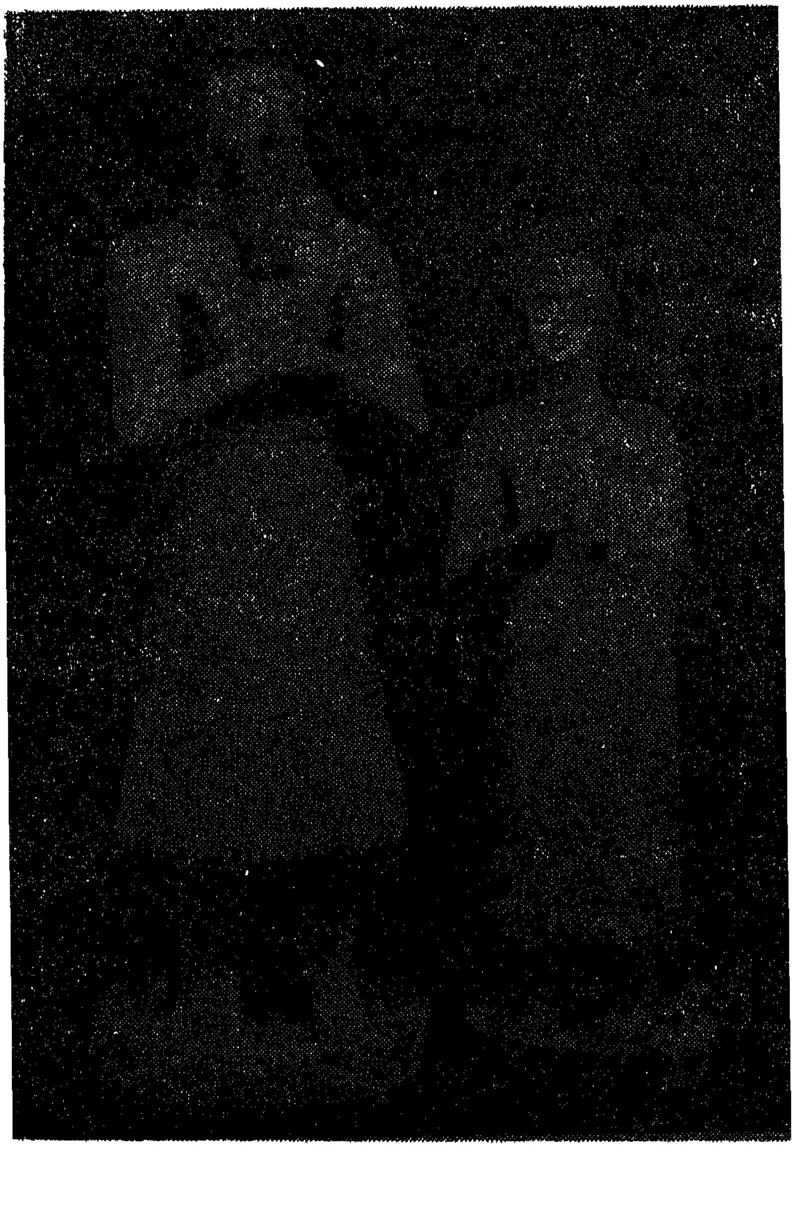
١٦ـ لوحات من العاج.

١٧ـ فوق : لوح فخاري ربما يمثل سيرك .

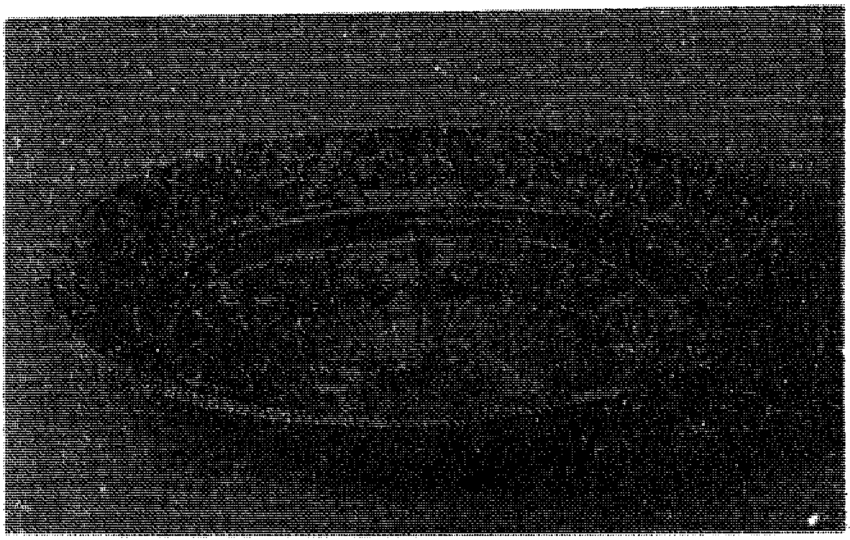
تحت : قوارير زجاجية اشــورية .

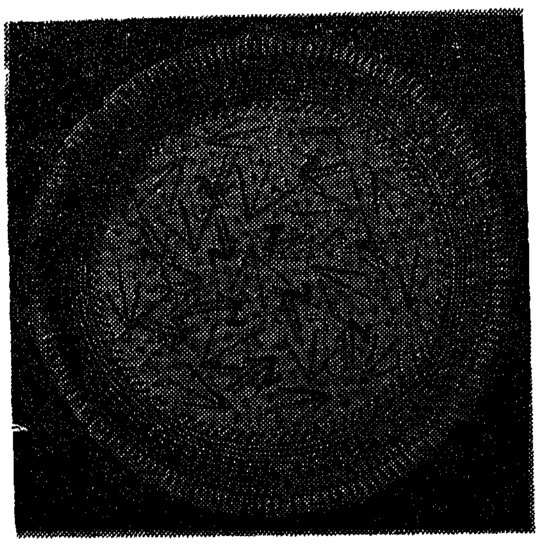

EARLY DYNASTIC MESOPOTAMIAN CITIES
تل اجرب
سبار
بابل
ابو الصلابيخ
نفر
تل الولاية
أدب
ايسن
شوروباك
اوما
بادتبيرا
الوركاء
لارسا
اور
العبيد
اريدو
جرسو
لكش
البصرة

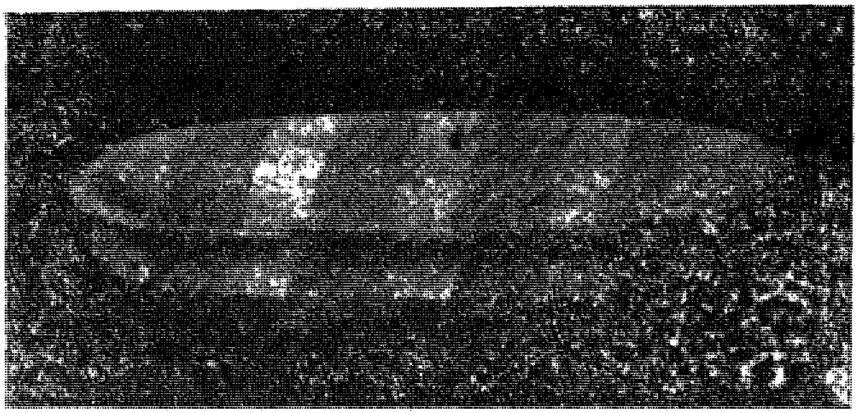




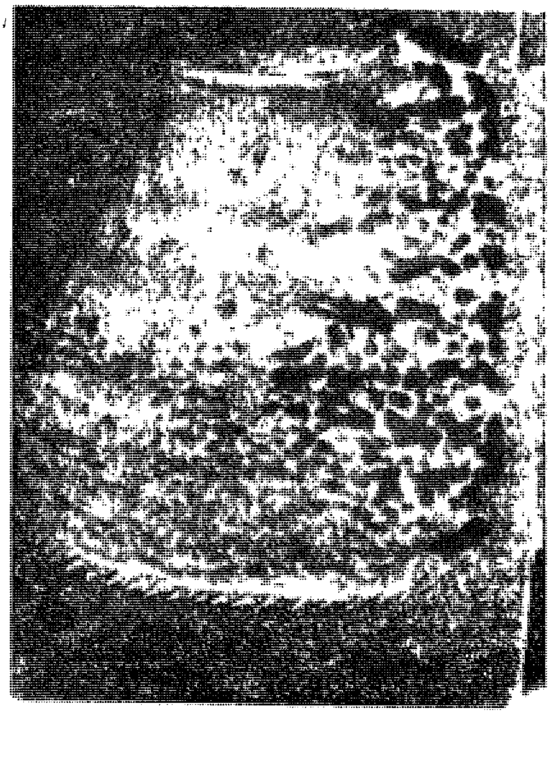


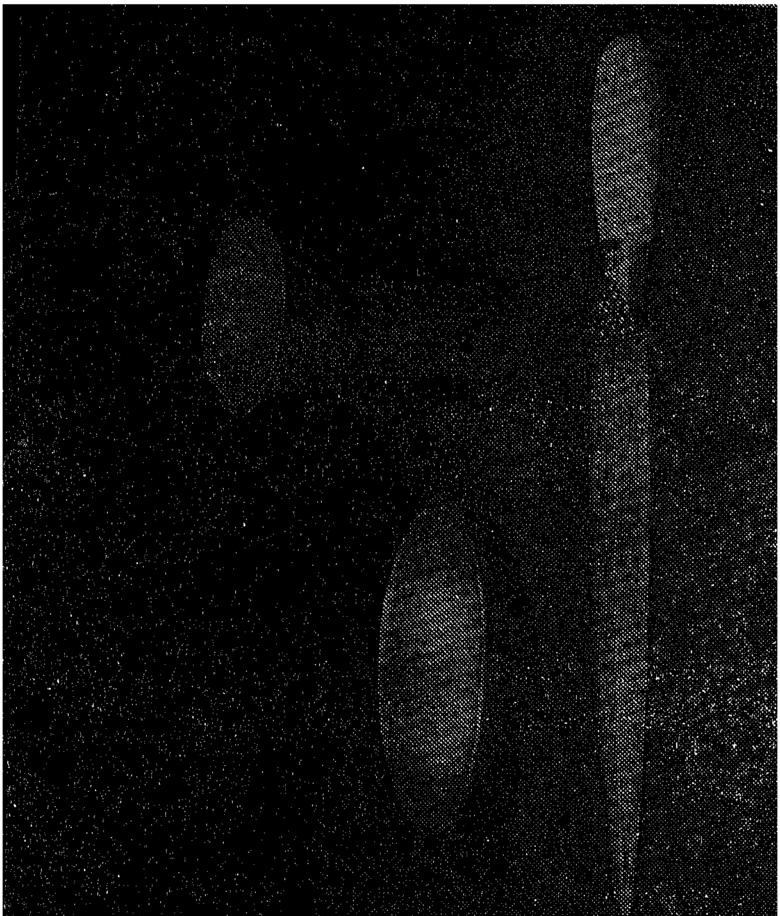


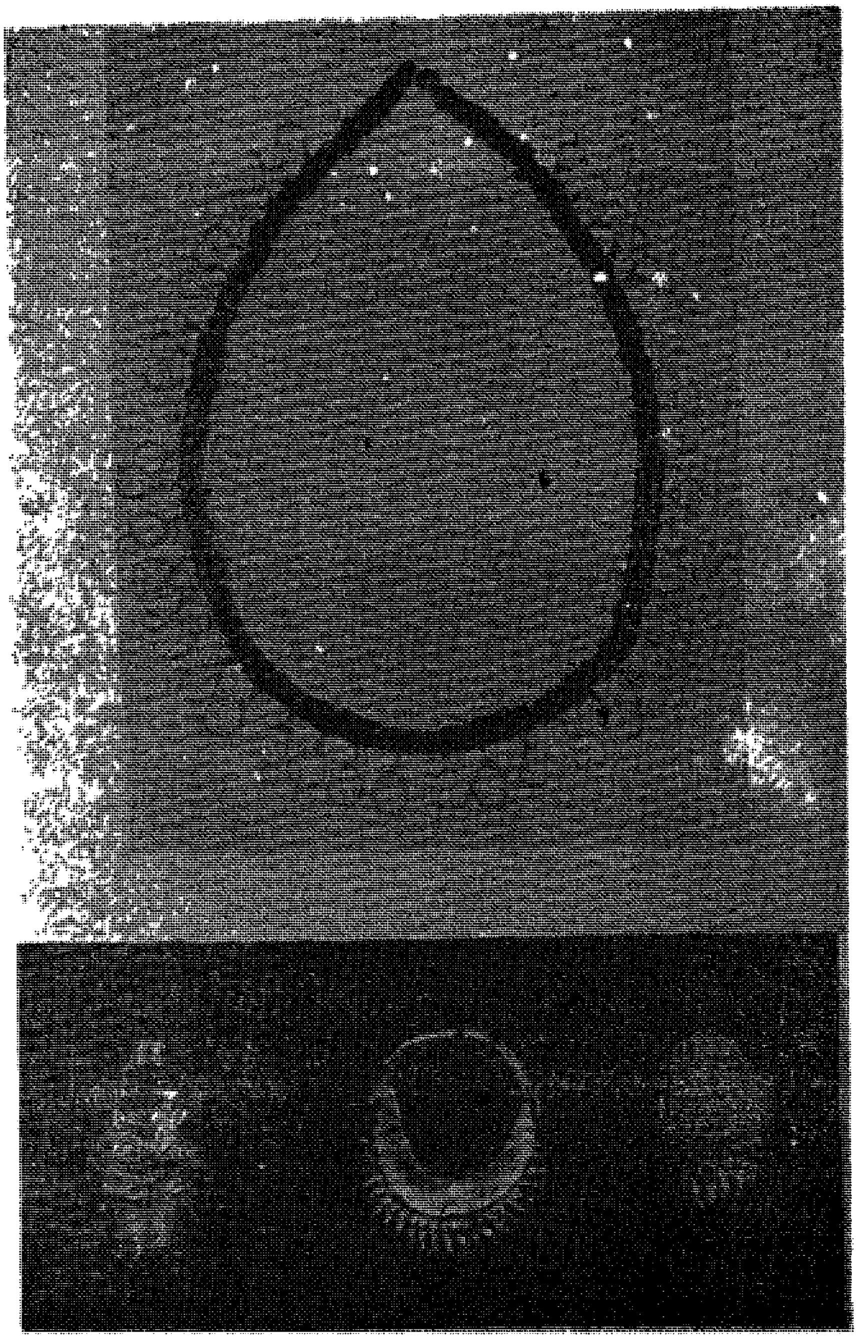


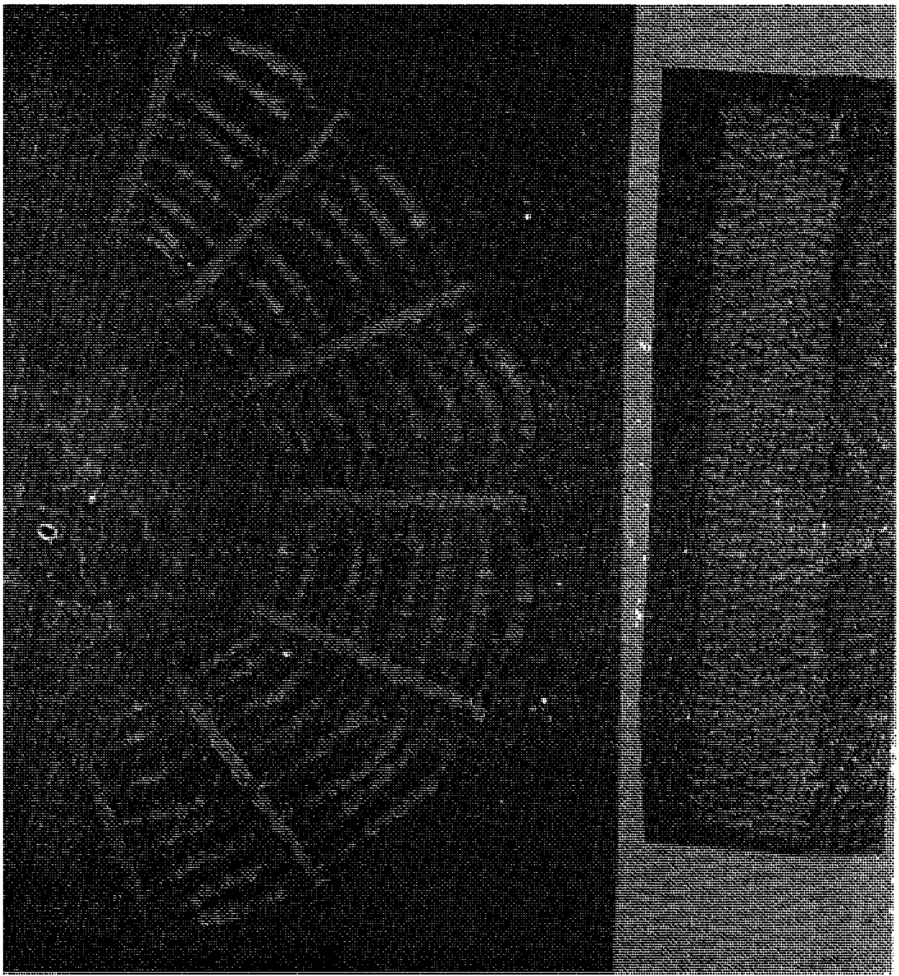


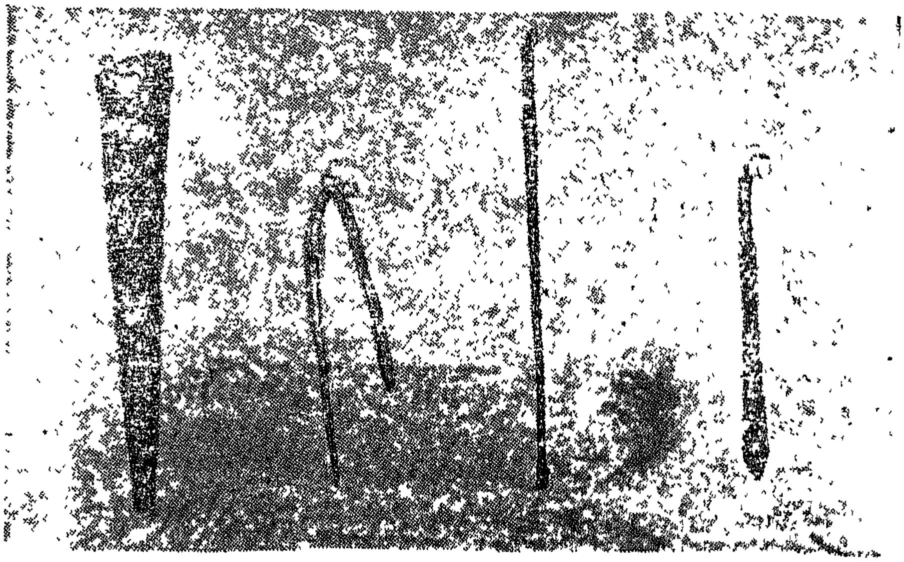


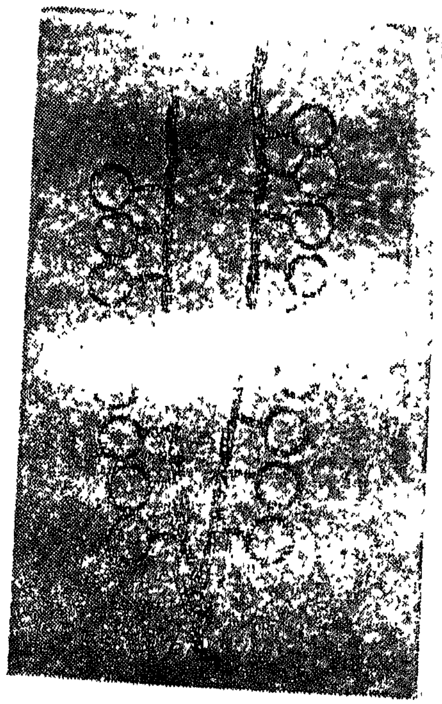


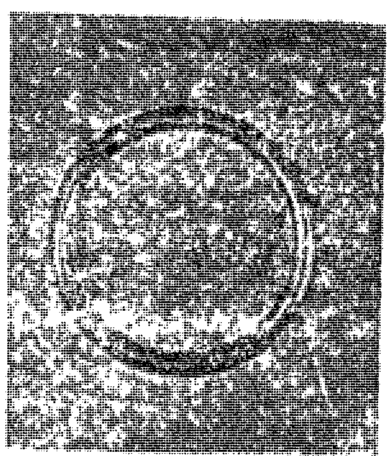


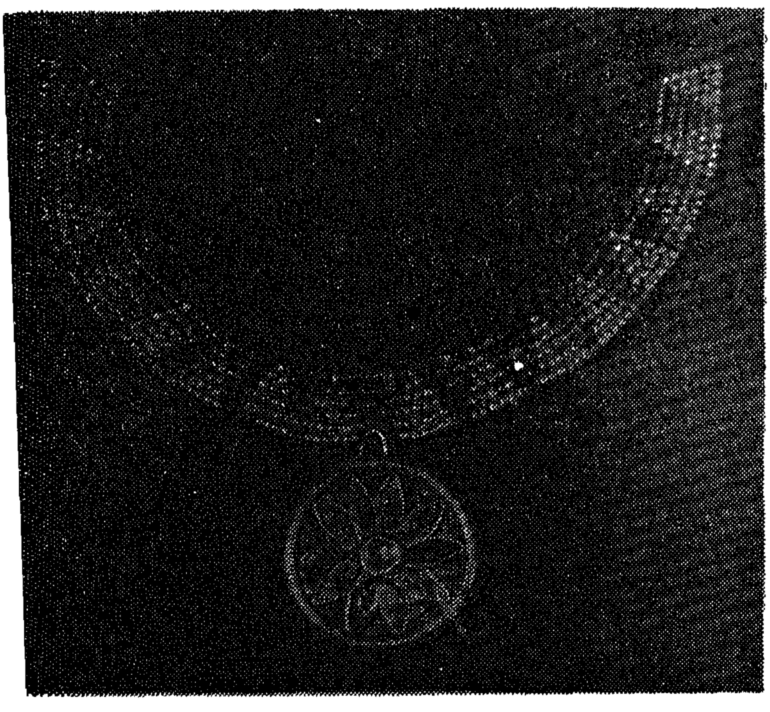


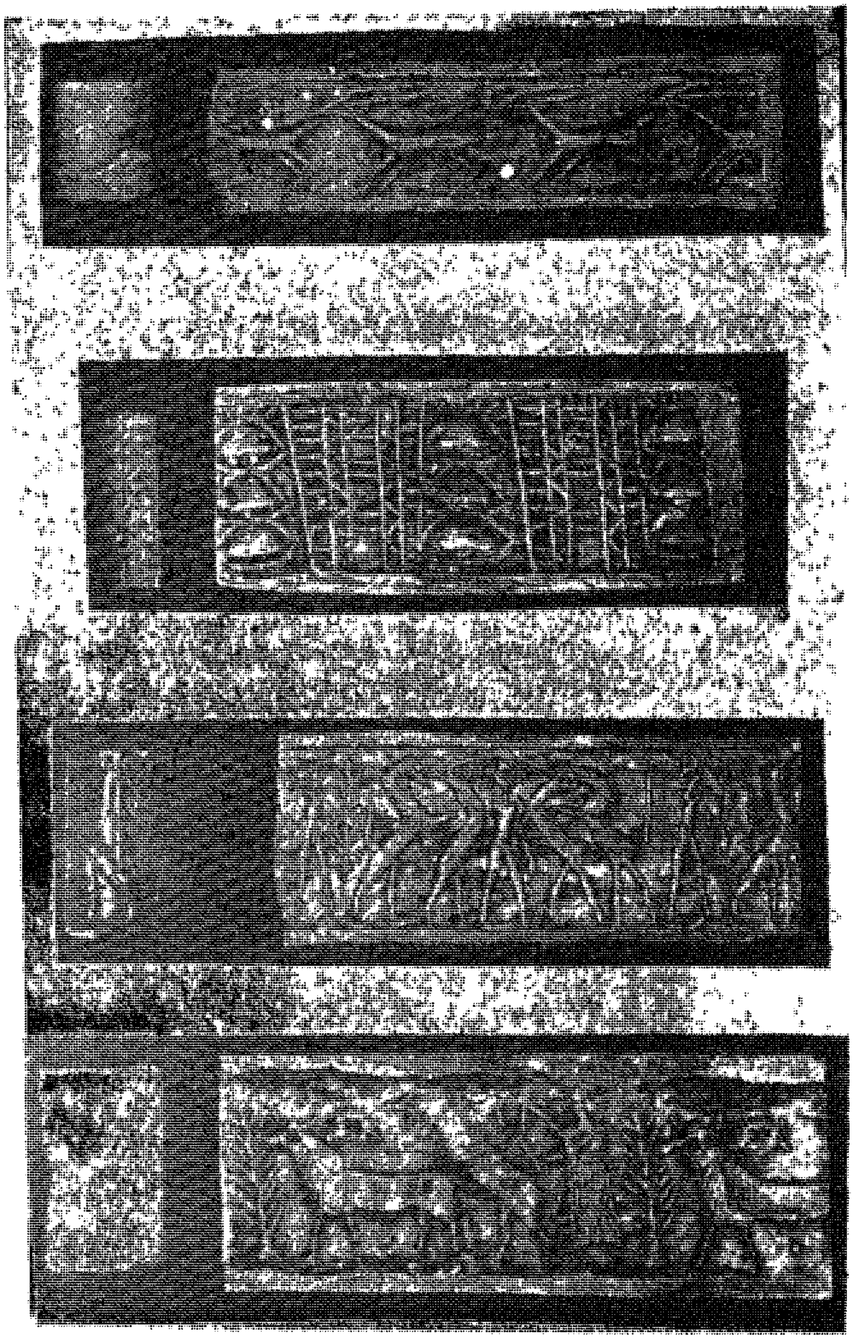




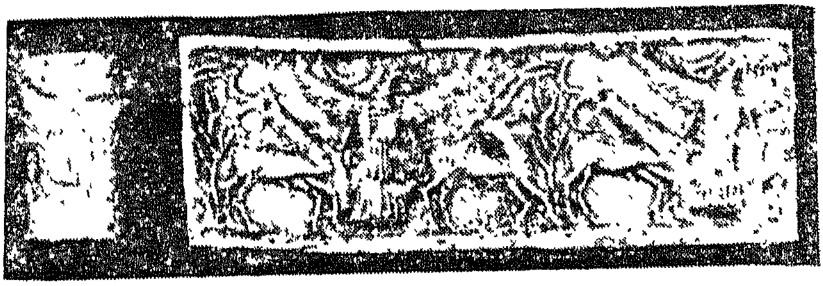


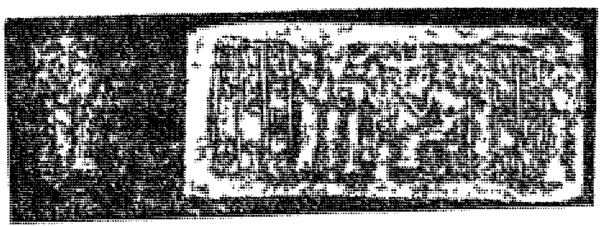


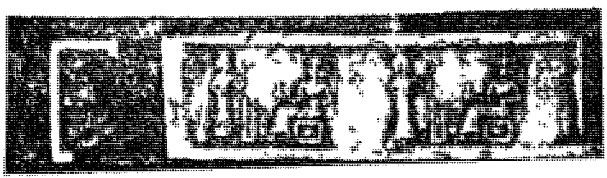


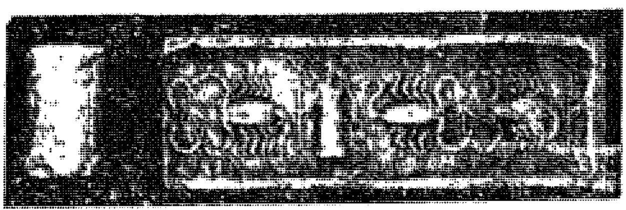


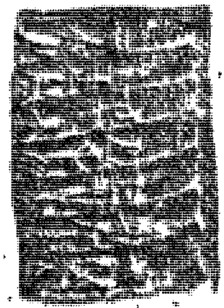




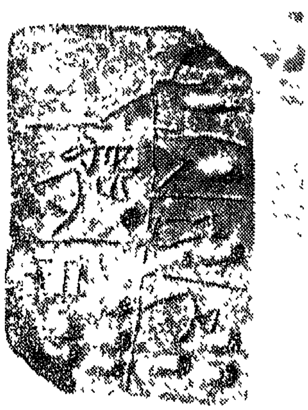


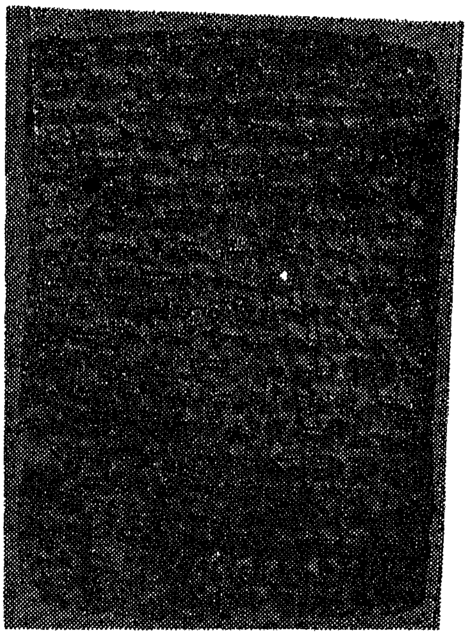


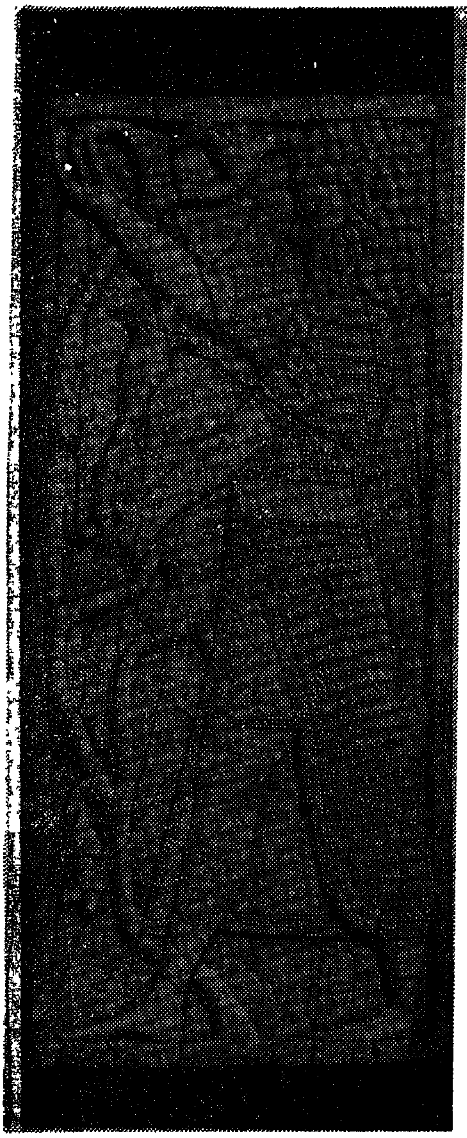
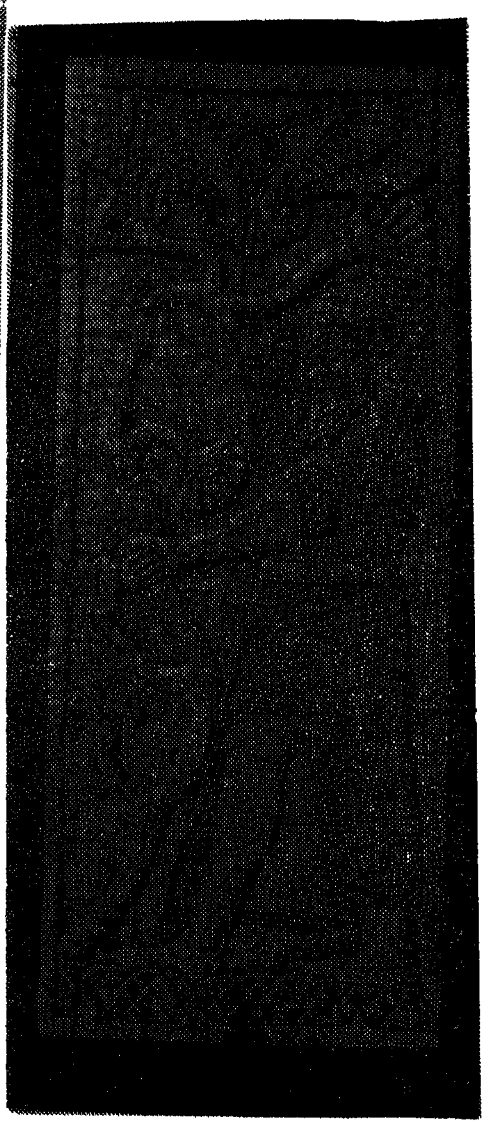




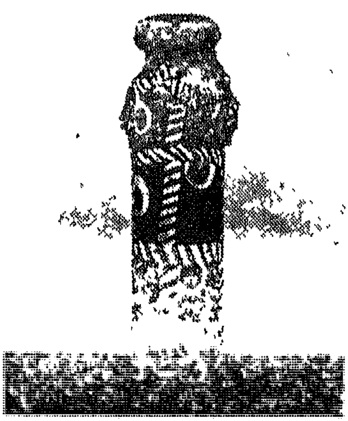












Adams, R. Mc.C C., Lard Behind Baghdad. University of Chicago Press, 1965.

Adams, R. Mc. C., **The Evolution of Urban Society. Early Mesopotamia and Prehispanic Mixico, Chicago, 1966.**

Adams, R. Mc. C., **Hearti and of Cities : Surveys of Ancient Settlement and land use on the Central flood plain of the Euphrates,**

Adams, R. McC., **Property rights and functional tenur in Mesopotamian rural communties. In Societies and languages of the ancient Near East** : Studies in honour of I.M. Diakanoff edited by M.A. Dandamaver et al., pp. 1-14 London 1982.

Adams, R. Mc. C., Sanders, W. and Wright, H. **On the Evolution of Complex Societies.** Essays in Honour of Harry Hoijer Malibu 1984.

Al-Rawi, F.N.H. **Studies in the Commercial Life of an Administrative Area of Eastern Assyria in the Fifteenth Century BC**, based on published and unpublished Cuneilorm Texts, unpublished Ph. D. Thesis, U.C.C., U.K. 1977.

Chiera. E., **Legal and Administrative Documents from Nipput chiefly from the Dynasties of Isin and Larsa,** Publichtions of the Babylonian Section, Vol. VIII No. 1, Pennsylvania, 1914.

Chiera, E., **Old Babylonian Contracts** Publications of the Babylonian Section Vol. VIII. No. 2., Pennsylvania, 1922.

Chiera, E., **They Wrote or Clay,** University of Chicago Press, 1959.

Diakanoff, I.M., **Ancient Mesopotamia,** Moscow 1969.

Diakanoff I.M. **Socio - economic classes in Babylonin and the Babylonian concept of social stratification.** In Gesellschaftsklassen in

Alten Zweistromland in den angreusenden Gebieten - XVII. Rencontre assyriolofiique internationale. edited by D.O. Edzard, pp. 41 - 52, 1972.

Diakanoff, I. M. **Slaves, helots and Serfs in early antiquity,** Academiae Scientarum Hungaricae, Acta Antiqua 22 : 45-78, 1974.

Dijk J. Van **Cuneiform Texts : Old Babylonian Juridicial Texts.** Texts in the Iraq Museum 4. Wiesbaden : Otto Harassowitz, 1967.

Driver, G. R. and Miles, J.C. **The Babylonian Laws,** 2 volumes Oxford, 1968.

Figulla, H. H., and W. J. Martin, **Ur Excavations, Texts : Letters and Documents of the old Babylonian Period,** Philadelphia, 1953.

Foster, B. R., **Commercial activity in Sargonic Mesopotamia,** Iraq 23 : 31-43 1977.

Gelb, I.J. **On the alleged temple and state economies in another Mesopotamia.** In Studi in Onore di Edoardo Volterra, Vol.6, pp. 137-154 Rome 1969.

Gelb, I.J., **Prisoners of war in early Mesopotamia.** Journal of Near Eastern Studies 32 : 70-98 1973.

Gelb, I.J. **Houshold and family in early. Mesopotamia.** In State and temple economy in the ancient Near East, edited by E. Lipinski. Orientalia Louvasiensia Analecta 5 : 1-99, 1979.

Gordon, E.I., **Sumerian Proverbs : Glimpses of everyday life in ancient Mesopotamia.** Philadelpia : Museum Monographs, 1959.

Grayson, A. K. and Levine, L. D. **Bulletin 12.** The Society for Mesopotamian Studies, Canada, 1986.

Hamblin, D. G., (ed.) **The First Cities, The Emergence of Man** Time Life Books, 1973.

Harris, Rivkah, **Ancient Sippar**, Neder Lands Historisch - Archaeolo gisch Instutex te Istanbul, 1975.

Johns, C.H.W., **Babylonian and Assyrian Laws**, Contracts and Letters, New York, 1904.

Kramer, S.N., The Sumerians; Their history, culture and character, University of Chicago Press, 1963.

Laessoe, J., People of Ancient Assyria, Routledge and Kegan, 1963.

Larsen, M.T. The Old Assyrian city.- state and its colonies. Mesopotamia 4. Copenhagen : Akademisk Forlaq, 1976.

Levey, M. Chemistry and Chemico Technology in ancient Mesopota- Lectwes, 1978, Oxford, 1979.

Moorey, P.R.S. (ed) **The Origins of Civilization** Wolfson, College

Müller, V., "Types of Mesopotamian Houses, **JAOS**, 60 pp. 151-180, 1940.

Oppenheim, A. Leo, Ancient Mesopotamia, U.S.A" 1965.

Poebel, A., Babylonian Legal and Business Documents from the time of the First Dynasty of Babylon, chiefly from Nippur. The Babylonian Exp. of the Univ. of Pennsylvania, Series A: Cunei- from Texts, Vol. VI, pat 2, Philadelphia : University of Penny- slyvaina, 1909.

Postgate, J. N., The Role of the Temple in the Mesopotamian Seculs Community. In Man, Settlement and Urbanism, Cambridge, 1972.

Salonen. E., "Tithe - The Oldest known form of taxation", Baghdad, Archaeology Dept. 1984.

Saggs, H. W. F., The Greatness that was Babylon, Sidgwick and Jackson, London, 1966.

Saggs, H.W.F., Everyday Life in Babylonia and Assyria, B.T. Bats- fard Ltd., London, 1965.

Starr, R. F. S., Nuzi; Report on the Excavations at yongan Tope Near Kirkuk, Iraq. Conducted by Harvard University in Conjunction with the American Schools of Oriental Research and the University Museum of philadelphia, 1927-31, with Appendixes by C.R. Shute, R.W. Ehrich, H.W. Elliott, R. J. Gettens and E.R. Lacheman, Vol 1, Text Harvard University Press, 1939, Vol. 2., Plates and Plans Harvard University Press, 1937.

Stone, E.C., and Paul. E. Zimansky, Old Babylonian Contracts from Nippur I, Oriental Institute Microfiche Archives Vol. I. Chicago 1976.

Stone, E.C., Economic Crisis and Social upheaval in Old Babylonian Nippur. In Mountains and Lowlands : essays in the archaelogy of greaters Mesopotamia edited by L.D. Levine and T.C. young, Jr., pp 267-289 Bibliotheca Mesopotamica 7, Malibu, 1977.

Stone, E.C., The Social role of the naditu women in Old Babylonian Nippur, Journal of the Economic and Social History of the Orient 25 : 50 - 70, 1982.

Sweet, R. F. G., On Prices, moneys and money uses in the Old Babylonian period Ph. D. dissertation, University of Chicago, 1958.

Veenhof, K.R. Aspects of Old Assyrian trade and its terminology, Studia det Documenta ad Iura Orientis Antiqui Pertinentia 10, Leiden : Brill 1972.

الفصل الثامن

مدن القوافل والحاميات العسكرية

١ ـ الحضـــر

الدكتور واثق اسماعيل الصالحي
كلية الاداب ـ جامعة بغـداد

تعتبر الحضر من المدن الخالدة في تاريخ العــراق القديم لانها تمتد في مظاهرها الحضارية الى مفردات العناصر العراقيــة الاقدم عهدا ، ومن المدن المهمة في تاريخ العرب قبل الاسلام لانها كانت مدينة محصنة منيعة استوطنت فيها القبائل العربية ولجأت اليها ودافعت عنها عند تعرضها للخطر الذي احدق بها بسبب موقعها الجغرافي المهم ولاهميتها السياسية ولازدهار اقتصادها .

يتميز موقع المدينــة ، الذي يبعد ٦٠ كم عرب مدينة آشــور العاصمة الاولى للاشوريين و١١٠ كم جنوب ــ غرب مدينة الموصل ، بصفات سوقية (استراتيجية) اهمها موقعهــا الجغرافي الذي يسيطر على الطــرق والمسالك البرية التجارية والعسكرية المحاذية لنهري دجلة والفرات ووفرة المياه العذبة التي تنبع من عيون عديدة وحيــث تتجمع مياه الامطــار الغزيرة في المناطق القريبة منهــا ، وقد بنى الحضريون عددا كبيرا مــن الابار يتميز بعضــها

بجودة مياهه الصالحة للشرب ، وقد عثر عليها في معظم مرافق المدينة التي امتدت اليها معاول المنقبين • ويمر مجرى وادي الثرثار على بعد ٣كم الى الشرق منها حيث ترفده عيون وينابيع وجداول وتكثر فيه المياه طيلة فصول السنة وتقل ايام الصيف •

ومن المحتمل ان في أرض الحضر كانت تقوم زراعة ولكن بمدى محدود • كتب المؤرخون الكلاسيكيون عن الحضر واشادوا بتحصيناتها الدفاعية واستحكاماتها العسكرية المنيعة وانها المدينة الوحيدة التي تحدت عدوان جيوش الاباطرة الرومان بصمودها الرائع وببسالة اهلها مما آثارت الحسرة في نفوسهم وكتب عنها المؤرخون العرب وعن ضخامة ابنيتها وذكروا بحزن مصيرها •

زار الحضر عدد من الرحالة الاجانب خلال القرن الماضي ووصفوا باختصار معالمها الشاخصة آنذاك ضمن كتبهم عن بلاد مابين النهرين وفي مطلع هذا القرن قام الالماني والترأندريه ، الذي كان ينقب في مدينة آشور ، بزيارات عديدة للمدينة ووضع كتابا عن ابنيتها وأسوارها ومقابرها في عام ١٩١٣ بعد أن نشر وصفا مختصرا لها في كتيب صدر في عام ١٩٠٨ وأخذت المؤسسه العامة للآثار على عاتقها اجراء التنقيبات في المدينة منذ ربيع عام ١٩٥١ ضمن مواسم متعاقبة استمرت حتى الوقت الحاضر واستطاعت الكشف عن العديد من مبانيها وخاصة ابنية المعبد الكبير الذي يتوسط المدينة ومجموعة من المقابر ودور السكن وبوابتين من بوابات المدينة الاربعة اضافة الى ثلاثة عشر معبدا صغيرا او مزارا خارج المعبد الكبير كانت مخصصة لعبادة آلهة المدينة • وعثرت البعثات العراقية نتيجة اعمال التنقيب والصيانة التي صاحبتها منذ عام ١٩٦٠ على كنوز من الاثار زينت متاحف القطر كافة وخاصة المتحف العراقي •

زودتنا التنقيبات بمعلومات مهمة عن التحصينات والاستحكامات العسكرية للمدينة اثبتت بأن سورها الرئيسي الحالي شبه الدائري المتضمن

العديد من الابراج والقلاع قد تم تشييده خلال الفترة بين القرن الاول قبل الميلاد والنصف الاول من القرن الاول الميلادي ومن المحتمل ايضا ان حفر الخندق المحيط بها من كافة جوانبها قد تم في هذه الفترة ، مما يشير واستنادا الى دلائل اثرية الى أن الحضريين التجأوا الى المعبد الكبير ، داخل سوره القديم المدعم بطلعات نصف دائرية اثناء فترات الخطر قبل احاطة مدينتهم بسورها الحالي ، وقد شيد هذا السور من اللبن المنتظم (شكل ١) وكان عرضه ثلاثة امتار يقوم على أسس من احجار مهندمة قد ترتفع مترين فوق مستوى الارض الطبيعية ، وزيادة في مناعته ومتانته فقد زود بالعديد من الابراج ، قد يزيد عددها عن ١٦٣ برجا ومجموعة من القلاع الحجرية الصلدة وظيفتها الاساسية دفاعية اضافة الى استخدام سقوفها لوضع المدافع والمعدات الحربية المختلفة • ويحيط بالسور الداخلي خندق يتراوح عمقه بين ٥ـ٤ امتار وبعرض ١٨امتار وجانبه القريب من المدينة بني بشكل جدار من الحجر يقوم على الارض الصخرية البكر ومدعم بطلعات او ابراج صغيرة لاسناده وزيادة مناعتة (شكل ٢) ، وفوق الخندق وفي منطقة البوابة الشمالية بنيت قنطرة بعرض ٥ امتار توصل الى أرض الحضر ، وللمدينة سور خارجي يبعد عن السور الرئيس بحوالي ٥٠٠ متر يحيط بها من كافة جوانبها وقد اثبتت التنقيبات الاثرية بأن هذا السور ترابي وأسسه مرصوفة بأحجار صغيرة وبغير انتظام وقد أقامه الحضريون مانعا اوليا لاعاقة الجيوش الغازية •

لمدينة الحضر اربع بوابات مزورة متيدة على سورها الرئيسي بالاتجاهات الاربعة الطبيعية وهذا التصميم يساعد على ضبط الاتجاهات والرصد وصممت مداخل البوابات بشكل يتعذر على العدو المهاجم اقتحامها لمناعة ابراجها العديدة وكانت بعرض ٣/٨٠م وتسد بواسطة ابواب خشبية ثقيلة تدور على صنارات حجرية وتغلق بمزلاج سميك ويحيط بالمدخل من الجانبين برجان مرتفعان يبرزان على السور الرئيس ولكل مدخلي البوابتين الشمالية والشرقية باحة زينت بتماثيل آلهة لها علاقة بحياة

الجنود كتمثال هرقل ـ نرجال الذي اطلق عليه اســـم (دحشفطا) والذي يعني (آمر الحرس) (شكل ٣) ٠

وللبوابة الشمالية (شكل ٤) مدخل آخر الى جنوب المدخل الرئيس يشابهه في التصميم والبناء والقياسات وله ايضا باب خشبي كان يسد بواسطة مزلاج ولكنه يختلف عنه في تاريخ البناء ، فقد بني في فترة لاحقه (حوالي ٢٣٠ ميلادية) ويمتد من جهتي المدخل الشرقية والغربية سور آخر واطيء عرضه ٣ أمتار على جانبيه سلالم يرقى عليها ويعتبر هذا السور خطا دفاعيا ثانيا وقد اثبتت تنقيبات البوابة الشرقية والصور الجوية للموقع بأن هـــذا السور يمتد بموازاة السور الرئيس في معظم الاحيان ٠

بنيت ابنية الحضر الرئيسة في وسطها تقريبا يحيط بها ســور مستطيل الشكل ، وقد عرفت بالمعبد الكبير حيث اطلق الحضريون أنفسهم هـــذه التسمية على هذه المجموعة المتناثرة من الابنية حيث سموه (هيكلاربا) أو (بيت الها) اي بيت الآلهة ٠ اسور المعبد مداخل متعددة يتراوح عددها احد عشر مدخلا عدا مدخله الرئيس الذي يقع في ضلعه الشرقي ويقسم المعبد الى قسمين رئيسيين هما الحرم والصحن بواسطة جدار فاصل يمتد باتجاه شمالي ـ جنوبي ويحتوي على اربعة مداخل اثنان منهما رئيسيان يتألف كل منهما من ثلاث فتحات اكبرهما يقع في الوسط (شكل ٥) وأثبتت التحريات الاختبارية عن الادوار التعميرية والبنائية لسور المعبد الحالي بأن له تاريخا أقدم وانه احتوى على طلعات نصف دائرية الشكل بينما ضم السور الحالي طلعات مستطيلة أو مربعة الشـــكل اضافة الى العديد من الغرف التي كانت تستعمل كمكاتب لمختلف الاعمال ومخازن وقد اوضحت التنقيبات التـــي اجريت في قسم منها وجود فندق للزوار واشتمل على مخازن اخرى يتم بها البيع والشراء ، فلهذا كان للمعبد الكبير وظيفة تشابه وظيفة « الاكورا » الاغريقية ٠

وفي حرم المعبد الكبير بنيت اهم معابد الحضر بالحجر المهندم وهي تشتمل على صف من اواوين منسقة تواجه السوق وتتأ؟لف من ثلاث وحدات بنائية واضيف خلف الوحدة الجنوبية منها معبد مربع خصص لسميا وخلفه معبد التثليث ، مرن ومرتن وبرمرين وفي الصحن شيد معبد كبير خصص للآلهة العربية اللات ومعبد مرن او مايعرف بالمعبد الهلنستي لطراز بنائه الغربي الشكل •

يرقى الى الاواوين المتسقة بواسطة ست درجات من الساحة الامامية وهي تتألف من ثلاث وحدات بنائية ، وحدتان منها تتشابهان في التصميم والبناء ويتألف كل منهما من ايوان وسطي كبير على جانبيه ايوانان صغيران وبطابقين وخلفهما غرف اخرى • وزينت أقواس فتحات الاواوين بالتحليات والزخارف المتعددة اضافة الى منحوتات نصفية بارزة لآلهة الحضر وملوكها وامرائها والتي بدونها تبدو سطوحا بسيطة واشتملت زخرفة واجهة الاواوين على اعمدة نصف دائرية مندمجة بمقدمة البناء تعلوها تيجان كورنثية الطراز ورفوف مزينة في الاسفل بصورة مدروسة وجدران الايوان الوسطيين مزخرفة بأقنعة مسرحية ووجوه الغرض منها طرد الارواح الشريرة ، ولكل منها ايضا طنف (افريز) على جدرانها الطويلة وضعت فوقها تماثيل لعقبان • وتشير الدلائل الكتابية ان وحدة الايوان الجنوبي كانت مخصصة لعبادة مرن وان وحدة الايوان الشمالي ربما كانت مخصصة لبرمرين وفي داخل كل من الايوانين مذبح من المرمر المعرق مطعم بأشكال صنعت من الذهب والفضة والنحاس ومذبح الايوان الشمالي كان مسقفا بمظلة تتألف من اعمدة من الحجر آثار تثبيتها في صدر الايوان لاتزال ماثلة للعيان • وكان للاواوين الوسطية الكبيرة ابواب خشبية بنفس الحجم يستدل عليها من وجود ثقوب واسعة في دعامات الايوان لتثبيت اخشاب الابواب وحزوز الاقفال التحتانية وكذلك حجارات صغيرة في ارضية الايوان لغرض منع الابواب من الاصطدام بجدران الايوان ، اما عتبات الابواب فقد طعمت باحجار بألوان

مختلفة . وصلنا البعض منها وفقد القسم الاخر ولكن اماكنها لاتزال مرئية على العتبات •

والوحدة الثالثة تتألف من ايوانين متوسطي الحجم يفتحان من الخلف الى حجرة مستعرضة ، وقد اطلق المنقبون على هذه الوحدة اسم « معبد العجول » للعثور على مقدمة عجول بالنحت البارز العالي تزين الايوان الجنوبي منها لعلها ترمز الى بعلشمين اله الرعد والعواصف في الحضر وقد ورد ذكره في كتابات الحضر وعثر على منحوتات تمثله ويرمز اليه بالعجل • والايوان الاخر يرجح أنه مخصص لعبادة أترعتا حيث كانت مرافقة لبعلشمين لعلها تكون زوجته حيث خصص الحضريون لها احد المعابد الصغيرة وخصصوا المعبد المجاور لعبادة بعلشمين ، وتشير الدلائل الآثارية الى ان هذه الاواوين كانت في الاصل مشيدة من اللبن بدليل العثور على اربع طبقات بنائية اقدم منها تخترقها أسس الاواوين . ربما قد استعيض عن الابنية السابقة بأبنية تعتمد الايوان في تخطيطها ومقباة بالحجر المهندم في حدود النصف الثاني من القرن الاول الميلادي وتستدل من ضخامة وسعة الاواوين المتسقة بان ثلاثة اجيال من حكام الحضر الذين لقبوا أنفسهم بسريا (السيد) قد اشرفوا على بناء الوحدتين الجنوبية والشمالية وتركوا أسماءهم منقوشة على اجزاء البناء التي تمت تحت اشرافهم اضافة الى العثور على اسماء المعمارين والنحاتين الذين ساهموا في تشييد البناء ونحت زخارفه وهم برنني (المعمار) بن يهبشي واولاده الثلاثة ادى وزبيدو ويهبشي وكفع — نني (المعمار) حيث يستدل من اسمائهم على انهم كانوا من ابناء جزيرة العراق او بالاحرى من الحضر •

وقد اضيفت بناية مربعة الشكل تقريبا (١١٫٧٥×١١٫٩٦م) خلف الايوان الجنوبي مباشرة يقع مدخلها في وسط صدر الايوان بعد ان استعيض عن مدخل آخر لايقع على محور واحد من فتحة الايوان •

والبناية المربعة محاطة من جوانبها الاربعة بممرات ولها مدخل آخر يقع في ضلعها الغربي وقد سد بعدئذ من الخارج بمصطبة مسقفة او سقيفة ملتصقة بالجدار الغربي وقد عثر على دلائل كتابية وآثارية تشير الى أن سنطروق الملك بن نصرو مريا كان مسؤولا عن اقامة السقيفة وتزيين واجهة البناية من الخارج بشرفات تتألف من أعمده ذات تيجان كورنثية وقد ترك اسمه منقوشا على عدد من احجار البناء ، ومن المحتمل انه قد اكمل تشييد هذه البناية المهمة المخصصة لعبادة الاله شمش الذي يعتبر على رأس مجموعة الالهة الحضرية وقد كرست الحضر لعبادته بدليل نقش العبارة « حطرادي شمش » والتي تعني (الحضر مدينة النسس) على النقود الحضرية . وعلى اسكفة المدخل الرئيس يظهر الاله شمش وحول رأسه هالة مشعة وعلى جانبيه نسور ومحاط بغرافين من الكائنات الخرافيه ، واشتهر معبد شمش لدى بعض المؤرخين الكلاسيكيين باحتوائه على الذهب ، دليل ازدهار وانتعاش احوال المدينة الاقتصادية .

سقفت خلوة شمش بقبو بالحجر المهندم بارتفاع اعلى من الممرات المحيطة بها التي يعلوها سقف مختلف حيث هناك أقواس تربط بين كل جدارين متقابلين منها ثم رصفت باحجار كبيرة فوق المسافات التي بين الاقواس ليصبح سقفها مستويا وتعلوها شرفات لتكون بارتفاع الخلوة . وطريقة التسقيف هذه تعتمد على سلسلة من الاقواس لتحمل سقفا مستويا أصبحت صفة بارزة للعمارة الرومانية والعمارة المسيحيه المبكرة في منطقة حوران وكذلك في البتراء ، حيث استعملت لتغطي بعض مجاري المياه ، فمن المحتمل ان المعمار قد لجأ الى العمل بنوعي التسقيف المعروفين لعدم درايته باستعمال الاقبيه المتقاطعة او القباب لتسقيف خلوة شمس المربعة الشكل . ومع ذلك فيبدو ايضا ان المعمار الحضري قد عرف استعمال القبة في فترات لاحقه بدليل العثور على مصغرين لمعابد او مزارات تعلوها قباب ولكنها ليست كافية للاستدلال على ذلك ولكنها قد تثير سؤالا

مهما حول المدى الذي وصلت اليه معرفـة التسقيف بالقبة ومدى تطبيقاته الانشائية ، ومهما يكن من أمر فان الحفائر الاثرية في مرافق المدينة المختلفة لابد وأن تكتشف عن دلائل مهمة تؤدي الى مؤشرات قد تسـاعد في تقديم بعض الحلول لهذا السؤال ٠

ومن الابنية المهمة الاخرى في حرم المعبد الكبير ، معبد خصص لعبادة شحيرو نجمة الصبح ، يقع الى الشرق من الاواوين المتسقة ويواجه الجنوب ٠ يتألف معبد شحيرو من خلوة يعلوها قبو وامامها سقيفة امامية مكونة من ستة اعمدة كورنتية ، اربعة منها في الواجهة وعمود واحد خلـف كل من عمودي الركنين (شكل ٦) ٠

لقد مر هذا المعبد بأدوار تعميريـة متعددة فقد كان في ادواره الاولى يتألف من الخلـوة المستطيلة الشـكل ، والسقيفة الاماميـة يعلوها سقف سنامي الشكل ، وفي الدور الاخـر حصـل تبديل في طريقة التسقيف حيث استبدل السقف بقبو مشيد بالحجر المهندم وتبعتـه ايضـا بعض التغييرات الجانبية من الجهة الغربية كما اضيفت غرفتان الى جهة المعبد الشرقية لاحداهما غرفة تحت الارض قد تكون قبرا ٠

يعتبر بعض الباحثين هـذا المعبد من اقـدم معابد الحضـر بعد مرن (الهلنستى) لانه يعتمد العمود في واجهته وباسلوب بنـاء بعض جدرانـه الذي يعتمد على وضع احجار البناء بشكل عمودي متناوب ٠ والى الجنوب من معبد شحيرو يقع معبد آخر ربما خصص لعبادة سميا استنادا الى دلائل آثارية ويتألف من ايوان وسطي كبير على جانبيـه ايوانان صغيران وبطابقين وغرف اخرى خلفهما ٠ واعتبر المنقبون هذا المعبد من اقدم الابنية في الحضر التي تعتمد الايوان في مخططها لاسباب عديدة من أهمها ان الواجهة قد اتسمت ببساطة زخرفتها فقد جاءت خالية من انصاف الاعمدة التي تزين جانبي الايوان

ومن النحت البارز للرؤوس التي تغطي احجار الاقواس كما في اقواس الاواوين المنسقة ولهذا المعبد مذبح او دكة لوضع تمثال الاله الرئيس وفي داخل الجدار الخلفي توجد كوة صغيرة ٠

ومن الابنية التي شملتها الحفائر الاثرية في حرم المعبد الكبير معبد يقع الى الجنوب من معبد سميا ويعتمد الايوان في مخططه ايضا ويتألف من ايوان وسطي واسع وعلى جانبيه ايوانان صغيران بطابقين وقد خصص لعبادة آلهة التثليث الحضرية (مرن ومرتن وبرمرين) « سيدنا وسيدتنا وابن ساداتنا » بدليل العثور على الواح بالنحت البارز تمثلهم ٠ قسمت واجهة المعبد الامامية زخرفيا بواسطة عدد من انصاف اعمدة دائريــة مندمجــة واقواس زينت احجارها وبخاصة احجــار أقواس الايوان الكبير بالنحت البارز لآلهته مثل هرقل واللات والنسر وسميا بينما نحتت رؤوس لســادة وسدنة المدينة على احجار اقواس الاواوين الصغيرة من بينها رأســان يمثلان نصرو مريا الذي يرجح انه كان سيد المدينــة في حدود الاعوام ١١٥ ــ ١٣٨ ميلادي ٠ وقد صور في المرة الاولى بهيئة شاب وفي الثانية بهيئة رجل في مقتبل العمر ٠ وقد عثر المنقبون في هذه البناية على كتابة مهمة تشير الى ان نصرو مريا بن نشريهب مريا كان مسؤولا عن تشييد هذه البناية ٠ ويقع امام المعبد هــذا منخفض اثبتت التحريات الاثرية انه احتوى على مدرجات من جهات ثلاث دعا بعض الباحثين الى اعتباره مكانا لاجتماع مجلس المدينة ٠

امــا معبد مرن (الهلنستى) فيحتل موقع الصــدارة في صحن المعبد الكبير وهو يتألف من صفين من الاعمدة تدور حول الخلوة التي بنيت فوق مصطبة طولها من الاسفل ١٣ر٨٣ م وعرضها ١ر٥٢ م وبارتفاع قدره ١ر٨٠م عن الارضية (شكل ٧) والاعمدة الداخلية وهي ذات طراز آيوني تقوم على حافات المصطبة واما الاعمدة الخارجية فهي الاكبر حجما تقوم مباشرة على الارض وعددهــا ٢٥ عمودا من الطراز المركب ٠ وللمعبد سقف غريب فمن جانبيه الشمالي والجنوبي اي بين الاعمدة الصغيرة والكبيرة شيد مستويا ثم

على شكل جملون فوق الخلوة ، وعثر على بلاطات مربعة الشكل مزينة بمشاهد مختلفة ومطعمة باحجار ملونة كانت تحلي بعض اجزاء السقف بعد وضعها في اطر خشبية • وقد تم تمييز فترتين رئيستين من تاريخ هذا المعبد ، كانت البناية في الفترة الاولى تتالف من الخلوة والاعمدة الايونية وفوق المسافة الوسطية بين العمودين اللذين امام باب الخلوة بنى قوس • اما الاعمدة الخارجية مع القوصرتين الامامية والخلفية فقد اضيفتا في الفترة التعميرية الثانية وتمدنا بعض الدلائل الاثارية والعمارية وبخاصة الزخارف بمؤشرات حول تشييد هذه البناية التي يرجح انها تعود بتاريخها الى القرن الثاني قبل الميلاد وعثر اثناء التنقيبات في المعبد على تماثيل رومانية ترجع باسلوبها الى اسلوب النحت الهلنستي من بينها تمثال لابولو وبوسايدون وايروس وهرمز تعود الى حقبة متأخرة من تاريخ المدينة عندما تحالف الحضريون مع الرومان ضد الغزاة الساسانيين • وعثر المنقبون ايضا على تماثيل كانت تزين اركان المعبد من الاعلى من بينها تمثال برونزي لالهة النصر نايكه وتمثال آخر لها صنع من الحجر •

وشملت اعمال التنقيبات الاثرية ايضا بناية اخرى من صحن المعبد وقد اتضح بانها تتألف من ايوان كبير وعلى جانبيه ايوانان صغيران وهي بذلك تشبه الطراز الحضري المألوف في الاواوين المتسقة ولكنها تختلف عنها من حيث السعة والضخامة وبالتفاصيل الزخرفية العمارية المختلفة التي كانت تزين الواجهة ، وتشير الكتابات الارامية الى ان الملك سنطروق الاول قد بنى هذا المعبد وخصصه لعبادة الآلهة العربية « اللات » بعد أن زينة بمجموعة رائعة وبنحت بارز لعازفين على مختلف الالات الموسيقية سواء الات النفخ منها او القرع يصاحبهم آخرون يصفقون ويزغردون فرحين بقدوم الهتهم المفضلة والمنحوتة صورتها وهي راكبة على ناقة (شكل ٨) •

وامتدت اعمال الحفائر الاثرية لتشمل عددا من بيوت الاصنام او المعابد الصغيرة في اماكن متفرقة من المدينة وقد عثر فيها على تماثيل ومنحوتات

كثيرة تمثل الهة واشخاصا كانوا مسؤولين عن تشيدها كما عثر على منحوتات مماثلة لكهنتها وهذه المعابد متشابهة في تخطيطها وتتبع اسلوب تخطيط المعابد البابلية القديمة ، فكل منها يتألف من قاعة مستعرضة الشكل هي المصلى وخلوة مربعة الشكل في احد الاضلاع الطويلة تقع بمواجهة المدخل الرئيس والحقت بها ، في بعض المعابد ، غرفتان على كل جانب استعملتا لوضع القرابين والنذور المقدمة لاله المعبد الرئيسي • وقد امدتنا الكتابات التي عثر عليها محفورة باسكفة المدخل او على ارضية وجدران المبنى بمعلومات عن عائدية هذه المعابد ، فمن المحتمل ان بيتي الاصنام الاول والثامن كانا مخصصين لعبادة نرجول اله العالم الاسفل والعاشر لهرقل ـ نرجول ، والثالث لبعلشمين والرابع لاترعتا والخامس لتقديس اشربل ـ انينا والسابع لهرقل والثاني عشر لعبادة نابو والثالث عشر لجندا وسقفت معظم هذه المعابد بطريقة متشابهة لبعضها ، فسقف كل منها تألف من ثلاثة اقبية تقوم على الجدارين العرضانيين وعلى قوسين يرتكزان من جهة على دعامتين واقفتين على جانبي الخلوة ومن جهة على الضلع الذي يحوي مدخل المعبد ورصفت أرضية المعابد باحجار من مرمر اخضر اللون والتي بنيت بها ايضا درجات السلالم التي تؤدي الى سطوح المعابد • وبنيت المعابد الصغيرة من اللبن على أسس من حجر مهندم تصل الى ارتفاعات مختلفة قد ترتقي الى ثلاثة أمتار ، وغطيت جدران اللبن والحجر بطبقة او بطبقتين من الجص وبني السقف من كسر حجر وبثلاثة اقبية •

وتقع امام هذه المعابد فناءات واسعة مكشوفة تطل عليها من جوانبها المختلفة دور خاصة لسكنى المواطنين وفي بعض الاحيان الاواوين او اروقة ومخازن ذات علاقة بالمعبد • وشيدت دور السكن في الحضر باسلوب تخطيطي واحد تقريبا ، فهي تتألف من فناء او ساحة مكشوفة يطل عليها من جهة الجنوب ايوان وعلى جانبيه غرفتان وتحيط بالساحة غرف من جوانبها الاخرى ، اما الدخول الى البيت فكان يتم بمدخل ينفذ الى مجاز طويل يصل

الى الساحة ووجد المنقبون بيتا واسعا ملاصقا للمعبد الاول ، سمي بيت معنو استنادا لادلة كتابية وهو يتألف من ساحة على جانبيها ايوانان متقابلان وعلى الجانب الاخر اروقة والجانب الرابع يحتوي على منفذين يؤديان الى وحدتين بنائيتين متجاورتين يتألف كل منهما من غرف واواوين تحيط بساحة مستطيلة الشكل .

اما مقابر المدينة فيقع معظمها في الجهة الشرقية منها وقسم منها داخل المعبد الكبير ، ومدافن الحضر بنيت من الحجر المهندم على اشكال متعددة ابسطها ذات طابق واحد مربع الشكل يتألف من غرفتين يربط بينهما ممر ومدخل منحدر من الخارج الى الداخل . من الابنية التي شملتها الحفائر الاثرية مدفن لقبيلتي تيمو وبلعقب يتألف من طابقين ، الطابق الارضي يتكون من ثلاث غرف وممر يوصل اليه من خلال مدخل ينحدر نحو الداخل بدرجات قليلة وفي احدى الغرف سلالم تؤدي الى الطابق الثاني الذي يتألف من غرفتين . وبعض الابنية تأخذ الشكل المربع وتحتوي على غرفة مربعة واحدة جدرانها على رفوف او قواعد ربما لوضع تماثيل الاموات الذين دفنوا في الابنية المجاورة . سقفت الغرف بالاقبية وكانت تضاء عن طريق نوافذ ضيقة ترتفع عاليا في الجدران ومداخلها سدت بأبواب حجرية ثقيلة تدور على سنادات حفرت في العتبات السفلى للمداخل .

يتضح من هذا الاستعراض لابرز المظاهر العمارية في الحضر ان البناء بالايوان ، وهو الابتكار الاصيل للبناء العراقي قد استعمل في تشييد المعابد الفخمة الواسعة والمهمة وفي بناء دور السكنى البسيطة . فالايوان في الحضر دخل في كل ابنيتها ، في معابدها وقصورها وبيوتها واصبح الصفة البارزة والشائعة العمارة الحضرية لقد طور المعمار الحضري عناصر مختلفة متناقضة، في بعض الاحيان ، للعمارة المعاصرة والعمارة العراقية القديمة واساليب العمارة الهلنستيه وبعض عناصر العمارة الشرقية ـ الرومانية ووضعها في ماينسبة بودقة انصهار وحصل على اسلوب جديد متميز ، فهو مثلا صمم وبنى

الاعمدة الحضرية بنوعيها الحر والمندمج من الحجر المهندم بالطريقة الاغريقية التقليدية حيت اقامها بواسطة اساطين الواحدة فوق الاخرى وجعل قياسات ثلثها العلوي تتناقص حسب مبادىء العمارة الاغريقية في خداع النظر • واما الزخرفة والتي تشمل الجمع بين اوراق الاكانتوس والحبل المبروم والبيضة ورأس الرمح اضافة الى اشكال حيوانية وهندسية فهي من ابتكاره وكان قد ورث بعض عناصر العمارة الآشورية المتشابهة التي كانت تزين قاعات ومعابد الآشوريين ومزجها بعناصر العمارة الهلنستية •

اما عن تاريخ المدينة ، فلا زالت حقبة مهمة منه غامضة وخاصة الفترات الاولى من حياة المدينة ، ولم تزودنا التنقيبات بمعلومات وافية قد تميط اللثام عن نشأة المدينة وحكامها •

والمعلومات القليلة التي بين ايدينا بخصوص تاريخ المدينة استقيناها مما كتبه المؤرخون الكلاسيكيون والعرب ، اضافة الى ما أمدتنا به الكتابات التي وجدت منقوشة على جدران الابنية وتباليطها او مدونة على التماثيل وقد زاد عددها عن خمسمائة ، ومعظم النصوص الحضرية قصيرة كتبت للذكرى او للدعاء ، وباللغة الآرامية باستثناء نص واحد بالاغريقية وثلاثة نصوص باللاتينية ، تعود بتاريخها الى السنين الاخيرة من تاريخ المدينة • ويحمل بعض من كتابات الحضر تواريخ حسبت استنادا الى التقويم السلوقي الذي بدأ في عام ٣١١/٣١٢ ق•م •

والحضر عاصمة لمملكة عربية تسيطر على موقع مهم بين النهرين وقد اثبتت بانها كانت مصدر قلق لكل طامع اراد نهب مدن العراق وكانت احدى الدويلات التي كانت تتمتع باستقلال ذاتي كاخواتها تدمر والبتراء ودورايوروبس(الصالحية) ازدهرت في عصر اطلق عليه المؤرخون العرب «عصر ملوك الطوائف» حيث ادارت الحضر شؤونها الداخلية وتمتعت بالحرية الكاملة في ممارسة عقائدها الدينية والقومية وضربت النقود الخاصة بها • واعتبرها

المؤرخون الكلاسيكيون مدينة عربية • ويعتقد معظم الباحثين ان غالبيه سكانها كانوا عربا كما تؤكد ذلك النصوص الكتابية اضافة الى انها تشير بان ملوك الحضر سموا انفسهم « ملوك العرب » وانهم سيطروا على مناطق واسعة حيث امتد نفوذهم في المنطقة التي عرفت باسم عربايا والتي تمتد حدودها الى ماوراء سنجار شمالا والخابور غربا والمدائن جنوبا •

اما عن تأسيس ونشأة المدينة فهناك اعتقاد بانها كانت قرية في زمن الاشوريين ، وهذا الافتراض يبدو ضعيفا لعدم العثور على ادلة مادية تسنده، ولكن في الفترة السلوقية ، وفي حدود القرن الثاني ق•م ، اشارت الدلائل العمارية واللقى الاثرية المختلفة بوضوح الى استيطان الموقع وتشييد ابنية من حجر واخرى من اللبن في اطراف مختلفة من الموقع وازدادت اهمية المدينة العسكرية عند اندلاع الحروب الطويلة بين الرومان في الغرب والفرثيين من الشرق وخاصة في الاعوام بين ٦٩ـ٣٦ق•م حيث برزت أهمية القبائل العربية التي تسكن البادية الغربية والتي اتخذت من مدينة الحضر مركزا مهما لها ، فالحضر كانت عاصمة لمملكة عربية وردت في كتابات الحضر الآرامية باسم عربايا (اي بلاد العرب) وحكمتها سلالة عربية لقب ملوكها انفسهم ملوك العرب المنتصرين • ومن المحتمل ان سور المدينة الرئيس تم تشييده واحيطت بخندق عميق خلال هذه الفترة التي اتسمت بالصراعات العسكرية ، مما ادى الى تزايد اهتمام القبائل العربية بالمدينة واتخذتها مركزا مهما لها من جوانب عديدة وبخاصة الدينية منها ، حيث شيدت معابد صغيرة ومزارات خصصت لعبادة الهتها المفضلة وساهمت في تشييد معابدها الضخمة ايضا عن طريق تقديم الاموال اللازمة وثم تكريسها لعبادة آلهتها الوطنية واقامت تلك القبائل مقابرها الخاصة في الطرف الشرقي من المدينة وازدهرت المدينة خلال القرون الثلاثة للميلاد بسبب تدفق الاموال عليها نتيجة ازدياد اهميتها التجارية نظرا لوقوعها على الطرق البرية التجارية التي انشغلت في نقل البضائع والسلع الشرقية •

مـن الهند والجزيرة العربية عبر مواني رأس الخليج العـربي الى موانىء سواحل الشام تمهيدا لنقلها الى الاسواق الغربية في روما حيث لقيت رواجا كبيراء نشير خرائط (بويتنكرتابل) الرومانية القديمة الى طريقين كانا يقودان الى المدينة . الطريق الاول يربط بين الخابور والحضر مارا بسنجار ، اما الثاني فيبدأ من نصيبين الى سنجار سائرا بمحاذاة دجلة ثم ينعطف الى الحضر .

ويستدل من الكتابات ان الزعامة السياسية والدينية في بداية نشوء المدينة كانت بيد الشيوخ فمنهم الزعيم (ربا) والسادن (رب ـ بيتا) ورئيس الكهنة (افكلاربا) والكاهن (كمرا) والكاهنة (كمرتا) ثم انتقلت بعد نمو المدينة وازدهارها في فترة السلم بين الرومان والفرتيين في السنوات بـين ٦٥ـ٨١م الى زعماء او رؤوساء عوائل لقبوا بمريا وتعني السيد . ويبدو ان نشريهب مريا هو اول من حمل هذا اللقب ، ويعتبر مؤسس السـلالة التي حكمت في مدينة الحضر . وهو والد نصرومريا ، الذي تعزى اليه اعمـال عمرانية كثيرة في المدينة . ولايعرف الكثير عن نشريهب مريا ويظن انه شـيد الايوان الشمالي من الاواوين المتسقة والذي يمثل اقدم جزء مـن تلـك الابنية ، وقدر لحكمة السنوات من ٨٥ـ١٠٥م واعقبة ورود مريا ، الذي نقش اسمه على احجار الاواوين المتسقة في مرحلتها البنائية الثانية والتي تضم الايوان الجنوبي والاجزاء الخلفية من الايوان الشمالي . ولم توضـح الكتابات الصلة بينه وبين نشـريهب ويعتقد ، اسـتنادا الى دلائل آثارية وعمارية ، انه كان اخا او ابنا اكبر لنشريهب مريا ومن المحتمل انه حكم في الحضر خلال السنوات ١٠٥ـ١١٥م . جاء بعده نصرومريا ابن نشريهب مريا الذي تشير اليه بعض الكتابات وان سيادته امتدت الى سنة ١٣٨م قام خلالها بالعديد من الاعمال العمرانية من اهمها تشييده معبدا كبيرا خصص لعبادة آلهة التثليث الحضرية حيث ترك لنا صورته منقوشة على أحجار اقواس مداخل المعبد اضافة الى العثور على كتابات عديدة تذكر اسمه واسم والده وقد اطلق عليه لقب (الكاهن الاعظم) .

وقد شيد المعبد الخامس وخصصه للالهة اشربل العذراء ، كما تدلنا على ذلك أسكفة مدخل المعبد حيث نقش اسمه ونحت صورتـه وهو مضطجع ومتكيء على وسائد وبيده كأس وبجواره تمثال للاله الخاص بحراسته وامامه شاب اسمه ولجس لعله ابنه الاكبر ويظهر نقشان لالهـة النصر ، كما انه قام بتشييد اجزاء مهمة من الاواوين المتسقة حيث عثر على اسمه منقوشا على احد أحجار القوس الصغير من الايوان الشمالي • وامتدت اعماله العمرانية لتشمل بناء المعبد العاشر والمخصص لعبادة نرجول ، اله العالم الاسفل وكذلك السور الشمالي والبوابة من المعبد الكبير والاواوين المحاذيـة للسور استنادا الى كتابة مهمة نقشها حفيده عبدالاها الذي جدد تلك الاجزاء من سـور المعبد الكبير في سنة ١٣٨م • كما ويستنتج من أدلة آثارية ومعمارية وكتابية انه قام بالتجديدات والترميمات في البوابـة الشمالية ويحتمل انه ترك صورته وهو مضطجع فوق مدخلها الرئيس ، وانـه قاد صمود الحضـر التاريخي عندما هاجمها الرومان بقيادة تراجـان في أواخر نيسان او بداية حزيران مـن عام ١١٦/١١٧م حيث انها قد اعلنت الثورة والعصيان على تراجان مع مدن الرها وسلوقية ونصيبين ، فبعد ان سيطر على المدن الثائر توجه نحو الحضر ويسرد المؤرخ الروماني ديوكاسيوس حملة تراجان وحصاره لمدينه الحضر ويقول •

« •••• بعـد ذلـك وصـل الى عربايا وبـدأ عملياتـه الحربيـة ضـد الحضريين لانهم ايضـا ثاروا • والمدينـة ليست واسـعة وليسـت غنية وحولهـا منطقة صحراويـة ، الماء الذي بهـا رديء وقليل جـدا وليس بهـا خشـب ولا عشـب ، لهذه الاسباب اصبح حصار المدينـة بجيش كبير مستحيلا • وكانـت المدينـة محصـنة ولـم يسـتطع السـيطرة عليهـا تراجان ، كما فشل سفيروس من بعده ، على الرغم من انه نجـح في الاطاحة ببعض اجزاء من سـور المدينة • أرسل تراجان خيالتـه للسور ولكنه فشل تراجعوا متقهقرين الى المعسكر وكاد الحضريون ان يجرحوه لما كان ممتطيا جواده على الرغم من انه نزع لباسه الملكي حتى لا يعرفه احد ولكن الحضريين

تناهدوا شعره الاشيب الوقور وشكله المحترم ، شكوا في أمره ورموا سهامهم عليه وقتلوا أحد الخيالة المرافقين له • وحدثت في هذه الاثناء عواصف ورعد وظهر قوس قزح وهطلت امطار رعدية مصحوبة ببرد ونزلت صواعق على الرومان عندما حاولوا الهجوم ، وكلما بدأوا بالاكل تجمع الذباب على اطعمتهم وشرابهم مسببا لهم عدم الراحة لذلك قرر تراجان الانسحاب وبعدها أخذت صحته بالتدهور » وذاع صيت الحضر واشتهرت بكونها المدينة الوحيدة التي ثارت على الرومان وتحدت قوتهم وصمدت امام جيوشهم مما جعل الاموال تتدفق عليها من القبائل العربية لقدسيتها ولمناعة تحصيناتها وادى بالتالي الى ازدهارها وثرائها • وقد قدر حكم نصرومريا الاعوام من ١١٥-١٣٨م استنادا الى دلائل عديدة منها الآثارية والكتابية والعمرانية • ومن المحتمل ان معنومريا ، الذي ورد اسمه منقوشا في كتابة على نصب للبخور قد تولى السيادة بعد نصرومريا ولكننا لانستطيع تحديد قرابته بالاخرين الذين لقبوا أنفسهم مريا ثم أعقبه ولجش مريا ، الذي يعتقد انه الشخص الواقف امام نصرو على نحت اسكفة مدخل المعبد الخامس وبهذا الاسم ايضا ورد بهيئة ولجش الملك الذي وجد تمثاله في موقعه الاصلي في الايوان الجنوبي وعلى قاعدته الكتابة التالية •

تمثال ولجش ملك العرب الذي اقامه له جرم — اللا بن حيي ويظن انه اول من نصب نفسه ملكا على الحضر واطلق على نفسه لقب ملك العرب وان الحضر قد اصبحت مملكة عربية تدير شؤونها بنفسها •

تتميز فترة الحكم المحصورة بين الاعوام ١٣٨-١٦٥م بعدم وضوحها لاننا نعتقد ان الادلة الكتابية المؤرخة والتي قد تساعدنا في تحديد مكانة سنطروق بن نصرو مريا ، الذي لعب دورا في تصعيد اهمية المدينة السياسية والاقتصادية ، فتشير الكتابة المدونة على نصب للبخور انه لقب نفسه « مريا » في بادىء الامر واستمر لمدة عامين ثم اتخذ لقب (ملك)

وامتد حكمه اكثر من عشرين سنة . ويعتبر سنطروق بن نصرومريا ، او الاول لتميزه عن حفيده بنفس الاسم ، من أشهر ملوك الحضر واكثرهم نشاطا وفعالية في مجال العمران والبناء ، فقد كان مسؤولا عن اتمام بناء المعبد المربع ، وهو المخصص لعبادة الاله شمش وربما انه شيد المعبد بكاملة حيث تذكر كتابة عثر عليها في المعبد الكبير انه « بسنة ٤٨٨ (١٧٧/١٧٨م) (المعبد الذي بناه) سنطروق ملك (العرب . المظفر ، عابد) شمش الالـه الاكبر ، ابن نصرومريا ، لمرن ومرتن وبرمرين واللات وسميتا » .

ويتضح من تنسيرها انه من المحتمل شيد معبد شمش المربع بكاملة بعد ان زينه بشرفات خارجية قوامها أعمدة من الحجر والواح منقوشة بشتى الزخارف ، اضافة الى اقامته سقيفة في ظهر المعبد وضع فيه تمثاله وتمثالي ولديه عبد سميا (شكل ٩) ونيهرا . وكذلك تشييده لمعبد ضخم في مقدمة الاواوين المتسقة وخصصه لعبادة اللات ، الالهة العربية التي تميزت ، في هذا المعبد بصفات معينة اهمها العدل والانتقام ، متطابقة مع نظيرتها الالهه الاغريقية ينمسيس . لقد زين سنطروق هذا المعبد بزخارف واشكال متنوعة اهمها مشهد موسيقي حيث يبدو فيه عدد من العازفين على الآلات الموسيقية في حضرة الالهة الراكبة فوق جمل وتظهر امامها حورية البحر وهي تمسك ميزانا يعتبر احد رموزها . ووضع سنطروق الملك فيه تمثاله وتمثال ابنه عبدسميا في رف في الجدار الغربي من الايوان الجنوبي وكذلك في الايوان الشمالي وقد اكمل المراحل البنائية الاخيرة من هذا المعبد ابنه عبدسميا . وشيد ايضا بوابة او مدخلا في الجدار الفاصل الملاصق لمعبد اللات ، كما وكان لسنطروق نشاطا في زيادة تحصينات المدينة حيث اقام عددا من القلاع الصلدة . احداها قرب البوابة الشمالية ، ووضع فيها عددا من تماثيله وتماثيل ابنه عبدسميا ويظهر في احدها وهو يحمل لقب قائد الجيش « زنفطا » .

تشير كتابة مهمة مؤرخة ١٩٣/١٩٤م ان الملك في الحضر كان عبدسميا ، وهي اشارة واضحة الى أنه قد اعقب والده على عرش الحضر ولقب نفسه

ايضا « ملك العرب » يذكر ديوكاسيوس ان ملك الحضر في هذه الفترة كان اسمه برسميا وقد ساعد بسينيوس نيجر في سورية في صراعه مع سبتميوس سفيروس ولكن اسم برسميا لم يرد في كتابات الحضر ويعتقد بانه محرف عن عبدسميا • اما السبب الذي دعى ملك الحضر الى ارسال فرق من رماة السهام الى نيجر فيكمن في الاحداث التي وقعت في روما بعد اغتيال (هلفيوس برتنكس) حيث عمت الفوضى فيها وكان هناك ثلاثة قواد متنافسين على التاج الامبراطوري وهم : كلود يوس البانيوس وكان في بريطانيا وتحت امرته ثلاث فرق ، وبسنيوس نيجر في سورية وكانت تحت قيادته تسع فرق وسبتميوس سفيروس في بانونيا وكان يقود اثنتي عشرة فرقة • استغل سفيروس الفرصة وبسرعة ودهاء قاد جيشه ودخل روما واعلن نفسه امبراطورا بمساعدة مجلس الشيوخ ومعلنا الحرب على منافسيه وخاصة نيجر في سورية ، يذكر ديوكاسيوس ان ملك الحضر (عبدسيما) قد اوفد في عام ١٩٣/١٩٤م فرقة من رماة السهام الى نيجر في منطقة انطاكية الا أن تلك النجدة قفلت راجعة الى الحضر قبل ان يلتحم الجيشان الرومانيان المتنازعان، وفي ربيع عام ١٩٤م تغلب سفيروس على جيوش خصمه نيجر ووعد بمعاقبة كافة الحكام والملوك الذين ساعدوه • وفي عام ١٩٤/١٩٥م سيطر على أديسا (الرها) ونصيبين وعلى اعالي وادي الرافدين ، لكنه اضطر الى العودة الى روما لوصول اخبار قلقة عن تحركات البانيس الذي اعلن نفسه امبراطورا ، وبدأ يبحث عن مساعدة بعد أن انشأ له مركزا قويا في لكدنوم (ليون الحالية) وبعدها استطاع سفيروس أن يتغلب عليه في بداية عام ١٩٧م • وجه سفيروس جهده بعد أن أخضع خصومه الى الشرق لمعاقبة الملوك والحكام الذين قدموا المساعدة لخصمه ومن بينهم (عبدسميا) الحضري • وحدث الهجوم على الحضر ، حسب رواية ديوكاسيوس ، بعد سقوط طيسفون بيد سفيروس ويقول انه قام بمحاولتين لاخضاعها ، المحاولة الاولى في سنة ١٩٨م والثانية في نهاية السنة نفسها ، اما هيروديان فيذكران حصار الحضر قد حدث بعد

سقوط طيسفون وان سفيروس هاجم الحضر وحاصرها مرة واحدة فقط • لقد قاتل الحضريون الجيوش الرومانية المهاجمة ببسالة متناهية متحصنين داخل اسوارهم واستحكاماتهم العسكرية الجيدة وقد استعملوا وسائل دفاع متقدمة من بينها قذائف النار الحضرية المشهورة المستخرجة من منتجات النفط واعداد كبيرة من المنجنيقات التي ترمي الحجارة بأحجام مختلفة واخرى ترمي سهام متعددة في آن واحد وكان على الاسوار ، كما يذكر ديوكاسيوس وهيروديان ، عدد هائل من المدافعين عن المدينة وخاصة الفرسان العرب الذين هاجموا الجيش الروماني من كل اتجاه بدقة وبشدة •

ونتيجة لذلك احترقت وتحطمت معظم معدات وآليات الجيش الروماني ولكن الجنود الرومان وبهجمات متلاحقة تكبدوا فيها خسائر جسيمة استطاعوا ان يفتحوا ثغرة في السور وكانوا مصممين على مواصلة هجومهم والدخول الى الحضر من تلك الثغرة ولكن سفيروس لم يسمح له بذلك واعطى اشارة التراجع حيث أراد ان يستولي بنفسه على كنوز المدينة لانها اشتهرت بوجود كميات كبيرة من الذهب فيها وخاصة تلك التي قدمت للاله شمش وكان يتوقع ايضا ان العرب سوف يجبرون على الاستسلام وعقد معاهدة • ولكن آماله باءت بالفشل عندما رفض الحضريون شروط وعقد معاهدة معه وأصلحوا ثغرة السور خلال الليل واستطاعوا صد كل هجمات الجنود الرومان المتعاقبة وادى هذا الحادث الى خلق جو من البلبلة بين الجنود وساد شعور بالتامر وعدم اطاعة أوامر القادة بعد أن رفض الجنود الاوربيون القيام بهجوم على المدينة ، وعندما ازدادت خسائر الجنود السوريين ، أوقف سفيروس عملياته الحربية وانسحب من أرض الحضر بعد أن قضى عشرين يوما تحت وطأة مناخ قاس •

فاد الدفاع عن المدينة عبدسميا الملك الذي لقب نفسه ايضا ملك العرب، ومن اعماله العمرانية المعروفة في الوقت الحاضر تكملة معبد اللات الذي بدأ

به والده سنطروق الاول • ويظهر عبدسميا واقفا امام الالهة مرتن في لوحة عثر عليها في الخندق قرب البوابة الشمالية ، تدل على أنه قام بالترميمات والتصليحات اللازمة في الاسوار والاستحكامات الدفاعية•وفي زمن عبدسميا تولى سدانة المدينة شخص أسمه أفرهط ، حيث اقيم له تمثال عثر عليه في المعبد الكبير وتمثال آخر وجد في معبد اللات وعلى قاعدته كتابة تصفه بسادن العرب ايضا •

دام حكم الملك عبدسميا حوالي خمسة عشر عاما خلفة ابنه الملك سنطروق الذي حكم فترة طويلة حتى عام ٢٤٠/٢٤١م • ويستدل من الادلة الكتابية انه كان حيا في عام ٢٣٨م كما نصت بذلك الكتابة المنقوشة على قاعدة تمثال ابنته الاميرة دوسفري التي تذكر أن ابنه عبدسميا كا نوليا على العرش • وقد قام الملك سنطروق الثاني بتشييد بعض المباني منها المدخل الثاني للبوابة الشمالية واجراء بعض التحصينات المهمة في الاسوار وكانت له شهرة واسعة حتى أن المؤرخين العرب اطلقوا اسم « الساطرون » على ملوك الحضر وهي تسمية تنسب اليه • وعثر على تمثال له في الممر الذي يحيط بالمعبد المربع وعليه الكتابة التالية : تمثال سنطروق الملك بن عبدسميا ملك العرب الذي اقامه له نشريهب سان مرن بن زيد اللات لحياة عبدسميا ولي العهد ابنه ويظهر حافي القدمين ممسكا بصنم لاله الحامي ووردت صفة الورع او التقي في كتابة تعود اليه عثر عليها منقوشة على اسكفة المدخل الثاني للبوابة الشمالية، تشير الى انه في اواخر ايامه ترك تصريف امور الدولة الى ابنه عبدسميا وانصرف الى العبادة والزهد ، ولكنه اطلق على نفسه لقب الملك المظفر او المنتصر ويعتقد بانها دلالة واضحة على نجاحة في كسب ود القبائل العربية التي حالفته في القيام بهجمات على معسكر للساسانيين في موقعة شهرزور التي من المحتمل انها وقعت في حدود عام ٢٢٨م بعد أن سيطر أردشير بن بابك ، المغتصب الساساني لحكم الفرثيين ، على طيسفون العاصمة في حدود عام ٢٢٦م بعد مؤامرة دبرها في بلاد فارس • وقد حاول أردشير السيطرة على

الحضر ولكنه فشل على الرغم من انه احدث فجوة في سورها . كما ذكـــر ديوكاسيوس . بعد هذا الحادث ، تحالف الحضريون مع الرومان واستقبلوا حامية رومانية في زمن كورديان الثالث ٢٣٨-٢٤٣م . كما تشير بذلك تماثيل رومانية في غاية الروعة والاهمية عثر عليها في المعبد الهلنسني وعبرت الحامية الرومانية عن طاعتها وولائها للاله شمش وللاله هرقل بتقديم تمثالين يمثلاهما وعلى قواعدهما كتابات باللغة اللاتينية .

بيد ان الحضريين والقبائل العربية لم تستطع وقف زحف شابور بن أردشير على المدينة ومحاصرتها لفترة طويلة ، اضطرت بعدها الى الاستسلام في عام ٢٤٠/٢٤١م كما ورد في وثيقة اكتشفت في مصر . وتذكر المراجع العربية ان الضيزن كان اخر ملوك الحضر ولقي نهايته ، ويحملون ابنتـــه النظيرة مسؤولية افشاء سر فتح المدينة ولكن اسمها واسم والدها لم يردا في كتابات الحضر ، وقد هجرت المدينة بعدئذ ولم تعد صالحه للسكنى وقد مربها اميانوس مرسيلانيوس في عام ٣٦٣م وكتب :

« وصلنا الان الى الحضر . المدينة القديمة الواقعة في وسط الصحراء وقد هجرت منذ أمد بعيد . وقد حاول الاباطرة تراجان وسفيروس في اوقات مختلفة الاستيلاء عليها ولكنهم تقريبا لقوا حتفهم مع جيوشهم . واذكـــر افعالهم كما اذكر نجاحاتهم » .

لابد ان وراء ازدهار مدينة الحضر وثرائها في ظروف سياسية صعبه حوافز ودوافع لعل في مقدمتها اهتمام القبائل العربية بها لانها اتخذتها مركزا لنشاطاتها الدينية والتجارية والى حسن تنظيمها لامورها الحياتية الداخلية وديموها في حقبة تاريخية تتصف بالنزاعات المسلحة . ولكن المصادر المدونه لاتلقي ضوءا على هذا الجانب المهم وان الكتابات ذات العلاقة المكتشفة خلال التنقيبات الاثرية قليلة ايضا ، لذلك نعتمد في استعراضنا لهذا الجانب على دلائل واستنتاجات مستقاة من مصادر مختلفة اهمها على ما وصل الينا مـــن

الكتابات واعني تلك التي ساهمت في تنظيم حياة الحضريين الداخلية ، وهي بعض النصوص المتعلقة بجانب من جوانب القانون في الحضر وهو السرقة • فقد كشفت التنقيبات الاثرية عن لوحة النسر المعروفة في مدخل البوابة الشمالية والمنقوش عليها كتابة مهمة (شكل ١٠) ، تذكر •

« بشهر كانون من سنة ٤٦٣/١٥٢-١٥١م » ، بمنيئة الاله اختير (انتخب) تمشبرك سادنا للحضريين (أوبين الحضريين) شيبا وشبانا وللعرب كلهم ولكل من مر بالحضر ولكل من سكن (استوطن) بالحضر ومن اجل دلك قرروا أن كل من يسرق •••• وهناك تلف في النص تكملة كتابة اخرى مشابهة وجدت في مدخل البوابة الشرقية وتذكر ••• « من داخل هذا المخزن ومن داخل السور الخارجي ، ان كان (هذا) رجلا من المجتمع (الحضري) فانه سيقتل بالموت الذي يسلطه الاله وان كان اجنبيا (غريبا) فانه سوف يرجم » •

ان موقع هاتين اللوحتين في مداخل البوابات الرئيسه في المدينة يشير الى انهما قد وضعتا لغرض تنبيه الشخص الداخل للمدينة اذا كان من اهلها آو اجنبيا بقانون المدينة في السرقة والعقوبة المترتبة عليها ، وبهذا لاتختلف مدينة الحضر عن اخواتها مدن وادي الرافدين الافدم مثل بابل ونينوى وغيرها في هذا المضمار حيث جرت العادة على تعريف الشخص الداخل للمدينة بقوانين البلاد بوضعها في بواباتها الرئيسة •

وقد أشار بعض الكتاب السريان منهم برد يصان الراهب من مدينة (اديسا) في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي في كتابه « شرائع البلدان » ان سرقة شيء مهما كان بسيطا في مدينة الحضر ستكون عقوبته الموت وعلى الرغم من صرامة هذه القوانين ، وهي الوحيدة التي وصلتنا ، فانها قد ساعدت الحضريين كثيرا على تنظيم مجتمعهم وعلى ازدهاره وجاءتنا اشارة اخرى ذات العلاقةبالموضوع

في كتابة منقوشة على حجرة بناء عثر عليها حديثا في معبد جندا تقضي بــأن على الشخص الذي يستعمل بعض اواوين ذلك المعبد ان يجري الترميمات الضرورية عليها في حالة تعرضها للتصدع • وبتلك الطريقة حافظ ســدنة المعبد على نظافة وصلاحية غرف المعبد للسكنى دائما • لابد ان هذه الطريقة وغيرها قد اتبعت للمحافظة على معابد المدينة ومرافقها العامة وتعتبر اشارة واضحة الى أن الحضريين قد وضعوا قوانين وتعليمات تنظم حياة مجتمعهم وان الكشف عن دار حفظ الوثائق الرسمية في المدينة او مكتبة خاصة كانت ام عامة سوف يلقي الضوء على حياة المدينة الاجتماعية والتنظيمية •

مصـــادر مختـــارة

١ ـ فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى ـ **الحضر مدينة الشمس** ، بغداد ١٩٧٤٠

٢ ـ د٠ واثـق الصالحي « الحضر ـ التنقيب في البوابة الشمالية » **سـومر** ٣٦ (١٩٨٠) ص ١٥٨ ـ ١٨٩ ٠

٣ ـ د٠ واثـق الصالحي « الحضر ـ التنقيب فى مجموعة من المقابر » **سومر** ٢٨ (١٩٧٢) ص ١٩ ـ ٣٠ ٠

٤ ـ د٠ جابر خليل ابراهيم « نصـــان قانونيـــان » **سـومر** ٣٨ (١٩٨٢) ص ١٢٠ ـ ١٢٥ ٠

٥ ـ د٠ واثـق الصالحى « كتابات الحضر » **سومر** ٣٤ (١٩٧٨) ص٦٩ـ٧٤٠

٦ ـ حازم النجفي « كتابات الحضر » **سومر** ٣٩ (١٩٨٣) ص ١٧٥ـ١٩٩ ٠

٧ ـ د٠ واثـق الصالحى « القانون فى الحضر في ضوء الشرائع العراقيـــة القديمة » **المؤرخ العربي** ، ٣٩ (١٩٨٨) ٠

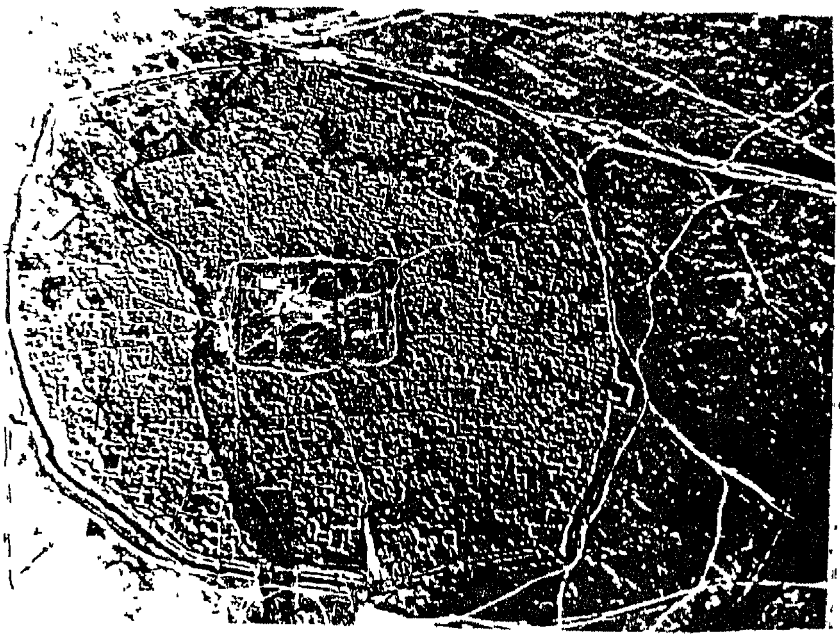
٨ ـ المسعودي ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر

٩ ـ الطبـــري ـ تاريخ الرســل والملوك ٠

١٠ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ٠

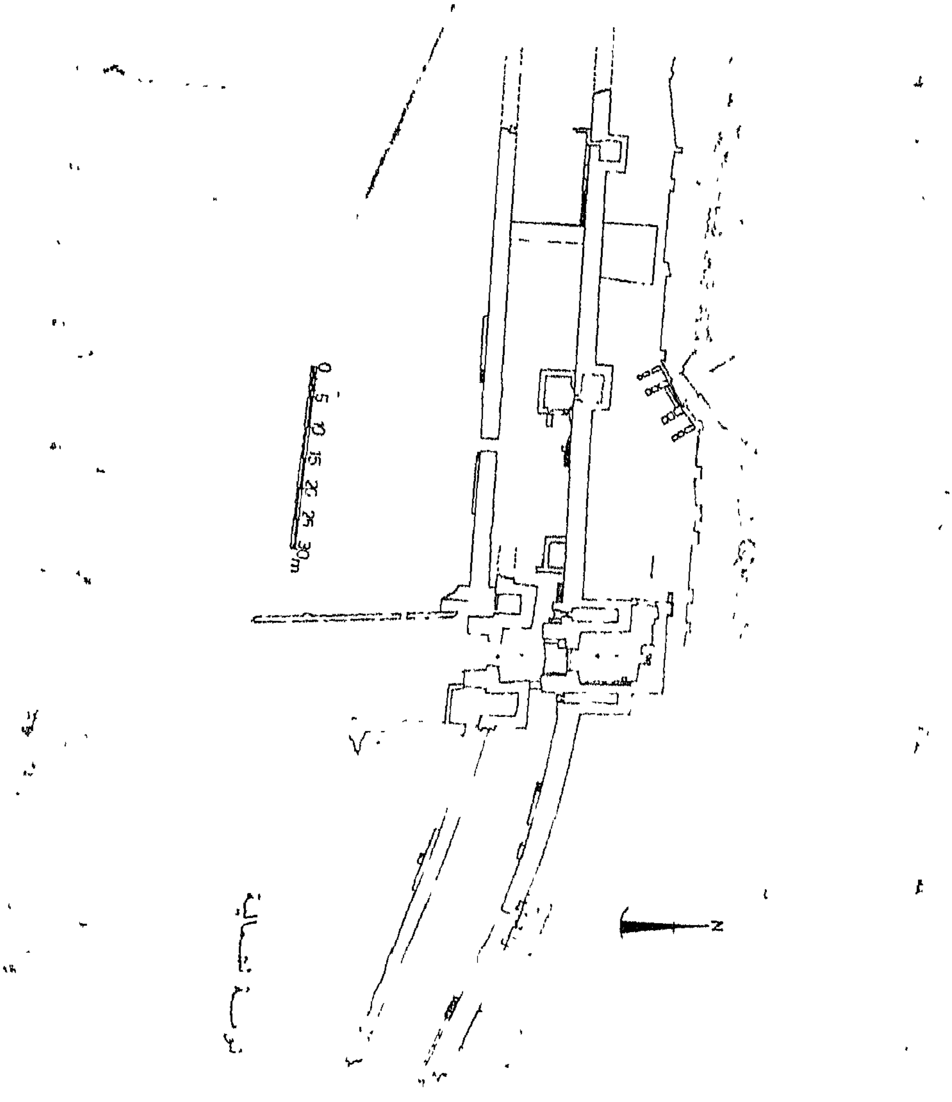
١١ـ Dio Cassios, 68, 31; 65, 10, 1.

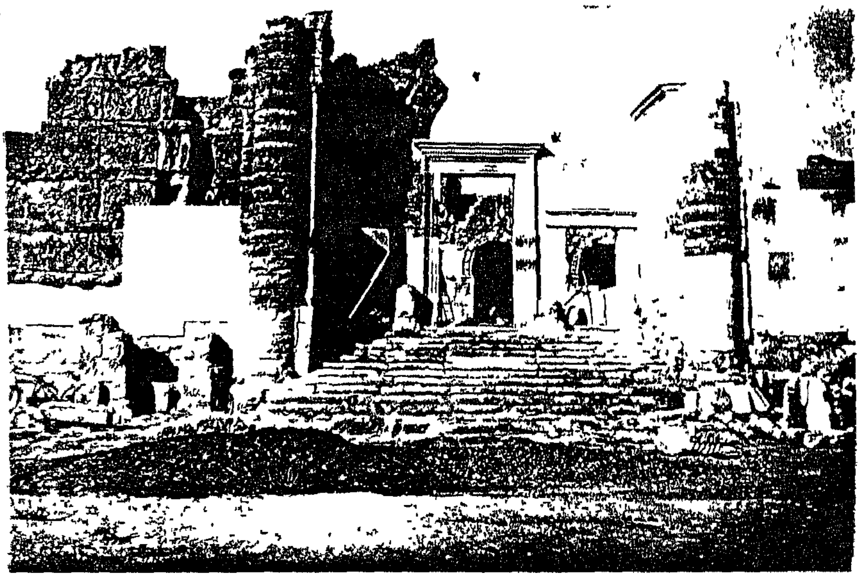
١٢ـ Herodian, III, 1-9.

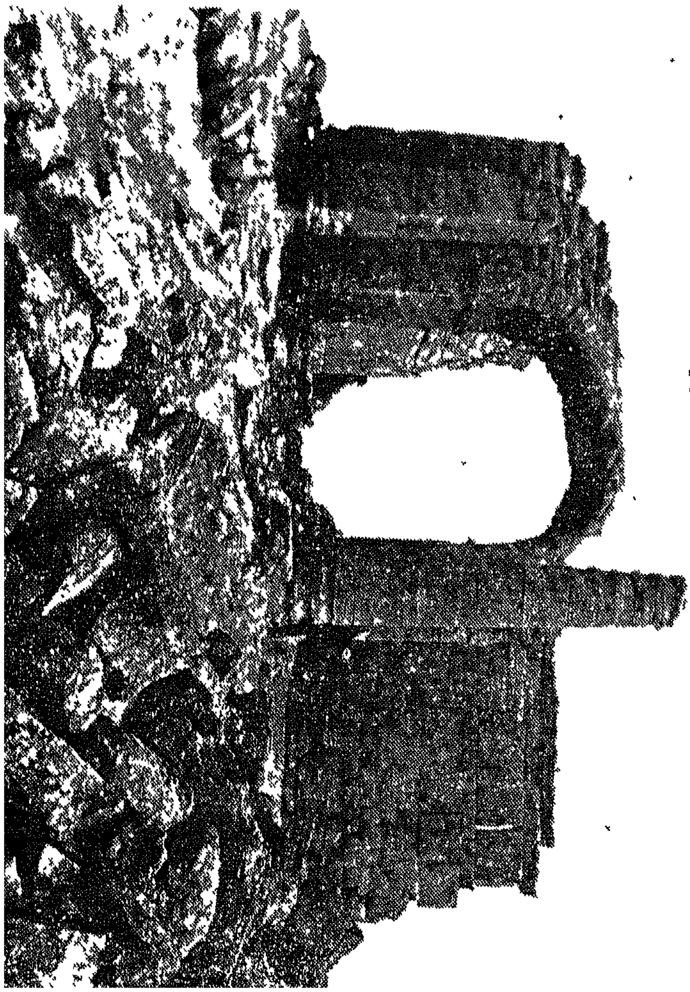


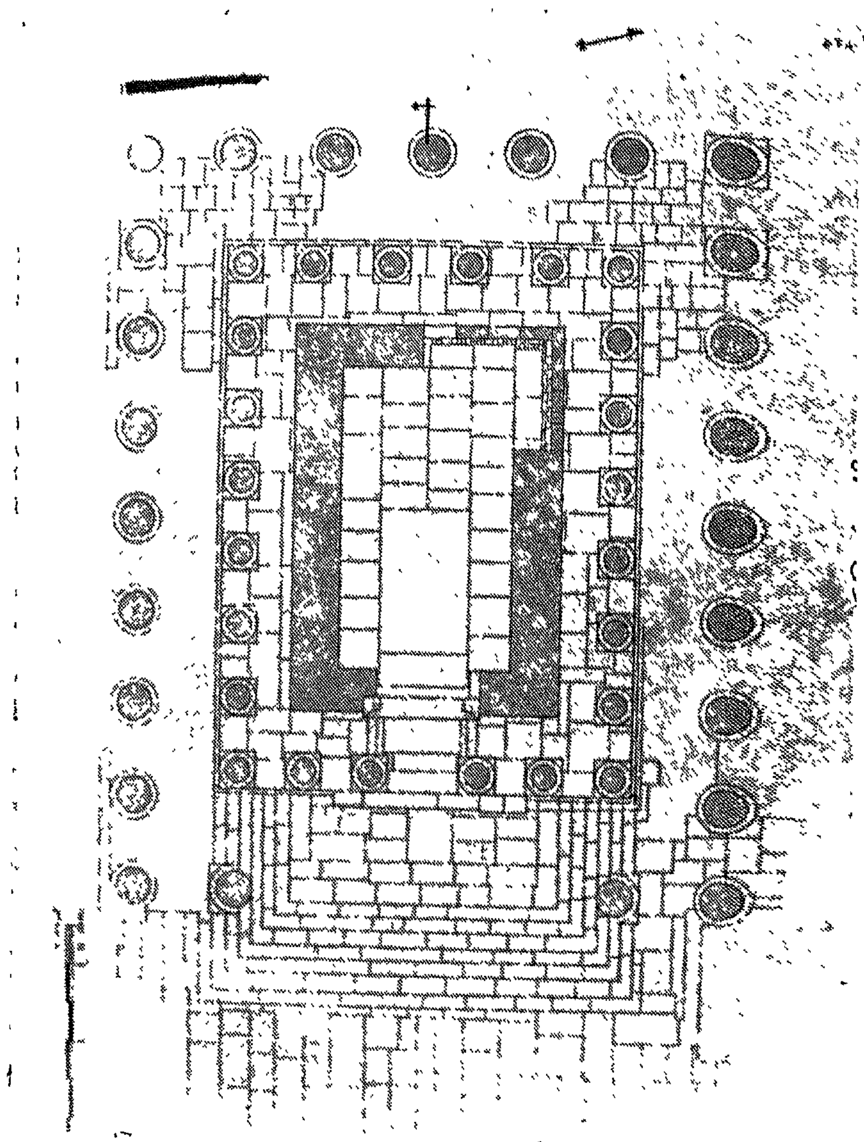





0 5 10 15 20 25 30m
N

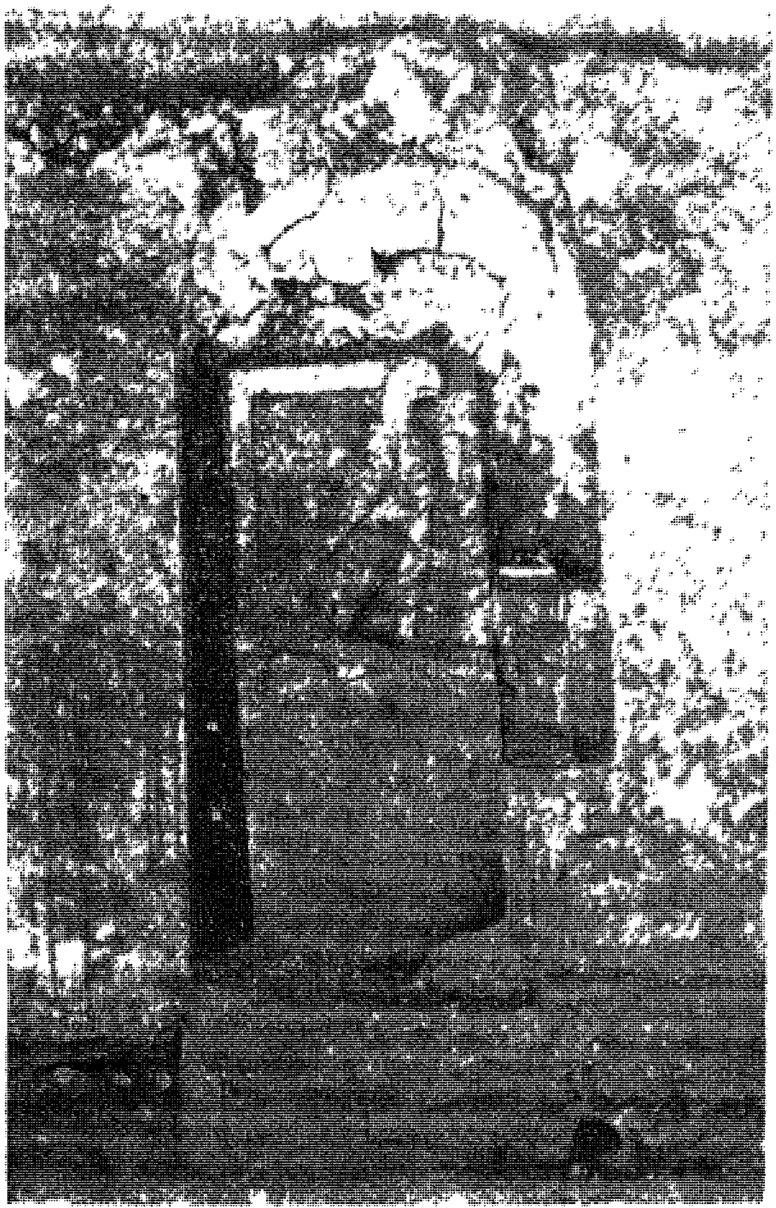












٢ ـ الاخيضر

الدكتور عبدالعزيز حميد صالح
الاستاذ في كلية الاداب ـ جامعة بغداد

عندما يتردد على اسماعنا اسم الاخيضر ينصرف الذهن اول ماينصرف الى ذلك البناء الشامخ الذي يقف متحديا الزمن على حافة بادية السماوة في طرفها الشرقي وعلى بعد خمسة وخمسين كيلو مترا جنوب غرب كربلاء والقريب جدا من وادي الابيض •

لقد مضى على اكتشاف الاخيضر اكثر من ثلاثة قرون ، حيث وردت اول اشـارة واضحة اليه في كتابـات الرحالة الايطـالي بترو ديلا فيـلا Petro Della Vella سنة ١٦٢٥ • ثم تلاه تافرنيه سنة ١٦٣٨ اعقبه دبليو فيوز سنة ١٧٤٥ ، ثم مر به جي روبرتس في سنة ١٧٤٨ ، تلاه الميجر تايلر سنة ١٧٩٠ ، ومنذ اكثر من قرن وعلماء الاثار مقبلون على دراسته فكتب عنه عدد لا يستهان به من كتب وبحوث تناولت هذا الاثر الشاخص من جوانبه التاريخية والفنية والعمارية • ومع كل ذلك فلا يزال الاخيضر يعد لغزا غامضا محيرا ، والسبب في ذلك يعود بتسكل اساس الى امرين ، الاول انه غفل من اية كتابة تاريخية عمارية مثل الشواهد التي تعلو في العادة واجهات الكثير من المباني الاثرية او بعض اقسامها الداخلية • والامر الثاني

يعزى الى سكوت المدونات التاريخية العربية والقديمة والبلدانية عنه بشكل يدعو الى الحيرة والتفكير العميق ، خاصة وقد تميز بضخامة ملفتة للنظر الى درجة ان عبر عنها بعض المستشرقين بان من ينظر الى الاخيضر ليظن انه ليس مما بناه اناس من البشر بل ان الجن هي التي اقامت صرحه[١] . ويكتب الاثاري البريطاني كرسويل الذي اولى هذا القصر اهتماما خاصا في دراساته للعمارة الاسلامية ، ان الاخيضر هو اروع ما شاهد في حياته من المباني الاثرية الشاخصة المثيرة للاعجاب سواء كان ذلك في شرق العالم او في غربه[٢]

ولاشك ان من الاسباب الرئيسة التي حملت العلماء على الاهتمام بالاخيضر يرجع ايضا الى انه من اكثر القصور الاثرية في العالم التي بقيت محافظة على هيئتها العامة ، فلم يصب هذا القصر من الخراب الا الشيء الطفيف .

ان قصر الاخيضر هو بلا ريب ليس بناء وحيدا معزولا عن العامر من الارض في طرف الصحراء كما ذهب الى ذلك العديد من المختصين في علم الاثار والتاريخ او غيرهم . فهو لا يبعد عن مدينة عين التمر العباسية الا بتسعة عشر كيلو مترا ، وقد شيد على حافة وادي الابيض الذي ربما كان فرعا من الفرات اصابه الجفاف في فترة ما من العصر العباسي ، ولا يزال بالامكان الحصول على الماء من قعر هذا الوادي في جميع فصول السنة بمجرد القيام بحفر بسيط . ولاشك ان لموقع الاخيضر اهمية بالغة فهو يقع على الطريق الرئيس الذي يربط العراق بالعالم الخارجي من جهته الغربية والجنوبية والشمالية الغربية حيث الجادة التي تربط البصرة بحلب . كذلك الطريق الذي يوصل الشام والبحر الابيض المتوسط بالخليج العربي والبحر العربي ايضا . وقد بات من المؤكد الان وذلك من الخرائط الجوية والتحريات الاثرية ان الكثبان التي تمتد بين القصر ووادي الابيض تؤلف مدينة كاملة

تنتشر مساكنها شمال القصر وشرقه واجزاء من جبهته الغربية وهكذا فقد بات من المعروف اليوم ان الاخيضر يقوم وسط بلدة صغيرة • كما انه صار يعرف اليوم ان هناك اثار قصر قديم مندرس يقابله تقريبا ويقع على يسار وادي الابيض ويبدو انه يسبق الاخيضر في الزمن[٣] • كما اظهرت الحفائر الاثرية التي قامت بها المديرية العامة للاثار والتراث في الاونة الاخيره عن اكتشاف مبان جديدة قريبة من حصن الاخيضر سوف تتطرق اليها لاحقا في هذا البحث •وهكذا يتبين لنا بشكل قاطع ان قصر الاخيضر لم يكن بناء منفردا ومنعزلا بل كان وسط مجموعة كبيرة من الدور والمساكن والحوانيت وغير ذلك من مبان عامة •

ومن الواضح الان ان للاخيضر سوران دفاعيان •

السور الاول • وهو السور الخارجي منحرف الشكل ، ابعاده على التوالي : ٦١٠ مترا و ٦٣٥ مترا و ٣١١ مترا واخيرا ٥٤٠ مترا •

وقد شيد هذا السور الخارجي باللبن على قاعدة حجرية ومدعوم بعدد كبير من الابراج نصف الاسطوانية •

والسور الثاني وهو السور الرئيس مشيد كله بالحجارة والجص • وابعاده ١٧٥ مترا من الشمال الى الجنوب و١٦٩ مترا من الشرق الى الغرب وهو يرتفع في الهواء اكثر قليلا من ٢١ مترا • ان هذا السور الذي تتجه جدرانه نحو الجهات الاربع تماما مدعوم بثمانية واربعين برجا نصف اسطوانية • وهو متين البناء غاية في الاحكام والكمال والروعة في التخطيط المعماري • وقد حرص مصممه على جعله منيعا حصينا الى حد الكمال •

وانه لمن المتفق عليه اليوم ان سور الاخيضر هذا يتميز بخصائص دفاعية لم يعرف ما يشابهه قبل زمن تشييد الاخيضر • ان الشيء الجديد في تلك التحصينات امران :

الامر الاول ان السور وعلى ارتفاع عشرة امتار ونصف ينقسم الى جدران يحصران بينهما ممرا او رواقا عرضه متران مسقف بقبو نصف اسطواني يطوف باعلى السور من جهاته الاربع ويؤدي الى غرف صغيرة نصف دائرية داخل القسم العلوي من كل برج من الابراج الثمانية والاربعين• ان الرواق المسقف يوفر الحماية التامة للجنود المدافعين عن الحصن حيث يكون بميسورهم وهم بمأمن تام من قذائف العدو ان يرشقوا المهاجمين بسهامهم عن طريق المزاغل الشاقولية من داخل غرف الابراج من المزاغل الواقعة في اعلى السور بين الابراج والتي يبلغ مجموعها الكلي (٣٤٠) مزغلا شاقوليا •

ويتميز الرواق الدفاعي ايضا بوجود مزاغل افقية في ارضيته وهي فتحات طويلة ضيقة يستطيع عن طريقها المدافعون ان يسكبوا الزيت المغلي او الرصاص الذائب على المهاجمين من الاعداء الذين ينجحون في الوصول الى قاعدة السور والالتصاق به في محاولة لثقبه او احداث ثغرة فيه ، وهو ابتكار عربي اسلامي صرف لم نجد ما يشبهه في الحصون والاسوار الدفاعية التي تعود الى ما قبل عصر الاخيضر •

الامر الثاني يتعلق بالبوابات الاربعة لسور الاخيضر ، حيث نجد ان لكل مدخل ولاول مرة عدد من الابواب المنزلقة وهي سقاطات ضخمة تتحرك من الاعلى الى الاسفل ، مما يجعل امر فتحها اي رفعها الى الاعلى من خارج السور صعبا الى ابعد الحدود ان لم يكن مستحيلا • خاصة وانه كان على كل مدخل اكثر من باب واحد •

ان هذه التقنية الرفيعة في الاستحكامات الدفاعية ابتكار عربي اسلامي خالص لم يعرف ما يشابهه قبل الاسلام او في العصر الاموي • وهو في نفس الوقت لم يعرف في بلاد الغرب الا بعد ما لا يقل عن اربعمائة سنة على تشييد حصن الاخيضر •

اما القصر فهو مستطيل الشكل طوله نحو ١٣٣ مترا وعرضه نحو ٨٢ مترا . وقد شيد ملاصقا للسور من جهته الشمالية . جدرانه الثلاثة السائبة مدعومة بابراج نصف اسطوانية الغرض منها ان تكون ركائز لتقوية البنـاء وثباته (شكل ١) .

ان مخطط القصر يدل على وجود خمسة اقسام رئيسة فيه :

القسم الاول وهو الشمالي يتألف من ثلاثة وحدات بنائيـة . الوحدة الاولى وهي الواقعة الى اقصـى اليمين بالنسبة للداخل وقوامها فناء وسطي مكشوف تحيط بـه مجموعة من الغـرف والحجرات والقاعات موزعة على ثلاثة طوابق ، والتي يبدو انهـا كانت معدة للضيوف الوافدين على صاحب القصـر اي دار ضيافة . وليس من المستبعد . انـه كان يشغل بعض غرفها كمكاتب خاصة بموظفي القصر (شكل ٢) .

الوحدة الوسطية هي دهليز القصر والتي تتصل بالبوابة الشمالية ، وهي البوابة الرئيسة فيالقصر عن طريق ساحة مربعة تعلوها قبة (شكل ٣).ان هذا الدهليز، الذي يعرف بالبهو الكبير اكبر قاعات القصر مساحة (١٥٫٥م×٩م) واعلاها بناءً حيث يبلغ ارتفاع قبتها نصف الاسطوانية حوالي عشرة امتار (شكل ٤) . وليس هذا الامر غريبا فنحن نعلم ان العراقيين قد اولوا الدهليز في قصورهم ومساكنهم اهميـة خاصـة وذلـك منذ العصـر الاموي على الاقل(٤) . لقد اتخذ الدهليز دائما موقعا قريبـا من المدخل . فالزائر يدخل اولا الى هناك لحين وصول الاذن له بدخـول الدار ، ولذلك فقد انصرفت عناية العراقيين في العصر الاسلامي الى الاهتمام بالدهليز من حيث السـعة والنظافة او الزخرفة . فالدهليز كان يعطي للزوار الصورة الحسنة عن اصحاب

الدار • ولا بأس من ان نستشهد في ذلك بابيات لشاعر عباسي في دهليز بعض دور بغداد :

ودهليز دار فيه للعين بهجة ... وللنفس فيه للذاذة اوطار
اذا داخل لم يختبر ماوراءه ... توهمه من حسنه انه الدار(٥)

ومما يدل على الاهمية الكبيرة التي كان يوليها الاثرياء من العراقيين للدهليز ما يخبرنا به القاضي المحسن بن علي التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ هجرية ان احمد بن الخصيب استعمل في دهليز داره التي شيدها في سامراء سبعين فارية ساج • والفارية هي الساجة العظيمة الكاملة غير المقطعة(٦) •

اما الوحدة الثالثة والواقعة الى اقصى اليسار من القسم الشمالي فقد شيد فيها مسجد القصر وطوله ٢٤ مترا من الشرق الى الغرب وعرضه نحو ١٥٫٥ مترا من الشمال الى الجنوب ، تحيط به اروقة من جهاته الجنوبية والشرقية والغربية • وعمق رواق القبة فيه اربعة امتار وعرضها كل من مجنبتيه الشرقية والغربية ثلاثةامتار (شكل ٥) والاروقةمسقفة بقنوات تطل على صحن المسجد بواسطة عقود محمولة على دعامات اسطوانية (٤) • وللمسجد محراب مجوف يتوسط جدار القبلة فيه والذي يعتبر اقدم المحاريب المجوفة التي وصلتنا من العراق(٧) • غير ان قصر الاخيضر هو بالتأكيد ليس اقدم القصور الاسلامية التي تضم ضمن مشتملاتها مسجدا • ان اقدم القصور الاسلامية التي لها مسجد هو قصر المنية في فلسطين الواقع قرب ساحل طبرية الشمالية الشرقي والمنسوب الى الخليفة الاموي الوليد بن عبدالملك (٨٦ـ٩٦ هـ ٧٠٥ـ٧١٥ م) حيث نجد ان المسجد يقع في الجانب الايسر من القسم الشمالي في ذلك القصر • في موقع مشابه لموقعه في قصر الاخيضر ، ثم في قصر المشتى اشهر القصور الاموية على الاطلاق وذو التأثيرات العراقية التي لاتقبل الجدل ، وهو القصر الواقع على بعد عشرين ميلا جنوب

عمان والـذي يعتقد ان الخليفة الاموي الوليـد الثاني (١٢٥ ــ ١٢٦ هـ ٧٤٣ــ٧٤٤ م) هو الذي امر بشييده[٨] وهنا ايضا يقع المسجد في موضع منسابه تماما لموقعه في قصر الاخيضر ٠

القسم الثاني هو القسم المركزي الذي يعتبر اهم اجزاء قصر الاخيضر٠ ويحيط بهذا القسم من جهاته الاربعة رواق كبير مسقف بقبو نصف اسطواني يفصله عن باقي اقسام القصر ويتقدم هذا القسم فناء مكشوف مبلط يعرف بين المختصين بالرحبة الكبرى ٠ ان طول هذا الفناء ٣٣ مترا وعرضه ٢٧ مترا وتزين جدرانه الداخلية الاربعة سلسلة من التجاويف المتجاورة يبلغ عددها اثنان وثلاثون ٠ يزين الجزء العلوي منها زخارف حصيريـة منضدة بالآجر تعتبر اقدم ما وصلنا منها في العمارة الاسلامية او في غيرها ٠ فلابد من القول هنا ان مثل هذه الزخرفة في الاجر لم تكن معروفة لاقبل الاسلام ولا في العصر الاموي ، حيث ان الاراء متفقة أن اقدم ظهور لها هو في الاخيضر ٠

يتوسط الضلع الجنوبية المطل على الرحبة الكبرى الايـوان الرئيس وعرضه حوالي ستة امتار وعمقه اكثر قليلا من عشرة امتار تعلوه قبوة نصفه اسطوانية ٠ ويلاحظ ان على جانبي الايوان وخلفه مجموعة من القاعـات والغرف ، اهمها قاعة مربعة ذات اربعة مداخل ٠ يفضي المدخل الشمالي منها الى الايوان مباشرة في حين يؤدي المدخـلان الشرقي والغربي الى قاعتين مستطيلتين ٠ اما المدخل الجنوبي فيفضي الى قاعة كبيرة يقوم سقفها على بائكة ذات اربعة عقود ٠ ان من الامور المسلم بها ان الايوان والقاعة ذات الاربعة مداخل وما يحيط بها من مشتملات هي اهم اجزاء القصر حيث تشـكل بمجموعها المجلس الرسمي لصاحب الاخيضر (شكل ٥) ، ومما لاشك فيه ايضا ان القاعة ذات الاربعة مداخل التي يتقدمها الايوان هي دالـة اكيدة وخصوصية من خصائص القصور العراقية التي شيدت في ظل الاسلام ومنذ بداية العصر العباسي على الاقل ٠ فهي موجودة في جميع قصور سـامراء

المعروفه اليوم ٠ اقدمها في دار الخلافة (دار العامة) القصر او المقر الرسمي لخلفاء بني العباس الذي أمر بتشييده المعتصم بالله (٢١٨ ــ ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ ــ ٨٤٢ م) عند تمصيره سامراء سنة ٢٢١ هـ (٨٣٥م)[٩] ٠ كذلك نجد مثل هذه الفاعة في فصر (الجص) وهو الذي شيده المعتصم في الجانب الغربي من سامراء ، حيث تتوسط هذه القاعة القصر تماما ٠ كذلك نجد ما يماثلها في قصر (بلكوارا) جنوب مدينة سامراء الحالية وهو والقصر الذي شيده المتوكل على الله (٢٣٢ــ٢٤٧هـ/٨٤٧ــ٨٦١م) لابنه المعتز (٢٥١ــ٢٥٥هـ/٨٦٦ــ٨٦٩م) وهو القصر الذي تبلغمساحته ثلاثة اضعاف مدينة سامراء الحديثة ٠ ونجد التصميم نفسه تقريبا في قصر المعشــوق الذي بناه المعتمد على اللــه (٢٥٦ــ٢٧٩ هـ/٨٧٠ــ٨٩٢م) وهو آخر القصور العباسية التي شيدت في سامراء وذلك في السنتين او الثلاثة الاخيرة قبل ا نيعود المعتمد بمقر الخلافة الى بغداد في سنة ٢٧٩ هجرية ٠

اما القسمان الثالث والرابع فيقعان على يمين ويسار القسم المركزي من القصر وهي اربعة بيوت شبه مستقلة يقع كل اثنين منها في جانب ٠ وتكاد هذه البيوت الاربعة ان تكون متشابهة تماما من حيث التخطيط ، حيث ان لكل منها فناء وسطي مكشوف ، اقيم في كل من طرفيه الشمالي والجنوبي ايوان على كل جانب من جانبيه غرفه ٠ وتعرف هذه البيوت الاربعة بقسم الحريم ٠

القسم الخامس والاخير من اقسام قصر الاخيضر هو القسم الواقــع الى الجنوب من القسم المركزي ويضم المطبخ وغرف الخدم والحمام الذي اكتشف حديثا (شكل٦) واضافة الى هذه الاقسام الخمسة هناك ملحقانللقصر، الاول يقع ضمن السور في الفضاء الواقع بين الجدار الشــرقية له والقصر ٠ وقوامه ايوان كبير على جانبيه مجموعة من الغرف ٠ كما ان هناك ملحقا آخر يقع خارج سور القصر قريبا من زاويته الشمالية الغربية وهو بناء مستطيل

الشكل طوله حوالي ٧٦ مترا وعرضه حوالي ١٢ مترا يشتمل على سلسلة من الغرف المعقودة وايوان كبير • ولاشك ان هذين الملحقين من متممات الابنية الخاصة بالقصر(١٠) •

هذا وقد كشفت الحفائر الاثرية الاخيرة في منطقــة الاخيضر وعلــى مسافة ٢٠٠ متر تقريبا شمال غرب الملحق الخارجي هذا بناء مستطيلا طوله ٥ر٦٨ متر وعرضه حوالي ٥٧ مترا يحيط به سور عرضه يزيد قليلا على المتر الواحد مشيد باللبن وهو يطل على وادي الابيض مباشرة • والسور مدعوم بابراج نصف اسطوانية يبلغ عددها سبعة وعشرون برجا (شكل ٧) • ويضم البناء في الاصل مجموعة من الغرف يتقدمها فناء واسع • يذكر السيد داخــل مجهول الذي له الفضل في الحفر والكشف عن هذا البناء الجديد انه قــد قسم في وقت لاحق الى مجموعة من المباني المستقلة يفصل بينهــا دروب ضيقة ، قوام كل منها ساحة مكشوفة تحيط بها مجموعة من الغرف ، كمــا ان لواحد من هذه المباني ايوانان متقابلان عبر الفناء المكشوف على جانبي كل ايوان مجموعة من الغرف وهو يشبه في تصميمه البيوت الاربعة في داخل قصر الاخيضر • ويضيف السيد داخل مجهول الذي قدم لي مشكورا تقريرا له لم ينشر بعد ان الفاصل الزمني بين هذه المباني وقصر الاخيضر ضيق جدا ان لم يكونا من زمن واحد وذلك نتيجة لدراسته اللقى الاثرية المكتشفة في الموقــع •

والان متى شيد قصر الاخيضر ؟ انه لمن دواعي الاسف ان لم يعثر ضمن مشتملات هذا القصر او في المباني المحيطة او القريبة منه على كتابات تشير ولو ضمنا الى تاريخ البناء سواء كان ذلك على الاجزاء الشاخصة منه او عن طريق الحفائر الاثرية • كذلك لا نجد في المدونات التاريخية العربيــة او الاسلامية ما يميط اللثام عن هذا اللغز فهي غفل من اية اشارة واضحة للاخيضر •

كل هذا سبب بالتالي اختلاف الباحثين على تقديـر تاريخ معقول يمكن ان يكون القصر وما يحيط به من مباني قد شيد فيه .

ان هناك من المختصين من ذهب الى ان البناء يرجع الى عصر يسبق الاسلام . منهم المستشرق ديولافوا الذي كتب في بحثين له ، الاول سنة ١٦٠٩ والثاني سنة ١٩١٣ ان القصر يرجع الى عصر قبيل الاسلام وايده في ذلك الاستاذ ماسنيون الذي اضاف بان القصر ربما كان قصر السدير الشهير ، ذلك القصر الذي اطنب الشعراء العرب في وصفه[١١] . ومن المؤرخين الذين نحو هذا المنحى محمود شكري الالوسي ،[١٢] والدكتور مصطفى جواد[١٣] . وكذلك الدكتور زكي محمد حسن الذي رجح الفكرة التي تقول بانه شيد لبعض امراء الحيرة بقصد صد غارات الروم والغساسنه كذلك الغارات التي كـان مصـدرها شـبه جزيـرة العـرب ، غير انـه ذكر ان رأيـه هـذا ليس نهائيا ، وانه سوف يتراجع عنه اذا ثبت عن طريق الحفائر الاثرية ان مسجد القصر هو جزء اصلي من القصر ولم يضف في وقت لاحق[١٤] . ويرى استاذنا الدكتور صالح احمد العلي ان الاخيضر ربماهو الصرح الذي كان معروفا بقصر مقاتل او ان قصر مقاتل كان قريبا منه[١٥] . ويـذكر البلاذري وغيره من المؤرخين العرب ان ذلك القصر ينسب الى مقاتل بن حسان بن ثعلبه بن امرىء القيس بن زيد مناة[١٦] . وهو الذي نزله سيد الشهداء الحسين بن علـي (رض) بعد ان تحرك من القادسية متجها الى كربلاء[١٧] . لقد كان هذا القصر قرب (عين التمر) ويذكر ياقوت الحموي انه كان بين عين التمر والشام[١٨] ويقال ان القصر صار لعيسى بن علي فيما بعد[١٩] .

غير ان الغالبية العظمى من المختصين في الاثار اليوم متفقون في ان قصر الاخيضر اسلامي صرف ولا علاقة له بما قبل الاسلام . غير انهـم اختلفوا بعض الاختلاف في الفترة الزمنية التي شيد فيها . فمنهم من يرى انه شيد في

العصر الاموي[٢٠] • ومنهم من يرى انه يرجع للفترة الزمنية المحصورة بين قيام الدولة العباسية وعصر هارون الرشيد •

ويعتقد اخرون ان اخر زمن يمكن ان يكون قد شيد فيه هو بداية عصر سامراء في القرن الثالث الهجري ، كما يميل آخرون الى انه شيد في مطلع القرن الرابع على يد القرامطة وليس من المستبعد حسب رأي هولاء ان يكون (دار الهجرة) التي احتمى بها القرامطة في مطلع القرن الرابع • ومن اكثر المختصين الذين اولوا تاريخ الاخيضر اهتمامهم هو البريطاني كرسويل الذي يرى ان القصر من الناحية العمارية يمكن ان يؤرخ بين سنتي ١٠٢ هجرية (٧٢٠ م) وسنة ١٨٤ هجرية (٨٠٠ م) وذلك على اسس عمارية صرفه[٢١] • غير انه يضيف ان هذا القصر لايمكن ان يكون قد بني على يد خلفاء بني امية لان الخلفاء الامويين سكنوا جميعا في الناحية الغربية من بادية الشام • ثم يذكر ان خلفاء بني العباس لم يكونوا يحنون كثيرا الى عيشة البادية كالامويين وانما استقروا في المدن ولا سيما بعد تشييد بغداد في سنة ١٤٧ هجرية (٧٦٤ م) • وينتهي في ذلك الى ان قصر الاخيضر لا يمكن ان يكون قد شيده اي خليفة عباسي • ثم ينسبه كرسويل الى الامير عيسى بن موسى ابن اخ السفاح (١٣٢ــ١٣٦ هـ /٧٥٠ــ٧٥٤ م) والذي ولاه الكوفه وجعله وليا للعهد بعد عمه ابي جعفر المنصور (١٣٦ــ١٥٨ هـ/٧٥٤ــ٧٧٥ م) • وصار يعرف منذ ذلك الحين بـ (شيخ الدولة)[٢٢] • ويرى كرسويل ان القصة التي يذكرها الطبري تجعله الشخصية القوية الغنية التي يتلائم عصرها وظروفها على بناء ذلك القصر •

وخلاصة الامر انه لما تولى ابو جعفر المنصور الخلافة عمل جاهدا على ان يجعل ولاية وان يخلع منها عيسى بن موسى ، وقد داتبع في ذلك مختلف الاساليب • وتنازل اخيرا الاخير عن ولاية العهد لمصلحة المهدي وعلى ان يكون وليا للعهد بعد ان امتد به العمر • ولما خلف المهدي اباه المنصور سنة

١٥٨ هجرية حاول بعد ثلاث سنوات ان يفعل الامر نفسه وذلك لمصلحة ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد ، وفعلا ينجح في ذلك ويتنازل عيسى بن موسى وللمرة الثانية عن ولاية العهد في سنة ١٦١ هجرية (٧٧٨ م) ، ثم اعتزل في ضياعة في الكوفة فعاش بعيدا عن الناس لايذهب الى الكوفة الا لاداء صلاة الجمعة وانه كان يركب حتى باب المسجد الجامع ثم يصلي وينصرف بعدها راجعا الى ضياعه .

ويرى كرسويل ان هذه القصة تلائم تماما بناء الاخيضر لان هذا القصر ، كما ذكرنا ، لابد ان يكو نقد بني على يد امير غني مثل عيسى بن موسى الذي كان المنصور قد وصله عن تنازله عن الخلافة بثلاثة عشر مليون درهم ووصله المهدي عن تنازله للمرة الثانية بعشرة ملايين درهم وقطائع كثيرة [٢٣] . وان هذا هو الامير العباسي الوحيد الذي عرف بانه عاش منعزلا عن الناس وان بعد الاخيضر عن الكوفة نحو خمسين ميلا يمكن قطعه على مرحلتين اذا غيرت الخيل في منتصف الطريق . ويضيف اننا نجد في منتصف الطريق بين الاخيضر والكوفة (خان عطشان) الذي يرجع الى عصر بناء الاخيضر يمكن ان يستخدم كدار استراحة لعيسى بن موسى اثناء ذهابه وايابه من الكوفة (شكل ٧) . وهكذا ينتهي كرسويل الى ان قصر الاخيضر لابد ان يكون قد بني في سنة ١٦١ هجرية اي السنة التي اعتزل فيها عيسى بن موسى عن ولاية العهد للمرة الثانية والاخيرة[٢٤] .

غير ان كل المختصين تقريبا لم يوافقوا كرسويل على اقتراحه هذا لاسباب مختلفة . منها ان عيسى بن موسى لم يكن مرضيا عنه تماما من ابي جعفر المنصور ثم المهدي ، وانه لم يكن يستطيع ان يشيد قصر الاخيضر بمثل هذا التحصين لان الدولة لم تكن تتركه يفعل ذلك اذ انه لم يكن بحاجة لمثل هذا التحصين الا اذا كان يبني شيئا ضد المهدي . وما كان والي الكوفة ليسكت عن ابلاغ هذا الامر الى الخليفة . ثم ان الاخيضر واقع على حافة البادية

فلا يسكن ان يكون في وسط ضياع عيسى بن موسى الـذي اعتزل الحياة العامة فيها ٠ وانما الراجح ان تكون ضياعه من بين الاراضي المزروعة القريبة من الكوفة ٠ هذا ويفيدنا الطبري في حوادث سنة ١١٤٥ هجرية ان دار عيسى بن موسى كانت الى جانب دار اسحق بن يوسف الازرق الذي كان قد خرج مع العلوي ابراهيم بن عبدالله[٢٥] ، ثم ان الاخيضر يبعد عن الكوفة باكثر من سبعين كيلو مترا فليس من المعقول ان يكون باستطاعته ان ياتي الكوفة صباح كل يوم جمعة لتأدية فريضـة صـلاة الجمعة ثم العودة الى قصره في الاخيضر في نفس اليوم ، خاصة وانه كان قد تجاوز الستين من عمره انذاك ٠

ومما قد يساعدنا في نسبة هذا القصر الى عصـر المنصور انـه عثر في حفائر سنة ١٩٦٨ فوق تباليط بعض غرفـه على فلس نحاسي مضروب بمدينة السلام مؤرخ من سنة ١٥٧ هجرية وبامر ابي جعفر المنصور[٢٦] ٠ كما عثر السيد داخل مجهول في حفائر حفائر بعض الدور المكتشفة شمال شرق الاخيضر، وهي الحفائر التي سبقت الاشارة اليها على مجموعة من المسكوكات واحدة منها درهم فضي مؤرخ في سنة ١٥٦ هجرية والذي يقع ضمن سنوات خلافة ابي جعفر المنصور ايضا ٠

واذا كان قصر الاخيضر يرجع الى ما قبل عصر المهدي فان هذا لا يعني باي حالة من الاحـوال انه يرجع الى ما قبل الاسـلام ولا حتى الى العصر الاموي ٠ والسبب في ذلك يعود الى دلائل لا يمكن الطعن فيهـا ٠ ربما من اهمها ان المديرية العامة للاثار والتراث قد اثبتت عن طريق الحفائر الاثرية ان المسجد في القسم الشمالي من القصر قد شيد في نفس الزمن الذي شيد فيه الاخيضر ٠ كذلك وجود عدة عناصر عمارية لم تكن معروفة في العمائر السابقة للاسلام كما ان اغلبها لم تكن قد ظهرت في عمائر العصـر الامـوي ٠ فمن العناصر العمارية التي ظهرت بعد سنة ٩٠ هجرية المساجد ذات المحاريب المجوفـة ، فنحن نعلم ان اول محراب مجوف في الاسلام قد استحدث عندما جدد بناء

مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة وذلك عندما كان عمر بن عبد العزيز واليا عليها من قبل الوليد بن عبدالملك في سنة ٩٢ هجرية (٧١٠م) ومنها ايضا العقود المدببة والتي كان اول ظهور لها في قصر عمره الواقع على بعد خمسين ميلا شرقي عمان • وهو من القصور الصغيرة التي كـان خلفاء بني امية يقيمونها في الجانب الغربي من بادية الشام ، والراجح ان الوليـد بن عبدالملك هو الذي شيده في نحو سنة ٩٤ هجرية (٧١٢ م)[٢٧] •

ومن العناصر العمارية في الاخيضر والتي لم تظهر الا في العصر العباسي القبو المتقاطع المتصالب ، وهو ضرب من ضروب التسقيف•كذلك القبة ذات القنوات التي يوجد نموذج منها فوق الساحة المربعة الواقعة بين المدخل الرئيس والدهليز (شكل٨) • ثم الحنايا او التجاويف المحارية الشكل التي لانجد ابدا ما يشبهها في عمارات قبل الاسلام او في العصر الاموي • كذلك الزخارف الآجرية الناتجة عن التلاعب بوضعيات الآجر في البناء وذلك برصفها بشكل زخرفي بحت والذي يعرف بين المختصين في العمارة الاسلامية بالزخارف الحصيرية تشبيها لها بنسج الحصير •

وهكذا فيمكننا القول ان قصر او حصن الاخيضر قد شيد في اوائل العصر العباسي • واذا لم يكن كريســويل موفقا في اختيار التاريخ الدقيق المناسب للاخيضر فان اختياره لسنة ١٦٢ هجرية هي بلاشك سنة قريبة من السنة التي شيد فيها ذلك القصر او الحصن • وفي رأينا ان افضل السنوات التي يمكن ان يكون الاخيضر قد شيد فيها هي الفترة الزمنية المحصورة بين اواخر سنة ١٤٥ هجرية واوائل سنة ١٥٥ هجرية (٧٦٢—٧٧١م) • والسبب في اختيارنا لتلك السنوات العشر هو ان المنصور في بدايتها قد احس بنذير الخطر الشديد الذي يمكن ان يأتيه من الحجاز ويهدد كيان الدولة العباسية الفتية تهديدا خطيرا وذلك بعد خروج محمد بن عبدالله بن حسن العلوي المعروف بمحمد ذي النفس الزكية في الحجاز ، وخروج اخيه ابراهيم بن عبدالله في

البصرة في سنة ١٤٥ هجرية • فنحن نعلم ان المنصور اوقف البناء في بغداد وترك الموقع ليعود الى الكوفة حيث ارسل الجيوش من هناك الى الحجاز ثم الى البصرة • والواقع ان خروج محمد واخيه ابراهيم قد اربك الدولة العباسية الى درجة كبيرة ، فنحن نعلم ان الحجاز قد تبعت الاول وان الثاني اخضع البصرة والاهوار وفارس ثم واسط[٢٨] • وربما انه لولا حسن القيادة العسكرية لعيسى بن موسى الذي وجهه المنصور على رأس الجيش العباسي لحرب محمد ذي النفس الزكية في الحجاز ثم الى البصرة لمحاربة ابراهيم ، كذلك سوء التنسيق بين الاخوين العلويين لكان هناك اليوم قول اخر • ويكفي ان نشير الى ما يذكره الطبري نقلا عن السندي : « كنت وصيفا ايام حرب محمد ، اقوم على رأس المنصور بالمذبة ، فرايته لما كشف امر ابراهيم وغلظ ، اقام على مصلى نيفا وخمسين ليلة ، ينام عليه ويجلس عليه ، وعليه جبة ملونة قد اتسخ جيبها وما تحت لحيته منها ، فما غير الجبة ولاهجر المصلى حتى فتح الله عليه[٢٩] وكان ان هجر نساءه • وعندما جلب البعض انتباهه الى ذلك روي عنه قوله : «ليست هذه ايام من ايام النساء••• حتى اعلم ارأس ابراهيم لي ام رأسي لابراهيم » •[٣٠]

وهكذا فانه من المعقول جدا ان يشعر المنصور بعد ان الحق الهزيمة بصعوبة بابراهيم بن عبدالله انه لابد من ان يؤمن الجادة القادمة من الحجاز او الشام الى الكوفة ثم الى بغداد وسواد العراق وذلك عن طريق اقامة بعض الحصون المنيعة جدا عند نقاط حساسة على تلك الجادة لها اهميتها السوقية ووضع اعداد كبيرة من الجند فيها عند شعور الدولة بالخطر وذلك لايقاف زحف الجيش القادم عن ذلك الطريق • وان لم تستطع تلك القوة العسكرية ان تبدد شملهم فانها على الاقل تعمل على اعاقتهم بعض الوقت • وحتى اذا ما تجاوز العدو تلك الحصون فان القوة العسكرية التي فيها تشكل وبشكل مستمر شوكة مؤلمة في ظهورهم • اذ ان بامكان تلك المسالح القوية ان ترصد العدو

وتقطع طرق تموينهم وتأخذ مددهم القادمين عن ذلك الطريق • كما ان بامكان اصحاب تلك الحصون الهجوم من الخلف على العدو كقوة مساعدة للجيش العباسي • وفي حالة هزيمة العدو فان باستطاعة تلك المسالح ان تأخذ من يحاول ان يهرب منهم الى الحجاز او الشام •

وعلى ذلك فان العمل في تشييد حصن الاخيضر ربما بدأ في اواخر سنة ١٤٥ هجرية عندما كان عيسى بن موسى عاملا على الكوفة من قبل ابي جعفر المنصور • وليس من المستبعد ايضا ان يكون الحصن قد بديء بتشييده او اكمل اثناء ولاية محمد بن سليمان • فمن المعروف ان محمد بن سليمان كان قد خلف عيسى بن موسى على ولاية الكوفة سنة ١٤٧ هجرية واستمر عاملا عليها لابي جعفر المنصور ولمدة تسع سنوات متواصلة ولم تنته ولايته على الكوفة الا في سنة ١٥٥ هجرية حين عزله المنصور واستبدله بعمرو بن زهير[٣١] والواقع ان امكانية تشييد حصن الاخيضر ضمن هذه الحقبة الزمنية الضيقة تتماشى ايضا مع اقدم المسكوكات التي وجدت هناك من جهة ، كما تتماشى مع الخصائص العمارية له من جهة اخرى •

اما بالنسبة الى المصادر التاريخية العربية فانه ، كما ذكرنا ، لمن الغريب حقا ان لا نجد فيها اشارات صريحة الى مثل هذا البناء الشامخ العظيم اللهم الا اذا كان السبب في سكوت المؤرخين والبلدانيين القدامى عنه انه لم يكن يعرف باسم واحد في جميع الحقب الزمنية التي كان شاخصا قائما فيها • فلا شك انه قد سمي باسماء مختلفة او اقترن اسمه احيانا باسماء بعض الامراء او القبائل التي نزلته او استفادت منه • ومما يدعم هذا الاقتراح ما كتبه الرحالة الايطالي بترو ديلا فيلا الذي اجتاز به في النصف الاول من القرن السابع عشر بانه كان يسمى بين اهل المنطقة بقصر (خفاجي) • ومن الصدف ان
عشر بانه كان يسمى بين اهل المنطقة بقصر (خفاجي) • ومن الصدف ان
المديرية العامة للاثار والتراث قد كشفت في السنوات الاخيرة على بعض جدار الحصن

الداخليـــة نصا كتابيا بخـط النســخ قوامه سبعة اسطر يمكن ان نقــرأ الواضح منها النحو التالي :

حفظ الله احمر ابن

ابي المولى الخفاجي

العيهلي (؟) المحسن الى جاره

كتبه ناصر المعلم غفر الله له ولوالديه

ولجميع المسلمين ولمن دعا له بالمغفرة .

وليس من المستبعد ان احمر بن ابي المولى الخفاجي كان رئيسة من رؤساء قبيلة خفاجية . فنحن نعلم ان الاشارات التاريخية الى قبيلة خفاجــة البدوية قد كثرت منذ مطلع القرن الخامس الهجري ، حيث ذكر ان اميرهم منيع بن حسان سار بخفاجة في سنة ٤١٧ هجرية (١٠٢٦م) الى مدينة (الجامعين) وهي مدينة الحلة الحالية والتي كانت آنذاك لنور الدين دبيس فنهبها . ثم الى الانبار وهي في ذلك الوقت للامير قراوش بن مقلد فنهبها واحرق اسواقها[٣٢] . ومن دراسة النصوص التاريخية يتبين لنا ان قبيلة خفاجة كانت تلجأ الى المفازة كلما داهما الخطر . المفازة هنا هي ذلك الجزء من بادية السماوة الذي يقع ضمن الرقعة الممتدة من شمال القادسيـــة الى الجنوب الغربي من كربلاء . فلا شك والحالة هذه ان الاخيضر يقع ضمن المنطقة التي كانت تلجأ اليها خفاجة عندما تدعو الحاجة الى دلك[٣٣] ومما يؤيد ذلك ايضا ما يذكره لنا ابن الجوزي في معرض حوادث سنة ٤٤٨ هجرية عن « ورود محمود بن الاخرم الخفاجي من مصر ومعه مــال فخطب بشفاتــا وعين التمر وبالكوفة للمصري .. »[٣٤] ونحن نعلم ان الاخيضر لا يبعد عــن (عين التمر) الا بضع كيلو مترات .

واذا تركنا خفاجة وشأنها ورجعنا قليلا الى الوراء نجد ان الهيمنة على المنطقة في اواسط القرن الرابع الهجري كانت لبعض قطاعي الطرق من البدو ، منهم ضبة ين محمد الاسدي هذا كان قد استولى على عين التمر وما جاورها فملكها نيفا وثلاثين عاماً . وذكر عنه انه كان « يسفك الدماء ويخيف السبل وينهب القرى ويبيح الاموال » .(٣٥) كما ذكر انه في بعض غاراته التي كان يقوم بها من حين الى حين اغار على كربلاء ونهب مشهد الحسين رضي الله عنه(٣٦) ولم تفلح الخلافة العباسية في القضاء على تمرده الا في سنة ٣٦٩ هجرية (٩٧٩ م) عن طريق جيش تعداده عشرة آلاف فارس فهاجم هذا الجيش عين التمر وحاصر القلعة . ويذكر لنا ابن مسكوية ان ضبة لم يشعر الا وعساكر بغداد توشك ان تحيط به فترك اهله وهرب بحاشيته الى البادية .(٣٧)

ومن الصدف الحميدة ان نكتشف نصا كتابيا منقوشا على الصخر على حافة الوادي الصخري المعروف بحفنة الابيض الواقع على بعد ثلاثين كيلومترا غرب الاخيضر . والنقش مكتوب بخط كوفي بسيط غير منقوط في اربعة اسطر تقرأ على النحو التالي :

حصن (حضر ؟) ضبة بن محمد بن يزيد
الاسدي السعدي سنت (هكذا) ست و
خمسين وثلثماية وله اذاك ثلثين (هكذا) سنة
وكتب بخطه

ويتبين لنا من قراءة النص ان ضبة بن محمد الاسدي قد اجتاز ذلك الموضع القريب من الاخيضر سنة ٣٥٦ هجرية (٩٦٦ م) ايام خلافة المطيع (٣٣٤–٣٦٣ هـ/٩٤٦–٩٧٤ م) وحز هذا النص بنفسه في صخر ذلك الوادي . وليس من المستبعد انه كان انذاك في طريقه الى بعض غاراته او فارا من الجيوش العباسية التي ربما كانت تطارده . وصحيح ان الكلمة الاولى في النص يمكن ان تقرأ على جهتين غير ان القراءة الاولى اي (حصن) هي الانسب لقرب الموقع من حصن الاخيضر الذي كان يتخذه ملجأ له .

ويبدو ان الشاعر المعروف المتنبي قد شارك مرة جيشا حاصر ضبة في هذا . فقد ذكرت الروايات التاريخية ان المتنبي في رحلته الاخيرة الى العراق « اجتاز بالطف فنزل باصدقاء له كانوا عازمين على السيد الى ضبة لمعاقبته فسار في صحبتهم . وتذكر تلك الروايات ان ضبة دخل الحصن » وامتنع به وقاموا عليه اياما لا سلاح له الا شتمهم من وراء الحصن اقبح شتم ... فنظم المتنبي قصيدته الهجائية المشهورة التي يعتبرها النقاد من اردأ ما قال المتنبي من شعر والتي منها :

ما انصف القوم ضبة ... وامه الطرطبة
وانما قلت ما قلـ ... ـت رحمة لا محبة
وما عليك من القتـ ... ـل انما هي ضربة
وما يشق على الكلب ... ان يكون ابن كلبة
يلوم ضبة قوم ... ولا يلومون قلبه

الى اخر القصيدة التي تعتبر سقطة من سقطات المتنبي • وعن الامور المتفقة عليها ان هذه القصيدة بالذات ربما كانت السبب الرئيس في قتل المتنبي ، فقد تعرض له فاتك بن ابي جهل الاسدي قرب مدينة النعسانية فقتله في سنة ٣٥٤ هجرية (٩٦٥ م) • وفاتك هذا هو خال ضبة بن يزيد الاسدي صاحب الحصن او القلعة •

فاية قلعة هذه في عين التمر او قربها التي تحصن بها ضبيعة نيفا وثلاثين عاما ؟ نحن نعلم ان حصن الاخيضر لا يبعد عن عين التمر سوى بضعة كيلو مترات • فان اغلب الاحتمال ان تكون تلك القلعة هي الاخيضر نفسه •

واذا تجاوزنا ضبة الاسدي نجد ان الهيمنة على تلك المنطقة قبل ذلك التاريخ كانت في بعض الفترات للقرامطة ، حيث يروى ان اول ظهور خطير لهم كان في ايام خلافة المعتضد بالله (٢٧٩—٢٨٩هـ/٨٩٢—٩٠١م) وذلك في سنة ٢٨٦ هجرية • فقد استطاع رجل في القطيف يدعى ابا سعيد القرمطي ان يتغلب على (هجر) فملكها •[٣٨] والذي يهمنا هنا هو انه تمركز لفترة طويلة في منطقة الكوفة • وقد تجمعت طائفة من اصحابه في عين التمر ونواحيها تحت لواء قائد من قوادهم يدعى عيسى بن موسى • وروي انهم شيدوا في تلك الاصقاع حصنا ضخما لهم اطلقوا عليه اسم (دار الهجرة) وذلك في حدود سنة ٣١٦ هجرية (٩٢٨م) [٣٩]•واننا في الوقت الذي نستبعد فيه تماما ان يكون حصن الاخيضر من المباني التي شيدها القرامطة وذلك لاسباب عمارية صرفة وهي ان الطراز العماري العربي كان في العصر الذي ظهر فيه القرامطة قد تطور وقطع خطوات عظيمة في التقدم وفي تحقيق طراز عماري

عربي اسلامي متميز بعيدا كل البعد عن الطراز الاموي وحتى عن الطراز الذي كان سائدا في مطلع العصر العباسي اضافة الى الاسباب الاخرى التي سبق وتطرقنا اليها في هذا البحث • ولكن من المعقول والمنطق ان يكون القرامطة قد افادوا فائدة كبيرة من وجود هذا الحصن الدفاعي العظيم ، خصة وانه ليس ثمة شك في انه كان قائما في الحقبة الزمنية التي ظهروا فيها على مسرح الاحداث • كما انه ليس من المستبعد ابدا ان تكون هناك علاقة بين اسم الحصن واسم احد قادة القرامطة في منطقة القرامطة والمدعو اسماعيل بن يوسف الاخيضر فيما لو صح ماذكر عن وجود مثل هذا القائد القرمطي والذي يذكر المستشرق موزيل انه كانت له عمالة الكوفة لفترة من الزمن في اوائل القرن الرابع الهجري غير اننا لم نجد اشارة لهذا الاسم في المصادر التاريخية الرئيسة في العصر العباسي مثل القرطبي وابن الاثير والمسعودي ومسكوية وابن الجوزي وغيرهم • كما اننا لا نرى ان هناك علاقة بين هذا الاسم والعلوي اسماعيل بن يوسف بن ابراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب الذي خرج بمكة في سنة ٢٥١ هجرية •

هذا ويرى باحث حديث ان (قصر بن اخضر) الذي وردت اشارة اليه عند ابن الاثير في معرض حوادث سنة ٤٤٨ هجرية (١٠٥٦م) ،وهو القصر الذي حاول ان يلجأ اليه ابن فسانجس عندما لاذ بالفرار من واسط والقي القبض عليه قرب النيل ، ربما هو نفسه قصر الاخيضر للتشابه في الاسمين من جهة ولوقوع قصر بن اخضر ، كما يبدو ، في نفس المنطقة التي فيها قصر الاخيضر(٤٠) •

واذا تعمقنا في التاريخ العربي ووصلنا الى عصر الرسالة النبوية الشريفة تكثر الاشارات التاريخية الى (دومة الجندل) وصاحبها اكيدر بن عبدالملك الكندي • ففي اخبار السنة التاسعة للهجرة ذكر ان النبي الكريم (ص) بعث بخالدبن الوليد (رض) عندماكان النبي (ص) فيتبوك في غزوةخاصة

الى (دومة الجندل) . وتذكر لنا المدونات التاريخية العربية ان خالدا استطاع ان يأسر اكيدر ويأتي به الى رسول الله فصالحه على دفع الجزية . ويذكر الطبري ايضا بان اكيدر هذا امتنع عن دفع الجزية بعد وفاة رسول الله (ص) ابان السنوات الاولى من الفتوحات العربية الكبرى . وهنا تختلف الروايات التاريخية ، فيكتب لنا الطبري : « لما فرغ خالد من عين التمر خلف بها عويم بن الكاهل الاسلمي وخرج في تعبيته التي دخل بها العين . ولما بلغ اهل دومة مسيرة خالد اليهم بعثوا الى احزابهم من كلب وغسان تنوخ .»[41] وتم فتح الحصن على يد خالد في سنة ١٢ هجرية (٦٣٣ م) وقتل اكيدر . ويذكر البلاذري في ذلك روايتين : الاولى ان خالدا اتى دومة من عين التمر ففتحها ثم اقبل الى الحيرة ومنها مضى الى الشام . والثانية انه مضى من عين التمر من دون ان يمر بالحيرة[42] ويؤيد الرواية الاخيرة الطبري .[43] وقد ذكر ايضا انه لما نقض اكيدر الصلح مع النبي (ص) اجلاه عمر بن الخطاب (رض) عن (دومة الجندل) الى الحيرة : فنزل في موضع قريب من عين التمر وبنى منازل سماها (دومة) باسم حصنه بوادي القرى ، ويذكر ياقوت الحموي المتوفي في سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) انه كان قائما في ايامه الا انه خراب[44] . غير ان ياقوت نفسه الذي اورد هذه الرواية قد شكك فيها لتناقضها مع ما اجمع عليه كتاب الفتوح الاسلامية من ان خالدا قد قتل اكيدر في سنة ١٢ هجرية ايام خلافة ابي بكر الصديق (رض) . ويميل ياقوت الى ماذكره البلاذري وهو انه « لما مات رسول الله (ص) منع اكيدر الصدقة وخرج من (دومة الجندل) ولحق بنواحي الحيرة وابتنى قرب عين التمر بناء سماه دومة .... وقيل ان خالدا لما انصرف من العراق الى الشام مر بدومة الجندل التي غزاها اولا بعينها وفتحها وقتل اكيدر . وقد روي ان اكيدر كان منزله اولا بدومة الحيرة هي كانت منازله ، وكان يزورون اخوالهم من كلب وانه لمعهم وقد خرجوا للصيد اذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق الا حيطانها

وهي مبنية بالجندل (نوع من الحجارة) فاعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها (دومة الجندل) تفرقة بينها وبين (دومة الحيرة) وكان اكيدر يتردد بينها وبين دومة الحيرة ، فهذا يزيل الاختلاف» (٤٥) .

ومهما يكن من امر فيبدو لنا بوضوح ان هناك (دومتين) : واحدة قرب عين التمر في العراق وهي (دومة الحيرة) ، والاخرى قرب تبوك وهي (دومة الجندل) ، ولا خلاف في ان كلتيهما قد شيدتا على يد شخص واحد هو اكيدر بن عبدالملك . وينحصر الخلاف فقط في ايتهما شيدت قبل الاخرى .

ومن المهم جدا في هدا الخصوص ان ننقل ما كتبه الرحالة ابراهيم بن عبدالرحمن الخياري المدني المتوفى سنة ١٠٨٣ هجرية (١٦٧٢ م) في رحلته من المدينة المنورة الى الديار التامية فوله :« استمرينا نسير لانألو جهدا ولا نميل عن التوجه قصدا ... ونحن نتراءى فلعة الاخيضر وتتهاوى في السير لذلك المنزل النظر لما ملأ الاسماع من صفاته وشاقنا ما قابلناه من عذب نسماته .... فنزلنا منه منزلا لين الموطأ عذب الهواء ، متسع الجوانب، فاذا ماؤه احلى ماء ذقناه بعد ماء المدينة ورأينا قلعة عالية حصينة مربعة الوضع والاركان عالية البناء كأنها من قصور عبد المدان . مبنية بالحجارة المحكمة الالصاق والبناء الناعمة المس فكانها اعكان حسناء . دخلتها للاحاطة فاذا هي متستملة على اوضاع متعددة في اركانها وغيرها وبها ايوان مرتفع في مقابل بابها به محراب اعده اهل القلعة لصلاتهم وعباداتهم ، وهو متسع الوضع حسنه ، وبالقلعة زادهم وما يحتاجون اليه من قوتهم في عامهم ... ترد عليهم الاعراب بالغنم والسمن والحشيش وما يحتاجون اليه فيدخرونه داخل القلعة وخارجها فان خارجها ابنية كثيرة على صورة الدكاكين ...(٤٦)

ويمضي الخياري المدني في القول انه فيفجر اليوم التالي سار الركب بهم الى ان وصلوا بعد العصر (مغاير شعيب) ، ثم ساروا منها الى ان وصلوا

(تبوك) بعد طلوع شمس اليوم التالـي • فمن الواضـح من السرد ان قلعة الاخيضر هذه لا تبعد الا مسيرة يوم واحد عن (تبوك) • وقد ذكر موزيل في كتابه (شمال الحجاز) بان المنزل القديم المعروف بـ (الاخضـر) الواقـع بين العظم وتبوك لازال يعرف بذلك الاسم(٤٧) •

ان من دراسة ما يخبرنا به الرحالة المدني ويؤكده المستشرق موزيل يجعلنا نرجح ان قلعة الاخيضر الشامية هي في الاصـل قلعة (المارد) في (دومة الجندل) • وما اسمها الا تحريف عن اسم الامير الذي قام بتعمير (دومة الجندل) وهو اكيدر بن عبدالملك • وليس مـن المستبعد ان القلعة التي امضى بها الخياري ليلة وهو في طريقه الى دمشق سنة ١٠٨٠ هجريـة (١٦٦٩ م) قد شيدت على انقاض تلك القلعة التي بناها اكيدر او بالقرب منها فاكتسبت نفس الاسم القديم •

واذا عدنا مرة اخرى الى حصن الاخيضر الواقع قرب عين التمر في الجانب العراقي من بادية السماوة فاننا لنجد من الغريب حقا ان يحمل نفس الاسم الذي كان يعرف به الحصن الذي يقع في الجانب الغربي من بادية السماوة قرب (تبوك) • غير اننا اذا تذكرنا ان شخصا واحدا شيد (دومة الحيرة) قرب عين التمر و (ودومة الجندل) قرب تبوك لربما يمكننا القول من غير جزم بان حصن الاخيضر قرب عين التمر قد شيد على انقاض (دومة الحيرة) التي مصرها الامير العربي اكيـدر بن عبدالملك • ونحن نميل الى التسليم ايضا بان اسم الاخيضر ماهو الاتحريف عن اسم ذلك الامير • غير ان الامر لا يتعدى الاسم فقط وانما البناء قد شيد ايام خلافة ابي جعفر المنصور كما سبق وناقشنا ذلك في هذا البحث • كما انه ليس من المستبعد ان يكون البناء الكبير المتهدم الذي كشـفت عنه التصاوير الجوية قبـالة الاخيضر والذي يقع الى يسار وادي الابيض هو القصر او البناء الذي شيده اكيدر بن عبدالملك عند بزوغ نور الاسلام • غير ان هذا الاقتراح طبعا منوط بالحفائر الاثرية التي قد تجري هناك في المستقبل •

الهوامش ومصادر البحث

١ ـ Bell, G.L., Palace and Mosque at Okhaidir, P. 4.

٢ ـ Creswell, K.A.C, Ashort Account of Early Muslim Architecture, p. 192

٣ ـ سلمان ، عيسى ، وآخرون ، العمارات العربية الاسلامية في العراق ، بغداد ، ١٩٨٢ ٢ / ١٧

٤ ـ نفس المصدر والجزء ، مخطط رقم (١)

٥ ـ الاصبهاني ، حسين بن محمد الراغب ، محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء ، بيروت ، ١٩٦١ ، ٤ / ٥٩٤

٦ ـ التنوخي ، المحسن بن علي ، نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ، بيروت ، ١٩٧١-١٩٧٣ ، ٨ / ٤٩

٧ ـ ان اقدم المحاريب المجوفة التي وصلتنا هو محراب مسجد قصر المنية في فلسطين والذي يرجع الى العصر الاموي .

٨ ـ Creswell, Op. Cit. p. 82. Fig. 16.

٩ ـ يوسف ، شريف ، فن العماره العراقية في مختلف العصور ، بغداد ، ١٩٨٢ ، مخطط رقم ٦٤

١٠ـ مهدي ، علي محمد ، الاخيضر ، بغداد ، ١٩٦٩ ، ص ٤١

١١ـ ماسنيون ، الاخيضر ، في دائرة المعارف الاسلامية ، ١٩٣٣ ، ١ / ٥٣٠

١٢ـ الالوسي ، محمود شكري ، لغة العرب ، ١٩١٢ ج ٢

١٣ـ جواد ، مصطفى ، العمارات الاسلامية العتيقة القائمة في بغداد ، سومر المجلد ٣ ، العدد الاول ١٩٤٧ ، ص ١٨٣

١٤ـ حسن ، زكي محمد ، محاضرات مطبوعة بالرونيو القيت على طلبة قسم الاثار في كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ص ٨٠

١٥ـ العلي ، صالح احمد ، منطقة الكوفة ، سومر ، مجلد٢٠ ، ١٩٦٠ ، ص ٢٤٦

١٦- البلاذري ، فتوح البلدان ، دار النشر للجامعيين ، ١٩٥٧ ، ص ٢٤٨

١٧- الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، طبعة دار المعارف ، ٤٠٧/٥

١٨- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار صادر ، مادة (دومة الجندل)

١٩- البلاذري ، انساب الاشراف ، ٢٩١/٥

٢٠- Bell, op. Cit., P. 18.

٢١- Creswell, op. Cit., P.201

٢٢- الزركلي ، خير الدين ، الاعلام ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٤ ١١٠/٥

٢٣- الطبري ، ٢٥/٨

٢٤- Creswell, Op. Cit., P. 203

٢٥- الطبري ، ٦٣٢/٧

٢٦- الشيخ قادر ، مظفر ، مسكوكات من الاخيضر ، مجلة المسكوكات ، العدد الاول ، ١٩٦٩ ، ص ٢٠

٢٧- Creswell, Op. Cit. P. 91

٢٨- الطبري ، ٦٣٠/٧

٢٩- المصدر السابق ، ٦٣٩/٧

٣٠- المصدر السابق ، ٦٤٠/٧

٣١- المصدر السابق ، ٤٨/٨

٣٢- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة بيروت ، ٦٧/٨

٣٣- المصدر السابق ، ١٦٥/٨

٣٤- ابن الجوزي ، عبدالرحمن ، المنتظم ، طبعة حيدر اباد ، ١٣٥٧ هـ ، ١٧٣/٨ .

٣٥- المصدر السابق ، ١٠٠/٧-١٠١

٣٦- مسكوية ، تجارب الامم ، طبعة مصر ، ١٩١٤ ، ٤١٤/٢

٣٧- ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠١/٧

٣٨- المصدر السابق ، ١٨/٦

٣٩- المصدر السابق ، ١٧/٦

٤٠ـ نجم . علاء الدين احمد ، اضواء جديدة على حصن الاخيضر ، مجلة آفاق عربية ، ٢ / شباط ١٩٨٥ ، ص ١٠٣ .
ابن الاثير ، المصدر السابق ، ٩/٦٢٥ .

٤١ـ الطبري ، ٤/٢٢ ـ ٢٣ .

٤٢ـ البلاذي ، فتوح البلدان ، ص ٢٥١ .

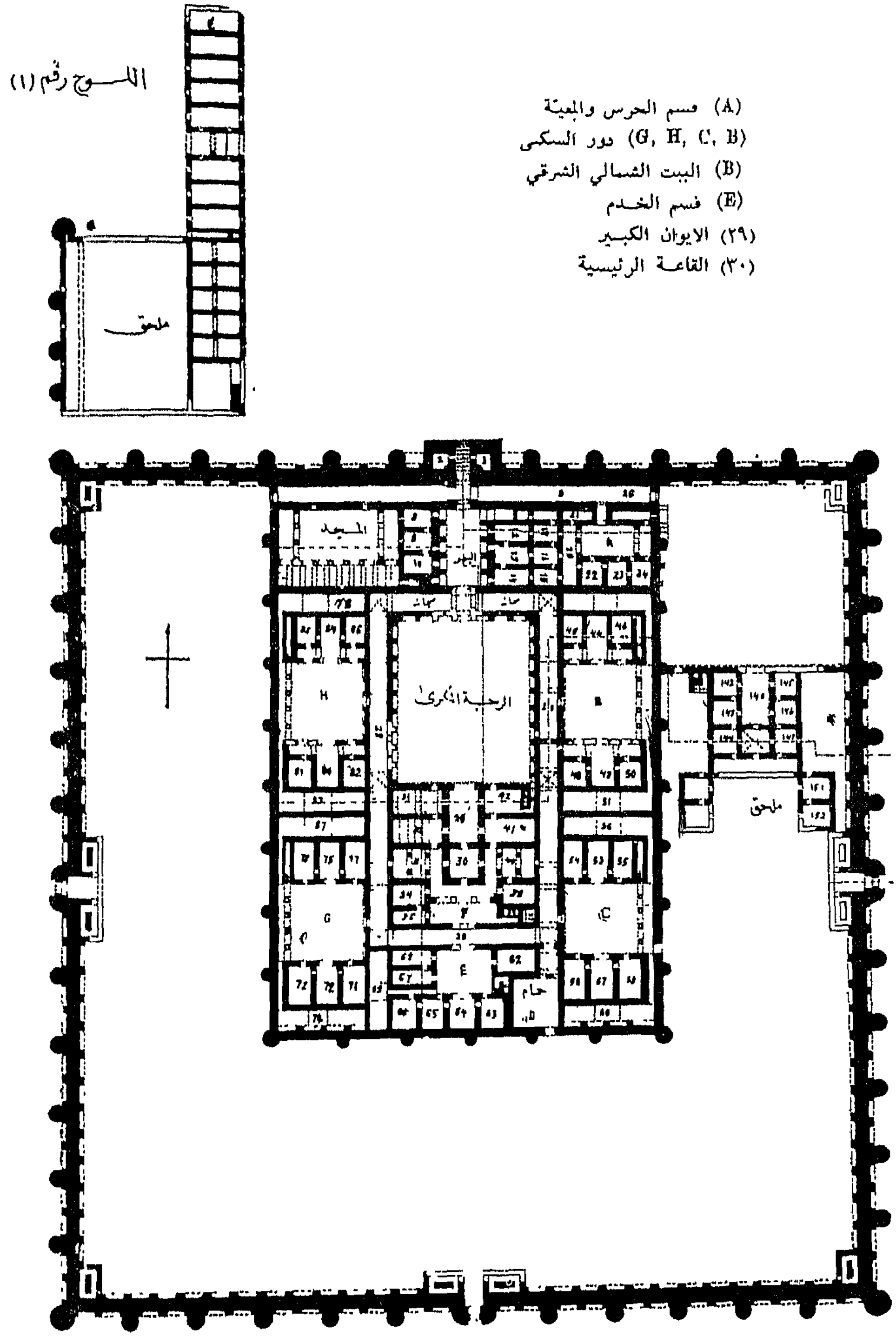
٤٣ـ الطبري ، ٤/٢٣ .

٤٤ـ ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، مادة (دومة الجندل) .

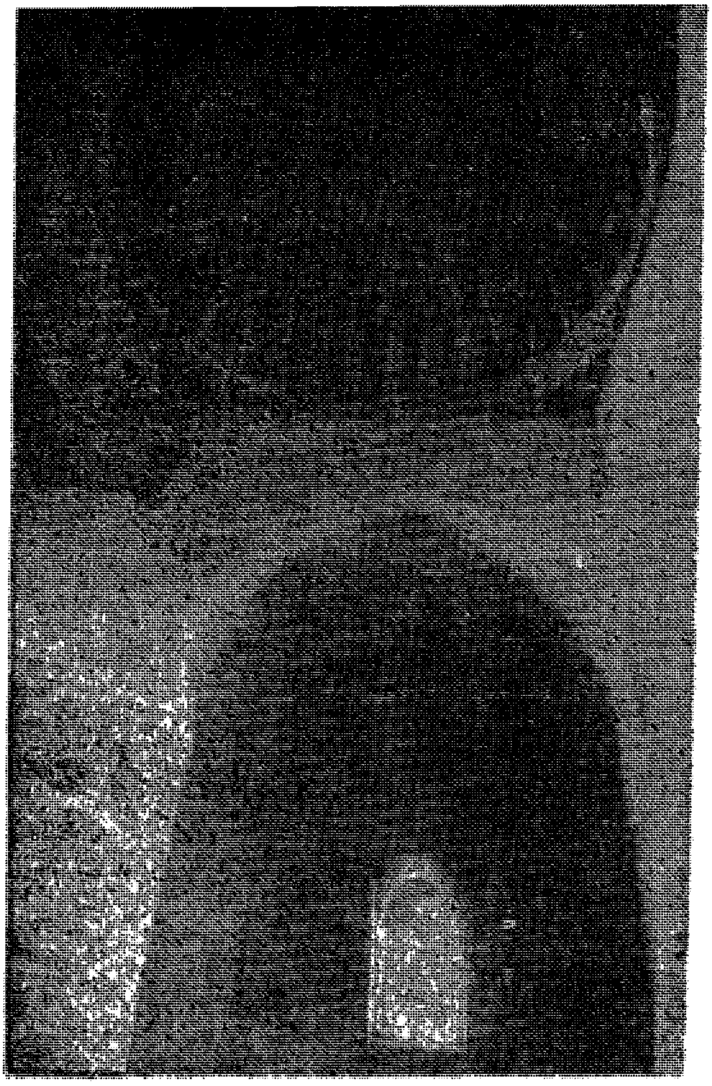
٤٥ـ نفس المصدر والجزء والصفحة .

٤٦ـ الخياري ، المدني ، تحفة الادباء وسلوة الغرباء ، بغداد ، ١٩٦٩ ، ص ١/٥٠ ـ ٥١ .

٤٧ـ موزيل أ شمال الحجاز ، ترجمة عبدالمحسن الحسين ، مصر ، 1952 ، ص ١٥٦ .



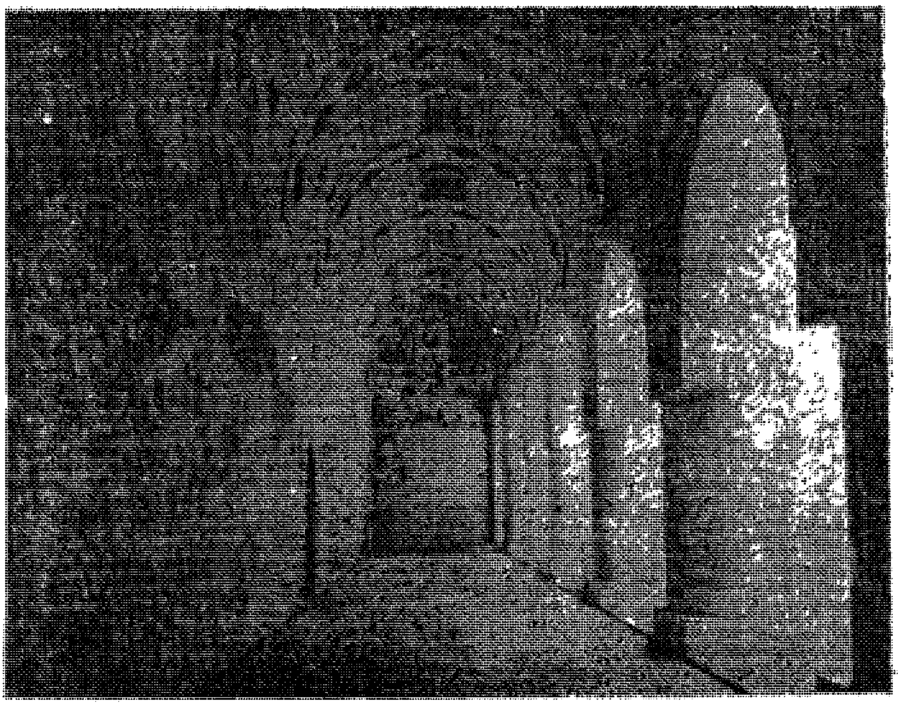
شكل (١) مخطط قصر الاخيضر



شكل (٣) القبة المقناة التي تعلو الشمالي الجزء الوسطي في
الممر الذي يصل السور الخارجـي بالنصر



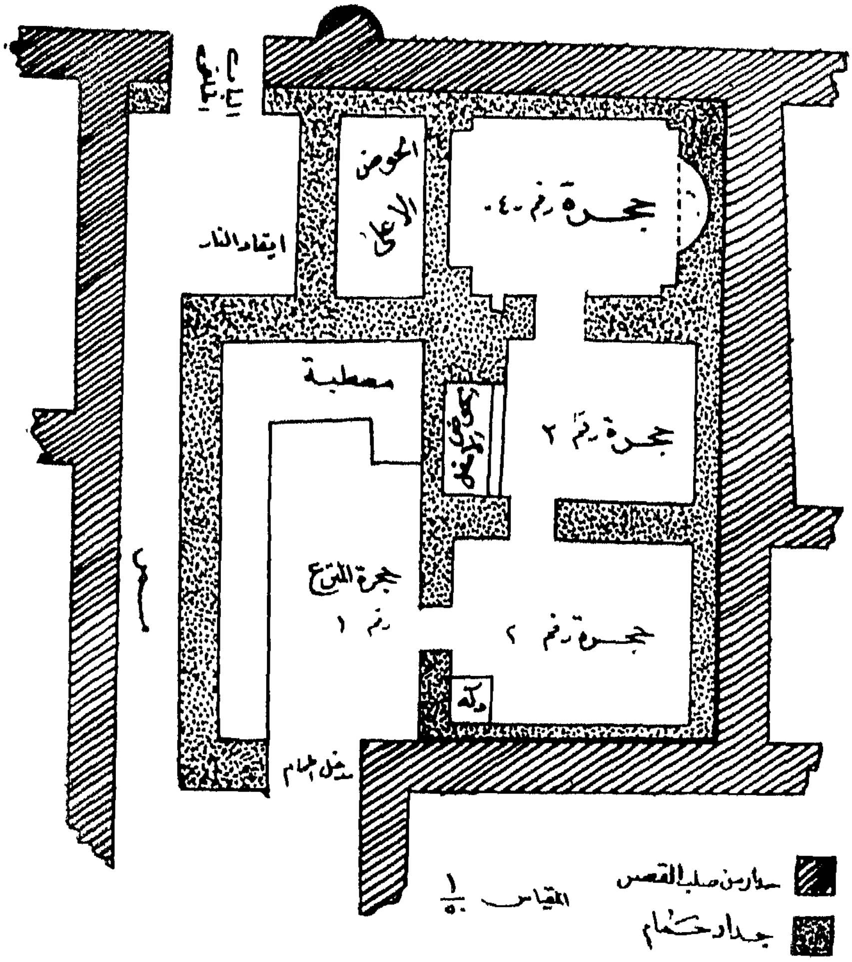
شــكل (٤) دهليز القصر



شــكل (٥) المسجد



شـكل (٦) القسـم الرئيس


الحوض الأعلى
حجرة رقم ٤
ايقاد النار
مصطبة
حجرة رقم ٢
حجرة رقم ٢
دكة
مدخل الحمام
جدار من صلب القصر
جدار حمام
المقياس ١/٥٠

شكل (٧) الحمام



شـكل (٨) البناء الجديد

٣ ـ الحيرة

خالد صالح العسلي
كلية الاداب / جامعة بغداد

تقع الحيرة على بعد ثلاثة اميال عن الكوفة في موضع يقال له النجف ويرويها نهر كافر ، وهو يسمى نهر الحيرة ، في الاطراف الغربية من العراق وهي مفتوحة على جزيرة العرب لذا كانت قبائل العرب تستطيع التوغل فيه دون ان تصادف حاجزا جغرافيا • ولم يكن يعيق تحرك القبائل الا نهر الفرات ، الذي يفصل الصحراء عن المناطق الخصبة في العراق • وقد استوطنت قبائل عربية في غرب الفرات ، واخذت تكون دولة تتمتع باستقلال كبير • ولما كانت الطرق التجارية المارة بين سوريا والعراق عبر وادي الفرات تمر بمنطقتها ، لذا اضطر التدمريون والتجار واصحاب القوافل ان يسترضوا هذه القبائل فيدفعوا لرجالها مبالغ كبيرة لقاء حمايتهم للقوافل • كما ان سكان الحيرة انفسهم استفادوا من التجارة ، وبذلك استفادت من وقوعها في منطقة سهلة منبسطة قريبة من الصحراء •

لقد كان لموقع الحيرة وقربها من الصحراء اثر في مناخهـا ، فهواؤها جاف عذب صحي ، ويجري بالقرب منها نهر الفرات الذي يتفرع في اطرافها الى عدة فروع وتأخذ منه جداول وترع تروي تلك المنطقة ، فتجعلها مـن اخصب مناطق العراق واكثرها انتاجا[١] •

لايعرف بالضبط مؤسس مدينة الحيرة ، فنسب بناؤها الى نبوخذ نصر ولكن اكثر الروايات صحة هي ان التنوخيين هم اول من بنى المدينة •

ان اسم الحيرة فهو عربي مبنى ومعنى ويذكر الهمداني بأنه مشـتق من الحيرة لان تبعا لما اقبل بجيوشه ضل دليله فتحير في هـذا الموضـع ، ويروي ياقوت الحموي ان الحيرة بمعنى الحمي والملجأ او مشتق مـن فعل حار الماء أي تردد لايدري كيف يجري بالنظر الى ركود مياه بحر النجف •

ويذهب يوسف غنيمة ان الكلمة ارامية (حرثا) ومنها اشتق العرب اسم الحيرة ، وعندنا ان الحيرة الارامية والحير العربي من اصل سامي واحد اذ ان المضرب والمعسكر والحمى الفاظ يدل اصلها على معنى واحد[٢] •

الاهمية العسكرية :

شغلت الحيرة مكانة خاصة في التاريخ العربي قبل الاسلام فقد اثبتت هذه الدولة العربية التي كانت تقوم بدور العازل بين الدولتين الكبيرتين اهميتهـا وقوتها • وتصف المصادر المعتمدة ، وكذلك النقوش الكتابية التي تم الكشف عنها منذ امد ليس بالبعيد ، دولة الحيرة بانها دولة قويـة ذات شأن لها مصالحها الخاصة سـواء على الحدود مع بيزنطة بأرض الجزيـرة الفراتية وسـورية او بمناطق الجزيرة العـربية نفسـها كالحجاز « مهـد الاسلام » ، ونجد ، او على طريق التجارة التي تعبر شبه الجزيرة من اقصاها الى ادناها صوب بلاد العرب الجنوبية •

كانت دولة الحيرة على رأسها ملك هو القائد العسكري لهذه القبائل ، قد اكتسبت اهمية كبيرة ذلك ان وجود رأس واحد يتولى القيادة العسكرية من شأنه ان يؤدي الى الكثير من التنسيق ووحدة الكلمة ، ويؤشر في التنظيم وبصورة خاصة التخطيط العسكري والحملات العسكرية ، كان هذا من الميزات التي تمتع بها اللخميون .

كان ملوك الحيرة يفرضون طاعتهم على القبائل اما بمنح امتيازات للرؤساء او بالقوة . وقد استبد الملوك في قوتهم على جيوشهم التي لم تكن مقصورة على قبيلة معينة بالذات لان الحيرة لم تكن فيها قبيلة حاكمة ، بل الحكم من اسرة ، لذلك اعتمد ملوك الحيرة على قبائل عربية او جيوش مرتزقة ، ومن وقت لآخر يستخدمون قوات القبائل المؤيدة لهم ضد اخرى معادية لهم .

ويروى ابو البقاء تفاصيل عن جيوش الحيرة فيقول ان امرىء القيس بن البدء هو الذي قسم الجيش وبقي ذلك الى نهاية حكم الحيرة وهم فيما روي اهل بيته الاقربون اليه فبهذا الاسم كانوا يعرفون اهل بيت الملك والعرش والعرافي وهم الذين كانوا يكونون على المقدمة في الحروب والمغازي وهم عرفاء الجند وزعماؤهم وقوادهم وازمتهم(٣) .

ويتكون جيش دولة الحيرة من :

«الصنائع : وهم قوم من شذاذ الاحياء وخلفائهم كانوا يصيبون الدماء ويجنون الجنايات على قومهم فيخلعونهم ، فيلجأون الى الحيرة فيصطنعهم الملك ويجيرهم ويأمنون عنده ويشهدون معه حروبه ومغازيه »(٤) .

ويروي ابو البقاء رواية اخرى ان الصنائع ايضا كانوا من بكر بن وائل(٥) ومن لخم ومن عبدالقيس وتيم اللات بني ثعلبة بن عكابة .

ويرجح ابو البقاء الرواية الاولى ويرى روشستين بأن الصنائع فيما يظهر انها حاشية الملك وهذا يتفق مع شرح النقائض • فيروي احمد ابن عبيد « صنائع قوم يصطنعهم الملك فيلتزمون خدمته » وفي روايه اخرى « صنائع الملك يعني انصار الملك الذين يغزون معه يستعين بهم » ويمكن القول بان الصنائع كانوا من الخلعاء يستميلهم ملك الحيرة ويجعلهم في حمايته ، فيكونون حلفاءه ويشاركون معه حروبه(٦) •

٢ ـ الوضائع : يذكر ابو البقاء بانها ـ فرقة اجنبية استخدمها الى ملوك الحيرة لتعزيز مركزهم ، وعددهم الفا فارس وهذه القوة في الحقيقة وضعت لتقوية ملوك الحيرة وبها يستطيعون تعزيز سلطاتهم على سكان الحيرة والقبائل البدوية • ويرى روشتين ان الوضائع ان تدل على جيش معين ويقترح بأن الوضائع ربما تشير الى جيوش الحامية وبصورة خاصة حاميات الحدود ومن المحتمل كما يقول روشتين ان الدوسر والشهباء هما جيوش حاميات الحيرة •

اما احمد بن عبيد فيقول : « الوضائع يضع الملك على كل قوم مائة او اكثر او اقل على قدر قلتهم وكثرتهم يغزون معه اذا اراد الغزو » وهو يعطي تعريفا آخر للوضائع « والوضائع سائر اهل المملكة وجماعتهم ممن لا يعرف » •

وقد استند بيفان على هذا التعريف فقال في قاموسه « ان الوضائع جند يجمعهم الملك اللخمي » « ووصفهم ابن الاثير على انهم شبه المشايخ » •

وبهذا فأن الوضائع تطلق على الجند المرتزقة وعلى الجند العرب الذين يجمعهم الملك اللخمي وهم من اشراف القبائل « شبه المشايخ » .

٣ ـ وكانت في الجيش الحيري قوة خاصة تجند من لخم تدعى الجمرات او الجبار . وقد ذكر ان ارش بن ايراش بن جزيلة[٧] كانوا عماد هذه الفرقة . وفي رواية اخرى ان هذه الفرقة كانت تجند من لخم ومن قبائل اخرى ذكر منها بنو سلسلة من غفار وبنو معاوية من كلب وجماعة من بني سلمة بن ثعل من طيء[٨] .

٤ ـ اما الرهائن : وهم « غلمان كان الملك بالحيرة يأخذهم رهائن من احياء العرب على الطاعة ، وعلى ان لا يفسدوا . ولا يغيروا على بلاده وعلى ما كان يجري بينه وبينهم من صلح او ميثاق على امر من الامور ، فيكونون عنده ويصبحون في سراياه ومغازيه ..

وقيل ان عدد الرهائن كانت ربما بلغت مائة غلام ، وكانت نوبتهم ستة اشهر ثم يرهن غيرهم ، وينصرف الذين قضوا نوبتهم الى اهلهم »[٩] .

٥ ـ وكانت في الحيرة ثلاث فرق هي الدوسر (او دوسرة) ، وكانت تجمع فرسانهم وشجعانهم وذوي النجدة المنتخبين منهم[١٠] . وقد ظلت الى عهد ابي قابوس حيث كانت تعتبر اخشن الكتائب واشدها بطشا ، وكانت تجمع من مختلف القبائل وخاصة من قبيلة بكر .

٦ ـ اما الشهباء : وهي التي كان يكون فيها اهل بيت الملك ، وسميت بذلك لانهم كانوا يسمون الاشاهب لجمالهم وصباحتهم ، وقيل بل هي كتيبة اجنبية الذين كانوا يسمون الوضائع ، سميت بذلك لبياض الوانها[١١]. وكانت هذه الكتيبة في زمن ابي قابوس مكونة من اخوته وبني عمه واتباعهم واعوانهم[١٢] .

٧ ـ اما الملحاء : فقد سميت بهذا بسبب لون دروعهـا و « لكثرة لبوس الحديد فيها والاملح ما اشبه لونه لون الرماد من بياض يشوبه سـواد او سواد يشوبه بياض »[١٣] .

ويشكل هذا الجيش المكون من اهل الحيرة قوة يعتمد عليها ملـوك الحيرة . وهم جندهم الذين بهم امتناعهم وعزتهم . وكان هذا الجيش يحارب حفظا لبيضتهم واهلهم ومنازلهم وحماية لانفسهم واموالهم ولا يمكن خذلانهم ولا التخلف عنهم .

وعندما يقوم الملك الحيري مع جيوشه بحملة عسكرية كان اهل الحيرة يخشون من غزو الاعراب لهم ، فكانوا يبقون في حصونهم حتى يعود الملك مع جيوشه . ويعقد الملك في بعض الاحيان اتفاقيات مع القبائل المجـاورة وخاصة بكر بن وائل على ان لا يقوموا بغزو الحيرة عند غيابه .

حاز عرب الحـيرة تفوقا في القتال وخاصة على تخوم الروم ولذلك قال بروكوبس ان المنذر بن ماء السماء قد « اذل الروم » خلال خمسـين سنة وبرهن على قوة دولة الحيرة والقدرات التي كانت تحت تصرفه . فالعرب هم الذين وضعوا خطة الهجوم عبر الفراتية على انطاكية وهي خطة تم تنفيذها بنجاح (٥٣١م) وكذلك امن العرب تحركات القوات الساسانية كما ان الفضل في انتصار الفرس في واقعة قلينبقة يعود الى الهجوم الناجح الذي قام بـه عرب الحيرة على الجناح الجنوبي لجيش الروم .

وامتاز عرب الحيرة بصورة خاصة باستكمالهم لنوع السلاح الذي استعملوه فقد بلغ عرب الحيرة شأنا بعيدا في صناعة السيوف وتطويعها مما اكسبها مرونة خاصة وحدة ، كذلك تجدر الاشارة الى اهمية الدروع اي حلق الزرد التي تحمي المقاتل من وقع السلاح . وبهذا اصبح للكمي امكانيات

كبيرة في القتال بنجاح من فوق صهوة جواده وهو محتم بدرعه الحديدي . وكان فرسانهم مسلحين بالسلاح الخفيف في محاربتهم الروم كما كانت لديهم الخيالة المدرعة .

وكان السلاح العربي ميزاته ولعله فاق بكثير اسلحة الفرس ، ولا يخلو من مغزى في هذا الصدد ما نسب الى بهرام جور من مهارة استعمال القوس والرمي والنشاب ، واذا ما اخذنا في الاعتبار انه أمضى سني شبابه الاولى بالحيرة فلعل التحسينات التي ادخلها بهرام جور قد ارتبطت بفن استعمال القوس الذي تمرس باستعماله اثناء اقامته بين عرب الحيرة .

اما الاسلحة التي استعملها عرب الحيرة فمن الممكن التعرف عليها من اشعارهم . ففي معلقة عمرو بن كلثوم يصف فرسان العرب مدججين بالسيوف والرماح وعلى رؤوسهم الخوذات ودروعهم تلمع في وهج الشمس . كذلك يرد ذكر الدروع في معلقة الحارث بن حلزة . اما الرماح فكانت تعمل من القنا الذي يحدد ويسن رأسه فيصبح فتاكا . اما الدروع فيقصد بها حلق الحديد الذي يلبس كالقميص والذي كان الفارس يربطه بحزام حول جسمه . على انه لا ينبغي ان يفهم من هذا ان فرسان العرب كانوا يرتدون لباسا من الحديد (اسوة بفرسان اوربا في العصور الوسطى) ذلك ان الحصان العربي الخفيف وان كان بمقدوره حمل الفارس المسلح جيدا الا انه كان فوق طاقته حمل لباس الحديد الذي يغطي الفرس بالمثل .

وليس هناك ثمة شك في ان الحاجة واضحة الى صنع الاسلحة وتحضيرها في اعداد كبيرة . وقد عرف العرب صناعة الاسلحة الخاصة بهم ، وانها فاقت من حيث الكيف ما عرفه الفرس والروم. وكان النعمان اللخمي عندما مات اربعمائة او ثمانمائة درع كانت للنعمان . ولابد من الافتراض بان هذا الطلب كانت له صلة بالجودة التي اتصفت بها تلك الدروع .

السكان :

تذكر المصادر العربية انه كانت في الحيرة قبائل عربية منها مذحج وحمير، وطيء ، وكلب ، وتميم . ومع ان بعض هذه القبائل سكنت الحيرة قديما ، الا ان بعضها استوطنت الحيرة بعد التحرير الاسلامي او ازدادوا فيها بعد تحرير العراق وذكر النسابون من القبائل التي استوطنت الحيرة بنو عوف بن ابي سلمى وبنو عمار بن عبد المسبح بن قيس بن حرملة اصحاب قصر العدسيين وهما من كلب وجفنة وهم بطن من بني عوف بن عمرة بن ربعية بن حارثة الخزاعيين وبنو مازن بن تيمالله بن جعال وبنو سنيد ومرة اولاد زيد بن سعد بن عدي بن تمر ويقال لهم بنو مطر ، ومنهم بقيلة صاحب قصر بني بقيلة ، وبنو هند من بني زيدالله بن عمرو بن مازن ، وهم من الازد ، وبنو الساطع وهم عدي بن عمرة بن كنانة ، وبنو عدي بني اراش بن حرملة بن لخم ، وبنو سمينة الطائيين ، وبنو المحلق بن بكر بن وائل ، وسلسلة من بني ملك بن هريمة الجعفي ، وبنو عبدالخيار ، وبنو مالك من اياد ، ومن اسماء القبائل الكثيرة المذكورة اعلاه نجد ان سكان الحيرة اغلبهم من الاعراب نتيجة سكناهم في منطقة واحدة ، فقد قسم المؤرخون سكان الحيرة الى ثلاثة اقسام وهم :

عرب الضاحية : وهم من القبائل العربية التي استقرت في الحيرة او اطرافها وكانت تسكن اما بيوت الشعر والخيام وتمتهن الرعي ، او تستقر وتبني البيوت ويطلق عليهم النسابون تنوخ ، انها مجموعة قبائل تجمعت وتنوخت وكونت وحدة وعلى مر الايام ظن النسابون انها قبيلة تربط افرادها رابطة الدم . ومن المحتمل ان يكونوا من مختلف القبائل المجاورة كطيء وتميم واسد وافراد من القبائل الاخرى .

اما العباد : وهم معظم اهل الحيرة وجلهم واشرافهم ، واهل البيوتات والعز منهم ، وهم اصحاب الحيرة يقال لهم الحيرة الاولى ، ومن كان بها من غيرهم فانما كان ضميمة اليهم واسمهم هذا غالب على اسم من سواهم من اهل الحيرة من اصحاب الاسماء المذكورة وغيرها ، فاهل الحيرة باسرهم يعرفون بالعباد ، غلب هذا الاسم عليهم حتى صار كالنسب لهم واقتنعوا به عن الانتساب الى عشائرهم ، وعرفت به اعقابهم من بعدهم في الاسلام .

واختلف في معنى هذا الاسم وسببه ، فقيل انما سموا به لانهم كانوا اهل الوضاحة من النصارى الذين للغتهم فضل على غيرهم من السريان ، كفضل لغة العربي البادي على لغة من يسكن المدن ، وبهم كن يقتدي من سواهم من اهل نحلتهم ، وقيل بل سموا بذلك لان شعارهم كان نحن عباد الله وانشد لبعضهم :

نحن العباد وربنا الرحمن ولهد علينا الطوع والاذعان

وقيل بل نسبوا ذلك الى ان لهم وليس هذا الوجه بشيء لانهم من قبائل شتى من عدنان وقحطان .

وقيل بل كانوا يعبدون صنما لهم يقال له سبد فقيل لهم عباد سبد ولزمهم هذا الاسم .

وقيل انهم انما سموا بهذا الاسم لانهم اول من سكن الحيرة مع عمرو بن عدي واختطوا بها المنازل وبنوا بها الجدر ، .. فسموا بذلك العباد ، وصارت لهم ، وكل من جاء من بعدهم ، فانه انما لجأ اليهم .

وقد ذكر الطبري هذا الوجه(١٤) ، ويقويه ايضا انه روي ان عمرو بن امريء القيس لما ملك ، ادخل في العباد اهل بيوتات من ربيعة واياد لم يكونوا منهم من قبل وهذا مما يدل على ان اسمهم العباد انما وقع على من كان بالحيرة اولا(١٥) .

اما الاحلاف : وهم قوم لحقوا بالعباد بعد نزولهم الحيرة فحالفوهم وانضموا اليهم ودخلوا معهم في امرهم ، وهم من احياء كثيرة تسمى منهم بنو لحيان من بني الحارث بن كعب ، وقوم من غسان وبنو مرينا وهم من اشرافهم ، ونسبهم من جعفى منهم عدي بن اوس بن مرينا الذي كان عدي بن زيد العبادي عند النعمان الاصغر حتى قتله ، ومنهم قوم من عبدالقيس بن افصى ، ومن الاوس بن عمرو بن عامر وبنو حية من طي ، وهم رهط اياس بن قبيصة الذي استعمله كسرى بالحيرة بعد النعمان الاصغر ، ومن حنيفة بن لخم ، ومن نمير بن عامر ، واهل بيت من اسيد بن خزيمة ، ويقال لهم بنو شجرة وقيل انه دخل فيهم قوم من بني قريش من ولد عبدالله الاعرج بن عبدشمس بن عبدمناف ، يقال لهم بنو العميني ، وقريش تنكر ذلك ويقولون ان عبدالله الاعرج لم يعقب .

وقيل ان اسم الاحلاف بالحيرة كان يجمع قوما من اربعة عشر حيا ثم جعل اهل الحيرة كلهم ثلاث كتائب تجمع هذه الاسماء كلها ، وسمى كل كتيبة اسما لم تزل تعرف به الى اخر ملوك الحيرة[١٦] .

والراجح انه في اواخر ايام المناذرة كان اهم الاحلاف قبيلة تغلب التي هاجرت بعد حرب البسوس ايام عمرو بن هند واستقرت على ضفاف الفرات شمال الحيرة ، وكذلك بكر وخاصة بني وشيبان[١٦أ] .

وصف ابو البقاء العلاقات بين حكام الحيرة واصدقائهم شيوخ القبائل بقوله « كان لهم عمال على اطراف البلاد من العراق الى البحرين حكم كل واحد منهم من بازائه من الاعراب من حمايته مثل هذا الحكم ، والحقيقة ان الاعراب لم يخضعوا لسيطرة ملوك الحيرة بل خضعت فقط القبائل والبطون التي كانت تسكن المناطق التي تحت سيطرة حكام الحيرة ، ودفعت الاتاوة لانها سكنت اراضيهم وكانت القبائل في الواقع تخاف ان تندحر امام قوتهم العسكرية ، وعندما ترحل القبائل وتترك اراضيهم وتصبح بعيدة عن

وهو بظهر الحيرة ويرجع بناؤه الى عهد المناذرة • وقد اكثر العرب من ذكر الخورنق في نظم اشعارهم ومضرب امثالهم ولم يتصدوا لوصفه وصفا مسهبا(٢٠) • ومما كان يزيد من بهاء هذا القصر موقعه الطبيعي الفتان ، فكان يشرف على النجف وما يليه من البساتين والنخيل والجنان والانهار وكان البحر تجاهه وفيه الملاحون والغواصون والحوت وخلفه البر فيه الضب ويقابل الفرات فيدور عليه على عاقول كالخندق • وقد بقي القصر عامرا بعد حروب التحرير العربية وتخطيط الكوفة زمنا ، وان كل من ولاة الكوفة احدث فيه شيئا من الابنية ومنهم الضحاك بن قيس • وقد سكنه العباسيون واصبح في القرن الرابع عشر للميلاد خرابا • ولا يعرف اليوم موقعه •

اما قصر السدير فكان في وسط البرية التي بين الحيرة وبين الشام أي انه في الشمال الغربي من الحيرة •

ويأتي اسم السدير غالبا مقرونا بالخورنق في قصائد الشعراء وروايات الاخباريين وينسب بناؤه الى النعمان الاعور(٢١) •

كما اشتهر قصر ابي الخصيب بظاهر الكوفة وهو قريب من السدير ثم هناك قصر سندان وقصر العذيب والصنبر وقصر الفرس وقصر بني بقيلة وقصر مقاتل والقصر الاحمر(٢٢) •

وهذا يظهر ان ملوك المناذرة كانوا مولعين ببناء القصور الفخمة والصروح العظيمة وتابعهم ابناء بلادهم في هذا المضمار •

الصناعة :

ذكرنا ان مدينة الحيرة اشتهرت بقصورها وعمارتها ، ويقصدها المترفون والاغنياء ولذا كانت تلبي ما يحتاج اليه المجتمع من الصناعات الزاهرة •

لذلك ارتقت في الحيرة الصناعة رقيا كبيرا فازدهـرت فيها صـناعة الانسجة . فالنساج ينسجون القز والكتان والصوف وهذا عمرو بن كلثوم يذكر النساجين :

اذ لاترجى سليم ان يكون لها
من الخورنق من قين ونساج

وكان القماش احيانا موشى بالقصب او مطرزا بخيوط الذهب . فقد ذكر البكري ان النعمان وركبه عند خروجهم في كل عيد « وعليهم حلل الديباج المذهبة » وكانت الاميرات في بيوت المناذرة يلبسن الدمقس والحرير .

ومن البسة الحيريين الساج والطيلسان واليلمق والشرعبية والسيراء . كما لبس الملوك التيجان في رؤوسهم . ولبس الحيريون العمائم .

ومن البستهم « اثواب الرضا » وهي جباب اطواقها الذهب في قضب الزمرد .

وقد اشتهر الثوب الحاري كل الشهرة حتى شبهوا ابنيتهم به ، والحاري ايضا انماط تعمل بالحيرة يزين بها الرجال .

وكان الحدادون يصنعون لوازم العمارة من الحديد كالباب الحديدي التي كان موضوعا على دير الاسكون ، ويصنعون شكات السلاح والسيوف الحارية الشهيرة والسهام ونصال الرماح وغيرها مما كان يتخذ اسلحة لكتائب الجيش والجيش الحيري معروف بقوته وهكذا اشتهرت صناعة الاسلحة واكتسبت السيوف الحيرية سمعة بين العرب .

ولان الصياغة ازدهرت لتموين بلاط المناذرة بحاجاته من الحلي والزينة والادوات وكذلك لتموين الناس بما يحتاجونه .

وهكذا نرى الصاغة يصوغون الذهب والفضة ويرصعونها بالجواهر وقد وصف البكري موكب النعمان بقوله « كان النعمان يركب في كل عيد

سيطرة حكام الحيرة ، يمتنعون عن الخضوع لهم • ويؤكد ابو البقاء بان طاعة القبائل لم تكن اكثر من الكف عن غزو السواد وحدود المقاطعات •

ويمكن تقسيم القبائل حسب تصنيف ابي البقاء الى ثلاث مجموعات واما حد عزهم من العرب الذين كانوا في تقدير رعاياهم لهم اسم الملوك عليهم فقد ذكر كونهم معهم على طبقات ثلاث : اللقاح : الذين كانوا يغزونهم • واهل الهدنة الذين كانوا يعاهدونهم ويواثقونهم وهذه مماثلتهم من اهل هاتين المنزلتين للملوك وهم واياهم على سواء •

واما الطبقة الثالثة فهم الذين كانوا يدينون لهم فكانوا في اكثر زمانهم ايضا يصانعون اهل هذه المنزلة استملاقا لهم وتقويا بهم على من سواهم حتى ان الملك كان يكون معهم كالمولى عليه • وكان اقرب العرب منهم دارا ربيعة وتميم » • ويوضح ابو البقاء معنى اللقاح بذكر ابيات لعمرو بن حوط الرياحي ، وقول ابو زمعة الاسود بن المطلب بن اسد عندما عارض تنويج عثمان بن الحويرث كملك على مكة من قبل حاكم البيزنطيين(١٧) • وكان اسد ابن خزيمة وغطفان لقاح ، فكانوا مستقلين في علاقتهم مع ملوك الحيرة وتضم المجموعة الثانية سليم وهوازن • « وكانت سليم وهوازن تواثقهم ولا تدين لهم ، ويأخذون لهم التجائر فيبيعون لهم بعكاظ وغيرها فيصيبون معهم الارباح وربما اتى الملك منهم الرجل والنفر فيشهدون معهم مغازيهم ويصيبون معهم من الغنائم وينصرفون ، ولم تكن لطائم الملوك وتجارتهم تدخل نجد فما وراءها الا بخفر من القبائل »(١٨) •

البنـــــاء :

بلغ فن الريازة مـــن الاتقان في الحيرة فبيوتها كانت مخططة تخطيطا رفها ومتناسبة الاجزاء بنسب دقيقة • والطراز البنائي الحـيري مشـــهور عند العرب ، فيذكر المسعودي : « احدث المتوكل في ايامــه بناء لم يكـــن الناس يعرفـــونه وهـــو المعـــروف بالحـــيري ذو الكمـــين والاروقـــة •

وذلك ان بعض سماره حدثه في بعض الليالي ان بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصر احدث بنيانا في دار قراره، وهي الحيرة على صورة الحرب وهيئتها للهجه بها وميله نحوها لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر احواله ، فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر ، والكمان ، ميمنة وميسرة ، ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب اليه من خواصه، وفي اليمين منهما خزانة الكسوة ، وفي الشمال ما احتيج اليه من الشراب ، والرواق قد عم فضاؤه الصدر والكمين والابواب الثلاثة على الرواق ، فسمي هذا البنيان الى هذا الوقت بالحيري والكمين (ذي الكمين) اضافة الى الحيرة واتبع الناس المتوكل في ذلك ائتماما بفعله واشتهر الى هذه الغاية[١٩] » •

وقد استعمل الحيريون في ابنيتهم اللبن والاجر والمرمر والجص والقرمد، كما تفننوا بنقش بيوتهم وزخرفتها بالرسوم وبطلاء سقوفها بالفسافس والذهب • وقد عثر على عدد من الزخارف في اطلال المدينة ، ووجد معظم الغرف بنا بزخارف من جص ، نات ومشيع وطرز نقشه ثقيل • كما اثبتت التنقيبات في احدى الدور بانها مصبوغة اصباغا لطيفة كل اللطافة وبهيئة رسم صليب محاط بدائرة يتكرر مرارا • كما ان الرسوم كانت تمثل الزهور والفواكه والبقول •

وفي الحيرة عدة اديرة اشهرها دير هند الصغرى ودير هند الكبرى ودير اللج الذي بناه النعمان ابو قابوس • ومن اديرة الحيرة دير ابن مزعوق وهذا الدير في وسطها ، وهو دير كثير الرهبان حسن العمارة • وكان احد المتنزهات المقصودة والاماكن الموصوفة • وبالقرب من هذا الدير دير الحريق ودير علقمة، ودير السوا ودير عبدة ودير حنة ودير ابن براق •

كما اشتهرت الحيرة بكثرة قصورها التي يرد ذكرها في اخبار حروب التحرير في العراق فمنها قصر العدسيين والقصر الابيض وقصر بني مازن وقصر الطين ، والزوراء • ومن القصور التي اشتهرت في الادب العربي قصر الخورنق

ومعه اهل بيته .. عليهم حلل الديباج المذهبة ، رؤوسهم اكاليل الذهب وفي اوساطهم الزنانير المفضضة بالجواهر وبين ايديهم اعلام فوقها صلبان ، فاذا قضوا صلواتهم انصرفوا الى مستشرق في النجف » .

وكانت انية الذهب والفضة كثيرة في قصور المناذرة واشار النابغة الى انه كان يأكل فيها وهي من عطايا النعمان وابيه وجده .

ومن انيتهم الديسق وهو خوان من فضة وما يشبه ذلك .

وكان النصارى يلبسون اطفالهم وصبيانهم اطواق الذهب وكان لاهل الحيرة اليد الطولى في النجارة والتنجيد ، النجارة لبناء العمارات والقصور والبيع والديارات والتنجيد للفراش ، فقد اشتهرت رقمها ، وكان يتخذ بها من الفراش اشياء ظريفة .

وكانوا يصنعون اواني الفخار ويطلون بعضها طلاء ذا الوان زاهية .

واشتهرت الحيرة بصنع الخمور ولاسيما خمور العباديين النصارى وكثرت المرويات التاريخية والاشعار فيها فقصد حاناتها قبل الاسلام وفي الاسلام طبقات كثيرة من الناس وتغنى الشعراء بذكرها وتلذذوا بنشوتها وكان الملوك المناذرة انفسهم يعقدون مجالس الشرب مع ندمائهم ويقدمون الخمر لضيوفهم(٢٣) .

الدين :

عبد سكان الحيرة الاصنام . وجاء عن جذيمة الابرش انه تكهن وكان له صنمان يدعيان الضيزنين . وقد ظل هذان الصنمان حتى ايام المنذر بن ماء السماء (ت ٥٥٤) حيث نقلهما واقامهما على باب الحيرة ، ينحني لهما الداخلون الى المدينة .كماكانوا يحلفون بسبد وهو صنم كان في الحيرة ولا يعرفه

تفاصيل عن هذه الالهة او طريقة عبادتها ، وبجانب هذا فقد كانوا يعبدون العزى ، كما قدم المنذر نفسه احد ابناء الحارث الغساني ضحية للعزى .

ان اهم الديانات التي انتشرت في الحيرة هي النصرانية ولا يعرف مدى انتشار النصرانية بينهم ، ولكن الراجح ان الحيرة كان عليها اسقف سنة ٤١٠ م وان ملكها حمى النصرانية سنة ٤٢٠ م الا انه لا يعني ان ملكها قد تنصر ، ونرى ايضا ان النساطرة واليعاقبة اشتهر جدالهم في اوائل القرن السادس للميلاد وتنافسوا في الرئاسة ففاز النساطرة .

وكان هند الكبرى ام عمرو بن هند كانت على النصرانية فبثت مبادىء النصرانية وبنت ديرا سمي بدير هند .

التعليم :

لقد ذكر مدارس الحيرة في كتاب العفة ، وقد درس فيها ايليا الحيري مؤسس ديرمار ايليا بالموصل وغيره . كما كان زيد بن عدي قد تعلم الكتابة العربية في الحيرة ، وكان زيد هذا اول من كتب في ديوان كسرى .

وكان اولاد الحيرة يتعلمون الكتابة والقراءة في مدارسهم وكانت بعض المدارس في الكنائس فعندما جاء خالد بن الوليد الى ، عين التمر وجد في بيعة قرية من قراها اسمها النقيرة صبيانا يتعلمون الكتابة وقد ذهب العرب الى ابعد حد من هذا اذ قالوا ان اول من كتب منهم بالعربية حرب بن امية بن عبد شمس

معلم من اهل الحيرة . ونعلم اهل الحيرة من اهل الانبار • ويذكر ابن سعد ان في عهد عمر بن الخطاب (رض) كان جفينة النصراني من اهل الحيرة يعلم الكتاب في المدينة وذلك بعد ان أمر عمر بخروج النصارى من جزيرة العرب •

وكان كثير من الحيريين يتعلسون اكثر من لغة واحدة فكانوا يتقنون العربيه لانها لغتهم وكانوا يتعلسون الارامية ، وهي لغة بيعتهم وصلواتهم •

وللحيره منزله تاريخيه في آداب اللغة العربية سواء كان بالشعراء الذين انجبتهم . او بالسعراء الذين قصدوا ملوكها المناذرة للمدح والتقريظ ووصف البلاد بالحوادث او الوقائع التي نست في ارضها وقبائلها ، فالهمت الشعراء مواضع للمعلقات والمجمهرات والقصائد •

وفي اللغه العربية عشرات من الامثال السائرة على الالسنة نشأت في الحيرة نفسها كما كان للتعليم الديني اهمية في معرفة الفلسفة ومباحثها التي تعرض الخالق وطبيعته وصفاته وطرق المعرفة لذلك آخذوا يتداولون الابحاث الفلسفيه ويدرسونها وترجموا الكتب اليونانية التي كانت قد عالجت هذه المواضيع والواقع انهم درسوا وترجموا كثيرا من الكتب الفلسفية والادبية الى اللغه السريانية التي كانت شائعة عندهم ولما بدأ العرب بحركة الترجمه الى العربية في العصر العباسي الاول قام اهل الحيرة بالدور الاول فيها فنقلوا مئات الكتب ، حتى ان حنين بن اسحق وحده نسبت اليه ترجمه اكثر من مائة كتاب الى العربية ولم يكن عملهم مقصورا على الترجمه فحسب بل وعلى الشرح والتأليف والدرس سواء في الفلسفة او الطب او العلوم الاخرى . وهكذا كان لهذه المدينة الاثر الاول في نقل تراث الفكر الفكر اليوناني الى العرب او في ترويض اللغة العربية وجعلها اداة ممتازة للتعبير عن الفلسفة والعلوم(٢٤) •

الهوامـــش :

١ ـ انظر الدراسة القيمة للدكتور صالح احمد العلي « منطقة الحيرة » مجلة كلية الاداب العدد الخامس (١٩٦٢) ص ١٧ـ٤٤ .

٢ ـ غنيمه : يوسف رزق الله « الحيرة المدينة والمملكة العربية » . بغـــداد . ١٩٣٦ ، ص ١١ .

٣ ـ الارداف وهم عرفاء الجند وزعماؤهم وقوادهم وازمتهـــم « ابو البقاء هبة الله على كتاب المناقب المزيرية من اخبار الملوك الاسدية » .
تحقيق صالح موسى درامكه ، الاردن ، ١٩٨٤ ص ١٠٥ .

٤ ـ ابو البقاء ص ١٠٦ .

٥ ـ يقول المبرد : ان اكثرهم من بكر بن وائل . الكامل ج ٢ ص ٨٣ .

٦ ـ كسر : الحيرة : ملاحظات في علاقاتها ترجمة خالد العسلي ، مجلة بـــين النهرين العدد السابع (١٩٧٤) ص ٢٣١ ـ ٢٦٦ .

٧ ـ ابن حزم : جمهرة انساب العـــرب ، تحقيق عبدالســـلام محمد هارون (القاهرة ، ١٩٦٢) ص ٣٦٩ .

٨ ـ ابن دريد : الاشتقاق . ط ٢ تحقيق عبدالسلام محمد هارون (بيروت ، ١٩٧٩) ص ٣٨٦ .

٩ ـ ابو البقاء ص ١٠٧ .

١٠ـ ابو البقاء ص ١١٠ .

١١ـ ابو البقاء ص ١١٠ .

١٢ـ العلي صالح احمد .. محاضرات في تاريخ العرب . ط ٤ ، بغداد ، ١٩٦٧ ص ٧٦ .

١٣ـ ابو البقاء ص ١١٠ .

١٤ـ انظر الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٤٣ (طبعت ابو الفضل) .

١٥ـ ابو البقاء ص ١٠٩ .

١٦ـ ابو البقاء ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

١٦أـ العلي محاضرات ص ٧٤ .

١٧ـ مصعب الزبيري : نسب قريش ، ص ٢١٠ « ان قريشا لقاح لاتملك ولا تملك .

١٨ـ كستر ٢٤٧ .

١٩ـ المسعودي : مروج الذهب ص ٣١ (القاهرة ، ١٩٥٨) ج ٤ ص ٨٧ .

٢٠ـ غنيمه : الحيرة ص ٢٠ ـ ٢٧ .

٢١ـ العلي : صالح احمد « منطقة الحيرة » ص ١٧ ـ ٤٤ .

٢٢ـ ينظر وصف هذه القصور : غنيمة : الحيرة ص ٢٠ ـ ٢٧ .

٢٣ـ غنيمة : الحيرة ص ٩٠ .

٢٤ـ العلي : محاضرات ص ٨٠ .

المحتــوى